

الدكتور فيليب يحيى

تاريخ سوريا
ولبنان وفلسطين

الأول - الثاني

ترجمة
الدكتور كمال السجاني

الطبعة الأولى
الدكتور فيليب يحيى

دار الكتب العلمية بيروت



فَاتِحُ سِنُونِيَّتِنَا
وَلِبْنَانِ وَفَلَسْطِينِ

ناتج سوريّا ولبنان وفلسطين

تأليف
الدكتور فيليب حيتي

الجزء الأول

ترجمة
الدكتور جورج حداد
عبد الكريم رافيق

أشرف على الطباعة وتصميمه
الدكتور جبرائيل جبور

دار الثقافة - بيروت



This is an authorized translation of
HISTORY OF SYRIA

BY

PHILIP K. HITTI

By permission of the author. Copyright in all countries
which are signatories to the Berne Convention

Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المساهمون في اخراج هذا الكتاب

المؤلف: الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شمالان (لبنان) سنة ١٨٨٦، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت، فنال شهادة بكلوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨. ثم سافر الى اميركة والتحق بجامعة كولومبية ونال الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وأدائها سنة ١٩١٥. وعين بعد تخرجه استاذاً فيها.

وعندما انتهت الحرب العظمى عاد الى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية، وعين استاذاً لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦. ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ العرب اولاً، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها. وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤، حين احيل على التقاعد. ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد. وهو الآن عضو في مجلس امناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس.

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب (المطول) وهو مترجم الى العربية ومثله تاريخ العرب الموجز، وتاريخ لبنان (المطول) وتاريخ لبنان (الموجز) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين، وتاريخ الشرق الادنى.

المترجمان: الدكتور جورج حداد

درس في جامعة بيروت الاميركية وجامعة باريس والمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو وشغل منصب رئيس قسم التاريخ في الجامعة السورية وهو الآن استاذ تاريخ في جامعة كاليفورنيا له عدة مؤلفات بالعربية والانجليزية عن تاريخ الحضارة في بلاد الشرق الادنى.

عبد الكريم رافق

تخرج من قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة السورية بدرجة ليسانس وكان معيداً في ذلك القسم يوم ساهم في ترجمة هذا الجزء سنة ١٩٥٨.

المراجع الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت سابقاً وهو الآن استاذ فخري. له عدة مؤلفات في الادب العربي منها عمر ابن ابي ربيعة (في ٣ اجزاء) عصره، وحياته، وجه وشعره، وابن عبد ربه وعقده. وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب للمؤلف وترجمتها.

مقدمة الطبعة الاولى

ان تاريخ سورية بمفهومها الجغرافي هو من وجهة معينة تاريخ العالم المتمدن بصورة مصغرة. وهو عبارة عن مقطع بياني لتاريخ مهد حضارتنا ولجانب هام من تراثنا الروحي والفكري. واذا ما اراد الانسان ان ينصف هذا التاريخ ويعطيه ما يستحق من اهتمام فان عليه بالاضافة الى امتلاك ناحية اللغات السامية القديمة ومعرفة المدونات العربية في العصور الوسطى ان يكون مطلعاً على المراجع اليونانية الرومانية وملماً بحقول الدراسات التركية والفارسية — وذلك عدا عن معرفة اللغات الاوربية الغربية الحديثة والمواد التاريخية التي كتبت بها.

ولا يدعي المؤلف ادراك هذه الامور كلها. فقد اقتصرت دراساته على ميدان الساميات وانحصرت ابحاثه ضمن نطاق الميدان العربي والاسلامي. غير انه تأثر بما رآه من وجود عدد كبير من الكتب والابحاث عن بعض مناطق سورية او عن فترات معينة من تاريخها الطويل المتنوع دون ان يكون هنالك كتاب واحد يعطي صورة شاملة متزنة لحياة البلاد كلها كوحدة منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر ولذلك وجد ما يشجعه على القيام بهذه المحاولة. ويجب ان نذكر ان فينيقي لبنان وعبرانيي فلسطين وعرب دمشق الذين كانوا جميعهم مواضيع ابحاث تاريخية عميقة نسبياً لا يمكن فهمهم تماماً ما لم يعالجوا كاجزاء متكاملة من شعب سورية الكبرى وما لم يعرض تاريخهم كأساس مشترك لحضارة الشرق الادنى المعاصر.

ولقد كانت هذه المهمة بعيدة عن السهولة. وكان من مشاكلها الرئيسية المحافظة في هذا التاريخ المتشعب على ذلك الخيط الذهبي الذي يراد به ربط الحوادث الهامة وذلك في حياة بلاد كانت عادة مرتبطة بدول اخرى او تابعة لها. وقد كان محاولة تمحيص المعلومات المتيسرة واستخدام عناصرها الاساسية وتفسير اتصالاتها وجمع كل ذلك في قصة متسلسلة يستفيد منها الطالب والانسان المثقف كان لهذه الامور كلها نواحيها الصعبة. فاذا كانت النتيجة التي لا تدعي صفة الابتكار ولا تطمح الى ان تكون ذات صفة نهائية تكفي لسد حاجتنا اليوم الى كتاب مبسط وموطأ وصحيح يروي تاريخ شعب سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ويمكن استخدامه كأساس عام لفهم المشاكل المعقدة الكثيرة التي تحيط

بالقوميات الناشئة في تلك المناطق — فان جهودنا عند ذلك لم تذهب عبثاً. وقد قام المؤلف برحلتين كبيرتين في صيف ١٩٤٦ و ١٩٤٧ الى سورية وما يجاورها فجدّد عهده بالمواقع القديمة والمشاهد التاريخية وحصل على اطلاق مباشر على الآراء والاتجاهات الحديثة. واذا كان حقاً ما قيل ان الحاضر لا يمكن فهمه الا بعد دراسة الماضي فان من الصواب ايضاً ان الماضي لا يمكن فهمه فهماً تاماً بدون التعرف الكافي على الحاضر.

وقد قرأ بعين النقد جماعة من الاخصائيين في مختلف المواضيع والعصور فصول مخطوط هذا الكتاب التي عرضت عليهم وابدوا ملاحظاتهم القيمة. فالى جميع هؤلاء العلماء في هذه البلاد وخارجها ارفع آيات شكري. واذا كانت هنالك من أخطاء او نواح يبدو فيها شيء من التقصير فان المسؤولية انما تقع عليّ وحدي. واتقدم كذلك بالشكر الى طلابي الكثيرين الذين قرأوا المخطوط بكامله وافادوني بملاحظاتهم. وقد وضع معظم خرائط الكتاب الدكتور بايلي وايندر كما ان مؤسسة رزق حداد في نيويورك ساهمت بكرم في اعداد المخطوط للطبع ووضع الفهارس. آذار ١٩٥٠

فيليب حتي

مقدمة الطبعة الثانية

لم يكن تاريخ المنطقة التي تشملها مادة هذا الكتاب في اي عصر مضى موضع دراسة عميقة وابحاث واسعة — مع كل ما يرافق هذا التاريخ من نواح أثرية وانثروبولوجية ودينية وأدبية واقتصادية وسياسية — كما كان في السنوات القليلة الماضية. ولقد كان من نتائج دخول سورية والشرق الادنى بكامله الذي تشكل قسماً منه في ميدان السياسة العالمية ان توجهت الانظار اليها. واهتم جيل جديد من العلماء المحليين الذين اتموا دراستهم في الغرب وكذلك جماعة من طلاب العلم والاساتذة الاميركيين والاوربيين بدراسة تاريخها.

وقد استخدم المؤلف في تنقيح هذه الطبعة الثانية ما توصل اليه من نتائج هذه الابحاث الجديدة. ومن الطبيعي انه اخذ بعين الاعتبار ايضاً نقد المراجعين وملاحظات الزملاء والطلاب والمراسلين في كل انحاء العالم. وفضلاً عن ذلك فانه قام في السنوات الست الاخيرة بعدد من الزيارات الى هذه المنطقة ليجدد اطلاعه على المواقع والمشاهد القديمة وليتعرف الى مواقع جديدة. وفي هذه الاثناء كان يكتب مجلداً يرافق هذا الكتاب وموضوعه «لبنان في التاريخ» حيث اتبعت له فرصة ضبط عدد كبير من الحقائق والمراجع.

وكانت النتيجة انه لا تكاد تخلو صفحة من الطبعة الاولى من تغيير او تصحيح او اكثر. وقد عدلت التواريخ القديمة وخاصة ارقام تواريخ مصر وسومر وبلاد بابل وفقاً لما سيمر بالتاريخ الموجز. واستبدلت الطبوعات القديمة للكتب التي استخدمت كمراجع في الهوامش بطبعات جديدة. واضيفت الى الخرائط اسماء الاماكن التي ادخلت في المتن كما اضيفت بعض الاسماء الى الفهارس. وصححت الاخطاء المطبعية التي امكن العثور عليها غير انه ليس ما يضمن ظهور اخطاء اخرى من هذا القبيل.

واننا نتوجه بشكرنا الى الكثيرين، الذين ساهموا في تنقيح هذه الطبعة، كما اننا نتوجه اليهم بشكر القراء الذين تعود عليهم هذه التنقيحات بالفائدة.

آذار ١٩٥٧

فليب حتي

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد حاولت في هذه الطبعة الجديدة الاحاطة بما استجد في تاريخ البلاد السورية واصلاح ما ورد من الابخطاء العلمية والمطبعية في الطبعة السابقة وتوحيد تهجئة الالفاظ التي وردت اسما للاعلام والمدن والبلدان في متن الكتاب وحواشيه وفي الخرائط والفهرس. كذلك اعدت النظر في الرسوم فاستعويض عن بعضها بما هو اكثر وضوحاً وقد ساهم معي في هذا العمل تلميذي سابقاً وزميلي الدكتور جبرائيل جبور واشرف على طبع الكتاب كما اشرف على طبع غيره من كتيبي المترجمة فله مني خالص الثناء والشكر

فيليب حتي

الفرس

القسم الاول

عصر ما قبل التاريخ

الصفحة

٣	• • • • •	مكانة سورية في التاريخ	الفصل الاول
٧	• • • • •	المقدمات الحضارية: الادوات الحجرية	الفصل الثاني
		اتم البقايا: الادوات الحجرية - اقدم الهياكل العظمية البشرية - الدور الاخير لعصر الحجري القديم - النار: الفحم - اللثة - العصر الحجري الوسيط - الحضارة النطوفية - تدجين الحيوانات - الزراعة - حياة الاستقرار - الحياة العقلية - الفن - حضارة العصر الحجري الحديث - الحزف.	
٢٤	• • • • •	الادوات المعدنية	الفصل الثالث
		العصر النحاسي الحجري - الحضارة الفسولية - الزراعة المتقدمة على الري - التركيب المرقى - التطور الفني.	
٣١	• • • • •	مسرح الحوادث	الفصل الرابع
		الهل الساحلي - السلسلة الغربية - لبنان - موطن اللاجئين - الجليل - الكهوف - حوض الصدع والرحول - البقاع - الزلازل والبراكين - السلسلة الشرقية: لبنان الشرقي - حوران - بادية الشام.	
٤٨	• • • • •	البيئة الطبيعية	الفصل الخامس
		الاقليم - التآكل - الحياة النباتية - شجر الزيتون - الارز - الحياة الحيوانية - الحصان - الابل.	

القسم الثاني

الأزمنة السامية القديمة

الصفحة

- ٦١ الفصل السادس قدوم الساميين
اسم سورية والسوريين - العوامل التاريخية الفعالة - الطريق
الوطني العظيم - النزاع بين البدو والحضر - من م الساميون ؟ -
شبه جزيرة العرب مهد الساميين .
- ٧٠ الفصل السابع الاموريون : اول شعب سامي رئيسي في سورية
دخول الاموريين - محفوظات ماري - المر السوري - تحول
مركز الاموريين الى الجنوب - التفاق الدولي - الاموريون في
فلسطين - الديانة الامورية .
- ٨٥ الفصل الثامن الكنعانيون : ثاني شعب سامي رئيسي في سورية
كنعان - ممالك المدن - المدن الواقعة على جزر - اتحاد المدن
- الاقتصاد : الزراعة - الصناعة - صناعة المعادن - العاج -
الزجاج - صناعة الاقشة - الارجوان .
- ١٠٤ الفصل التاسع النشاط البحري والتوسع الاستعماري
الطرق البحرية - الملاحة - الدوران بحراً حول افريقيا -
المستعمرات - في اسبانيا - في اليونان - قرطاجة .
- ١١٧ الفصل العاشر الآداب والديانة وسائر مظاهر الحياة
الابجدية - الكتابات الاثرية الفينيقية - اوغوليت - ديانة الحصب
- الالهة - الهياكل - الاصنام - « الاماكن المرتفعة » -
عادات الفن .

- ١٣٦ . . . العلاقات الدولية مع مصر وغربي آسيا . . . الفصل الحادي عشر
- الملكة القديمة - الملكة المتوسطة - قصة سنوحي -
سورية في الامبراطورية المصرية - معركة مجدو - قادش
- نهارين - المخطاط السيادة المصرية - التأثير السوري في
مصر - العلاقات مع بلاد الرافدين : سومر - بابل -
اشور - السيادة الكلدانية - التأثير الحضاري -
المكسوس - المكسوس في مصر - اقرس - الحوريون -
مملكة ميتاني - اللغة الحورية - بقايا الحوريين - الحثيون
- الملكة الحثية القديمة - الملكة الحثية الحديثة -
معاهدة مع مصر - صلة الحثيين بفلسطين - نظام الدولة
الحثية - اللغة الحثية - الديانة - من م الحاييرو ؟
- ١٧٤ . . . الأراميون : الشعب السامي الثالث الرئيسي . . . الفصل الثاني عشر
- بده ظهورهم في بلاد الرافدين - انتشارهم في شمالي سورية
- الدول الآرامية في ما بين النهرين - آرام دمشق -
معركة قرقر - حزائيل - التجار الآراميون - اللغة
الآرامية - الكتابات الاثرية - الحضارة المادية - حدد
الزاعد - اثار غاتس .
- ١٩٠ الشعب العبراني . . . الفصل الثالث عشر
- اصل العبرانيين - الدور القبلي - الخروج من مصر -
السكن في فلسطين - القضاة - الفلسطينيين - منهم
الحسن - الحديد .
- ٢٠٢ المملكة العبرانية . . . الفصل الرابع عشر
- الملكة المتحدة - داود - سليمان في كل مجده - انقسام
المملكة - مملكة اسرائيل - نهاية اسرائيل - السامريون
- مملكة يهوذا - حزقيا - اصلاحات يوشيا - ايام يهوذا
الاخيرة - سقوط اورشليم .
- ٢٢١ مظاهر الحضارة العبرانية . . . الفصل الخامس عشر
- الطقوس المستمارة - الفن - الشؤون المنزلية - النعود
- الملون الدينيون - الانبياء - عاموس الموحد الاول

الصفحة

— اشعيا وقديسة الله — ارميا والمهد الجديد — أنبياء
آخرون وفضلهم .

٢٣٨ الفصل السادس عشر سورية تحت الحكم الفارسي : بين الفترة السامية
والفترة الهندية الاوربية

سيادة الدولة البابلية الحديثة — سقوط الدولة البابلية الحديثة
— دولة عالية جديدة : الفرس — تنظيم الامبراطورية —
اعادة اليهود من السبي — الفرس في فينيقية — طرابلس
العاصمة الفييقية — صيدا تتحول الى رماد — مظاهر الحضارة .

القسم الثالث

العصر اليوناني الروماني

٢٥٣ الامسكندر وخلفاؤه السلوقيون . الفصل السابع عشر

معركة ايسوس — مقاومة صور — اخضاع مصر — المعركة
الحاسمة قرب ارييلا — امتزاج الشرق والغرب — تجزؤ
الامبراطورية — سلوقس مؤسس الدولة السورية — الثورة
المكائية — جمهورية يهودية — آخر انتفاضات المملكة
السلوقية — الرومان يضمون سورية .

٢٧٥ العصر الهلنستي الفصل الثامن عشر

المدن اليونانية — المدن القديمة تصبح مدناً هلنستية — تفاوت
انتشار الهلينية — بقاء الآرامية — النشاط الادبي —
يوسيدونيوس المؤرخ — الشعراء السوريون اليونان —
مليتر .

٢٨٨ النظم السلوقية الفصل التاسع عشر

المكئية — البلاط — الجيش — الفية لاجل الحرب —
الامطول — ادارة المقاطعات — المدن — الضرائب .

- الفصل العشرون** التجارة والصناعة ٢٩٧
- السياسة السلوقية - الهند - دورا اورويس (الصالحة)
- جرما (المقبر) - التجارة مع القرب - مستعمرات
فينيقية جديدة - المنتجات الزراعية - الصناعة -
التعد - مظاهر الترف - السكان .
- الفصل الحادي والعشرون** سورية كولاية رومانية: فترة ما قبل الامبراطورية
٢٠٨ نواب القنصل - في ايلم هيودس الملك - الهلينية
الرومانية .
- الفصل الثاني والعشرون** اوائل الامبراطورية الرومانية ٣١٥
- حكومة الولايات - الحكومة المحلية - فضل الرومان
- سورية في ذروتها - قوة الانتاج الاقتصادي -
الزراعة - البستنة - الصناعة - التجارة .
- الفصل الثالث والعشرون** حياة المدينة والريف ٣٣١
- القرى - الاغنياء - الاحوال الاجتماعية - انطاكية
ودفنة - لاوديسة وأقامية - حمص - دمشق - بيروت
- هليوبولس - سورية الجنوبية .
- الفصل الرابع والعشرون** النشاط الفكري ٣٥٢
- التاريخ - الجغرافيا - البلاغ - الفلسفة - مدرسة
الحقوق في بيروت - بايينان - اوليان .
- الفصل الخامس والعشرون** ظهور المسيحية ٣٦٣
- تقلم المسيحية - الاضطهاد - ديانا الاسرار -
مراكز المسيحية في سورية - آباء الكنيسة .
- الفصل السادس والعشرون** التأثير السوري والتأثير الروماني ٣٧٣
- التأثير الروماني عن طريق الرعوية - التأثير الروماني
عن طريق الخنمة العسكرية - المقاومة اليهودية -
تدمير تيطس لاورشليم - السلاة السورية في رومة

الصفحة

اله الشمس السوري يمد في رومة - فيليب المرني -
التوسع الاقتصادي .

٣٨٦ الفصل السابع والعشرون سورية في العهد البيزنطي

الامبراطورية الرومانية في عهدا الاخير - القسطنطينية
المسحة الجديدة - المسيحية الديانة الجديدة - التقسيمات
الادارية - التجارة - الصناعات المهاجرون - الادب
والتعلم - ليبانيوس - أميانس مرسلينوس - يوحنا
فم الذهب - يوسيبوس - غزة - بيروت كمرکز
علمي - حياة الطلاب .

٤٠٣ الفصل الثامن والعشرون المظاهر الدينية في العهد البيزنطي

الرهنة - المباني الكنسية - الفن المسيحي - احياء
الآرامية - ادب - الانشقاقات الدينية - ابولينارس -
الكنيسة النسطورية - الكنيسة يعقوبية - الخطر
الفارسي .

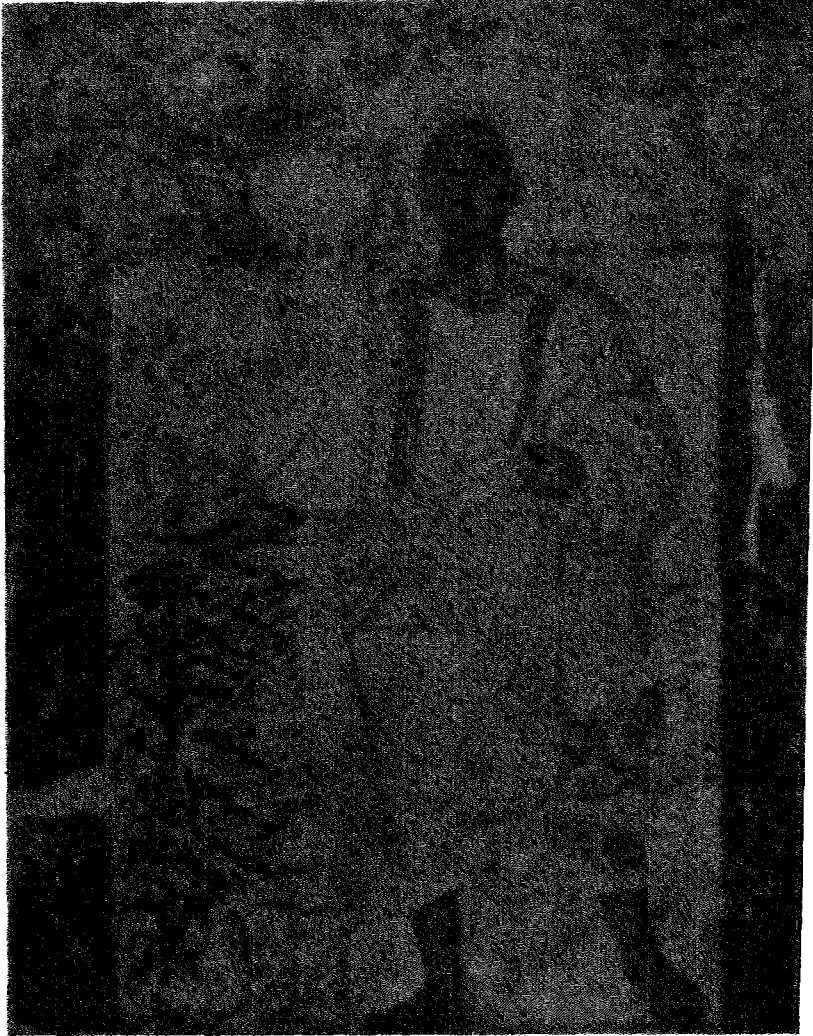
٤١٦ الفصل التاسع والعشرون الدول السورية العربية قبل الاسلام

١ . الانباط - من حياة الرعي الى الحياة الزراعية -
من الزراعة الى الحياة التجارية - الملكية النبطية -
المملكة في ذروتها - الملوك الاخيريون - العلاقات
التجارية والصناعية - المظاهر الحضارية - الديانة -
الفن والبناء - ٢ . التدمريون - تدمر - مركز
للتجارة عبر الصحراء - تدمر كتابعة لرومة - اسرة
اذينة - زنوبيا - تدمر في ايامها الاخيرة - البقايا
الاثرية - القفة - لومجينوس - الآلهة التدمرية -
٣ . الفساسنة - الحارث بن جبلة - المنذر - الفوضى
ابنة بلاط الفساسنة .

فهرس الخرائط

الصفحة

٨	سورية — المواقع الاثرية.....
٣٤	سورية — خارطة طوبوغرافية.....
٣٧	خارطة جيولوجية لسورية وسيناء.....
٦٨	سورية — انتشار الساميين والطرق الرئيسية
٧٨	سورية — في حقبة تل العمارنة.....
٨٦	كتعان قبل إسرائيل.....
١٠٩	التوسع الفينيقي.....
١٥٢	الولايات الأشورية في سورية.....
١٧٨	سورية كبلاد آرامية.....
١٩٩	فلسطين في أيام القضاة.....
٢١٠	فلسطين في عهد الملوك.....
٢٤١	الامبراطورية الفارسية في ذروتها.....
٢٦١	الامبراطورية السلوقية — القسم الشرقي.....
٢٦٣	الامبراطورية السلوقية — القسم الغربي.....
٣٢١	الامبراطورية الرومانية في عهود الاستعمار.....
٣٣٨	سورية كولاية رومانية.....
٣٩٠	سورية البيزنطية.....



موسى والعليقة المحترقة

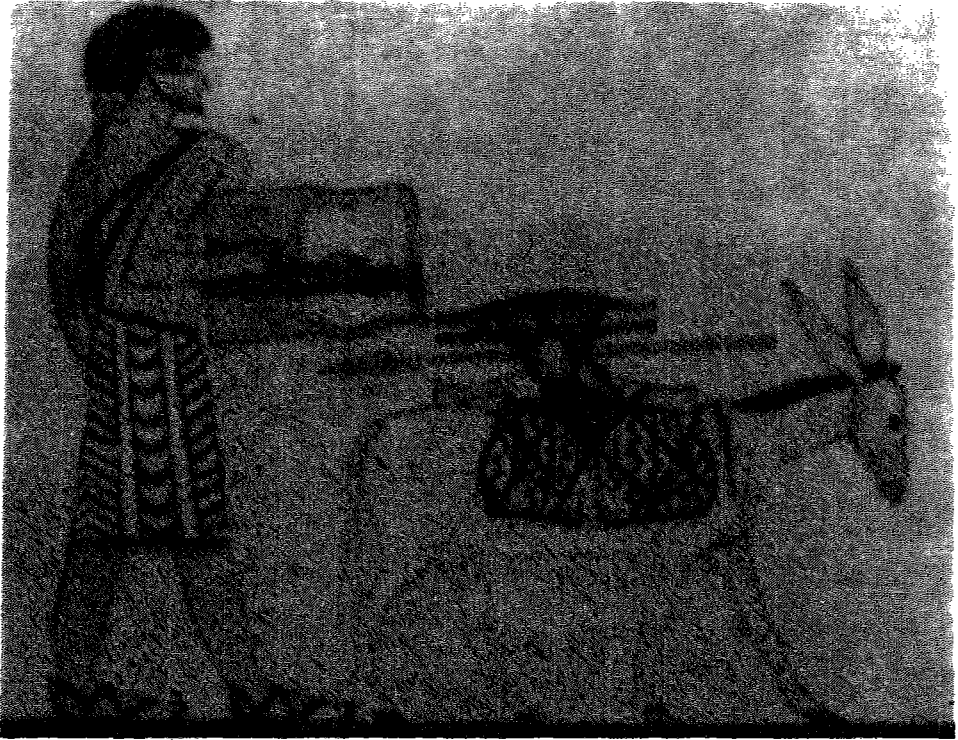
صورة جدارية في الكنيس الذي وجد في دورا اوروبس (الصالحية)
ان في هذا الكنيس الذي يرجع عهده الى القرن الثالث اذ تم نموذج للفن التوراتي
اليهودي والصور الجدارية التي وجدت فيه هي اليوم في المتحف الوطني بدمشق



فريق من النساء الساميات



أبشه شيخ الامورين



سامتي مع حماره

القسم الأول
عصر ما قبل التاريخ

الفصل الأول

مكانة سورية في التاريخ

تحتل سورية مكانة فريدة في تاريخ العالم . وقد كان فضلها على رقي البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية اجل شأنًا من فضل اي بلد آخر خصوصاً وانها كانت تشمل فلسطين ولبنان ضمن حدودها القديمة . وربما كانت سورية اكبر بلد صغير على الخريطة ، فهي صغيرة جداً في حجمها ولكنها عالمية في تأثيرها .

وسورية باعتبارها مهد اليهودية ومكان مولد المسيحية قد اعطت العالم المتمدن ديارتين توحيديتين وكانت لها صلة وثيقة بظهور الديانة التوحيدية الثالثة ونشوتها ونعني الديانة الاسلامية . فانظار المسيحيين والمسلمين واليهود حينما وجدوا تتجه الى احدى البقاع المقدسة في سورية ليستوحوا منها كما ان اقدامهم تسوقهم اليها ليهدوا بهديها . وعلى ذلك فان اي انسان غربي متمدن يمكن ان يدعي الانتساب الى بلدين : بلده وسورية .

وتتصل الرسالة الاخلاقية التي حملتها سورية الجنوبية اتصالاً وثيقاً بفضل سورية الديني . فقد كان شعبها اول من نشر المبدأ القائل بان الانسان خلق على صورة الله وان كل انسان هو اخ لكل انسان آخر تحت ابوة الله وبذلك وضع اساس الحياة الديمقراطية . كذلك كان الشعب السوري اول من أصر على تفوق القيم الروحية واعتقد بالفوز النهائي لقوى العدالة وبذلك اصبح المعلم الاخلاقي للبشرية .

والسوريون القدماء لم يتحفوا العالم بابدع الافكار وارفعها فحسب وانما اوجدوا وسيلة للتعبير عن هذه الافكار بتلك العلامات البسيطة المظهر ذات المفعول السحري التي تسمى الابجدية والتي بواسطتها دونت اعظم الآداب العالمية وحفظت . وليس من اختراع يعادل باهميته اختراع الابجدية التي انشأها اللبنانيون الاقدمون ونشروها . فاليونان في الغرب انما نقلوا حروفهم عن الفينيقيين او الكنعانيين كما كانوا يسمون انفسهم ، ثم اعطوها الى الرومان وبالتالي الى شعوب اوربا الحديثة ،

كما ان الآراميين في الشرق استعاروا حروفهم من المصدر نفسه ونقلوها الى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا . ولو ان هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم اية خدمة اخرى لكان ذلك كافياً بان يتميزوا كاعظم المحسنين للبشرية .

غير ان فضل السوريين لم يقف عند ذلك . فقد ازدحمت في ارضهم الضيقة احداث تاريخية وثقافية تتصف بزهوها وفعاليتها اكثر مما ازدحمت به اي ارض اخرى بنفس المساحة ، وكان من شأن هذه الاحداث ان جعلت تاريخ سورية وفلسطين تاريخ معظم العالم المتمدن بصورة مصغرة . ففي الفترتين الهلنستية والرومانية تحف ابناء هذه البلاد العالم الكلاسيكي بجماعة من ابرز مفكريه ومعلميه ومؤرخيه . وكان بعض مؤسسي الفلسفة الرواقية والافلاطونية الحليئة من السوريين . وازدهرت في بيروت مدرسة من اعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض اساتذتها في مجموعة قوانين بوسطيان التي اعتبرت بحق اعظم ما قدمته العبقريّة الرومانية للاجيال .

وبعد انتشار الاسلام بمدة وجيزة أصبحت العاصمة السورية دمشق قاعدة الامبراطورية الاموية الشهيرة التي توسع خلفاؤها بفتوحاتهم الى اسبانيا وفرنسا من جهة والهند وحدود الصين من جهة اخرى فكانت امبراطوريتهم اعظم من الامبراطورية الرومانية في ذروتها . وكانت كلمة الخليفة المقيم في دمشق هي القانون في طول هذا الملك الواسع وعرضه . ودخل العالم العربي في عهد الخلافة العباسية في بغداد فترة نشاط فكري من جملة مظاهره حركة الترجمة من اليونانية، ويكاد لا يوجد في التاريخ مثيل لهذا النشاط . وكانت الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني حينذاك اعظم تراث تركه العالم الكلاسيكي للعصور الوسطى . وقد كان السوريون المسيحيون ابرز من ساهم في عملية نقل العلوم والفلسفة اليونانية هذه، وكانت لغتهم السريانية جسراً انتقلت بواسطته العلوم اليونانية الى اللغة العربية .

وفي العصور الوسطى كانت سورية مسرحاً لحادث من ابلغ الحوادث التي عرفها تاريخ الاحتكاك بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . فقد تدفقت من فرنسا وانكلترا واطاليا والمانيا حشود من الصليبيين نحو سهل سورية الساحلي ومرتفعات فلسطين تريد الحصول على المسيح الميت الذي لم يكن في قلوب الباحثين عنه حقيقة حية . وهكذا بدأت حركة كانت نتائجها بعيدة الاثر في اوروبا وآسيا .

غير ان الحروب الصليبية لم تكن حادث في التاريخ العسكري الطويل المتنوع لهذه البلاد التي كانت، بسبب موقعها على ابواب آسيا وعلى مفترق طرق العالم، ساحة حرب دولية في زمن الحرب وطريقاً تجارية في زمن السلم. واي ارض غير ارض سورية يمكنها الادعاء بانها شاهدت مثل هذه المجموعة من المحاربين والفاتحين العالمين مبتدئة بتحوتس ونبوخذنصر والاسكندر ويوليوس قيصر ومستمرة بعد ذلك بمخالدين الوليد وصلاح الدين وبيبرس حتى نابوليون؟

وقد قام شعب هذه البلاد في السنوات الاخيرة بعد احتجاج دام بضعة قرون في ظل المماليك والاتراك برودون الشرق العربي بقيادته الفكرية. وكان السوريون وبصورة اخص اللبنانيون اول من اسس الاتصالات الحيوية في القرن الماضي مع الغرب عن طريق التعليم والهجرة والسياحة وبذلك كانوا الواسطة التي بها تسربت التأثيرات الاوربية والاميركية الى الشرق الادنى. وجالياتهم الحديثة المنتشرة في القاهرة وباريس ونيويورك وسان باولو وسدني هي آثار ناطقة بنشاطهم ومغامراتهم.

واهمية سورية التاريخية لا تأتي من فضلها المبتكر على النواحي الرفيعة من حياة الانسان فحسب وانما هي نتيجة موقعها الاستراتيجي بين القارات القديمة الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا وقيامها كجسر لنقل التأثيرات الثقافية من مراكز الحضارة المجاورة لها ولنقل البضائع التجارية ايضاً. وهذا الدور الذي لعبته تشرحه لنا اعمال الفينيقيين الذين كانوا اول التجار الدوليين. وبسبب موقع سورية في قلب الشرق الادنى، الذي يقع هو ايضاً في وسط العالم القديم، فانها اصبحت في عصر بعيد جداً ناقلة الحضارات في العصور القديمة. فقد امتد الى طرفها الواحد وادي النهرين والى طرفها الآخر وادي النهر الواحد. وليس من منطقة في العالم يمكنها ان تنافس في قدمها ونشاطها واستمرارها هذه المناطق الثلاث. فقد بزغ فيها فجر التاريخ المتواصل، وفيها يمكن ان نشاهد الى حد ما الشعوب نفسها خلال خمسين او ستين قرناً من التاريخ غير المنقطع. وقد كانت حضارة هذه المنطقة قائمة منذ الالف الرابع ق. م. ونحن نعلم اليوم ان حضارة اوربا الاولى لم تكن لمدة طويلة سوى انعكاس ضئيل لحضارة بلاد شرقي البحر المتوسط. ويبدو أن بعض

(١) انظر الفصل الاول من كتاب : V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East* (London, 1952), pp. 1-2.

العناصر الأساسية في حضارة الصين القديمة قد أتت من الطرف الشرقي للهلال الحصبب كما أخذ يتضح لنا .

وقد أظهرت الأبحاث الأثرية في السنوات الحديثة أن سورية كانت حتى في عصور ما قبل التاريخ تحتل مكانة رفيعة لأنها كانت على الأغلب مكان تدجين القمح لأول مرة، ومكان اكتشاف النحاس، واختراع الحزف المحلي مما أدى إلى التحول من حياة الصيد والبدو إلى حياة الزراعة والاستقرار . وقد تكون هذه المنطقة إذاً قد عرفت المعيشة المستقرة في القرى والمدن قبل أي مكان آخر نعلمه . وربما كانت قبل ذلك أيضاً الموطن الذي ترعرع فيه سلف من أسلافنا المباشرين وهو الإنسان الحديث^١، مما سنراه في الفصل القادم .

(١) Homo sapiens والمعنى الحرفي لهذه الكلمة اللاتينية «الإنسان العارف» بمعنى الإنسان المدرك وهو الإنسان الحديث .

الفصل الثاني

المقدمات الحضارية : الأدوات الحجرية

كما ان القسم الذي يشاهده الانسان من قطعة الجليد فوق سطح الماء لا يشكل الا قسماً صغيراً منها كذلك فان العصر الذي تبع اختراع الكتابة والذي نسميه عصر ما بعد التاريخ لا يشكل الا جانباً صغيراً من تاريخ سورية والسوريين بكامله . وقد بزغ فجر التاريخ في هذه البلاد في اوائل الالف الثالث ق. م . ، وذلك على اثر اختراع الكتابة في مهدى الحضارة المجاورين في جنوبي بلاد الرافدين ومصر وانتشاره من هذين المركزين . وتعود فترة ما قبل التاريخ التي نعتمد في معلوماتنا عنها على البقايا الأثرية بدلاً من الوثائق المكتوبة ، الى عشرات الآلاف من السنين خلال العصر الحجري الحديث (النيوليتي) والعصر الحجري القديم (الباليوليتي) الذي سبقه . وقد اخذت الحفريات الاثرية التي حصلت في الثلاثين سنة الاخيرة في البوادي المجهولة في شمالي سورية وشرقها وفي كهوف لبنان وتلال فلسطين وفي مدن شرقي الاردن المدفونة تحت التراب تطلعننا على اسرار الحضارات القديمة المنسية ، وقد اثبتت هذه الحفريات دون شك ان هذه المنطقة التي اهملها الاثريون مدة طويلة بحيث كادت تصبح شبه مجهولة كانت اكثر تقدماً في اقدم العصور بما كنا نظن حتى الآن .

اقدم البقايا : الادوات الحجرية

عندما نحاول ان نلتي نظرنا الاولى على الانسان في هذه المنطقة فانه يفتل منا كشخص ، ولكن آثاره يمكننا اكتشافها بشكل ادوات حجرية في بقايا الكهوف او على سطح الارض حيث تنتشر مثل « بطاقات الزيارة » على مساحات واسعة . وتتألف هذه الادوات والاسلحة من قطع من الصوان فحّت بشكل خشن او رقت بصورة غير منتظمة وكان يستعملها كقؤوس يدوية او مكاشط او سواطير وترجع الى نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم اي الى نحو ١٥٠,٠٠٠

وبين الحجارة المحطمة بصورة طبيعية . اما اغصان الاشجار او ساثر الاخشاب التي قد يكون الانسان البدائي قد استخدمها الى جانب الأدوات الحجرية او قبل ذلك فانه لم يكن محتملاً ان تترك اي اثر يمكن اكتشافه بسهولة وذلك بسبب طبيعتها .

ومن الكهوف التي وجدت فيها ادوات من العصر الحجري القديم ودرسها العلماء في لبنان وفلسطين كهوف عدلون^١ وجبل الكرمل^٢ وأم قطفة^٣ والزطية^٤ . ووجدت بلطاب يدوية من نفس الفترة عموماً في اماكن اخرى منها مجرى نهر الاردن (جنوبي جسر بنات يعقوب^٥) وفي رأس الشمرة او اوغاريت القديمة^٦ . والبلطة ذات شكل مثلث او بيضوي وهي منحوتة اكثر من الفأس اليدوية .

ويحتمل ان يكون البشر الذين تركوا لنا هذه الآثار الحجرية نوعاً بدائياً غير متميز من الانسان الابيض ولا تزال حضارته مجهولة . وقد كانوا يعيشون في بعض الاحيان على الاقل في الكهوف لوقاية انفسهم من المطر والحجوانات المفترسة ومن الاعداء وذلك لان شدة الاقليم في عصر سابق كانت قد فرضت عليهم هذا الاسلوب من المعيشة . وبالرغم من ان الجليد لم يصل قط الى الجنوب حتى سورية فان اقليم

(١) وتقع في منتصف الطريق بين صيدا وصور . وقد استكشف هذا الكهف وكهواً اخرى في منطقة نهر ابراهيم ونهر الكلب والطلباس ج . زيموفن G. Zumoffen . انظر كتابه : *La Phénicie* « L'Age de la pierre en avant les Phéniciens (Beirut, 1900) pp. 4-16 » *Anthropos*, vol. iii (1908), pp. 431-55 . في مجلة : « Phénicie » .

(٢) وقد اجرت تحريات اثرية فيه الأنة دوروثي جارود . ود . بيت Dorothy A. E. Garrod and D. M. A. Bate . انظر كتابها : *The Stone Age of Mount Carmel* vol. i (Oxford, 1937) ch. 8 .

(٣) تقع شمال غربي البحر الميت واستكشفها رينه نوفيلل René Neuville . انظر مقاله : *L'Anthropologie*, في مجلة : « L'Acheuléen supérieur de la grotte d'Oumm Qatafa » « Le Préhistorique de Palestine » vol. xli (1931), pp. 13-51, 249-63 . في مجلة : *Revue biblique*, vol. xliii (1934), pp. 237-59 .

(٤) وتقع شمال غربي بحيرة طبرية . ولف فيها : F. Turville-Petre . انظر مؤلته : *Researches in Prehistoric Galilee* (London, 1927), §§ 5, 6 ; Garrod and Bate : pp. 143-15 .

(٥) انظر مقال : « Jisr Banāt Ya'qūb », *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. vi (1936), pp. 214-15 .

(٦) انظر : Claude F. A. Schaeffer, *The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit* (London, 1939), p. I .

هذه البلاد لا بد انه تأثر به . وقد كانت الطور الاقليمي في نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم من النوع الممطر الكثير الرطوبة والمداري وكانت حيواناته التي انقرضت انواعها اليوم انقرضاً تماماً تقريباً من الحيوانات التي تعيش في بيئة كثيفة النبات . والبقايا الحيوانية التي وجدت تضم عظام الكركدن وفرس النهر ومخلوق يشبه الفيل . وفي هذه الفترة كانت اوربا تعاني شدة البرد في العصر الجليدي وهذا ما يسمح للشرق الادنى بان يكون سابقاً في تاريخ الجنس البشري وماثره .

اقدم الهياكل العظمية البشرية

ترجع اقدم بقايا الهياكل العظمية البشرية في الشرق الادنى الى اواسط العصر الحجري القديم . وقد عثرت على معظمها في كهفين من كهوف جبل الكرمل الآتية جارُداً وكذلك في كهف يقع في جنوبي الناصرة^٢ وآخر في شمال غربي بحيرة طبرية^٣ . ويشكل اكتشافها حادثاً بالغ الاهمية بالنسبة لعصر ما قبل التاريخ في الشرق الادنى . وجميع هذه البقايا ترجع الى النموذج المستيري الحضاري (وقد سمي كذلك باسم كهف في فرنسا) ويعود عهدها الى ما قبل مائة الف سنة على الاقل . وهي تظهر لنا سلسلة كاملة من بقايا الهياكل العظمية تتراوح بين النوع النياندرتالي (باسم واد في منطقة الرين) وبين انواع ارقى حتى تصل الى اشكال تكاد تكون من التسوع البشري الحديث . والانسان النياندرتالي كان قصير القامة كثيف البنية وكان يمكنه الوقوف تقريباً بدون ان يكون منتصباً تماماً . والذي يلفت النظر بشكل خاص في بعض هياكل جبل الكرمل انها تظهر بعض الصفات التشريحية التي للانسان الحديث^٤ . وقد كانت سعة جمجمتها اكبر مما كانت عليه عند الاوربيين من النوع

(١) وهذان الكهفان هما مغارة الطابون ومغارة السخول؛ انظر: Garrod and Bate, chs. 4-7.

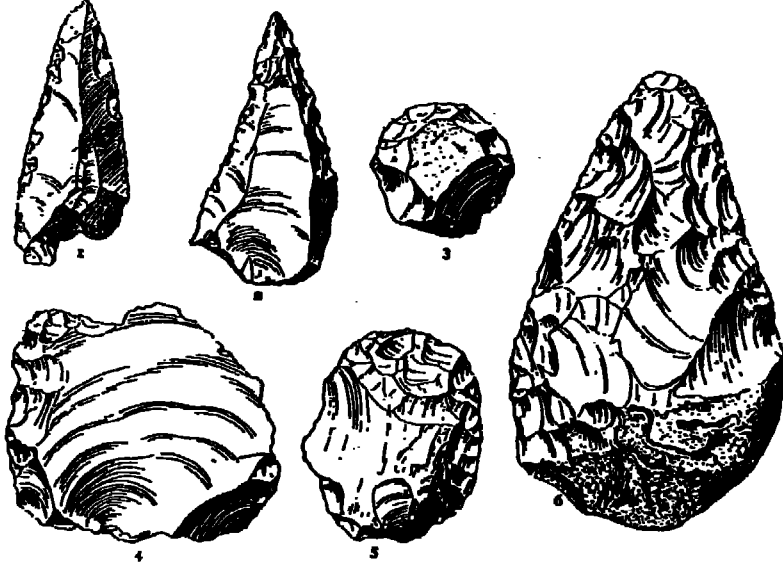
(٢) في جبل القفزة وقد استكشفه رينه نوفيل René Neuville في ١٩٣٤ ولم تنشر ابحاثه بعد.

انظر مقال: «Jabal Qafze» في مجلة: *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. iv (1934), p. 202.

(٣) مغارة الزطية: Turville-Petre, § 9, «Report on the Galilee Skull» by Edward Keith.

(٤) انظر: Theodore D. Mc. Cown and Arthur Keith, *The Stone Age of Mount Carmel*, vol. ii (Oxford, 1939), ch. 2; cf. Earnest A. Hooton, *Up from the Ape* (New York, 1946), pp. 336-9; Alfred S. Romer, *Man and the Vertebrates* (Chicago, 1941), pp. 219-22.

نفسه؛ وكانت الذقن اكبر ولكنه كان ينقصها التركيب المتصل بالكلام المترابط. وعلى ذلك فانها تشكل على ما يظهر حلقة هامة في تطور الانسان وتجعل من هذه المنطقة في الشرق الادنى مسرحاً لتكوين نوع متوسط بين الانسان البدائي والانسان الحديث.



وكان انسان هذه البلاد لا يزال يعيش في الكهوف في اواسط العصر الباليوليتي (الحجري القديم). وصناعته كانت تقوم كالسابق على اعداد شظايا غير منتظمة وقطع خشنة من الصوان استعمالها كبلطات يدوية ومكاشط وسواطير ومطارق. وبما لا شك فيه ان النظام الاجتماعي كان بدائياً يدور حول وحدات من الجماعات التي تعيش على ما تنتجه الطبيعة من حيوان او نبات في شكله الطبيعي. وتشير العظام البشرية المكسرة بمذق لاستخراج المادة النخاعية التي طمع فيها الانسان الى وجود عادات تتصل باكل اللحوم البشرية. وكانت الضحايا من الاعداء الذين يقعون في الأسر او من الاقارب الذين اصبح وجودهم غير مرغوب فيه. وقد يكون بعضهم من الاشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية.

وكانت الاحوال الاقليمية لهذه الحضارة تتجه اتجاها واضحا نحو الجفاف بين دورين بمطرين . وتبي البقايا الحيوانية عن وجود الغزال والضبع المرقط والذئب والجلد وخنزير النهر والوعل بالاضافة الى الكركدن وفرس النهر^١ . ومع ان الطقس اصبح دافئاً وجافاً فان الانهار للدائمة كانت لا تزال تروي البلاد وبقيت هنالك بعض المساحات المحرجة والمشجرة .

وفي الفترة الاخيرة من اواسط العصر الحجري القديم طرأ تغير شديد على الاحوال الاقليمية وهطلت الامطار بغزارة . وهكذا حصلت فترة اخرى بمطرة دامت عشرات الآلاف من السنين ولا نعلم عنها الشيء الكثير بالنسبة لسورية وفلسطين . وتمثل هذه الفترة الملاحي الصخرية في منطقة نهر الجوز (قرب البترون) ونهر ابراهيم^٢ . واخذت الحياة الحيوانية تتخذ مظهرها الحديث في هذه الفترة العامة بينما اختفت النماذج الاولية .

الدور الاخير للعصر الحجري القديم

وفي خلال الدور الاخير للعصر الحجري القديم الذي دام مدة طويلة هنالك ما يبرهن عن تزايد في الجفاف باستثناء مرحلة من الرطوبة . وتشير البقايا الاثرية الى تناوب الاقليم الحار والبارد من النوع الرومي (اقليم بلاد البحر المتوسط) ويمتد ذلك حتى اواخر العصر الحجري القديم^٣ . وتقابل حضارة هذا الدور الفترة الاورغناسية (Aurignacian) في اوربا (وسميت كذلك باسم مركز نموذجي في فرنسا) وتتمثل في مكتشفات كهوف انطلياس ونهر الكلب^٤ وفي كهف اكتشف قرب بحيرة طبريا^٥ . واظهرت الحفريات الحديثة (١٩٣٨) في كسار عقيل قرب

(١) انظر : Garrod and Bate, p. 226 ; Turville-Petre §§ 4, 8.

(٢) راجع : Zamoffen, *La Phénicie*, pp. 29-48 ; *Anthropos*, pp. 443 seq.

(٣) راجع : Leo Picard, *Structure and Evolution of Palestine* (Jérusalem, 1943), pp. 119-120.

(٤) انظر مقال ألفرد إ. داي (Alfred E. Day) « آثار الانسان الاول المكتشفة حديثاً في انطلياس » في مجلة الكلية م ١٢ (بيروت ١٩٢٦) ص ٤٩٦ - ٤٩٩ ; Zamoffen, *La Phénicie*, pp. 20-28, 49-87 ; *Anthropos*, pp. 443 seq.

(٥) مقالة الاميرة . انظر : Turville-Petre, § 2.

انطلياس بقايا هيكل عظمية لحيوانات مثل الضبع والكركدن والثعلب والماعز وكذلك بقايا بشرية^١. ومتحف الجامعة الاميركية في بيروت غني بادوات العصر الحجري بصورة خاصة .

وتحتل بقايا الغزلان مكانة رئيسية بين البقايا الحيوانية . وبينما لا تختلف صناعة هذا الدور اختلافاً اساسياً عما سبق فان الادوات الحجرية تظهر ميلاً الى التضائل في الحجم وتصبح ادوات حجرية صغيرة (ميكروليتية) . ويشير ذلك الى ان الانسان قد بدأ في تركيب ادواته او اسلحته في مقابض خشبية او عظمية حتى اصبحت فساً من آلة مركبة . وبما ان الحشب سريع العطب فانه لم يترك لنا اي اثر بينما اكتشف العظام التي يظن انها كانت تستعمل لهذا الغرض .

النار : الفحم

ان اقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن في هذه البلاد قد اتت من احدى الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل^٢ وترجع الى نهاية الدور الاول للعصر الباليوليتي اي الى نحو ١٥٠,٠٠٠ سنة . وهناك قطع اخرى ترجع الى الدور الاخير من العصر الحجري القديم (الدور الاورغناسي) وقد اكتشفت في كهف مجاور^٣ وتشير في تركيبها الى نماذج السنديان والطرفاء والزيتون والحكمة^٤ . ويبدو ان الانسان البدائي في تدرجه البطيء الشاق من المستوى العقلي المنخفض قد عثر صدفة لا قصداً على اكتشافات اعطته بعض التفوق واثرت على قدرته الكامنة على الاختراع وزادتها قوة . ومن اقدم هذه الاكتشافات اكتشاف النار .

فانسان العصر الحجري القديم لا بد انه شاهد او استعمل النار التي ولتها الشهب الساقطة والبرق وسائر الاحداث الطبيعية . كذلك لا بد ان قطعاً من اللحم النيء

(١) راجع : J. Franklin Ewing, « Aurignacian Man in Syria », *American Journal of Physical Anthropology*, n.s., vol. iv (1949) pp. 252-3 ;

ومقاله في مجلة المشرق م ٤١ (١٩٤٧) ص ٢١٨-٢٤٨ . وتشير المكتشفات الاثرية في ١٩٤٨ الى سكنى الانسان بصورة متواصلة لوادي انطلياس منذ ٣٠,٠٠٠ ق.م .

(٢) مغارة الطابون . انظر : Garrod and Bate, p. 129

(٣) مغارة الوادي قرب الطرف الغربي لكرمل .

(٤) راجع : Garrod and Bate, p. 129 .

والثمار الخضراء والجذور التي يمكن أكلها قد وقعت في النار بطريق الصدفة . وليس من شك ان ما نتج عن ذلك من طراوة وتحسن في الرائحة دعت الانسان المتيقظ الفكر او المحب للاستقصاء الى اعادة التجربة . ولا بد ايضاً انه لاحظ الشبرات التي يولدها الاحتكاك والتدح عندما كانت ينحت او يرقق الصوان وساثر الحجارة القاسية . غير انه اضطر الى ان ينتظر اجيالاً طويلة قبل ان يظهر رجل مجهول من طراز اديسون او بالاحرى رجال من هذا الطراز يفكرون بهذا الحادث ويحاولون توليد النار والسيطرة عليها لاجل اغراضهم الخاصة . وبهذا الحادث بدأ انقلاب من اعظم الانقلابات في تاريخ سير البشرية في معارج التقدم . وقد عرفت بالتدرج فائدة الشرارة وذلك ليس في اعداد ما أكل جديدة فحسب ، وانما كتدبير للوقاية من البرد وكوسيلة لصد الحيوانات الجارحة وطرده حيوانات الصيد من الغابات .

اللغة

وهناك عمل آخر فعّال تم تحقيقه في اوائل العصر الحجري القديم وهو نشوء تلك الوسيلة الخاصة للاتصال بين انسان وآخر التي نسميها اللغة . ويعود اصل اللغة الى عمل عقل كان لا يزال في بدء التحول الى عقل بشري ولذلك فانه ابعد من ان يتمكن البحث من تناوله . وقد ساعدت اللغة باعتبارها عملاً يهدف الى تأسيس الاتصال الفكري بين انسان وآخر على الجمع بين افراد منعزلين لتشكيل منهم جماعات . وان عمليات تطورها واكتساباتها يخبونها كانت عمليات تقوي المؤالفة بصورة متزايدة . ولكن بما انه لم يكن بمقدورها ان تترك آثاراً ملموسة حتى اختراع الكتابة بعد آلاف السنين فانه ليس لدينا من ادلة اثرية لاجل البحث عنها .

العصر الحجري الوسيط

يتطور العصر الحجري القديم بصورة لا يشعر بها نحو العصر الحجري الحديث الذي استخدم فيه الانسان الادوات الحجرية المصقولة . وقد سميت الفترة الانتقالية بالعصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي عام ١٢٤٠٠٠ ق . م . وانسان العصر الحجري الوسيط لم يقتصر على صقل الصوان والبازلت وساثر المعدات والاسلحة الحجرية بحيث جعلها اكثر فعالية بالنسبة لاغراضه ولكنه زيادة على ذلك استغل للمرة الاولى موارد بيئته لدرجة تستحق

الذكر . وتتمثل هذه الحضارة في فلسطين بالدور النطوفي الذي سمي كذلك باسم وادي النطوف في شمال غربي القدس حيث نقتب الآنسة جارُد في ١٩٢٨ في كهف الشقبة^١ . واكتشفت بعض عناصر الحضارة النطوفية فيما بعد في مغارة الوادي وغيرها من المواقع .

الحضارة النطوفية

بدأت الحضارة النطوفية في اول العصر الحجري الوسيط ودامت حتى الالف السادس . وكان البشر الذين عاشوا في عهد تلك الحضارة من عرق اقصر قامة من العرق الذي عاش في عهد الحضارة السابقة كما انهم كانوا نحاف الجسم مستديري الرؤوس يشبهون انسان العصر البرونزي الحجري الذي وجدت آثاره في بيبيلوس (جبيل) والمصريين الذين عاشوا في عصر ما قبل السلالات . ويبدو انهم كانوا من افراد العرق نفسه الذي انتسب اليه الحاميون والساميون فيما بعد^٢ . وبالرغم من ان الحياة الحيوانية في العصر النطوفي كانت من النوع الحديث بصورة عامة فان هنالك فروقاً هامة بينها وبين الحياة الحيوانية اليوم . فقد كانت بقايا الفزلان لا تزال كثيرة ولكنها من نوع الابل وهو نادر اليوم ويبدل على وجود احوال الجذب والجفاف . والضبغ كان مرقطاً حينذاك من النوع الذي نجده فقط في جنوبي الصحراء الكبرى اليوم . والقنفذ كان يختلف تمام الاختلاف عن النوع القصير الاذنين الموجود حالياً^٣ . والاحوال الاقليمية قد تكون سيئاً لاختفاء حيوانات مثل الحصان والوعل الاحمر فيما بعد . والصناعة تكثر فيها العظام المشغولة والمحفورة ورؤوس السهام التي لها فُرْضة . والادوات كانت من النوع الصغير (او الميكروليتي) وهذا من مميزات حضارة العصر الحجري الوسيط .

(١) انظر : Dorothy A. E. Garrod, « Excavation of a Palaeolithic Cave in Western Judaea », *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1928), pp. 182-5; Garrod and Bate, p. 114.

(٢) انظر : W. F. Albright, « The Present State of Syro-Palestinian Archaeology », *The Haverford Symposium on Archaeology and the Bible ed Elihu Grant*. (New Haven, (1938), p. 7.

(٣) راجع : Garrod and Bate, p. 153.

تدجين الحيوانات

ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب كبير في طبقات اجد كهوف الكرم^١ اول برهان عن تدجين الحيوانات ، وهذا حادث له اهميته البالغة في سير الانسان نحو الحياة المتقدمة . وقد دُجن الكلب حين كان لا يزال الانسان صياداً . وفيما سوى فائدة الكلب في الصيد والحراسة فانه كان اول جامع للنفايات وقضلات الطعام . وترينا ادلة اخرى ان تدجين الماشية الذي ادى الى حياة الرعي وما صحب ذلك من توفر طعام يمكن الاعتماد عليه اكثر مما كانت الحالة عليه في حياة الصيد ، قد اتى بعد حين . فقد كان على الانسان ان يدجن نفسه قبل ان يتمكن من تدجين سائر الحيوانات . واكتشفت اشكال نذرية من الطين تمثل حيوانات داجنة كالبقرة والماعز والغنم والخنازير في مزار في اريحا تعود الى اواخر الالف السادس ق . م .^٢ . ويحصل تدجين الحيوانات عادة بينما يكون الانسان في حالة البداوة ولذلك فانه يسبق ممارسة الزراعة . ولا بد ان انساناً من العصر الحجري الوسيط في الشرق الادنى قد اتته فكرة تدجين الحيوانات بطريق الصدفة . فقد حركته عاطفة الشفقة او المحبة واحتفظ في احدى المناسبات بصغار الحيوانات بعد قتل كبارها وراح يربي الجرو او النعجة مع اولاده ونجحت العملية ومن ثم اعيدت هذه التجربة ووسعت . فالانسان شمل الحيوان بمجايبته وحصل منه مقابل ذلك على الحليب والحمة إما في اعمال الصيد او في حمل الاثقال . واخذ المجتمع البدائي لحضارة العصر الحجري القديم يتراجع امام احوال اكثر تقدماً .

الزراعة

وعندما كان الانسان صياداً فان حركاته كانت تملئها حركات الحيوانات البرية التي كان يسعى وراءها لاجل الغذاء . وفي مرحلة حياة الراعي عندما حصل تدجين الحيوانات ظل الانسان متنقلاً ولكن مع هذا الاختلاف : وهو ان حركاته كان عليها عليه بحسه عن المراعي الخضراء لاجل قطعانه . غير ان الحضارة النطوفية شهدت في اواخر العصر الحجري الوسيط او ربما في اوائل العصر الحجري الحديث

(١) مقارة الوادي . انظر : Garrod and Bate, pp. 175-7.

(٢) راجع : Johon Garstang and J. B. E. Garstang, *The Story of Jericho* : (London, 1940), pp. 49-51.

بده مرحلة اخرى اتجهت نحو حياة الاستقرار وكان لها تأثير أثبت على الانسان وهذه المرحلة هي ممارسة الزراعة .

وقد كانت سورية مُسعدة بانها موطن الحيوانات النبيلة التي يمكن تأليفها كما انها موطن الحشائش التي يمكن تدجينها . فالقمح والشعير البربان ينموان بصورة طبيعية في سورية الشمالية وفلسطين^١ ولا بد ان قيمتهما الغذائية قد اكتشفت في عصر بعيد جداً . والمناسجل الصوانية وسائر الادوات التي تركها النطوفيون^٢ بكميات كبيرة تظهر انهم ومعاصريهم في سورية الشمالية كانوا من اول من مارس شكلاً ما من اشكال الزراعة في الشرق الادنى . وكان الناس لا يزال اكثرهم من سكان الكهوف الذين يشبهون سكان مصر^٣ ويعيشون على الصيد البري وصيد الاسماك وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي . ولا ريب ان الزراعة بدأت كعملية زرع بدائية بواسطة الفأس وكانت تستوجب التنقل من مكان الى آخر عندما تستنفد التربة السطحية خيراتها . ويحتمل ان تكون الخطوات الاولى قد اتخذت قبل الالف السادس وذلك قبل ظهور الحزف او المعادن بقرون . وهكذا اصبح جامع الغذاء منتجاً له الآن . وكانت اكياس الجلد واليقطين لا تزال تستخدم لحزن الاطعمة والسوائل ونقلها . وليس لدينا دليل عن ممارسة اي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد . ويبدو ان المهاجرين الساميين الاولين الى مصر انما اتوا من سورية وادخلوا معهم القمح وزراعة الكرمة^٤ . والكلمة التي تعني القمح (gmhw) وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة (ka(r)mu) في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقة من السامية وبالاخص من الكنعانية^٥ وتبدو صور الحارث من بلاد بابل ومصر وسورية الحديثة متشابهة بشكل بلغت النظر (انظر الشكل في الفصل الحادي عشر).

(١) انظر : Childe, p. 45 ; René Neuville, « Les Débuts de l'agriculture et la faucille préhistorique en Palestine » *Journal of the Jewish Palestine Exploration Society* (1934-5), pp. xvii seq.

(٢) راجع : D. A. E. Garrod « A New Mesolithic Industry : The Natufian of Palestine », *Journal Royal Anthropological Institute of Great Britain*, vol. lxii (1932), pp. 261, 263, 265.

(٣) انظر : Strabo, *Geography*, Bk. XVII. ch. I, § 2

(٤) انظر : H. R. Hall, *The Ancient History of the Near East*, 8th ed. (New York, 1935), pp. 89-90.

(٥) راجع : W. F. Albright, « Palestine in the Earliest Historical Period », *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. xv (1935), pp. 212-13.

اما كيف اكتشف انسان العصر الحجري الوسيط احتمال تدجين النباتات فذلك لا يمكن لأي امرئ ان يقوله بالضبط . وقد اعتاد الانسان حتى هذا الوقت ان يجعل بعض الحبوب البرية في جملة طعامه . ولا بد ان بعض هذه الحبوب سقطت بالصدفة على الارض في زمن ما وان انساناً او بالاحرى انساناً متفوقاً لاحظ نمو الحبوب بكثافة حول نخيم السنة السابقة وعندئذ اشرفت الفكرة العظمى في عقله . ولم يكن باقل من انسان متفوق ذاك الذي حمل قبيلته بالقوة او بالاقناع على عدم استهلاك جميع البذور التي جمعت في فصل معين وعلى ابقاء بعضها بل انتقاء اجودها لضمان غلة في المستقبل وتحسينها . وقد مهدت زراعة القمح والشعير الطريق لسائر الحبوب كالذرة مثلاً وفيما بعد للثمار مثل العنب والتين والزيتون وكذلك لتختلف انواع الحضر التي زرعت جميعها وتحسنت قبل ان يبدأ التاريخ .

حياة الاستقرار

وقد كانت الزراعة عملاً انقلابياً بالنسبة لتقدم الانسان اكثر من تربية المواشي وبتطورها اخذ الانسان يعيش في اكواخ مبنية من الطين او في بيوت من اللبن . وقد وجدت بقايا المساكن البدائية في اقدم الطبقات التي سكنها الانسان في ارجيا وترجع الى نحو ٥٠٠٠ ق. م^١ . وفي طبقات تل الجديدة^٢ ورأس الشجرة^٣ وكذلك ببيلوس^٤ التي انت بعدها . ولم توجد مساكن بشرية اقدم من هذه في اي مكان آخر وقد يكون لارجيا اقدم تاريخ متواصل من اية مدينة في العالم . وانسان العصر الحجري الوسيط الذي كان حتى الآن متنقلاً اصبح بعد ممارسة تربية المواشي والزراعة ممارسة تامة مستقراً منتجاً يسيطر على موارد غذائه . واخذت الكهوف والملاجئ الصخرية في الاماكن المرتفعة تهجر بالتدريج واستبدلها الانسان بالمساكن في السهول، وظهرت ملكية الارض . وعندما كان الانسان متجولاً لا يستقر في مكان

(١) انظر : Garstang and Garstang, pp. 47-8

(٢) في شمالي سورية ولا يزال اسمها القديم مجهولاً. انظر ص ٢٢ في ما يلي هامش رقم ١ .

(٣) انظر : Claude F. Schaeffer, *Ugaritica* (Paris, 1939), pp. 3-4

(٤) راجع : Maurice Dunand, *Fouilles de Byblos*, vol. i (Paris, 1939), text, pp. 295-6.

ويستقر دونان مباني ببيلوس من حوالي ٣٢٠٠ ق. م. اقدم مباني حجرية أثرية في الشرق وربما في العالم . وكان الذين بنوها غالباً من الشعوب التي سبقت قوم الساميين . وترجع المقبرة الى النصف الاول من الالف الرابع .

واحد بحيث لا تؤثر عليه بيئته تأثيراً كافياً لم يكن بمقدور هذه البيئة ان تغيره التغير الكلي او تعطيه لونها المحلي ومن هنا فقد كان اختباره موزعاً وغير متشابه . اما الآن فان استقرار مسكنه قد عمل على تجميع الاختبارات المتشابهة وانتقالها بشكل تقاليد حضارية . وعلى ذلك فان الانسان المستقر قد كوّن لنفسه مخازن ليس للغذاء فحسب وانما للافكار التي جعلته قادراً على نقل اختباره الى الاجيال المقبلة بصورة احسن .

الحياة العقلية

كانت احدى النتائج الهامة للحياة الجماعية انها عملت بصورة قوية على تطور اللغة . والذي ينهلنا اليوم هو درجة الاتقان التي وصلتها اللغة بفعل العقل البشري في العصر الحجري الوسيط وترينا مقارنة العربية الحديثة الدارجة مثلاً بما يمكن معرفته من اللغة السامية الام تطوراً مستمراً نحو التبسيط بالنسبة للمستوى العالي في عصور ما قبل التاريخ البعيدة .

واثر آخر للحياة العقلية عند انسان العصر الحجري الوسيط اعتقاده الديني بالآلهة او مجموعة من الآلهة وظهور فكرة بدائية عنده اولى عن نوع من حياة ثانية للراحل بعد الموت . وبدلنا على ذلك وجود اواني الطعام والتقدمات في اماكن الدفن . وتعود آثار مثل هذا المعتقد الغامض بالحياة الثابتة الى الحضارة المستيرية . غير ان تربية المواشي وممارسة الزراعة جعلت الديانة اكثر تعقيداً وصاروا يفضلون الآلهة التي تهتم بالحقول والمواشي على الارواح التي يعتمد عليها الصيادون . ففي مرحلة حياة الرعي كان الناس على ما يظن يعبدون الاله القمر الذي كان اكثر نفعا وتلطفاً من الشمس في بلاد حارة مثل سورية وفلسطين . وكان القمر يبدد رهبة الظلام ويأتي بالبرودة التي يمكن للقطعان ان ترعى فيها براحة . ولذلك فانه كان صديق الراعي اكثر من الشمس . والمعبد الذي وجد في اريحا ويرجع الى اواخر الالف السادس ق . م . ربما كُرس للاله القمر .

واثناء نشوء الحياة الزراعية اوجد الانسان في فكره ارتباطاً بين النمو وبين الشمس التي اخذت حينذاك تتقدم على القمر . وبدأت في ذلك العهد عبادة الالاهة الشمس وكذلك عبادة الارض الأم بشخص الالهة للخصب تتعهد شؤون الزراعة .

وانتخدت الديانة بشكلًا مؤثراً واضحاً لسبب آخر وهو ان المرأة يمكنها ان تمارس الزراعة بسهولة اكثر من ممارسة الصيد. والرموز المتعلقة بطقوس العبادة وكذلك الميتولوجيا المتصلة بالاها الحصب التي بلغت ذروتها فيما بعد في قصص ادونيس - عشتار واوزيرس - ايزس في فينيقية ومصر كانت اصولها في هذه الفترة. ولا بد ان مجموعة التماثيل الثلاثة التي اتت من اريحا القديمة وتشمل الاب والام والابن^١ كان لها معنى طقسي كما انها تفيدنا بان نظام العائلة كان قد اتخذ في الالف الخامس الشكل الذي اتخذته بصورة دائمة فيما بعد.

الفن

ورافق نمو انسان العصر الحجري الوسيط من الوجهة الدينية تطوره الفني. والفن هو كاللغة صفة مميزة للبشر. وقد ولد عندما استيقظت امكانية التقليد المتعمد في وعي احد ابناء العصر الحجري. ودخلت حينذاك نفس الانسان في عالم جديد هو عالم الخيال والجمال.

وكان الفن في مظهره الاول مرتبطاً بالسحر ارتباطاً وثيقاً، وكان يُظن ان صورة الحيوان تعطي الرسام سلطة على ما يرسمه او يمثله. وقد وجد في احد كهوف الكرميل رسم رأس ثور حفرة انسان العصر الميزوليتي في العظم. ولما كان الانسان يشعر بالقوى المحيطة به ويعلم مقدار عجزه فانه وضع نظاماً سحرياً عززه بتائم من العظم والحجر والتمس بواسطة الحماية من الاشياء التي كان يرهبها. فالخوف كان عنصرأ اساسياً في ديانته الاولى. ونواه فيما بعد يبحث عن بعض الفوائد بواسطة السحر ومن جملة هذه الفوائد زيادة محصول قطيعه او غلته. فعبادة الارواح والسحر هما اساس الديانة البدائية على الغالب. فعبادة الارواح هي التي جعلت الانسان ينسب الى مختلف الاشياء التي تحيط به روحاً تسكنها وعليه ارضاؤها اذا كانت خبيثة او تقديم التقدّمات لها اذا كانت نافعة.

والقطع المحفورة في العظم او الحجر من العصر النطوفي كثيرة واحسنها تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم. ويبدو ان «اقدم الامثلة المعروفة للفن

التشكيلي في فلسطين على كل حال^١ ، هي تلك التقدّمات الندرية على شكل صور الحيوانات الداجنة التي وجدت في اريحا^٢

حضارة العصر الحجري الحديث

وفي العصر الحجري الحديث (او النيوليتي) الذي دام نحو النسي سنة اعتباراً من عام ٦٠٠٠ ق . م . حصل تقدم محسوس في الزراعة وتربية الحيوانات واستعمال الادوات الحجرية المصقولة والحياة المستقرة . وقد رأى هذا العصر ايضاً اختراع الخبز واكتشاف المعدن . وتختلف حضارة العصر الحجري الوسيط في سورية وفلسطين عن سائر الحضارات الميزوليتية بان صفتيها البارزتين وهما تربية المواشي والزراعة تسبقان الخبز والمعدن .

وعندما تعلم الانسان صنع الاواني من الطين وخبزها فانه قام باكتشاف آخر بالغ الاهمية في مجال تقدمه الحضاري . وسرعان ما حلت الاواني الخزفية محل الاواني من اليقطين او الجلد او قطع الحجارة والخشب المخوفة التي كانت تخضع حاجته الاقتصادية حتى ذلك الوقت ولو بصورة غير تامة . وكان مؤدى الاختراع الجديد ان الانسان صار بإمكانه ان يعيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج اليها وان يطبخ طعامه طبعاً حقيقياً بدلاً من ان يأكله نيئاً او مشوياً ، وامم من ذلك ايضاً انه صار يتمكن من خزن ما لا يمكنه استهلاكه في وقت معين ليستخدمه في المستقبل وهكذا اضاف الانسان الى سيطرته على مورد الطعام سيطرته على حفظه . وبعد ان صار جامع الطعام في مرحلة البداوة منتجاً للطعام في مرحلة الزراعة اصبح الآن فوق هذا كله حافظاً للطعام . وقد اعطاه ذلك وقتاً للفراغ بدلاً من البحث المتواصل عن وسائل المعيشة ، وكانت اوقات الفراغ امراً ضرورياً في تسمية شؤون الحياة الرفيعة .

الخبز

يظهر الخبز في فلسطين في احدى الطبقات الدنيا في اريحا ويعتقد غارستانغ انه اخترع هناك^٣ . وقد اتخذ الخبز في اول الامر شكل احواض مجوفة في

(١) انظر : Garstang and Garstang, p. 54

(٢) راجع ما سبق ص ١٦ .

(٣) انظر : Garstang and Garstang, pp. 53-4

لا أرض ومبطنة بطبقة من الكلس ثم اشكال جرار ذات اطراف بسيطة وقعر مسطح ومسكات على شكل الكرة أو العروة . ويظهر اقدم الخزف في سورية في القسم الواقع بين النهرين . وقد يرجع خزف سورية الشمالية ذو اللون الواحد الى حوالي ٥٠٠٠ ق.م . وقد تبع ذلك خزف مدهون من تل الجديدة الواقعة في شمالي شرقي انطاكية ويعود الى حوالي منتصف الالف الخامس وهو مزخرف برسوم بدائية جداً . وينتسب الى نفس الطبقة الحضارية الخزف المدهون الذي اكتشف في « ساكجي جوزي » في اقصى شمالي سورية واقدم انواعه هو الخزف الاسود المحفور ، وتبعه انواع جديدة ذات زخارف ملونة^٢ . ووجدت قطع من خزف سورية الشمالية في مناطق بعيدة الى الشرق مثل سامرا على نهر دجلة . ويفلب ان يكون حصل اختراع دولاب الخزف قبل عام ٤٠٠٠ ق.م . ولكنه لم يستخدم بصورة بارعة في جنوبي فلسطين حتى حوالي ٢٠٠٠ ق.م . وكان الخزف قبل هذا الاختراع يصنع باليد .

وقد شهد القسم الاخير من الالف الخامس والقسم الاول من الالف الرابع ارفع مرحلة في تاريخ الفن الزخرفي القديم . وكانت منطقة سورية الشمالية وبلاد الرافدين مركز هذه المرحلة . ويمكن تسمية هذه الحضارة بحضارة تل حلف بالنسبة لتل حلف^٣ (وهي غوزان القديمة) على نهر الخابور . وتمثل هذه الحضارة في الغرب مدينة مرسين في كيليكية . وكان رجالها من مزخرفي الاواني الذين حاولوا التفوق كما يبدو على ما بلغه صناع السلال وحائكو السجاد من مهارة فنية . وكانت اوانيمهم التي تشمل الصعون والطاسات والزوارق والجرار والكؤوس تعتبر من الوجهتين الصناعية والفنية من اجل الاواني المصنوعة باليد في العصور القديمة . كانوا يستعملون الزخارف الهندسية والنباتية المتعددة الالوان « التي لم يجاوزها شيء في

(١) وقد نقب فيها روبرت ج. بريدوود (Braidwood) . انظر كتابه : *Mounds in the Plain of Antioch* (Chicago, 1937), p. 7; *Prehistoric Men* (Chicago, 1948), pp. 92-3.

(٢) راجع : John Garstang, « Excavations at Sakje-Geuzi, in North Syria », *Annals of Archaeology*, University of Liverpool, vol. I (1908), pp. 114-17.

(٣) قلم باعمال التنقيب فيها ماكس فون اوينهايم (Max F. Von Oppenheim) : انظر كتابه : *Deir Tell Halaf* (Leipzig, 1931) . و« التل » هو مرتفع اصطناعي مؤلف من اثنتان عدة مدن يملو بعضها بعضاً . وهذا المظهر خاص بأسية الفريية حيث يبدو منذ ٢٠٠٠ ق.م . وكلمة « تل » عربية من اصل سومري .

جمالها في اي عصر آخر من عصور التاريخ وذلك من وجهة نظرنا الحديثة على الأقل ١٠ . وليس هنالك ايضاً ما يحملنا على الاعتقاد بان مقدرة الانسان العقلية قد ازدادت كثيراً منذ ذلك الحين . وان اكبر عدد من مراكز السكن من عصر الحزف المدهون الذي نحن بصدهه واكتف البقايا وارقي الاثار الحضارية قد اتتنا من شمالي سورية وبلاد النهرين ، وهذا لا يترك لنا اي شك بان تيار الحضارة الرئيسي في غربي آسيا كان يمر حينذاك في هذه المنطقة تاركاً المناطق المجاورة غير متأثرة نسبياً .

ان اضافة الحزف الى ادوات الانسان البيئية قد اسدت وان يكن بطريق الصدقة خدمة علمية مفيدة . ذلك ان الحزف غير قابل للتلف بالرغم من انه يمكن ان يتحول الى قطع مكسرة لا حصر لها . واسلوب صنعه وزخرفته يظهر لنا ذوق العصر وازيائه كما تظهر ذلك ثياب النساء في ايامنا هذه . وتوزع الحزف يعطينا احسن دليل للعلاقات التجارية القديمة . ولذلك فان دراسته تفتح للعالم الحديث نافذة واسعة يمكنه ان يتطلع منها الى الماضي المظلم . وتفتح الاواني المعدنية لنا نافذة اخرى . وبظهور الحزف والمعدن تنتقل من عصر ما قبل التاريخ الى بدء العصور التاريخية .

(١) انظر : William F. Albright, *From the Stone Age to Christianity* (Baltimore, 1940), p. 98.

الفصل الثالث

الأدوات المعدنية

بدأت باكتشاف المعدن مرحلة جديدة هامة في تدرج الانسان حل فيها المعدن محل الحجارة كأداة رئيسية لصنع الأدوات ، وتسمى هذه المرحلة بعصر المعدن .

العصر النحاسي الحجري

وقد يكون هذا الاكتشاف قد حصل في غربي آسيا بعد اختراع الخنزف بمدة وجيزة ، غير ان استعمال النحاس ، وهو اول المعادن ، على صورة واسعة قد تأخر غالباً نحو الف سنة . وفي سورية وفلسطين اخذ الناس يستعملون المعدن بشكل متسع الى حد قليل حوالي ٤٠٠٠ ق.م . ولكنه لم يأخذ مكان الحجارة كأداة رئيسية لصنع الأدوات والاسلحة حتى بعد ٣٠٠٠ ق.م . ويمكن تسمية هذا الالف الرابع بالعصر النحاسي الحجري حيث كان النحاس يستعمل في الاوساط الراقية بينما كان الصوان لا يزال يشكل دون منازع المادة الرئيسية . وتكثر آثار الحضارة النحاسية الحجرية في اوغاريت وسائر المواقع في شمالي سورية وفي تليلات الفسول^١ (التي اتت منها ادوات تعد من اقدم الأدوات المعدنية التي اكتشفت في فلسطين حتى الآن) وسائر المراكز في فلسطين . وفي حوالي ٣٠٠٠ ق.م . يبدأ العصر النحاسي وكثيراً ما يدعى خطأ العصر البرونزي . وتم فوز النحاس باكتشاف فلزات هذا المعدن في ادوم جنوبي البحر الميت وشرقيه حوالي ٢٠٠٠ ق.م .

وتظل سورية الشمالية في العصر النحاسي الحجري كما في العصر الحجري الحديث المركز الحضاري الرئيسي للشرق الادنى بأسره . ولا بد ان احد سكان هذه المنطقة قد اكتشف النحاس عندما كان يحرك نار نخبته صدقة بقطع من المعدن الخام ثم

(١) وقد لقت فيها بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ بمته المهد التوراتي البايوى . انظر : Alexis Mallon et al., *Teleilat Ghassul I* (Rome, 1934 ; Robert Koeppl et al., *Teleilat Ghassul II* (Rome, 1940).

لاحظ في اليوم التالي حبات المعدن المتلألأة بينما كان يحرك الرماح . وربما لم يدرك ذلك الانسان المقيم في سورية الشمالية في العصر الحجري الحديث انه بعمله هذا قد بدأ حركة انقلابية ادت الى رفع الحضارة بكاملها من مستوى الحجر الى المعدن وقد اصبح الانسان ، بعد اكتشاف المعدن وادراك خواصه ، على عتبة عصر جديد استمر حتى الازمنة الحديثة . واتى البرونز بعد النحاس ثم تبعه الحديد . وصادف بدء عصر البرونز اختراع الابجدية . وهكذا تنتهي حضارات سورية السابقة لعصر الكتابة وتبدأ حضارة عصر التاريخ .

وانتشرت معرفة النحاس من سورية الى جميع الجهات . ومن المحتمل جداً ان تكون مصر قد تلقتها في عصر ما قبل السلالات من هذا المصدر عن طريق الغزوة السامية^١ . كذلك يمكن ان تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب^٢ . وهكذا فان الجسر السوري الذي يمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنحني الفرات يبرز في اهميته كمسرح لتدجين القمح واختراع الحرف واكتشاف المعدن .

وتدل آثار الانسان في هذه المنطقة انه استخدم النحاس اولاً ثم مزجه بالقاسي وهو البرونز لاجل صنع الاسلحة الحربية قبل ان يستخدمه لادوات السلم . وقد تمتعت القبائل او الجماعات التي جعلت سلاحها من هذا المعدن الصلب القابل للتطريق والاتواء بتفوق عظيم على تلك التي استعملت الحجارة . غير ان فنون السلم استفادت ايضاً . فقد تحسن فن العمارة بشكل ملموس . وظهرت ابنية كبيرة الحجم وتفيد بقايا المنازل انها كانت مستطيلة في تخطيطها بينما كانت المزارات مستديرة .

الحجارة الترسولية

وفي مدينة تليلات الترسول شمالي البحر الميت التي ترجع الى العصر النحاسي الحجري كانت احد الجوانب الكبرى للبيوت المستطيلة كثيراً ما يقابل باحة .

(١) انظر : Hall, p. 90 .

(٢) اكتشف السومريون في الجنوب هذا المعدن على الغالب في زمن اقدم وبصورة مستقلة تلقوا ما يلزمهم من عمان ؛ انظر : Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (London, 1970), p. 36 ; « Sumerian Copper », *Report British Association for the advancement of Science*, 1928 (London, 1929), pp. 437-41.

وكانت الجدران مبنية من اللبن والاساسات من الحجر العقيم . والسقوف كانت مصنوعة من القصب المغطى بالطين . وتحت ارض المنزل وجد اولاد وقد دفنوا ضمن جدران . وبعض الموتى كانوا يحرقون وهذه عادة غير سامية قطعاً . وقد خصص سكان الكهوف في تل الجزر كهفاً لاحراق جثث رفاقهم المتوفين . وكان الحريق اسهل الطرق للتخلص من الجثة وبواسطته كانت روح الميت تستبعد بحيث لا يصيب الاحياء اى اذى . وان هذه الجرار التي تحتوي الموتى بدون ان يحرقوا وانما بشكل منحني وتدفن تحت ارض منازل العصر النيوليتي قد وجد مثلها في مناطق بعيدة في الشمال مثل اوغاريت^١ وكذلك في كركميش (جرابلس) في عصر متأخر^٢ . واكتشفت حوادث الدفن في اوان خزفية في اماكن اخرى كما في جزر^٣ (تل الجزر) جنوبي شرقي الرملة التي تنتسب الى نفس الحضارة القديمة . وفي جزر يمكن مشاهدة ساكن الكهف في طريقه لان يصبح من ساكني البيوت . والقرية التي نشأت فيما بعد احيطت بسور خشن كما كانت الحال في قرى كثيرة اخرى من عصر البرونز للحماية ضد الاعداء . وتبدأ تحصينات المدن في ذلك العصر . وقد وضع بجانب احدى الجثث المكتشفة في جزر خزف مملوء بالطعام والشراب^٤ مما يظهر اهتماماً متزايداً بالموتى .

وتدل كومة العظام التي وجدت تحت معبد جزر ان الخنزير الذي دجنه الفلسطينيون منذ عهد بعيد كان الحيوان المفضل للذبيحة وهذا ما جعله موضع اشمئزاز بالنسبة لاعدائهم الساميين الذين اتوا بعدهم^٥ . وفي الجزر كانوا يزرعون العنب والزيتون ويدوسونها في حفر ذات تجويف اسفل لاجل الخثالة^٦ . ومثل هذه الاشكال البسيطة لمعاصر النار المنقورة في الصخر قد وجدت في اماكن اخرى

١ Claude F. A. Schaeffer, « Les Fouilles de Ras-Chamra », *Syria*, vol. XV (1934), pp. 111-12, pl. xi, No. 2, facing p. 110.

٢ C. Leonard Woolley, « Hittite Burial Customs », *Annals of Archaeology and Anthropology*, University of Liverpool, vol. vi (1914), p. 88 ; *Carchemish*, Vol. ii (London, 1921), pp. 38-9.

٣ قلم باعمال الحفريات فيما ١٩٠٢-١٩٠٨ ر . أ . مكاليستر Macalister ؛ انظر كتابه : *The Excavation of Gezer*, 3 vols. (London, 1912).

٤ انظر : Macalister | vol. i, pp. 74 seq., 285 seq.

٥ Macalister | vol. ii, pp. 379-80

٦ Macalister | vol. ii, p. 49

ايضاً . ويبدو ان الكرمة وشجرة الزيتون كانتا من نباتات حوض البحر المتوسط وقد زرعتا بصورة حديثة ودجننا في اول الامر في طرفه الشرقي ومن هناك انتشرتا فيما بعد باتجاه الغرب بطريق التجارة والتوسع . ويصدق هذا ايضاً على شجرة التين . ولا يزال الزيتون وزيت الزيتون والعنب والتين والقمح والشعير حتى اليوم المواد الغذائية الاساسية في سورية . وفي بلد مثل فلسطين حيث التربة فقيرة بوجه الاجمال كان محصول الشعير اكثر بكثير من محصول القمح . وقمح الصين هو عيناً مثل قمح الشرق الادنى ويبدو ان الاصول البرية التي تحدث منها ثيرانها واغنامها المدججة اتت من الانواع البرية في الشرق الادنى^١ .

وقد جرت اعمال الحفر في مدن اخرى من العصر النحاسي الحجري من النموذج الغسولي في اريحا ومجدو^٢ (تل المتسلم) والنفولة وبيت شان (بيسان) ولاكيش (تل الدوير) واوغارت وبيبلوس . وتقابل الحضارة الغسولية في فلسطين حضارة تل حلف في سورية الشمالية وبلاد الرافدين وان اتت بعدها بقليل .

الزراعة المعتمدة على الري

وفي هذه الاثناء ازداد الاهتمام بالزراعة وتربية المواشي . واتسع استخدام الثور والغنم والماعز التي بدأ تدجينها في العصر الحجري الحديث كما يتضح من ظهورها المتكرر على التماثيل الصغيرة من الطين . وهناك اشكال حيوانية داجنة اخرى كانت نشائعة وتمثل الخنازير والحمام . وتفيدنا الدلائل التي اتت في فترة تالية ان الحمامة كانت مقرونة بالالاهة الام وهي الالهة التي تمثل مبدأ الحياة والحصب . وكانت تقع جميع مراكز السكنى تقريباً في العصر النحاسي الحجري في اودية الانهار او السهول اللحيقية وكانت تعتمد على الري . وهكذا فان العمل البارز في هذه الفترة في ميدان الزراعة هو الزراعة المعتمدة على الري وتشمل زراعة انواع متعددة من الحضار كالحس والبصل والثوم والحمص والفول والتوابل . وينعكس هذا الازدياد في تنوع الغذاء المتوفر وكميته في ارتفاع وسطي القامة البشرية ارتفاعاً ملموساً في اواخر العصر النحاسي الحجري .

(١) راجع : Carl. W. Bishop, « The Beginnings of Civilization in Eastern Asia », *Journal of the American Oriental Society*, vol. lxx, suppl. (Dec. 1939).

(٢) انظر : Robert M. Engberg and Geoffrey M. Shipton, *Notes on the Chalcolithic and Early Bronze Age Pottery of Megiddo* (Chicago, 1934).

التركيب العرقي

اما التركيب العرقي لسكان مراكز هذا الدور فانه ليس واضحا . والعنصر السائد حتما لم يكن سامياً ، والساميون كما سنرى يأتون فيما بعد ويحتلون شمالي سورية وجنوبيها . ولا بد ان ظهورهم حصل حوالي نهاية العصر النحاسي الحجري . ويحتمل القول بان بعض سكان هذه الفترة كانوا ينتسبون الى نفس العنصر الاصيل الذي تفرع عنه الساميون والحاميون فيما بعد . والبعض الآخر كانوا على ما يبدو من العنصر المعروف بالارمنوي كما تفيد دراسة بقايا المياكل العظمية في الجزر في جنوبي البلاد^١ . وتدل البقايا الاثرية الاخرى المكتشفة في كركميش وساكجي غوزي في الشمال على الانتساب لهذا العنصر وتثبت شيوع النموذج الارمنوي في سورية في العصر النحاسي الحجري . ويساعد على اثبات ذلك ان كثيراً من اسماء الاماكن القديمة في سورية الوسطى والشمالية ومن جملتها دمشق وتدمر لا تترك مجالاً لاي اشتقاق سامي اكيد ، وربما كانت من بقايا الاسماء التي سبقت ظهور الساميين . والعنصر الارمنوي الذي هو الفرع الشرقي للعنصر الآلي يتميز بالانف الثقيل البارز والجبهة العريضة القصيرة . ويمثله الحوريون والذين سبقوا الهنود الاوربيين بين الشعوب القديمة والارمن واليهود بين الشعوب الحديثة . وزادت في قوة هذا العنصر حركات تالية منها حركات الحثيين ولا تزال صفاته البارزة ظاهرة في البلاد السورية .

واذا لم يكن من شك بان عروقا مختلفة شاركت في تكوين سكان سورية فان وجود عرق غريب من « الطغاة في الارض في تلك الايام »^٢ ليس هنالك ما يؤيده . ولا بد ان قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشاراً واسعاً والتي يبلغ طول بعضها مئات الاقدام بالاضافة الى الاضرحة الاثرية المسماة دولمن (Dolmens) المبنية بحجارة كبرى غير مهذبة على أسس مستديرة متينة قد كان تأثيرها عظيماً على القادمين الجدد بما ادى الى ظهور مثل هذه الاساطير . وقد انتقلت هذه الاساطير المتعلقة « ببني عناق من الجبابرة »^٣ وبالعالمقة الى الادب العربي والاسلامي . واسم المدينة

(١) Macalister, vol. i, pp. 58-9

(٢) سفر التكوين ٦ : ٤

(٣) سفر العدد ١٣ : ٣٣

الفلسطينية الواقعة في المنطقة التي اتى منها جلبات وهي بيت جبرين (بالعبرية بيت جبرين) معناه «موطن الجبابرة» .

وتكثر الدولن حتى اليوم في شرقي الاردن ومرتفعات فلسطين وسورية وفي آسية الصغرى . وتبرهن آثار الادوات المعدنية على جدران بعض الكهوف الضخمة والحلقات النحاسية التي اكتشفت في احدى الدولن في شرقي الاردن انها تعود الى العصر النحاسي الحجري . واكثر هذه القبور (الدولن) بدائية توجد في ارض كنعان وترجع الى العصر الحجري الحديث اي ٥٠٠٠ ق.م . وتظهر المنشآت المصنوعة من الحجارة الضخمة في غربي اوربا بعد ذلك بالف سنة او اكثر وقد اثار وجودها قصصاً خيالية مماثلة عن الجبابرة في عصور ما قبل التاريخ .

التطور الفني

وقد تقدم الفن وخاصة الفن التشكيلي تقدماً محسوساً بعد ظهور المعدن . وتكثر الاختام والحلي والاوراق النحاسية الآتية من هذا العصر . وتحسنت الصفة الفنية لهذه المنتجات واشباهها . واخذ الناس يُعنون بصورة جدية بفن النحت الذي كان اول ظهوره في العصر الحجري الوسيط كما رأينا . وقد اكتشفت رسوم بشرية وحيوانية على حجارة مرصوفة في طبقات العصر النحاسي الحجري الاخيرة في مجدو . وتمثل الرسوم الجدارية المعاصرة من تلبلات الغسول الموجودة على الجدران الداخلية المبيضة المبنية فن البن اشكالاً بشرية او إلهية بالوان متعددة^٢ . وكانت تلك اول محاولة معروفة لزخرفة القسم الداخلي من المنزل . غير ان الزخارف على الحزف هي التي ظلت تتيح للفنان احسن الفرص لممارسة فنه . وفي نهاية الالف الرابع كان فن الطلاء الزجاجي قد وصل كريت في بدء العصر المينوسي ومصر في اول عصر السلالات من شمالي سورية . وتبدو الاواني المزخرفة بطلاء زجاجي حسب تقاليد سورية الشمالية كمواد مستوردة في قبور الفراعنة الاولين في ابيدوس . وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سورية مجموعة مختزنة من التماثيل النحاسية الصغيرة المصبوبة

(١) انظر : Gottlieb Schumacher, *Northern 'Ajlun* (London, 1890), p. 176 .

(٢) راجع : Millar Burrows, *What Mean These Stones* (New Haven, 1941), p. 188 ; Chester G. McCown, *The Ladder of Progress in Palestine* (New York, 1943), pp. 61-63.

وبينها إله وإلهة للخصب، يعتقد أنها أول تمثيل معروف للشكل البشري بواسطة المدن.

وقد أدى نمو صنع المعادن والحرف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي الحجري وأوائل العصر النحاسي إلى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل. وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت. وبدأت التجارة تتخذ شكلاً دولياً. وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين سورية وفلسطين ولبنان من جهة ومصر وبلاد بابل من جهة أخرى عاملاً أساسياً في حياة هذه البلاد في العصور التالية. وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها في الشرق الأدنى نشاطاً عظيماً كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقوة الكهربائية.

ولم يبق سوى اختراع عظيم واحد حتى يظهر ضوء عصر التاريخ: ذلك الاختراع هو الكتابة. وقد أتت أول الوثائق المكتوبة المكتشفة حتى الآن من سومر حوالي ٣٥٠٠ ق. م. وانتشرت الكتابة من جنوبي بلاد الرافدين إلى شمالي سورية وأصبحت متقدمة تماماً في أوائل الألف الثالث. وبالكتابة يبدأ التاريخ. ولكن قبل أن ندخل في بحث عصر التاريخ في حياة سورية علينا أن نلقي نظرة على البلاد نفسها التي كانت مسرح الحوادث التاريخية.

(١) وهي الآن في متحف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو. انظر دليله : *Handbook and Museum Guide* (Chicago, 1941), pp. 6-7

الفصل الرابع مسرح الحوادث

ان الصفة البارزة للطبوغرافية السورية هي تناوب الاراضي المنخفضة والاراضي المرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضاً وتتجه من الشمال الى الجنوب . ويمكن تمييز سلسلة من خمس مناطق طولانية من هذا القبيل بين البحر والبادية .

السهل الساحلي

واول هذه المناطق من جهة الغرب هو السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر المتوسط الشرقي من شبه جزيرة سيناء الى خليج اسكندرون (ايسوس القديمة) . وينحصر هذا السهل بين البحر والجبل فيتسع في الشمال والجنوب ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان . وفي القسم الذي يحاذي لبنان لا يزيد عرض هذا السهل عن اربعة اميال في اي جزء من اجزائه بينما يبلغ اتساعه عشرين ميلاً عند عسقلان . وفي بعض الاحيان يكون الارتفاع من السهل الساحلي مفاجئاً بشكل يستلفت النظر . ففي جونية شمالي بيروت تلي السهل الساحلي الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً تلال ترتفع مقدار ٢٥٠٠ قدم على بعد اربعة اميال من البحر . وعلى ثلاثة اميال الى الجنوب عند مصب نهر الكلب (نهر ليكوس Lycus الكلاسيكي) تصل المرتفعات الجبلية الى البحر وبذلك تعطي السكان موقعاً استراتيجياً لمنع مرور القوات المعادية . كذلك في الكرمل يحول الراس الجبلي دون وجود اي سهل ويترك مراً يكاد لا يبلغ عرضه ٢٠٠ ياردة على الساحل وهكذا يتحول الى الداخل ذلك الطريق الدولي العظيم الذي كان في العصور القديمة يبدأ بمصر ويتابع الساحل نحو الشمال .

ويرجع اصل معظم السهل الساحلي الى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالدور الثالث . وقد ترسب فوق الطبقة الطبشورية في بعض الاماكن طمي ات بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ونشرته .

والترسبات الرملية التي تحيط ببيروت قد تركتها امواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من نهر النيل. وعلى ذلك فان الساحل المكون من شواطئ رملية واحواض بحرية والذي تزيد في ثروة تربته وترويحها المرتفعات المجاورة هو سهل خصب جداً في جميع اجزائه ويشمل في الجنوب تلك السهول المشهورة في الازمنة القديمة وهي سهل صارونة وسهل فلسطين ومنها اتى اسم فلسطين كما يشمل ساحل النصرية في الشمال ومنطقة الساحل في لبنان .

والساحل بكامله من اكثر السواحل استقامة في العالم فلا يوجد فيه خليج نهري عميق او اي خليج آخر مهم الا في الشمال حيث خليج اسكندرون . ومن هذا المكان حتى حدود مصر يكاد لا يوجد على مسافة ٤٠٠ ميلاً اي ميناء يستحق الذكر .

السلسلة الغربية

وتشرف على الساحل السوري سلسلة من الجبال والهضاب تبدأ بالامانوس في الشمال وتمتد حتى جبل سينا المرتفع في الجنوب واهم اجزاها لبنان الغربي وهو لبنان الحقيقي . ولبنان هو الهيكل الذي ترتبط به السهول والمنخفضات المجاورة ارتباطا اعمق بالعظم . هذه السلسلة الجبلية هي ثاني المناطق الطولانية وتشكل اول حاجز للمواصلات بين البحر وما يقع وراءه في الشرق ولا يمكن اختراق هذا الحاجز بصورة حقيقية الا في الطرفين الشمالي والجنوبي وذلك عند خليج اسكندرون حيث يجري الاتصال بطريق الجسر السوري مع سهول ما بين النهرين ، وعند بروز السويس الذي يجري الاتصال بواسطته مع البحر الاحمر او مع الصحراء العربية . وبين هذين الطرفين يمكن اختراق الحاجز الجبلي فقط في وادي النهر الكبير (وهو Elquzherus القديم) شمالي طرابلس وعند تصدع مرج ابن عامر شرقي عكا وحيفا .

والامانوس^١ هو التواء فرعي يمتد من جبال طورس (التي تفصل سورية عن آسيا الصغرى) باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية . ويحيط امانوس بخليج اسكندرون فيشكل حاجزاً بين سورية وكليكية ويرتفع الى نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . ويشق نهر العاصي (الاورنتس Orontes) طريقه الى البحر في الطرف

١) جبل الكام بالعربية (من السريانية « اوكاما » *akkama* اي اسود) وبالتركية جبل كاور داغ (Giaour Dag اي جبل الكفار اي المسيحيين) لانه كان لمة طوية حصن الامبراطورية البيزنطية ضد الاسلام .

الجنوبي من امانوس . وتعتبر هذا الجبل طرق تمتد الى انطاكية وحلب وتمر بالمر الرئيسي وهو مضيق بيلان المعروف باسم «ابواب سورية» (Pylae Syriae) . ويتشكل امانوس من صخور كلسية كما في لبنان ومن صخور بركانية وتوجد صخور السربنتين قرب الاسكندرون وتحتوي معدن الكروم الذي يكثر في الجبال التركية بشكل خاص^١ .

وتستمر السلسلة الغربية الجنوبية مصب العاصي في جبل الاقرع (وهو جبل كاشيوس Casius في العصر الكلاسيكي) الذي يرتفع الى ٤٥٠٠ قدم ومن هناك تمتد الى جوار اللاذقية (Laodicea) حيث تعرف بجبال النصيرية (Bargylus)^٢ ثم تتابع سيرها الى نهر الكبير الجنوبي^٣ . ويشكل هذا النهر الذي ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بين هذه الجبال وبين جبال لبنان كما انه يكوّن الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسورية . وسلسلة النصيرية تتألف من صخور كلسية جوراسية مع مواد بازلتية دخيلة^٤ . وشكلها العام بسيط نسبياً ولكنه يتضمن اودية عميقة متعددة واخرى وعرة ومرتفعات شديدة الانحدار تحصن فيها جماعة الحشاشين الذين اقاموا في سورية والتجأ اليها المسلمون غير السنين المعروفون بالنصيرية . وبعض تلال هذه السلسلة لا تزال تتوجها الحرائب المهيبة للقلاع الصليبية القديمة .

لبنان

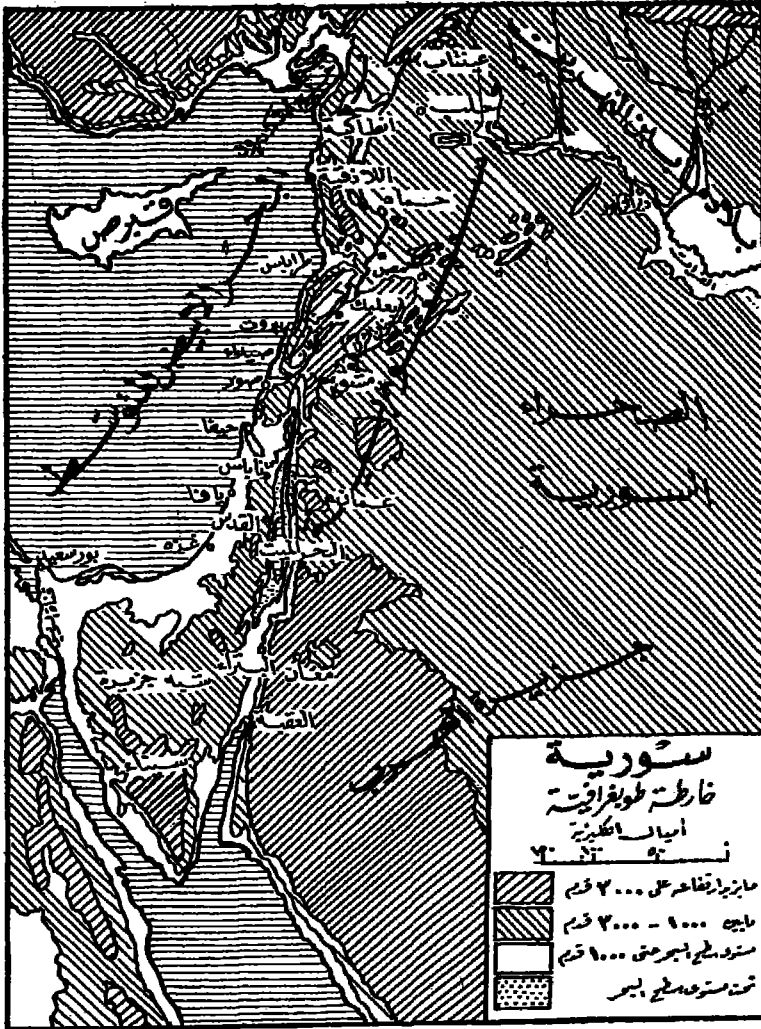
وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعاً شبيهاً بالارتفاعات الالية في جبال لبنان التي تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالي صور على مسافة ١٠٥ اميال . ويأتي اسم لبنان من الاصل السامي «لا بن» بمعنى البياض . وقد سميت الجبال كذلك بسبب الثلوج التي تغطي قممها نحو ستة شهور في السنة ، ويبقى الجليد في الفجوات الكائنة في قمم

(١) انظر : Max Blanckenhorn, *Handbuch der regionalen Geologie*, Vol. v. pt. 4, *Syrien und Mesopotamien* (Heidelberg, 1914), pp. 5, 14, 29; Alfred E. Day, *Geology of Lebanon* (Beirut, 1930), p. 30.

(٢) Pliny, *Natural History*, Bk. V, ch. 17, § 20

(٣) يقول الجغرافي العربي الاصطخري في القرن العاشر في كتابه مسالك الممالك طبعة م. ج. دي غوية M. J. de Goeje (لندن ، ١٨٧٠) ص ٥٥ ان الكلام يمتد حق اللاذقية في الجنوب ويسمي جبال النصيرية «بهاء» . انظر : René Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (Paris, 1927), p. 146.

(٤) انظر : Louis Dubertret et al., *Contributions à l'étude géologique de la Syrie septentrionale* (Paris, 1933), vol. i, pp. 23-4.



الجبال على مدار السنة . وترتفع اعلى قمة في لبنان وهي القرنة السوداء الى ١١٦٠٢٤ قداماً عن سطح البحر . وتقع في جوارها قمة شهر القضيبة التي تحتضن غابة الارز القديمة الباقية حتى اليوم وهي دون القمة المجاورة بنحو مئة قدم . واما جبل صنين المهيب الذي يشرف على بيروت وخليج مار جرجس فان ارتفاعه اقل من شهر القضيبة بمئة قدم ايضاً .

تقع غابة الارز التي ذكرناها في بقعة كالدردج يعتقد علماء الطبقات انها كانت نهاية جمودية في عصر ما قبل التاريخ^١. ووصل جليد العصر الجليدي حتى موقع نيويورك في اميركا وغطى شمالي اوربا غير انه لم يصل اى مكان قرب سورية. ومع هذا فان تزايد البرد قد اوجد جموديات محلية كالتى ذكرناها. وبما هو اكثر اهمية من توسع الجليد كهصفة لهذا العصر الجليدي ان الدلائل الاولى لوجود الانسان شوهدت في رسوبيات هذه الفترة. ويبدو ان الانسان الاول ظهر في اوربا خلال آخر فترة ما بين العصور الجليدية حيث ساعد الدفء على انسحاب الجليد بصورة مؤقتة. وفي حوالي نفس الوقت ان لم يكن قبل ذلك ظهر البشر الاولون في سورية وسائر بلاد الشرق الادنى.

ويخبرنا علماء الطبقات انه قبل ذلك بعصور كثيرة كانت مياه ما نسميه اليوم بالبحر المتوسط تغطي اراضي سورية بأسرها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالي الهند. وكان ذلك في العصور الجوراسية^٢ والكريتاسية البعيدة. وخلال هذه الاحقاب الطويلة تراكت الرسوبيات الآتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر هذا الامتداد السابق للبحر المتوسط (المعروف باسم تيثس Tethys) لكي تشكل الصخور الكلسية التي يتألف منها معظم السلسلة الغربية في سورية. وفي الدور الثالث الطبقي الذي أتى بعد العصر الكريتاسي (الطبشوري) حصلت حركات ارضية واسعة نتج عنها تضييق رقعة تيثس الهائلة وادى الامر الى ظهور جبال النصرية ولبنان الغربي والشرقي ومرتفعات اليهودية وهضاب الصحراء العربية وذلك برفع الطبقات السفلى والتوائها. وتساعد البقايا الحيوانية التي دفنت في الرسوبيات وتحجرت فيما بعد على تحديد العصر الذي حصلت فيه عملية الترسب. ومن اشهر الاماكن التي وجدت فيها الاسماك المتحجرة ساحل علما (قرب جونيه) وحافل (فوق جبيل او بيلوس القديمة^٣) واقدم اشارتين لاشك فيهما الى الاسماك المتحجرة في الادب تظهر ان احداها في ترجمة لاحد الصليبيين في عام ١٢٤٨ في صيدا^٤ والآخرى في كتابات البيروني قبل ذلك بقرنين في منطقة جنوب شرقي بحر الخزر^٥.

(١) G. Zumoffen, *Géologie du Liban* (Paris, 1926), pp. 152-3; Day, p. 21

(٢) وسُميت كذلك باسم جبال الجورا بين فرنسا وسويسرا التي ترجع الى هذا العصر.

(٣) انظر: Zumoffen, pp. 137-41

(٤) انظر: Joinville, *Histoire de Saint Louis*, ed. Natalis de Wailly (Paris, 1874), § 602.

(٥) راجع: صفة المعمور، لناشره أ. زكي والدي طوكان (نيودلهي ١٩٤١) ص ٥٦

وتضم صخور لبنان سلسلتين عليا وحفلى من الصخور الكلسية بينها طبقة متوسطة من الصخور الرملية . والسلسلة العليا من الطبقات الكلسية في لبنان تشكل قمم الجبال وتتراوح في سمكها بين بضعة مئات من الاقدام وخمسة آلاف قدم . اما قاعدة الطبقات السفلى فانها ليست معرضة في اي مكان حتى يمكن تقرير سمكها . وبينما تشكل هذه الطبقات السفلى القسم الاسفل في الوديان العميقة فانها ارتفعت بواسطة الالتواءات الى نحو ٤٠٠٠ قدم في كسروان و ٧٠٠٠ قدم قرب تومات نيحا (وهما القمتان التوأمان قرب جزين شرقي صيدا) والى نحو ٩٠٠٠ قدم في جبل حرمون . وتنتشر بكثرة على سطح الطبقة الكلسية السفلى في لبنان الشرقي والغربي قطع من فلزات الحديد تبرز للعيان وكانت عملية اذابتها تحصل حتى العصور الحديثة في افران بدائية وقد ساعد ذلك على تعرية لبنان من الأشجار بالشكل الذي نراه فيه الآن .

والصخور الكلسية في الطبقات العليا هي التي سيطرت على مشاهد لبنان خلال العصور . ولونها المائل للرمادي هو الذي اعطى المناظر شكلها . واثقال هذه الصخور قد اعطى التربة للزراعة وجعل الطرق كثيرة القبار في الصيف ، ومن حجارها انت مواد البناء . وقد نفذت مياه المطر بصورة مستمرة خلال طبقة الصخور الكلسية العليا حتى طبقة الرمال والطين التي تغطي الطبقة الكلسية الدنيا وتحفظ بالمياه فتوجد تلك الينابيع المتدفقة المتلألأة التي تمنح نعمة الحياة للاودية والمنحدرات .

وسلسلة الطبقات المؤلفة من الصخور الرملية التي تنحصر بين الطبقة الكلسية العليا من العصر الكرييتاسي الاخير وبين الطبقة الكلسية الدنيا من العصر الجوراسي الاخير هي من العصر الكرييتاسي الاول في بعض اقسامها . وتشكل امتداداً شمالياً للصخور الرملية النوبية في مصر وسيناء والجزيرة العربية وشرقي الاردن . وكثافة الطبقات الرملية في لبنان تتراوح بين بضعة مئات من الاقدام وبين الف قدم . وتخال هذه الطبقات الرملية من المتحجرات ولكنها تحوي طبقات رقيقة من الليغنيت التي استخرجت محتوياتها في العصور الحديثة لتقديم الوقود لمعامل الحرير ولاجل السكك الحديدية في الحرب العالمية الاولى . وفي بعض المناطق ومنها

كسروان والمتن شرقي بيروت حيث أزال التآكل طبقة الصخور الكلسية العليا أصبحت طبقتا الصخور الرملية والصخور الكلسية الدنيا ظاهرتين للعيان . وطبقة الصخور الكلسية الدنيا وهي سمراء مائلة الى الاحمرار تتكون في بعض الاماكن ذات الوان غنية متنوعة وتبدو في احسن مظهرها ليس في لبنان وانما في البتراء . وتنتج عنها تربة صالحة بشكل خاص لنمو الصنوبر . وعندما تختلط بالطين وتروىها المياه فانها تعطي التربة الحصى ليسانين التوت والفواكه التي يقوم عليها جانب عظيم من ازدهار السهل الساحلي حول بيروت .

ويضع المشهد اللبناني امامنا الخطوط الصارمة للمرتفعات المتعددة الالوان المنحوتة بشكل واضح من جهة ، والبحر الذي يضيئه شعاع الشمس ويبدو فيه اللون النيلي الفني كما يتلون سطحه بمختلف الالوان من جهة اخرى . وتستمد المشاهد وضوحها من السماء الصافية والافق البعيد ومن ذلك الجو الرائق حيث تظهر بوضوح خطوط المظاهر الطبيعية والوانها وحيث يمكن ادراك ذلك التباين الشامل بين البر والبحر وبين الجبال والادوية . وقد اثر هذا الجمال بسحره على الشعراء والمغنين - ولا يزال - منذ ايام العبرانيين حتى العصور العربية .

موطن للاجئين

وبما ان طبقات جبال لبنان مائلة على العموم وملتوية وغامودية اكثر منها افقية فقد نتج عن ذلك خليطاً من التلال والشواهي والادوية بما يجعل المواصلات صعبة بين مناطق البلاد واقسامها . ويزيد الامور تعقيداً ان الزحول او التصدعات تكثر في عموم المناطق وان مختلف الاراضي قد ضغطت بعضها على بعض عند خطوط الانهدامات فحطمت بعضها بعضاً وذلك عندما تعرضت القشرة الارضية في العصور البعيدة للضغط والالتواء . ومثل هذه الاراضي كانت خلال العصور ملاحية للافراد والجماعات الذين اختلفت ميولهم السياسية وعقائدهم الدينية عن اهل بيئتهم كما انه كثرت فيها بشكل غير معتاد الادوية المرتفعة والمساحات الحصى فقصدتها السكان المجاورون المتصفون بكثرة النشاط وبتعشق الحرية . وهكذا فان الموارنة والدروز والشيعية (الذين يعرفون بالمتاوله في سورية) استقروا في معاقل لبنان وحافظوا على كيانهم . وكان الارمن والاشوريون الذين هربوا من مساوي الحكم العثماني من آخر الشعوب التي وجدت لها مأوى هناك . وقد آثر النساك والزهاد

المسيحيون كهوف لبنان على مسرات هذه الحياة الدنيا ، ولجأت قبائل من اللصوص اليها ولكن لاسباب مختلفة^١ . وهناك عدد كبير من المغاور اليوم مكرسة للعدراء وسائر القديسين كما ان وادي نهر قاديشا^٢ بكامله ويمتد من جوار غابة الارز الكبرى حتى طرابلس قد احتفظ باسمه السرياني الذي يعني « مقدس » .

فجبال لبنان وهي جبال بكل معنى الكلمة قد كانت خلال العصور موطن اللاجئين وقضاياهم الفاشلة كما انها كانت آخر المناطق التي سقطت في ايدي الغزاة الاجانب .

الجليل

وفلسطين من الوجهة الطبعية هي امتداد لبنان باتجاه الجنوب^٣ . وسهل لبنان الساحلي يستمر في سهل صارونة^٤ المتزوج الذي يمتد من الكركم الى جنوبي يافا ويتصل بساحل المنطقة الفلسطينية (فلسطينيا)^٥ . وتستمر سلسلة سورية الغربية جنوبي انهدام القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الاعلى وهو بالواقع قسم منعزل من جبال لبنان وفي سلسلة التلال المنخفضة المعروفة باسم الجليل الادنى . وتبلغ مرتفعات الجليل الاعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفا حيث تبلغ ٣٩٣٥ قدماً وهي اعلى قمة في فلسطين . ويرتفع الجليل الادنى الى ١٨٤٣ قدماً عند جبل طابور قرب الناصرة . وتشهد السلسلة الغربية بعد ذلك اعظم انقطاع لها في مرج ابن عامر (Esdraelon) الذي يجتاز فلسطين بكاملها فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية في الجنوب . وتشمل تلال السامرة التي تنخلها الاودية بجبل عيبال (الجبل الشمالي وارتفاعه ٣٠٧٧ قدماً) وبجبل جرزيم (٢٨٤٩ قدماً) وهو جبل السامريين المقدس . وننتقل من هذه التلال بصورة تدريجية لا يشعر بها الى هضبة اليهودية الكلسية المتراحة والوعرة التي تبلغ ذروتها جنوبي حبرون حيث يرتفع /

(١) Strabo, *Geography*, Bk. XVI, ch. 2, §§ 18, 20

(٢) ويسمى نهر ابي علي قرب مصبه في البحر .

(٣) Day, p. 24 ; cf. Dubertret, pp. 70-73

(٤) من العبرية شارون *shāron* ومعناها سهل . ولا يوجد اسم عربي له .

(٥) انظر ما جاء بشأن الفلسطينيين في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

جبل جتة^١ الى ٣٧٤٧ قدماً عن سطح البحر . وتقع اورشليم على ارتفاع ٢٥٥٠ قدماً . ثم تتحدّر هضبة اليهودية بتموجات عريضة نحو بئر السبع . وقد سميت هذه المنطقة الجنوبية القاحلة باسم مناسب من قبل العبرانيين وهو النقب (الارض المفلوحة) .

الكهوف

ان التشكيلات الكلسية الواسعة التي تتجه في لبنان نحو البحر بشكل رؤوس وتحفّر فيها الامواج بعض الكهوف يمثلها لنا جبل الكرمل الذي يرتفع ١٧٤٢ قدماً عن البحر وقد وجدت في كهوفه هياكل اقدم البشر في الشرق الادنى^٢ . وقد تكون بعض الكهوف الان في مناطق بعيدة في الداخل حيث كان يصل البحر وما يرفده من انهار جوفية في سالف العصور . وربما وسع سكان الكهوف او اجروا تعديلات في المغاور والكهوف التي اتخذوها مسكناً لهم . واستخدمت هذه الكهوف ملاجئ المضطهدين لاسباب دينية او سياسية كما في لبنان . وقد التجأ ايليا عند هربه من غضب زوجة آخاب الى الكهوف وكذلك فعل داود حين هرب خوفاً من انتقام شاول^٣ . ومن الكهوف ما استخدم كمكان للدفن^٤ . وربما كان المكان الذي دفن فيه جسد المسيح مغارة من هذا القبيل فاصبحت اقدس مكان في العالم المسيحي .

حوض التصدع او الزحول

والمنطقة الطولانية الثالثة في سورية هي عبارة عن حوض طويل ضيق يجتبل مكانا متوسطا في البلاد . وبعد ان يبدأ هذا الحوض في الشمال عند المنعطف الغربي للعاصمي في سهل متسع يسمى العمق^٥ فانه يرتفع عند حماة الى نحو ١٠١٥ قدماً عن سطح البحر

(١) في الترجمة العربية لتتوراة « يوطة » (سفر يشوع ١٥ : ٥٥) وهي يطّا الحالية . انظر :

F. M. Abel, *Géographie de la Palestine*, vol II (Paris, 1938), p. 91.

(٢) انظر ما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٣) سفر الملوك الاول ١٩ : ٩ ؛ سفر صموئيل الاول ٢٢ : ١ .

(٤) سفر التكوين ٢٣ : ٩ ؛ ٤٩ : ٢٩ - ٣١ .

(٥) وقد ورد اسمه اولي « Unqi » في الصومس الاشورية . انظر : Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. I (Chicago, 1926), §§ 769, 772, 821.

ثم يسمى سهل البقاع بين سلسلتي لبنان ويستمر جنوباً في وادي الاردن حتى البحر الميت ومن هناك بطريق وادي العربية حتى خليج العقبة وهو النفرع الشرقي للبحر الاحمر . وقد تشكل هذا الحوض بتصاعد منطقة وزحول جانب منها في قشرة الارض في عصور طبقية حديثة نسبياً . ان التصدع هذا الذي يشمل وادي البقاع والاردن والعربية هو من اغرب المظاهر في سطح الارض وخاصة في قسمها الجنوبي . ويرتفع سطح هذا الحوض المتصدع عند الحولة سبعة اقدم عن البحر ، وعند بحيرة طبرية ينخفض ٦٨٥ قدماً عن البحر واما عند البحر الميت فانه يبلغ ١٢٩٢ قدماً تحت سطح البحر وهذا الانحدار غاية في السرعة^٢ . هنا اذاً يقع «قبو العالم الحقيقي» حيث لا يوجد مثل هذا الانخفاض الملموس في اي مكان آخر .

البقاع

يتراوح عرض البقاع^٣ وهو الجزء الكائن بين سلسلتي لبنان بين ستة وعشرة اميال ويرتفع في جوار بعلبك الى ٣٧٧٠ قدماً عن سطح البحر . وبقرب هذه المنطقة تقع نقطة توزع المياه حيث يتجه العاصي ببطء نحو الشمال بينما يتجه الليطاني نحو الجنوب . والعاصي هو اطول انهار سورية لان الفرات ليس نهراً سورياً من حيث منبعه او من حيث مجراه الكامل . والعاصي والليطاني هما النهران الكبيران الوحيدان في سورية . ويجذو الليطاني حذو العاصي عندما ينعطف فجأة في مجراه الاسفل نحو الغرب عند سفح قلعة الشقيف^٤ الصليبية ويشق طريقه في صخور لبنان الكلسية في الطبقة الكريتاسية العليا ويسمى بالقاسمية قبل مصبه بين صور وصيدا .

(١) Picard, pp. 4 seq.

(٢) انت تسمية الاردن من العبرية «تاردن» اي التنازل . وتسمى بحيرة طبرية Genessaret في العهد الجديد (لوقا ١٠ : ١١ ؛ يوحنا ٦ : ١) . وفي العهد القديم تسمى Chinnereth (اي شيبه بالقيثار) انظر سفر العدد ٣٤ : ١١ ؛ قارن مع سفر الملوك الاول ١٥ : ٢٠ . والحولة كانت تسمى في العصر الكلاسيكي بحيرة سمخ Semechonitis .

(٣) ومعناه الحرثي «حيث تركد المياه» وهو سورية الجنوبية في العصر الكلاسيكي وكانت تضم حوران وقسماً من الاردن . انظر : Strabo, XVI. 2. 21 ; Josephus, *Antiquities of the Jews*, I, 11. 5 ; XIII. 13. 2, 3.

(٤) وكانت تعرف بقلعة Belfort .

وبما ان هذين النهرين يجريان في سهل البقاع فان الاراضي حولهما هي اوسع اراضي للرعي واحسنها في سورية . وبما ان رواسب الطمي الحديثة والغرين تكسو هذه الاراضي فانها تشكل انسب تربة للزراعة . غير ان مجرى العاصي مثل كثير من الانهار الاخرى منخفض لدرجة تجعل استخدام مياهه بسهولة متعذراً . ولذلك استعملت التواعير^١ لرفع المياه لسطح الارض وقد نامت على صوتها المطرد النغم في حمة اجيال متعاقبة من الناس منذ العصر الروماني .

ويبلغ طول (وادي الاردن^٢) نحو خمسة وستين ميلاً ويتراوح عرضه بين ثلاثة واربعة عشر ميلاً . وتتلقى هذه الحفرة الفريدة عدداً كبيراً من السواقي من المنحدر الغربي مما يجعل فلسطين ارضاً تتصرف مياهها بكثرة وتتجه هذه المياه في النهاية الى اكثر البحيرات ملوحة في العالم . ودرجة ملوحة مياه البحر الميت غير المعتادة ناتجة عن عدم وجود مخرج من جهة وعن الاتصال بالاقيانوس في عصور ما قبل التاريخ من جهة اخرى . وتحوي هذه المياه نسبة مرتفعة من البرومين واليوتاس وكلوروات المغنيزيوم . وهناك صخور كلسية قيرية واسفلت من النوع الممتاز في البحر الميت وما حوله وكذلك في حاصبيا عند السفح الجنوبي الغربي لجبل حرمون .

الزلازل والبراكين

وتدل المنحدرات المتصدعة في لبنان والوادي المتصدع الكبير الذي يستمر في منخفض الاردن والبحر الميت على وجود منطقة للزلازل هناك . غير ان منطقة الهزات الارضية لا تقتصر على اماكن الزحول والتصدع . فالهضبة الواقعة شرقي جبل حرمون وجنوبي دمشق تحترقها خطوط من البراكين الحامدة وتعلوها في اماكن متفرقة حقول المواد البركانية . وتوجد ينابيع مياه حارة موزعة في بعض المساحات كما في طبرية ومنطقة البحر الميت وتدمر .

وتبرز حوادث الزلازل في تاريخ سورية اكثر من بروز البراكين في جغرافيتها فقد اصبحت انطاكية في طرف سورية الشمالي بالزلازل خلال العصور وخربتها في

(١) ومفردعا ناعورة ومنها اتت كلمة *noris* الافرنجية .

(٢) ويسمى غور الاردن او النور . ويسمى الاردن ايضاً نهر الشريعة . انظر ابو الفدا ، تقويم البلدان طبعة M. Reinaud and M. de Slane (باريس ١٨٤٠) ص ٤٨ .

القرون الستة الاولى الميلادية لا اقل من عشر مرات^١ . وتشاهد في جدران معبد الشمس المشهور في بعلبك آثار الاضطرابات التي سببتها الزلازل وكذلك الامر في القلاع الصليبية الباقية . ويشير تدم اسوار اريحا المفاجيء في عصر الغزو الاسرائيلي وكذلك خراب سدوم وعمورة الشهير في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الميت الى حصول زلازل بالاضافة الى النيران في الحالة الاخيرة التي كان سببها ما انتجته الزلازل من ترشحات نفطية وينابيع من الاسفلت . وعندما كان انبياء العبرانيين وشعراؤهم ومؤرخوهم يكتبون في وصف سلطة يهوه وقدرته فانهم كانوا يعتمدون على مشاهداتهم الشخصية للهزات الارضية التي ترافقها الامواج المرتفعة كما انهم كانوا يستخدمون الصواب المألوف لهم سابقاً والمتصلة بهذه الحوادث^٢ . ويخبرنا العهد الجديد في التوراة عن حدوث زلزال عند صلب المسيح وآخر عند قيامته .

وقد كانت مثل هذه الامواج التي يسببها المد عند حدوث الزلازل مخربة بشكل خاص في الساحل الفينيقي . ونال صور وصيدا الكثير من اذائها ومن اذى الهزات^٣ . وبما جعل صور تتأثر بصورة خاصة طراز مبانيها من نوع «ناطحات السحاب» حيث بلغ ارتفاع بعضها سبعين قدماً او اكثر^٤ . وحصلت آخر زلزلة عنيفة في شمالي سورية عام ١٨٢٢ وحولت حلب وغيرها من المدن الى مجموعة من الحرائب وازهقت عشرات آلاف الارواح . وآخر زلزال قوي في فلسطين كان في ١٨٣٧ وهدم صفد تهديماً تاماً^٥ .

السلسلة الشرقية

تشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة في تضاريس سورية . وتبدأ السلسلة في نقطة جنوبي حصص وتقابل لبنان الغربي بلبنان الشرقي^٦ على طول واحد وارتفاع

(١) انظر : Ellen C. Semple, *The Geography of the Mediterranean Region* (London, 1932) p. 42.

(٢) انظر سفر عاموس ٥ : ٨ : ٩ : ٦ ; اشعيا ٢٩ : ٦ ; ايوب ٩ : ٥ - ٦ : ٩ : ٢٨ ; الزمير ٦٠ : ٢ : ١١٤ : ٣ - ٤ ; الملوك الاول ١٩ : ١١ ; العدد ١٦ : ٣١ - ٣٢ .

(٣) انظر : Seneca, *Questiones naturales*, VI. 1. 11, 13 ; 24. 5 ; Strabo I. 3. 16

(٤) Strabo V. 3. 7

(٥) Francis R. Chesney, *The Expedition for the Survey of the Euphrates and Tigris* (London, 1850), vol. I, pp. 436, 441 ; H. B. Tristram, *The Land of Israel*, 3rd. ed (London, 1876), p. 567.

(٦) ويسميه الجغرافيون العرب سنير واحياناً كانوا يطلقون الاسم على قسم من السلسلة فقط .

ياقوت ج ٣ ص ١٧٠ .

واحد تقريباً ثم تنحدر. من حرمون^١ بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الغرب وهي الجولان^٢ ومن هناك تستمر في شرقي الاردن في تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة وتنتهي في جبل سعيور^٣ جنوبي البحر الميت .

لبنان الشرقي

وتقسم هضبة بردى (نهر أبانا في التوراة) وواديه سلسلة لبنان الشرقي الى قسمين : شمالي لا يكاد يوجد في منحدره الغربي قرية واحدة ، وجنوبي حيث يقوم جبل حرمون وهو من اعلى قمم سورية (٩٣٨٣ قدماً) واكثرها جلالاً وتكثر القرى في منحدره الغربي . وبسبب قلة الامطار والنبات في لبنان الشرقي فضلاً عن الاسباب الاخرى فان سكانه اقل كثافة ورقياً من لبنان الغربي . وقد اتاه سكانه عموماً من شرقي سورية^٤ . وتم الحدود الشرقية للجمهورية اللبنانية اليوم بجبل حرمون وتعطف حول الزبداني وتتبع ذرى القسم الشمالي من لبنان الشرقي . وتسير سكة حديد بيروت - دمشق في وادي الزبداني وبردى .

وينبع نهر بردى في مرتفعات وادي الزبداني الغني ويتجه نحو الشرق ويحيي قسماً كبيراً من الاراضي السورية التي بدونه كانت تبقى قاحلة ويعمل على خلق مدينة دمشق وهي مركز الحضارة الامامية على ابواب البادية . وبعد ان يروي بساتين دمشق المشهورة التي تشكل الفوطة وقد سميت دمشق بالفحاء بسبب رائحتها الذكية ؛ فانه يتفرع الى خمسة فروع او جداول تفيد منها شوارع العاصمة السورية ومنازلها . ويرجع نظام المياه في دمشق الى عهد الخلفاء الامويين الاولين^٥ .

(١) وهو جبل سيريون المذكور في الزمير ٢٩ : ٦ ؛ سفر التثنية ٣ : ٩ . ويسمى حديثاً جبل الشيخ ، وجبل الثلج في المقدسي : احدث التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة م . ج . دي غويه (ليدن ١٨٧٧) ص ١٦٠ ؛ ابو الفداء ص ٤٨ ، ٦٨ .

(٢) من العبرية Golān بمعنى « دائرة » وفي المصور الكلاسيكية Gaulanitis . ويذكر الجولان في ياقوت : معجم البلدان ، طبعة وستفالدج ٢ (ليبرك ١٨٦٧) ص ١٥٩ .

(٣) وفي العبرية سعيور وهو مرادف تقريباً لأدوم .

(٤) ويشير اسم « اهل الجبل » او الجبليين الى سكان السلسلة الغربية .

(٥) انظر ما سنقوله في الفصل السابع والثلاثين من هذا الكتاب عن دمشق الاموية .

حوران

ويمتاز سطح هضبة حوران^١ بأنه بركاني في قسمه الاعظم وفيه صخور بازلتية ورتبة غنية . وتبدأ الاراضي البركانية في التناول جنوبي دمشق وتشمل مساحة طولها ستون ميلاً بما يعادلها عرضاً وهي اكبر مساحة من هذا النوع في سورية^٢ . ويحد هذه الاراضي في الشمال الشرقي منطقة اللبعا^٣ ذات الحجارة السوداء وهي ملجأ - كما يدل اسمها العربي - للقبائل المتمردة في مختلف العصور وفي الجنوب الشرقي المنطقة الجبلية المعروفة باسم جبل حوران او جبل الدروز . واحتلال الدروز لهذه المنطقة امر حديث نسبياً ويرجع الى اوائل القرن الثامن عشر على اثر الاضطرابات الحزبية في لبنان^٤ . وترتفع هذه الكتلة الجبلية في شرقي حوران الى ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدم وتقوم بين حوران والبادية . وتمتد المنطقة البركانية غرباً حتى تشمل الجولان . وينتج حوران القمح بكثرة ومراعيه جيدة غير انه قليل النبايع ولا اشجار فيه . وتتألف التربة من مواد بركانية سوداء منحلة ومن غرين احمر وهي غنية في المواد المغذية للنبات وتحتفظ بالرطوبة وتغطي الصخور الكلسية التي تشكل الصخور السطحية في سائر الاماكن . وتشمل البقايا الاثرية في حوران الاضرحة القديمة - وهي من صنع الانسان البدائي - ومعالم الطرق المندثرة والاقنية والصهاريج والمباني والحصون الرومانية والبيزنطية التي تدل على ازدهارها السابق وعلى انها كانت مخزن حبوب الامبراطورية . ولا تزال تومن فلسطين ولبنان بالقمح كما كانت تفعل في عهد العبرانيين والفينيقيين .

(١) وهي منطقة Auranitis في مصر الكلاسيكي، وياشان في التوراة، وجورانو عند الاشوريين (انظر Luckenbill, vol. I, §§ 672, 821) اي « الارض المحوكة » . وتقتصر حوران في المعنى المحدود للكلمة على السهل الواقع شرقي الجولان وغربي البجا وجبل الدروز، وفي المعنى الواسع وشمالية في العهد العثماني كانت تشمل هذه المناطق الثلاث بالاضافة الى عجلون .

(٢) انظر : D. G. Hogarth, *The Nearer East* (New York, 1915), p. 66 .

(٣) ويشير العرب الى هذه المنطقة والى منطقة الصفا التي تجاورها في الشرق باسم الوعر مما يقابل اسمها الكلاسيكي، Trachonitis . انظر كتاب : George A. Smith : *The Historical Geography of the Holy Land*, 11th ed. (New York, 1904) pp. 615 seq. ; do., *Syria and the Holy Land* (London, 1918) p. 29 .

(٤) سليمان ابو عز الدين : « توطن الدروز في حوران » مجلة الكلية ١٢ م (١٩٢٦) ص ٣١٣ - ٣٢٣ . انظر ما سنذكره في الفصل ٤٩ من هذا الكتاب عن هذه الحوادث .

وتمتد أراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقي في صحراء الحماة الى تلك الحقول الحجرية في الحجاز المعروفة باسم «حرات ١». وتستمر الطبقات الكريتاسية العليا في السلسلة الشرقية في شرقي الاردن وتبلغ ذروتها في الشمال في جبل عجلون (٤١٣٧ قدماً) وجبل جلعاد^٢ (٣٣٩٧ قدم) الذي يجاوره. وترتفع في الجنوب قرب الكرك^٣ الى ارتفاع ٣٧٧٥ قدماً فوق سطح البحر بينما تبلغ طبقات الصخور الرملية قرب البتراء ارتفاع ٤٤٣٠ قدماً.

بادية الشام

وتتدرج هضاب شمال شرقي حوران وشرقي الاردن نحو منطقة السهوب والحرات والرمال وتلتقي اخيراً بالأراضي القاحلة التي تشكل بادية الشام. وهذه المنطقة هي الخامسة والاخيرة في تضاريس سورية. والسهول الصحراوية صخرية وجيرية في غالبيتها ويندر ان تكون حجرية والبادية هي تمة صحراء بلاد العرب الكبرى وتعتبر القسم السوري من المستطيل العربي وتفصل سورية عن العراق. وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي للهلال الحبيب. وتسمى الصحراء التي تحيط بالطرف الشرقي اي العراق ببادية الجزيرة (او بادية ما بين النهرين) في قسمها الشمالي وتدعى بادية العراق او السهارة في قسمها الجنوبي. وسطح القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام وهو الحماة حجري في بعض اجزائه ورملي في اجزائه الاخرى ويكسوه العشب في الربيع. وتؤلف البادية السورية - العراقية مثلثاً كبيراً ترتكز قاعدته على خليج العقبة في العرب وخليج الكويت في الشرق بينما تصل قمته منطقة حلب في الشمال. ويبلغ عرض هذه البادية في اوسع مناطقها ٨٠٠ ميل. وكان سكانها الرحل يتاجرون مع السكان الحضريين على جانبيها ويعملون كوسطاء وأدلاء ورؤساء قوافل كما انهم في العصور البعيدة كانوا يبنون مدنات مثل تدمر الواقعة على الطريق عبر البادية بين الشرق والغرب. وكانوا خلال العصور بمثابة احتياطي دائم بالنسبة للسكان الحضريين يقدونهم بدم جديد اما بطريق

(١) وهو الاسم العربي للأراضي البركانية.

(٢) وتعني بالعربية منطقة حجرية قاسية.

(٣) وعرفت عند الصليبيين باسم Le Crac. انظر ما سيرد في الفصل ٤٥ من هذا الكتاب بشأن الكرك.

الفتح او بواسطة التغلغل السلمي . غير ان البدو عادة يقاومون الاستقرار وفي مجتعمهم عن المراعي لقطعانهم يجوبون السهول الصحراوية التي تكسوها الاعشاب بعد قدوم المطر . وحسن استقبال البدو للضيوف والزائرين لا يقترن بحسن استقبالهم للامور الجديدة . واذا كان التقدم في المجتمع المستقر يقوم على محاولة تغيير شروط المعيشة ويبتثها وتكييفها فإن سر البقاء في مجتعم بدوي يقوم على قبول هذه الشروط والتكيف بموجبها .

ان كثيراً من الجداول التي تنساب من المنحدرات الشرقية للسلسلة الشرقية في سورية تغلب على امرها في نزاعها مع الصحراء وتغيب في تربتها القاحلة . والنزاع القديم بين الارض المزروعة والبادية هو حقيقة اساسية في جغرافية هذه المنطقة الطبيعية . والبادية التي تشبه البحر في كثير من مظاهرها كانت في حركاتها خلال عصور التاريخ مثل بحر عظيم تعيد بصورة مستمرة عملية المد والجزر . وهذا النزاع له ما يقابله في النزاع القديم ايضاً بين البدو الرحل الذين لا يملكون شيئاً في البادية وبين المزارعين المستقرين الذين يملكون اشياء في السهول الحصبة . وقبل مجيء الاسرائيليين بقرون وبعد قدومهم بقرون كانت الانظار الطامعة تتجه من البادية نحو البلاد المجاورة التي « تفيض لبناً وعسلاً » .

الفصل الخامس

البيئة الطبيعية

اتينا في الفصل الاخير على وصف مسرح التاريخ السوري في وضعه الطبقي والجغرافي . ومنتابع وصفه في هذا الفصل من ناحية مظاهره الطبيعية ومن جملتها الاقليم والنبات والحيوان .

الاقليم

ان الصفة السائدة في اقليم سورية هي تناوب فصل بمطر يبدأ من منتصف تشرين الثاني حتى نهاية آذار مع فصل جاف يشمل بقية السنة . وينطبق هذا بوجه الاجمال على منطقة البحر المتوسط بكاملها وسببه موقعها بين منطقتين مختلفتين تماماً في درجة هطول امطارهما وهما : منطقة الرياح التجارية الجافة او الارض الصحراوية الافريقية في الجنوب ومنطقة الرياح الغربية في الشمال . وهذه الرياح الغربية المحملة بالرطوبة هي التي تجلب المطر طوال السنة من المحيط الاطلسي الى اوروبا الوسطى والشمالية . وهي تشكل في فصل الشتاء الرياح السائدة في سورية. اما في الصيف فان منطقة الحر تنتقل شمالاً من خط الاستواء وتصبح البلاد خلال شهور عديدة قريبة من الاحوال القاحلة التي تسود الصحراء الكبرى . ولا يحصل ذلك التقلب في المناخ الذي يقال انه يثير النشاط في اي مكان .

وعندما تهب الرياح الغربية السائدة على البحر المتوسط مصحوبة احيانا بالعواصف فانها تمتلئ بالرطوبة ، ثم تصادف جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى في فلسطين فترتفع . وبارتفاع الهواء فانه يتمدد وتسقط بعض محتوياته بشكل امطار . فالعوامل المؤثرة على المناخ اذاً هي درجة القرب من البحر والتضاريس والارتفاع والبعد عن الصحراء وعمل التأثيرات التي مصدرها البحر المتوسط والصحراء الكبرى . ونتيجة ذلك هي ان المنطقة الساحلية على السفح الغربي لجبال سورية تتلقى اكبر كمية من الامطار وتتناقص هذه وفقاً لدرجة الابتعاد من القرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب .

وتشهد الأرقام بهذه النتائج . فمعدل الأمطار السنوية في بيروت خلال الاحدى واربعين سنة المنتهية في تموز ١٩٢٦ كان ٣٥٤٩ قيراطاً (بوصة) . وفي الساحل الفلسطيني كان معدل الأمطار السنوي ٢٣ بوصة . ومعدل كمية الأمطار في الشوير على ارتفاع اربعة آلاف قدم فوق بيروت خلال الخمس وعشرين سنة المنتهية في تموز ١٩٢٦ كان ٥٩٤٧ بوصة ، وفي القدس على ارتفاع ٢٥٥٠ قدماً فوق الساحل كان المعدل ٢٥٤٦ بوصة وكان متوسط الأمطار في كسارة في منطقة البقاع المحاطة بالجبال في التصدع المشار اليه سابقاً ٢٤٤٨ بوصة وفي وادي الاردن كانت ٥٤٥ . وتقل الأمطار بعد مرتفعات فلسطين الوسطى الى ان تصل لتلال شرقي الاردن حيث يرتفع الهواء فيتغلي عما فيه من رطوبة وهكذا يتخطى القسم الجنوبي من وادي الاردن تقريباً . ووراء الحاجز المزدوج الذي تشكله جبال لبنان للأمطار فان دمشق لا يصبها سوى عشر بوصات . ومتوسط الأمطار في ذروة مرتفعات شرقي الاردن ٢٧٤٥٥ بوصة غير ان القسم الشرقي من شرقي الاردن لا يصبه سوى ٣٤٩ بوصة^١ . وبوجه الاجمال فان ساحل سورية وفلسطين يصبه من الأمطار اكثر من ضعف ما يصب ساحل كاليفورنيا الجنوبية والسفلى .

ومتوسط درجة الحرارة السنوية في بيروت ٦٨ درجة فهرنهايت . وكانت اعلى درجة للحرارة سجلها مرصد الجامعة الاميريكية في بيروت ١٠٧،٠٦ درجات (فهرنايت) في ١٨ ايار ١٩١٦ . واوطى درجة للحرارة كانت ٢٩،٨٢ (فهرنايت) في ٣٠ كانون الاول ١٨٩٧ و ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٧ . وتبلغ الرطوبة ذروتها في سواحل لبنان في تموز ، مع ما في ذلك من غرابة ، ويكون متوسطها ٧٥ بالمائة بينما تبلغ ادنى درجاتها في كانون الاول بمعدل ٦٠ بالمائة^٣ . وفي الشتاء تنتشر التأثيرات الكثيفة الباردة والجافة من آسيا الوسطى فوق منطقة الهضاب الشرقية في سورية فتسبب الصقيع والتلج ويكاد لا يحصل ذلك في منطقة الساحل .

(١) منصور جرداق : « هواء جبل لبنان » مجلة الكلية ١٢م (١٩٢٦) ص ٤١٣-٤١٤ ، قارن مع : D. Ashbel, « Rainfall Map of Palestine, Transjordan, Southern Syria, Southern Lebanon » 3rd. ed. (Jerusalem, 1942).

(٢) منصور جرداق في « الكلية » ١٢م (١٩٢٦) ص ٤١٢ .

(٣) انظر : W. B. Fish, « The Lebanon », *The Geographical Review*, vol. xxxiv : 243 (1944), p. 243.

وتعتدل درجة الحرارة في الساحل بتأثير البحر وهو اكثر حرارة من البر في الشتاء واكثر برودة في الصيف . ويعمل الحاجز الجلي المزدوج وحوض التصدع على منع وصول الرياح البحرية المبردة الى الداخل . وتهب الرياح المحملة بالغبار من البادية وتصبح حرارة الصيف شديدة في المدن مثل دمشق وحلب . وكثيراً ما يسجل ميزان الحرارة في فلسطين ١٠٠ درجة (ف) في الظل وقد تبلغ الحرارة في وادي الاردن ١٣٠ درجة . واكثر ما يخشاه الانسان من الرياح الحارة الآتية من الشرق والجنوب الشرقي ربيع السموم او الشرقية^١ وهي ربيع مزعجة بشكل خاص وجافة ورطوبتها اقل من عشرة بالمائة في بعض الاحيان مما يجعل التنفس صعباً . وتتردد هذه الرياح اثناء الربيع والخريف حيث كثيراً ما تصل الى الساحل وتبشر بقدم المطر . وفي طرف البادية تكون على الغالب محملة برممل ناعم سريع التغلغل . وليس غريباً ان تكون قيادة العرب المسلمين قد اختارت يوماً كان يهب فيه ريح من هذا النوع لقتال الجيش البيزنطي المدافع عن سورية في معركة اليرموك الحاسمة عام ٦٣٦ .

التأكل

تتسرب كثير من مياه المطر في مساحات كبرى من الصخور الكلسية وتفقد . غير ان بعضها يتجمع في مجاري تحت الارض ويخرج بشكل ينابيع . وهكذا فان انتشار الصخور الكلسية بكثرة في لبنان الشرقي والغربي وفلسطين يأتي بعامل آخر غير ملائم فضلاً عما يحدثه من منظر أغبر متألق . ذلك انه يجد من كمية المياه ويجعلها قليلة وينجم عنه انخفاض عدد السكان وخاصة في لبنان الشرقي .

والمياه التي لا تتسرب في الطبقات الكلسية تشكل جداول وانهاراً وتتحول الى سيول بعد هطول الامطار بغزارة كما انها تتقلص اثناء جفاف الصيف فتصبح شريطاً ضئيلاً من المياه اذا لم تجف تماماً . وقد نتج عن تدفق المياه من المرتفعات

(١) أتت كلمة *sirocco* الافرنجية من كلمة «الشرق» العربية بطريق الايطالية . وتقابل الريح الشرقية ، التي يظن انها تدوم ثلاثة ايام ، ربيع الحسين في مصر .

(٢) انظر كلامنا في الفصل الثلاثين عن هذه المعركة . راجع بشأن الصورات الحديثة المتعلقة بالحرارة والطر والرياح : Charles Combier, *Aperçu sur les climats de la Syrie et du Liban* (Beirut, 1945).

مع ما يرافقه من تأكل وتعرية ان بعض الاراضي التي كانت مزدهرة اصبحت قاحلة على مر العصور. وعمل هذا الامر على تضليل بعض العلماء الذين اعتقدوا بحدوث تغيرات اقليمية هامة تتجه نحو الجفاف في العصور التاريخية في سورية والبلاد المجاورة^١. وسنرى فيما بعد^٢ ان هذا الافتراض مبني على تحليل خاطئ تماماً. والتغيرات المناخية او التبدلات في كمية الامطار لا تكفي لشرح هذا الامر القريب الذي كثيراً ما يلاحظ في شرقي سورية وهو ان مساحات واسعة من الاراضي التي كانت مزدهرة كثيرة السكان اصبحت اليوم فقيرة قليلة السكان. والاسباب التي تخالف اية نظرية عن حصول الجفاف بعوامل مناخية هي تشابه المحاصيل الزراعية منذ العصور القديمة (باستثناء النباتات التي ادخلها العرب من الشرق في العصور الوسطى وادخلها المواطنون من العالم الجديد في العصور الحديثة) وبقاء اساليب الحراثة والاحتفاظ بنفس التواريخ الموسمية للحرث والحصاد خلال العصور. والعوامل الحقيقية لانحطاط قدرة الارض على الانتاج كانت تعرية سفوح المرتفعات بعمل مياه الامطار الجارية والرياح وتضاؤل قوة بعض الينابيع، والرعي وزوال الغابات التي كانت جذورها تساعد على تماسك التربة الرخوة، واممال او تخريب اعمال الري بنتيجة الغزوات او هجمات البدو، وانهاك التربة المحتمل في بعض الاماكن^٣.

الحياة النباتية

وهناك ثلاث مناطق متباينة للنبات تقع جنباً الى جنب في الاراضي السورية. فالسهل الساحلي والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربية تضم النباتات المعتادة في سواحل البحر المتوسط. وتتصف هذه المنطقة بوجود الشجيرات الدائمة الخضار ونباتات الربيع التي تزهر بسرعة وتعطي اريجاً قوياً ولا تزال تزدهر انواع النبات التي زودت الانسان باهم مواده الغذائية، كالقمح والشعير والدخن (نوع من الذرة) وقد دجنت هناك لأول مرة^٤. وادخلت الذرة الصفراء فيما بعد. واضيفت في

(١) انظر: Ellsworth Huntington, *Palestine and its Transformation* (Boston, 1911), chs. 12-14.

(٢) راجع ما سيأتي في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: Semple p. 100

(٤) راجع ما جاء في اعلاه من ١٦ - ١٧ بشأن الزراعة.

العصور الحديثة البندورة والبطاطا والتبغ من العالم الجديد الى البصل والثوم والحيار وسائر الخضار المعروفة منذ اقدم العصور. والحبوب الاميركية كلها تقريباً (ما عدا الذرة وبعض انواع الشوفان) ومعظم انواع الخضار وثمار المنطقة المعتدلة اتت من آسيا وخاصة من الشرق الاذنى بطريق اوربا. وتبغ اللاذقية يتمتع بشهرة في العالم كله. ومحاصيل الفواكه القديمة التي منها التين والزيتون والتمر والعنب قد زادت فيما بعد بدخول انواع جديدة كالموز والمنتجات الحمضية. واتي السكر من الشرق مع العرب الفاتحين. وانقطاع المطر في الصيف يستوجب الري لبعض هذه المحاصيل، وشمس بلاد البحر المتوسط القوية التي لا تنفك اشعتها تلمح الارض كل يوم تقريباً خلال موسم الجفاف تسبب نضوج الاثمار نضوجاً تاماً. واهم اشجار هذه المنطقة هي السنديان وصور بلاد البحر المتوسط والتوت والزان. ولا شك بان الاشجار المتبدلة كانت اكثر فيما مضى. وقد كانت تقلص منطقة الغابات ضاراً باعتبار ان الحراج كانت تؤخر تأكل القرية في المرتفعات.

وفي اعالي لبنان العربي والشرقي تزول اشجار النخيل وشجيرات المنطقة المعتدلة التي نجدها في الساحل وذلك بفعل برودة الشتاء ولا تبقى الا الاشجار القوية الصامدة مثل الشوح والارز وسائر النباتات ذات الاثمار المخروطية. وهذا ما يشكل المنطقة النباتية الثانية. وتختلف مرتفعات لبنان الشرقي الفاصلة في قسمها الشمالي اختلافاً يستلقت النظر عن لبنان العربي.

واما في المنطقة النباتية الثالثة التي يمثلها حوض التصدع وهضاب سورية الشرقية فان الحرارة الشديدة وقلة الامطار تؤدي الى وجود سهوب تكاد تنعدم فيها الاشجار، وتظهر الاعشاب في مواسم معينة ولا تعيش فيها سوى الشجيرات الحشنة والعلتيق. وتتصف الهضاب الواقعة على اطراف بادية الشام ايضاً بقلة الاشجار وكثرة العليق الجاف الشائك. ويجري العاصي والاردن في اودية عميقة ولذلك فان فائدتها الطبيعية في الري قليلة.

وموقع هضاب شرقي الاردن وحوران مناسب بحيث يعرضها للرياح بسبب انخفاض تلال السامرة والجليل النسي. وتتجمع بسبب ارتفاعها رطوبة كافية لاجل

(١) راجع كلامنا عن الري والزراعة في الفصل الثالث.

(٢) Walter T. Swingle, « Trees and Plants We Owe to Asia », *Asia*, vol xliiii (٢ (1943), p. 634.

المراعي . وقد كانت حوران في العصور القديمة والحديثة مخزن قمح سورية ومصدر تصدير الحبوب كما يغلب الظن من فلسطين الى صورا^١ وحتى الى اليونان .

ان وجود هذه المناطق النباتية الثلاث ناتج عن التقاء منطقتين نباتيتين في سورية وهما منطقة البحر المتوسط ومنطقة سهوب آسيا الغربية . وتوسط جبال لبنان يأتي بعامل جديد ويفرض تغييراً ناشئاً بصورة مباشرة عن تأثيرات الارتفاع، ويجعل الانتقال من تأثيرات البحر المتوسط الى التأثيرات القارية مفاجئاً جداً^٢ . ولذلك فاننا نجد مزارع الموز ومراكز الالعب الشتوية وواحات البادية ضمن منطقة لا تبعد عن البحر اكثر من ستين ميلاً . ولكننا نشاهد تبايناً يستلفت النظر في كل مكان بين المناظر في الربيع حين تورق النباتات على احسن وجه وبين المناظر في الصيف حين تكون الحرارة قد قضت على النبات .

شجر الزيتون

وفي العصور القديمة كانت الاشجار المثمرة الوحيدة التي تزرع على مقياس واسع هي الانواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف ونعني بها التين والكرمة والزيتون . وقد ادخل الفينيقيون الكرمة الى بلاد اليونان ومن هناك الى ايطاليا . ورافق الزيتون الكرمة او تبعها من الشرق الى الغرب^٣ . وشجرة الزيتون لا تتطلب الا القليل من العناية وتعطي الشيء الكثير . وغورها كان ولا يزال يشكل احد مصادر الغذاء الرئيسية للطبقات الدنيا . ويمتد في جنوبي بيروت بستان للزيتون على مسافة اميال ويعتبر من اكبر بساتين الزيتون في العالم . وكان يستعمل زيت الزيتون لاجل الغذاء^٤ فيقوم مقام الزبدة التي يصعب حفظها ، ويستعمل في المصاييح لاجل التنوير^٥ وفي المرام و صنع الروائح الذكية^٦ وكذلك يستخدم لاغراض طبية^٧ .

(١) سفر الملوك الاول ٥ : ١١ ؛ انظر كلامنا في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب عن الزراعة في العصر الروماني .

(٢) قارن مع : H. B. Tristram, *The Survey of Western Palestine: The Fauna and Flora of Palestine* (London, 1888), pp. xix - xxii.

(٣) انظر بشأن الاشجار السورية التي ادخلت الى ايطاليا ما سيأتي في الفصل ٢٢ .

(٤) انظر سفر اخبار الايام الاول ١٢ : ٤٠ ؛ حزقيال ١٦ : ١٣ .

(٥) سفر الخروج ٢٥ : ٦ ؛ متى ٢٥ : ٣ .

(٦) سفر الخروج ٣٠ : ٢٥ ؛ صموئيل الثاني ١٤ : ٢ ؛ الزمير ٢٣ : ٥٥ .

(٧) سفر اشعيا ١ : ٦ ؛ انجيل مرقس ٦ : ١٣ ؛ لوقا ١٠ : ٣٤ .

وكان الزيت يملأ قارورة صموئيل عندما مسح اول ملك على اسرائيل^١ واكتسب درجة من القدسية بحيث لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا في مسح جبهة المشرف على الموت وكان يعطى لب الزيتون بعد عصره طعاماً للحيوانات كما ان نواته تستخدم للوقود بعد جرشها . ومنذ ان عادت الحمامة الى نوح بغصن الزيتون فان ورق الزيتون اصبح عنوان السلام وعلامة السعادة . وفي مؤتمر الاشجار الذي يتحدث عنه سفر القضاة (٩ : ٨) اعترفت نباتات فلسطين بسيادة شجرة الزيتون فطلبت ان تملك عليها .

الارز

ان افخم اشجار لبنان واشهرها شجر الارز (*Cedrus Libani*) وقد تغنى الشعراء والانبياء والمؤرخون الاقدمون بصفاته فوصفوه بالقوة (مز امير ٢٩ : ٥) والمقاومة (ارميا ٢٢ : ١٤) والجلال (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩؛ زكريا ١١ : ١-٢) والملاءمة للحفر (اشعيا ٤٤ : ١٤-١٥) . وقد زود الارز سكان لبنان الاقدمين باحسن الاخشاب لبناء سفنهم وكان يجذب ملوك وادي الرافدين وادي النيل حيث لا تنبت اشجار كبرى . واليوم لم يعد يشكل لسوء الحظ جانباً من مجد لبنان كما كان يفعل قديماً (اشعيا ٣٥ : ٢؛ ٦٠ : ١٣) . ولا يزال يوجد الارز في مجموعات صغيرة - كباقات زهر في صدر لبنان العاري - اشهرها تقع فوق بشرى حيث تقوم اكثر من اربعمائة شجرة يبلغ عمر بعضها الف سنة^٢ . ويبلغ ارتفاع اعلاها نحو ثمانين قدماً . وتعرف هذه الاشجار عند الشعب « بأرز الرب » . وقد اتخذت احداهما شعاراً للجمهورية اللبنانية الحديثة . وهناك غابة ارز اصغر واحداث وموقعها فوق الباروك في الجنوب حيث تسمى « أجهل^٣ » . وقد استغلت احراج الصنوبر والارز خلال العصور وبلغ هذا الاستغلال ذروته في عهد الاتراك

(١) سفر صموئيل الاول ١٠ : ١ .

(٢) راجع : George E. Post, *The Botanical Geography of Syria and Palestine* (London, 1885 ?), pp. 36-7. Albert E. Rühly, *Die Pflanze und ihre Teile im biblisch-hebräischen Sprachgebrauch* (Bern, 1942), pp. 41-2.

(٣) وهو نوع من المرعر (*Juniperus Sabina*) وبالعبرية إرز . غير ان هنالك التباس بين الكلمتين . فخشب الارز الذي يستعمل في طقوس التطهر بعد الاحتكاك مع رجسبل مصاب بالبرص (سفر اللاويين ١٤ : ٤) اومع جثة ميت (سفر المدد ١٩ : ٦) هو المرعر كما يبدو وكان ينمو في البرية وبجانب المياه (عدد ٢٤ : ٦) .

العثمانيين حيث استخدمت كوقود لتسيير قطارات السكك الحديدية . وعمل هذا الاستغلال على تجريد الجبال من احسن اشجارها كما انه عجل في عملية التآكل ونشأ عن ذلك ايضاً تأخير التشجير من جديد .

الحياة الحيوانية

وقد ساهمت الاغنام والماعز وخاصة الماعز في تسهيل عملية التآكل باكلها العشب والنباتات الصغيرة على سفوح التلال مما جعل التربة رخوة واكثر تعرضاً لتأثير المياه الجارية . ونشأ عن حالة تضاريس جبال لبنان وعن كثرة تصريف المياه في مرتفعات فلسطين ان الكلاً الطبيعي للمواشي والحيل في سورية كان قليلاً بصورة دائمة غير انه بإمكان الاغنام والماعز ان تجرد العشب الكافي .

الحصان

كان الحصان بالاصل حيواناً برياً اميركياً ولكنه دخل شرقي آسيا في عصور ما قبل التاريخ البعيدة عندما كانت تشكل اميركا وآسيا قارة واحدة . ويظهر الحصان في شكله البري منذ الدور النطوني في فلسطين^١ . وقد دجن في اوائل العصور القديمة في احد الاماكن شرقي بحر الخزر من قبل المنود الاروبيين الرحل . واستورده الكاشيون الى بلاد الرافدين على مقياس واسع وبواسطتهم دخل آسيا الغربية قبل الميلاد بنحو النفي سنة . وقد اعطاه الحثيون الى اليبديين ومنهم انتقل الى اليونان . وادخل المكسوس الحصان الى سورية ومنها الى مصر قبل العصر الميلادي بنحو ١٨٠٠ سنة . ومن سورية انتقل قبل العصر الميلادي الى بلاد العرب حيث احتفظ الحصان العربي اكثر من اي مكان آخر بنقاوة دمه^٢ .

الابل

وكان الجبل كالحصان من اصل اميركي وانتقل الى شمال شرقي آسيا منذ ملايين السنين . ومن هناك وجد طريقه بواسطة كشمير والمند ، حيث اكتشفت عظامه المتحجرة ، الى شمالي غربي بلاد العرب ومنها الى جنوبي سورية . واول اشارة

(١) انظر: Dorothea M. A. Bate, « A Note on the Fauna of the Athlit Caves », *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. xlii (1932), pp. 277-78.

(٢) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 20-21

معروفة للعمل في الادب وارادة في سفر القضاة ٦ : ٥ حيث يوجد وصف غزو المديانيين لفلسطين في القرن الحادي عشر ق . م . واقدم رسوم معروفة لهذا الحيوان ترجع الى العصور الحجرية وقد اكتشفت حديثاً في كيلوة^١ في شرقي الاردن حيث تظهر في رسمين محفورين يبدو في احدهما وراء وعل من العصر الحجري الوسيط^٢ . والرسم هو رسم جمل صغير له سنام واحد وهو الجمل العربي المعروف اليوم . واكتشفت صورة جميلة لهجين وراكبه في تل حلف وتاريخها بين ٣٠٠٠ و ٢٩٠٠ ق . م^٣ . ووجود الراكب لا يترك شكاً في ان الحيوان كان مدجناً . وفي جبيل وجد تمثال صغير مصري الاصل يعود الى النصف الاول من الالف الثاني ق . م . وتمثل جملاً مضطجعاً في الوضع المعروف^٤ . والتماثيل المصرية الصغيرة الاخرى من عهد المملكة القديمة في مصر (نحو ٢٥٠٠ ق . م .) والتي وجدت في جبيل تؤكد وجود الجمل كحيوان للحمل في ذلك العهد .

وهناك حيوان آخر أدخل الى سورية من آسيا القاحلة بطريق الجزيرة العربية وهو النوع القديم من الغنم ويتصف بذنبه العريض السمين وصفه الطويل وهو النوع المعروف حتى اليوم . وقد ذكر في الآداب التوراتية والكلاسيكية^٥ . ويبدو ان عادة تسمين الغنم العربية التي بقيت في لبنان وتقوم على دس الطعام في الفم وتحريك الحنك بواسطة اليد كانت معروفة في مصر القديمة كما يتضح من اشكال حيوانية منحوتة فحماً بارزاً تشبه الغزلان او الماعز وقد وجدت على قبور تعود الى السلالة السادسة .

وبالاضافة الى الجمل والحصان فان في سورية حيوانات اخرى للحمل والجر مثل الحمار والبغل وغيرها ، وفيما سوى الغنم والماعز فان حيواناتها الداجنة تضم البقر

(١) في جبل الطيب في الحدود الجنوبية الشرقية لشرقي الاردن .

(٢) انظر : Hans Rhotert, *Transjordanien : vorgeschichtliche Forschungen* (Stuttgart, 1938), p. 176, pl. 15, No. 2 ; p. 224, pl. 26, No. 1 ; Angus Horsfield « Journey to Kilwah », *The Geographical Journal*, vol. cii (1943), pp. 71-7.

(٣) Von Oppenheim, *Tell Halaf*, p. 140, and pl. xxi a, facing p. 136

(٤) Pierre Montet, *Byblos et l'Egypte*. (Paris, 1928), p. 91, No. 179 ; « Atlas » (٤ vol. (1929), pl. lii. No. 179.

(٥) سفر الخروج ٢٩ : ٢٢ ؛ اللاويين ٣ : ٩ . انظر ايضاً : Herodotus, *History*, Bk III. ch. 113

والكلاب والقطط التي دجنت منذ أقدم العصور^١. وان البقر والغنم والماعز والحنازير والدجاج هي جميعها حيوانات اسيوية دجنت وادخلت الى اوربا ومنها الى اميركا^٢. والحيوانات البرية المعروفة في البلاد هي الضبع والذئب والثعلب وابن آوى والظبي والوعل. والغزلان التي يمكنها البقاء بدون ماء مدة طويلة في طرق الزوال السريع. والمهاة العجيبة التي يمكنها العيش في مجاهل البادية بدون مياه آخذة بالانقراض. وقد قتلت آخر النعامات في نهاية العقد الثالث من هذا القرن في جبل الطيبق. وزالت من سورية الاسود والفهود التي كانت معروفة في عصر الصليبيين^٣. وتوجد الافاعي والسحليات والعقارب بكثرة وخاصة في جنوبي البلاد. والطيور المعروفة هي النسر والباشق والبوم والحجل والقطا وغيرها مما هو مشهور لدى طلاب ادب التوراة.

(١) راجع ما جاء بهذا الشأن في أعلاه ص ١٦ .

(٢) انظر : Swingle in Asia, vol. xliii (1943), p. 634; Childe, p. 46

(٣) اسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار. نشره فيليب حتي (برنتون ١٩٣٠) ص ١٠٤ وما يليها، ١٤٤ .

القسم الثاني
الازمنة السامية القديمة

الفصل التاسع قدوم الساميين

يمكن تقسيم تاريخ شعوب سورية في خطوطه الواسعة الى خمسة اقسام رئيسية هي :

- (١) عصر ما قبل التاريخ وقد بحثناه في الفصول السابقة .
- (٢) الدور السامي الذي بدأ بالاموريين (حوالي ٢٥٠٠ ق. م .) وانتهى بسقوط الامبراطورية البابلية الجديدة (او الكلدانية) في ٥٣٨ ق. م . وتبعته سيادة الفرس .
- (٣) العصر اليوناني الروماني الذي بدأ بفتوح الاسكندر الكبير في ٣٣٣ ق. م . وانتهى بالفتوحات العربية في ٦٣٣ - ٦٤٠ .
- (٤) الدور العربي الاسلامي الذي استمر حتى الفتح العثماني في ١٥١٦ .
- (٥) الدور العثماني الذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي خلال هذا التاريخ الطويل المتنوع لم تكند تشهد سورية فترة واحدة كانت فيها كلها دولة مستقلة بفردها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين . وقد كانت وحدتها تفرض عليها دائماً بارادة سلطة خارجية وفيما سوى ذلك فانها كانت عادة اما جزءاً من دولة اكبر او مجزأة بين دول وطنية او اجنبية . ولم تكن سورية نفسها المركز السياسي الا في عهد المملكة السلوقية بعد ٣٠١ ق. م . وكانت العاصمة انطاكية وفي اثناء الخلافة الاموية (٦٦١ - ٧٥٠ م) التي جعلت دمشق عاصمتها . وكانت سورية في عهد المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٦) تابعة لمصر . وكان النيل في مصر وكذلك الفرات في بلاد الرافدين عوامل ساعدت على الوحدة ، ولم يكن في سورية عامل طبيعي من هذا النوع . والواقع ان وضع سورية الطبيعي كان يميل الى احداث التنوع اكثر من الوحدة .

اسم سورية والسوريين

ان اسم سورية يوناني في شكله^١. ويظهر بشكل شرين Shryn في آداب اوغاريت^٢ وسيريون Siryon في العبرية^٣ حيث يطلق على لبنان الشرقي. واستخدم اسم الجزء فيما بعد ليشمل البلاد كلها. وكلمة لبنان هي سامية ايضاً ولكنها تظهر في الوثائق المسماة التي هي اقدم من الوثائق العبرية والاوغاريتية. وكانت احدى مناطق شمالي القرط معروفه عند البابليين باسم سوري Su-Ri^٤. ولا توجد في الغالب صلة في الاشتقاق بين «سورية» و«آسيريا» (اشور^٥). وفي العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم واطلق على البلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الاولى. وقد شمل عموماً المساحة الواقعة بين طرس وسينا وبين البحر المتوسط والبادية. وكانت فلسطين عند هيرودتس^٦ قسماً من سورية - وكذلك كانت عند الأتراك - وكان سكانها يعرفون بالسوريين الذين في فلسطين. واعتبر وليم الصوري^٧ وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سورية ايضاً. واسم فلسطين ايضاً اتى من اليونانية وكان بالاصل «فلسطينا» وهو متصل بذكرى الفلسطينيين الهنود الاوربيين الذين احتلوا المنطقة الساحلية في القرن الثالث عشر ق.م. في ذات الفترة تقريباً التي كان يحاول فيها الاسرائيليون احتلال الداخل^٨. ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه التسمية وصارت تشمل المنطقة بكاملها حتى البادية.

(١) وقد ظهر لأول مرة في Herodotus, Bk II. ch. 12

(٢) في اوائل القرن الرابع عشر ق.م. انظر : Cyrus H. Gordon, *Ugaritic Handbook* (Rome, 1948), p. 142.

(٣) سفر التثنية ٣ : ٩ ؛ المزامير ٢٩ : ٦ .

(٤) راجع ما جاء في اعلاه ص ٣٣ عن اسم لبنان .

(٥) انظر ما سيأتينا في الفصل السابع عن هذه التسمية .

(٦) قارن مع كلام ارنست هرتزل في مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٢ (١٩٤٧) ص ١٧٨-١٨١ حيث يوافق على هذا الاشتقاق .

(٧) Herodotus I. 105 ; II. 104, 106 ; III. 5, 91. Cf. Josephus, *Antiquities* I. 6. 2

(٨) راجع : Emily A. Babcock, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey (New York, 1943), vol. II, p. 5.

(٩) انظر ما سيرد في الفصل الثالث عشر .

وتسمية سورية والسوريين غير واردة في النص العبري الاصيل للعهد القديم ولكنها مستعملة في الترجمة السبعينية للدلالة على آرام والآراميين . وبعض كتاب العصر الكلاسيكي يخطئون في الكلام عن السوريين حين يجاوبون اسمهم مرادفاً للاشوريين . وقد اعطى العرب للبلاد اسماً جديداً وهو الشام او المنطقة الواقعة الى اليسار (اي الشمال) بخلاف اليمن او المنطقة الواقعة الى اليمن (اي الجنوب) وذلك بالنسبة للحجاز^١ . واستعمل اسم «سوري» بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها غير انه يستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية السورية فقط ومصطلح لغوي فإت اسم «سوري» Syrian بالانكليزية يشير الى جميع الشعوب التي تتكلم السريانية (الآرامية) ومنهم الذين في العراق وايران، كما انه يشير كمصطلح ديني الى اتباع الكنيسة السورية القديمة او السريانية، وقد انتشر بعضهم حتى في جنوبي الهند^٢ .

وكان اسم سيروس Syrus (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية، غير ان ولاية سورية الرومانية كانت تمتد من القرات الى مصر . وكانت هذه حدود سورية كما وصفها الجغرافيون العرب^٣ وظلت تعتبر كذلك حتى نهاية الدور العثماني^٤ . والوحدة الطبيعية لهذه المنطقة التي تعرف باسم سورية لها ما يقابلها في الوحدة الحضارية ولكن ليس في الوحدة الجنسية او السياسية . وهي تشكل منطقة متشابهة في الحضارة على وجه التقريب ومختلفة اختلافاً بيناً عن المناطق المجاورة . غير ان الحدود الحضارية بينها وبين الطرف الشرقي فقط للهلال الحبيب كانت دائماً حدوداً مائعة .

(١) راجع المقليسي ص ١٥٢؛ ابو القداء ص ٢٢٥ . راجع ما سيأتي في الفصل ٤١ . انظر بشأن حدود الشام ابن حوقل : المسالك والممالك طبعة دي غوية (لندن ١٨٧٢) ص ١٠٨؛ ياقوت ج ٣ ص ٢٤٠ . راجع : Gaudetroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, (Paris, 1923) pp. 6 seq.

(٢) تميز اللغة العربية بين هذه التسميات قستعمل اسم «سوري» للمفهوم العربي والجغرافي واسم «سرياني» للمفهوم القومي والديني .

(٣) انظر : Smith, *Historical Geography*, pp. 3-4 ; Arnold J. Toynbee, *Survey of International Affairs*, vol. i, *The Islamic World* (London, 1927), pp. 347-8 ; المرآة الوضوية في الكرة الارضية (بيروت ١٨٦٨) ص ١١٩-١٢٠ . Cornelius Van Dyck,

قارن مع : Dussaud p. 1

(٤) كما في الاصطخري ص ٥٥ وأبي القداء ص ٢٢٥ .

العوامل التاريخية الفعالة

ان العوامل الفعالة في تاريخ سورية وسكانها ثلاثة وهي : اولاً وضعها الجغرافي كجموع لمناطق مختلفة ينعكس في خليط من السكان والجماعات العرقية والمذاهب الدينية . وقد تقطع سطح الارض بحيث ان طبيعة هبتها لم توجد في أي مكان . بيئة تتسع اتساعاً كافياً لنشوء دولة قوية شاملة . والعامل الثاني هو موقعها الاستراتيجي كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث وهو امر جعلها معرضة للاخطار والغزوات من جميع الجهات . فالبابليون والاشوريون ، والمصريون والحثيون ، والفرس والمكدونيون والرومان ، والعرب والمغول والأتراك ، والصليبيون وغيرهم من الامم الاخرى هاجموا البلاد في عصور مختلفة واحتلوها كلها او جانباً منها . والعامل الثالث هو مجاورتها لاقدم مركزين للحضارة الفعالة وهما الحضارة السومرية البابلية في الشرق والحضارة المصرية في الجنوب الغربي . وفي العصور التالية تعرضت البلاد من جهة البحر لتأثيرات هندية اوروبية من كريت واليونان ورومة من جهة البر لتأثيرات هندية ايرانية من فارس والهند .

الطريق الدولي العظيم

وبسبب اتصال سورية بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي بواسطة الطريق الدولي العظيم فانها تعرضت لتأثيرات عالمية ولتدفق بقايا الجماعات المتفككة . ففي قسمها الجنوبي وجدت البهائية الحديثة ملجأً يحميها من الهلاك فعاشت جنباً الى جنب مع بقية مذهب قديم كالسامرية . ولا تزال تزدهر في اقسامها الوسطى طوائف الدرود والموارنة التي يعود اصلها الى العصور الوسطى . وفي الشمال نجد حتى الآن مذاهب النصيرية والحشاشين .

ان هذا الطريق الدولي يمكن تتبعه من مبداءه في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز في شبه الجزيرة كما يتفرع الى اراضي البخور في جنوبي الجزيرة العربية . ومن سيناء يتحول الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر . وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ويسير الآخر الى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الاردن في واديه الشمالي ثم يتجه رأساً الى دمشق

في الشمال الشرقي . ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سورية مع قلب بلاد الرافدين الذي تمثله بالتالي بابل والمدائن وبغداد . اما الطريق الرئيسي فانه يتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقي بواسطة بحر الزبداني ويصعد شمالاً عبر سورية المجوفة متبعاً نهر العاصي وقادش الى شمالي سورية . ويتفرع في سيره عند قادش باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة وادي النهر الكبير ، وتتبع السكة الحديدية اليوم هذا الطريق نفسه . وبعد ان يتفرع في شمالي سورية الى البحر بطريق الابواب السورية في جبل اماتوس ويتفرع ايضاً الى الشمال الغربي بطريق الابواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السوري نحو القرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوباً الى الخليج الفارسي .

ولقد سلك بعض اجزاء هذا الطريق التجاري العظيم سرجون وسنعاريب ونبوخذنصر والاسكندر وبومي وعمرون العاص ونابوليون والانسبي وابراهيم وموسى والعائلة المقدسة كما سلكه كثيرون غيرهم . وكانت تنقل على هذا الطريق في العصور القديمة والوسطى احمال العاج والذهب من افريقيا ، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبي بلاد العرب ، والكهرمان والحجر من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والاشخاب من سهول سورية وجبالها . غير ان القوافل كانت تحمل اكثر من ذلك . فقد كانت تحمل معها احمالاً غير منظورة من الافكار . ولئن استهلك القمح واستخدم الكهرمان لارضاء رغبة عابرة لاحدى الفتيات فان الافكار لم تفقد كلها . فقد اثمرت بعضها في عقول السوريين وساهمت في انتاج تلك الحضارة المركبة المعروفة بالحضارة السورية والتي كانت مزيجاً من عناصر وطنية واخرى من حضارات البلاد المجاورة . وكان العنصر الوطني نفسه يمثل رواسب تركتها هجرات وغزوات لا عداد لها .

التزاع بين البدو والحضر

والعامل الرابع بين العوامل التاريخية المؤثرة هو ان البلاد السورية كانت خلال تاريخها وخاصة في اطرافها الشرقية والجنوبية مسرح تزاع متواصل بين البدو والحضر المستقرين . وكان تاريخ الشرق الادنى بكامله مشهد حركة كبرى تنطوي

على تلك الغزوات والهجمات المتكررة التي يقوم بها البدو الطامعون في حياة الرخاء التي تمتع بها السكان الحضري في الاراضي المجاورة . وان جانباً كبيراً من تاريخ سورية هو قصة تلك الموجات المتتالية التي يطغى بها سكان البادية المضطربون الجائعون فيحاولون بطريق التغلغل السلمي او بالقوة احتلال الاراضي الزراعية . ولقد كان لسكان الحيام الرحل ميزة على سكان البيوت المستقرين لقله ممتلكاتهم وسرعة حركتهم وشدة اجتهالهم . وقصة بني اسرائيل القديما كما توحيها لنا صفحات العهد القديم في التوراة تعطينا أوفى ايضاح عن هذا الانتقال المتواصل من البداوة الى الحياة الحضرية . غير ان بني اسرائيل لم يكونوا اول من عرف هذا الانتقال بين الساميين . وقد سمر ساميون كثيرون قبلهم وبعدهم بالمراحل نفسها بالنسبة لسورية^١ .

من هم الساميون ؟

وقد اشتق اسم الساميين من سام بن نوح على اساس ان الساميين كانوا متسلسلين من الابن الاكبر لنوح . غير ان هذه التسمية من وجهة علمية هي تسمية لغوية وتطلق على الذين يتكلمون او تكلموا لغة سامية . واللغات السامية كما هو معترف بها اليوم هي مجموعة لغوية خاصة تضم اللغة الاشورية البابلية (الاكادية^٢) والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والعبرية والعربية والحبشية . وتبدو في لغات هذه المجموعة نواح من التشابه تستلقت النظر وتختلف عن المجموعات اللغوية الاخرى واقربها اليها المجموعة الحامية . واهم نواحي التشابه ضمن هذه المجموعة اللغوية هي : وجود فعل ثلاثي كمصدر اساسي ووجود زمنين للفعل هما الماضي والمضارع ، وتصريف الفعل يتبع نفس الاسلوب . وفي جميع لغات المجموعة السامية نجد تشابهاً بين الكلمات الاساسية كالضمائر الشخصية ، والاسماء التي تدل على القرابة ، والاعداد واعضاء الجسم الرئيسية .

هذه القرابة اللغوية بين الشعوب التي تتكلم اللغات السامية هي اهم رابطة تبرر

(١) راجع ما جاء في نهاية الفصل الرابع .

(٢) كانت آكاد (و) وهي المقابل السامي لكلمة *Agadē* السومرية بالأصل اسم عاصمة سرجون مؤسس اول امبراطورية سامية ثم اطلقت على البلاد . وتقع المدينة في مكان اقتراب النجدة والغرات واحدهما من الآخر وقد ذكرت في سفر التكوين ١٠ : ١٠ .

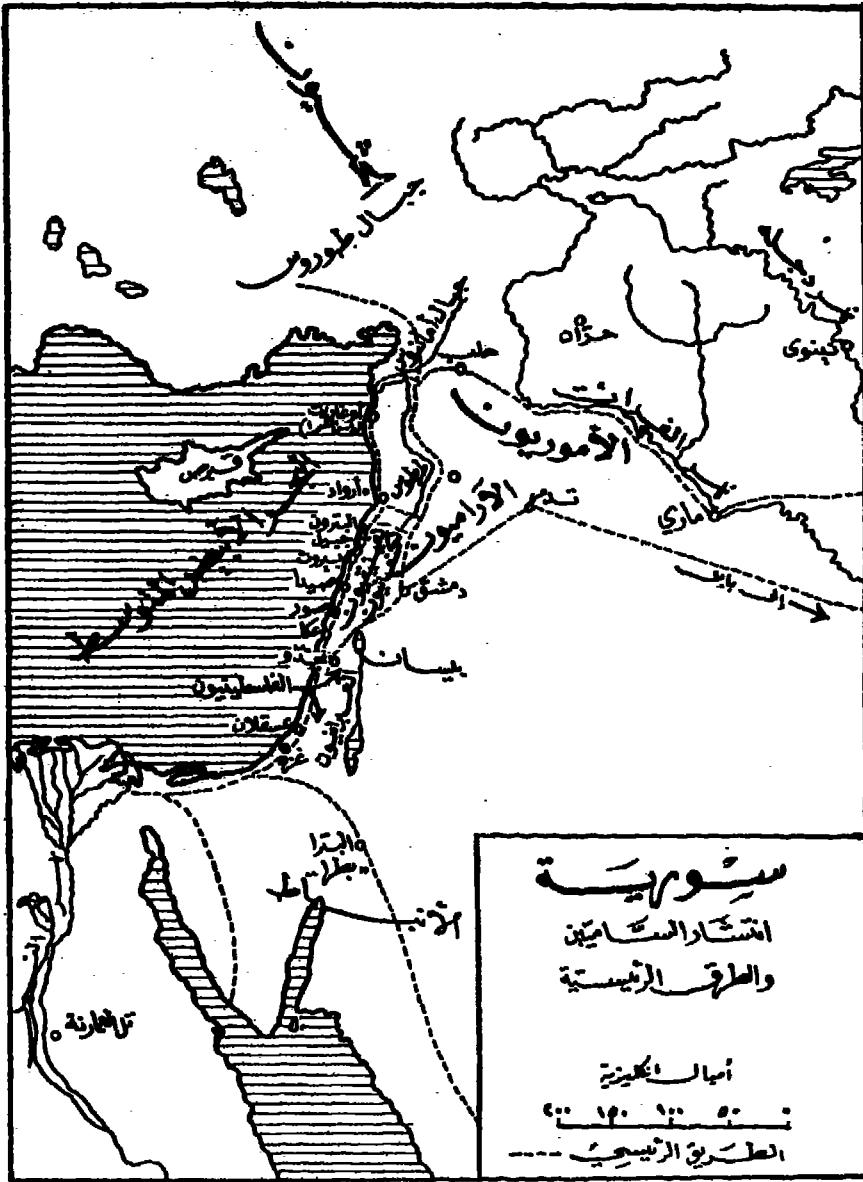
ضمهم تحت اسم واحد ولكنها ليست الرابطة الوحيدة . فاذا ما قارنا مؤسستهم الاجتماعية وعقائهم الدينية وصفاتهم النفسية وادبهم الطبيعية اتضحت لنا نواح هامة للتشابه . وعندئذ لا بد من الاستنتاج بان بعض اسلاف الذين تكلموا البابلية والاشورية والامورية والكنعانية والعبرية والآرامية والعربية والمجيشية كانوا غالباً يشكلون جماعة واحدة قبل ان تحصل بينهم هذه الاختلافات وان هذه الجماعة كانت تكلم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه .

شبه جزيرة العرب مهد الساميين

واذا ما تساءلنا عن الموطن الاصلى لهذه الجماعة فان النظرية المحتملة اكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية . والحجة الجغرافية بالنسبة للجزيرة العربية تقوم على ان البلاد صحراوية يحيط بها البحر من ثلاث جهات ولذلك فانه عندما يزيد السكان عن قدرة الارض المأهولة الضيقة لاعاشتهم فانهم يميلون الى البحث عن مجال حيوي متيسر فقط في الاراضي الشمالية الخصبية التي تجاورهم . ويؤدي ذلك الى الهجرة الاقتصادية التي تقول ان اهل الجزيرة الرحل كانوا دوماً يعيشون على ما يقرب من الجوع وان الهلال الحبيب كان اقرب مكان يزودهم بما يحتاجون اليه .

وقد اتجهت في حوالي ٣٥٠٠ ق. م . هجرة سامية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي ووزعت افرادها الرحل بين السكان السومريين في بلاد الرافدين الذين كانوا مستقرين وعلى جانب رفيع من الحضارة ، وبذلك شكلت الاسكاديين الذين عرفهم التاريخ (وسموا فيما بعد بالبابليين) . وعندما تزوج الساميون مع غير الساميين الذين كانوا قبلهم واختلطوا بهم في منطقة الدجلة والفرات فانهم اكتسبوا منهم معرفة البناء والمعيشة في البيوت وزراعة الارض وربما بل اكتسبوا ما هو اهم من ذلك وهو القراءة والكتابة . وسادت اللغة السامية التي حملوها معهم واصبحت الوسيلة التي عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال اجيال عديدة .

(١) ان تمييز بين كلمة « Arabians » للدلالة على سكان شبه الجزيرة وكلمة « Arabs » العرب للدلالة على جميع الشعوب التي تتكلم العربية - وان كانت احياناً قوميتها فارسية او عراقية او سورية او مصرية الخ حيث اقتبست اللغة العربية بنتيجة الفتح الاسلامي واصبحت معظمها إسلامية - هذا التمييز اقترح لأول مرة في كتاب Hitti, *History of the Arabs*, p. 43, n. 3



وبعد الهجرة الاولى بنحو الف سنة حصلت هجرة اخرى من البادية وانت
 بالاموريين ووزعتهم في سهول سورية الشمالية . وشملت هذه الهجرة الشعب الذي

احتل فيما بعد السهل الساحلي وسمى نفسه بالكنعانيين واطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم اسم فينيقية .

وبين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. خرجت جماعات اخرى من بلاد العرب فدخل الآراميون سورية المجوفة ومنطقة دمشق وانتشر العبرانيون في القسم الجنوبي من البلاد . وحوالي ٥٠٠ ق.م. ادت هجرة جديدة من بلاد العرب الى استقرار الانباط شمالي شرقي شبه جزيرة سيناء حيث كانت عاصمتهم البتراء وبلغت درجة رفيدة مدهشة من الحضارة في ظل الرومان .

وكان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع ذلك الذي حصل في القرن السابع الميلادي تحت راية الاسلام وانتشر هذا السيل ليس في سورية فعسب وانما في سائر مناطق الهلال الحصب وكذلك في مصر وشمالى افريقيا وفارس وحتى في اسبانيا وبعض اجزاء آسيا الوسطى . وهذه الهجرة الاخيرة هي الحجة التاريخية التي يتقدم بها اصحاب النظرية التي تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الاصلي للساميين . ويضيفون الى ذلك حجة لغوية مؤداها ان اللغة العربية قد احتفظت في نواح كثيرة باشد تشابه باللغة السامية الام التي كانت جميع اللغات السامية من لهجاتها ، وكذلك حجة بسيكولوجية خلاصتها ان سكان شبه جزيرة العرب وخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية .

هذه الهجرات التي حصلت في عصور يفصل الواحد منها عن الآخر نحو الف سنة - كما لو كان ذلك الوقت ضرورياً لملء الحزان البشري قبل ان يفيض - قد اطلق عليها احياناً اسم موجات . والحقيقة انها اكثر شهاً بسائر الحركات البشرية في التاريخ حيث تبدأ بانتقال اشخاص قلائل يتبعهم آخرون ويزداد عدد الذين يلحقون بهم الى ان تصل الحركة ذروتها وتأخذ بالتراجع . وتاريخ الهجرة هو تاريخ بلوغ الذروة حين تصبح الحركة بما يستلقت النظر وان كانت في الواقع شملت عشرات من السنين من قبل ومن بعد .

الفضل السابع

الأموريون أول شعب سامي رئيسي في سورية

دخول الاموريين

ان اول شعب سامي هام بحث عن موطن له في البلاد السورية واقام فيها هو الشعب الذي سماه جيرانه السومريون في الشرق بالاموريين ولا ندرى الاسم الذي كان يطلقه على نفسه . فكلمة «اموريين» اذآ غير سامية وتعني «الغربيين». والعاصمة الامورية ماري الواقعة جنوبي مصب الخابور (وهذه ايضا كلمة سوميرية) هي من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد أمورّ ومارتو اي بلاد الغرب ، وكان هذا ايضا اسم المههم القديم وهو اله الحرب والصيد . ووسع البابليون فيما بعد مدلول الاسم فصار يشمل سورية كلها وسموا البحر المتوسط «بجر أمورّ والعظيم» .

وتظهر اول اشارة الى ارض الاموريين منذ عصر سرجون (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.) وهو اول شخصية كبرى في تاريخ الساميين^١. واخذ الاموريون يظهرن بالتدريج في سورية الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين في الجنوب . ويقال ان «لبنان» و«صيدون» و«عسقلان» امورية في نهاية اسمائها . وفي اسم عمريت^٢ الحديثة الواقعة على الساحل الفينيقي الشمالي ما يتخذ اسم الاموريين . وفي ذلك العهد اصبحت سورية سامية لأول مرة - باستثناء بعض جيوب سكنها الحوريون وآخرون من غير الساميين - واحتفظت بصفتها السامية خلال العصور حتى الوقت الحاضر . وقبل ان يجتاح سرجون بلاد أمور كانت عاصمتها ماري قاعدة احدى السلالات السوميرية القديمة . وقد عزل سرجون الفاتح السومري لوكال زاكيزي Luggal-Zaggisi صاحب إريك الذي ادعى في احدى كتاباته الاثرية انه

(١) انظر : Arno Poebel, *Historical Texts* (Philadelphia, 1914), p 177

(٢) بالعربية القديمة 'MRT' وهي مدينة مراثوس Marathus الكلاسيكية .

«فتح البلاد من مطلع الشمس حتى مغرب الشمس» وانه «تقدم من البحر الادنى، من الفرات والدجلة، حتى البحر الاعلى»^١. وفي خلال القرن العشرين اصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها امورية في سكانها وحضارتها وحكومتها. ولا بد ان الغزاة الساميين وطدوا انفسهم فوق مجتمع سابق متمدن من سكان بلاد الرافدين ويمكن الافتراض انهم كانوا قبل ذلك يتجولون في المناطق الشمالية والبقاع كببدو وراء قطعانهم.

وهناك شاعر سومري عاش قبل عام ٢٠٠٠ ق.م. بقليل حين كان الاموريون يحتلون بلاد بابل - قد عبر عن هذا الانتقال من حياة الرعي الى حياة الاستقرار بصورة شعرية حيث قال :

بالنسبة للاموري السلاح هو رفيقه

. . . فلا يعرف الخضوع .

وهو يأكل لحماً غير مطبوخ

وفي حياته كلها لا يملك بيتاً

وهو لا يدفن رفيقه اذا مات .

[والآن] مارتو يملك بيتاً [١]. . .

[والآن] مارتو يملك حبوباً^٢.

وكانت حياته البدوية تعتمد على الحمار لان الجمل كحيوان مدجن لم يكن استخدامه شائعاً في ذلك الوقت^٣. وكان لا يزال في القرن الثامن عشر يستخدم الحمار لاجل تقديم الذبائح .

والاموريون لم يقتصروا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الاوسط واجتياح سورية وانما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين ايضاً وحكموها . وقد اسسوا عدة

(١) راجع : F. Thureau-Dangin, *Die sumerischen und akkadischen Konigsinschriften* (Leipzig, 1907), p. 155.

(٢) Edward Chiera, *Sumerian Religious Texts* (Upland, 1924, pp. 20-21

(٣) Albright, *The Stone Age*, pp. 120-21

سلالات من اشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب بين ٢١٠٠ و ١٨٠٠ ق.م. وام هذه كانت سلالة بابل وهي اول سلالة ظهرت في هذه المدينة وانتسب اليها حمورابي (م نحو ١٧٠٠) ، اول مشرع عظيم في العصور القديمة^١. وحمورابي هو الذي فتح بلاد آموره و اضافها الى امبراطوريته البابلية .

مخفوظات ماري

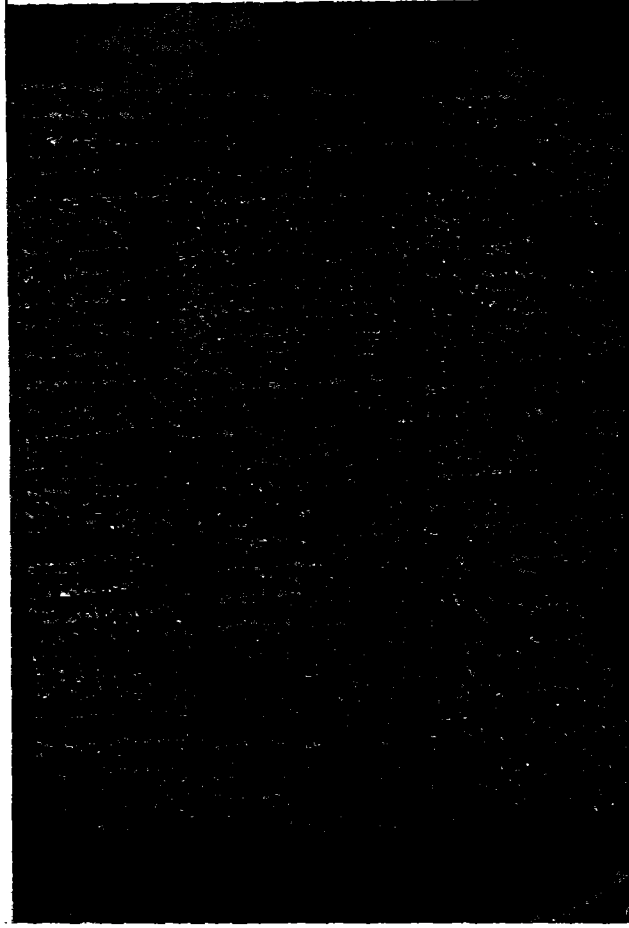
وقد ادى هذا الفتح الى القضاء على مدينة ماري وادخالها في عالم النسيان حتى بضع سنوات خلت حين جرى التنقيب في موقع تل الحريري^٢ واتضح انه ماري القديمة . وكانت الاكتشافات التي عثر عليها من اعظم ما كشفتها اعمال التنقيب في العصور الحديثة . فقد تضمنت اكثر من ٢٠,٠٠٠ لوح مساري وهو عدد لم يخرج به اي موقع آخر باستثناء نينوى . واللغة في معظم الاحيان اكاوية غير ان المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لا تترك مجالاً للشك بان الذين كتبوا تلك الاواح تكلموا الامورية او اللغة السامية الغربية المختلفة عن الاكاوية او السامية الشرقية . وتمثل الاواح مخفوظات زمري ليم (حوالي ١٧٣٠ - ١٧٠٠^٣) آخبر ملوك ماري الذي قضى على دولته اعظم ملوك ذلك العصر وهو حمورابي . وبين الاواح تقارير كتبها الملوك والموظفون ووثائق اقتصادية وادارية وتقارير لها قيمتها^٤. ويظهر لنا

(١) يقول Albert T. Clay في كتابه : *Amurru : The Land of the Northern Semites* (Philadelphia, 1909) ; *The Empire of the Amorites*, (New Haven, 1919), بان حضارة البابليين الساميين إذا لم يكن اصلها في بلاد الاموريين فإن نشوءها خلال مدة طويلة على الاقل كان في تلك البلاد ، وانه كان للاموريين امبراطورية واسمة منذ الالف الرابع والخامس ، وان النظرية التي تقول باصل الساميين من جزيرة العرب لا اساس لها . غير ان هذه الاحوال لم تؤيد بعد .

(٢) على يد André Parrot ؛ انظر تقاريره التي عنوانها : « Les peintures du palais de Mari », *Syria*, vol. xviii (1937) pp. 324-54 ; « Les fouilles de Mari », *Syria*, vol. xix (1938) pp. 1-29 ; vol. xx (1939), pp. 1-22. وتقع تل الحريري اليوم على بعد ميل غربي الفرات قرب بلدة أبو كمال ، وكانت ماري في العصور القديمة على ضفة النهر .

(٣) انظر مقال : W. F. Albright, « An Indirect Synchronism between Egypt and Mesopotamia, cir. 1730 B. C. », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 99 (1945), pp. 9-10.

(٤) راجع : Georges Dossin, « Les Archives épistolaires du palais de Mari », *Syria*, vol. xix (1938), pp. 105-26 ; « Les Archives économiques du palais de Mari », vol. xx (1939), pp. 97-113.



لوح عليه كتابة مسبارية من عهد يهوليم والد زمري لم
وجد في قصر ماري الملكي

احد التحارير ان المركبات التي تجرها الخيل كانت معروفة كما يرينا تحوير آخر ان
الاشارات النارية كانت تستعمل كتدبير دفاعي وطني او كوسيلة سريعة للانباء .
والحضارة الامورية كما تعكسها لنا اللغة التي كتبوها كانت مزيجاً من عناصر امورية
وحورية وبابلية .

وفي هذه اللوح تبدو حَلَبو Halabu (حلب) كعاصمة يخاض^١، وجِبلة Gubla (جبيل، بيبلوس) كمركز لنسيج القماش والملابس، وقطنة Qatna (وهي اليوم المشرفة شمال شرقي حمص) كمركز هام، وحرانو Harranu (حران وفي التوراة Haron) — التي كانت إحدى محطات ابراهيم في طريقه الى فلسطين — كامارة امورية. وتظهر الوثائق ان جميع هذه المدن كانت مراكز سلالات امورية او تحت حكم امراء اموريين وليس ذلك فقط بل ان تقريباً كل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط ومرتفعات عيلام كان يسيطر عليها امراء اموريون حوالي ١٨٠٠ ق. م. ويشير اسم احد امراء جبيل وهو يَنْتَن عمّو Yantin-'Ammu الى اصل اموري؛ وكلمة «عمو» معناها قبيلة.

وكان مجوي قصر زمري لم الذي وُجدت فيه اللوح نحو ٣٠٠ غرفة فيها الواح جدارية جميلة باطارات ورسوم متقنة الصنع للرجال والآلهة فكان حسب تعبير احد اللوح من اماكن التفرج والمتعة في العالم. وكانت مساحة القصر اكثر من ستة فدادين وفيه تسهيلات للاستحمام وتصريف المياه^٢. وفي القصر غرفتان مزدوتان بالمقاعد وتشبهان غرف التدريس. وهناك رسم ملون بالوان زاهية يمثل الملك يتسلم من عشتر رموز السلطة. وبناء القصر ووثائقه تظهر درجة من الحضارة لم يحلم بها من قبل وهي تنافس حضارة مصر وبلاد الرافدين.

الممر السوري الجبلي

كان ازدهار بلاد الاموريين نتيجة الزراعة المعتمدة على الري من جهة والعلاقات التجارية مع جيرانها من جهة اخرى. فالاراضي الكائنة بين خليج اسكندرون حيث يحدث البحر اعظم فيجوة في البر وبين منحني القرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل ممراً طبيعياً بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين. والممرات لها اهميتها في الجغرافية التجارية وفي تاريخ الافكار وتساعد في توجيه عملية التازج الحضاري. وفي

١) كان اسم ملكها يريم لم Yarim-Lim اسماً امورياً. انظر مقال: W. F. Albright, «Western Asia in the Twentieth century B. C. : The Archives of Mari», *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 67 (1937), p. 27.

٢) يرينا رسم في مجلة سيريام ١٧ (١٩٣٦) لوح ٣ رسم ٢ (مقابل ص ١٦) منسقين للاستحمام من الفخار (احدهما للام الساخن والآخر للام البارد؟) في الجانب الايمن ومستراحاً في الجانب الايسر.

هذه المنطقة يتحول الحجاز الجبلي في الشمال والقرب والحجاز الصحراوي في الجنوب الى بحر واحد منخفض يؤدي الى واد من جهة والى بحر من جهة اخرى ولذلك فقد سمي بالمر السوري^١. ويقع المر في سفح جبال طورس ولذلك يسمى احياناً «بالسفع». وهو المرحلة الاخيرة من خط المواصلات الذي يبدأ عند الخليج الفارسي ويصعد دجلة حتى ضواحي نينوى ثم يتجه غرباً الى المراتى السورية وهكذا يصل بين تل حلف وحران وماري وحلب وغيرها من المدن القديمة. وفي هذا السهل يبدأ التاريخ السوري المستمر واول نمثليه الساميين هم الاموريون. ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمكدونيون كل بدوره السيطرة عليه كمنطقة انتقال. وسهله المملوء بالكلاً يتلقى بين ١٠ و ٢٠ بوصة من المطر سنوياً ويكفي ذلك لنمو العشب اللازم للحيوانات والقوافل. وتبدو بعض اقسام هذا السهل بعد المطر مرجة خضراء. وكانت الجداول المنحدرة من طورس ومياه القرات تروي مدنه.

تحول مركز الاموريين الى الجنوب

كان مسرح تاريخ سورية الرئيسي في مطلع الالف الثاني ق.م. في الشمال حيث كان الاموريون يلعبون الدور الاكبر. وبعد منتصف الالف الثاني بقرن يتحول مركز الثقل الى سورية الوسطى وكان الاموريون لا يزالون يلعبون الدور الرئيسي. وفي هذه الاثناء كانت مصر قد بدأت توسعها لاجل بناء امبراطورية لاول مرة وجعلت قسماً كبيراً من سورية تحت سيطرتها^٢. بفضل قوة نحموس (م ١٤٤٧) الذي يمكن اعتباره نابوليون السلالة الثامنة عشرة. وكانت هنالك دولة اخرى عظيمة ومنافسة لمصر تتألف في الاقش الشمالي وهي دولة الحثيين^٣. وبين هاتين الدولتين انحصرت الدولة او الدول الامورية في سورية الوسطى وكانت تشمل في ذروتها حسب ما نخبرنا اياه رسائل تل الهارثة - وهي اهم مصادرها - قسماً كبيراً من شمالي لبنان وساحله وسورية المحوفة ولبنان الشرقي ومنطقة دمشق. ويظهر على

(١) انظر : Semple, p. 184.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل الحادي عشر.

(٣) انظر الفصل الحادي عشر.

مسرح التاريخ احد ملوك هذه الدول وهو عبد عشرتا^١ التابع لمصر برسالة كتبت بلغة اكدية ركيكة - وهي اللغة الدولية في ذلك العصر - الى الفرعون امنحوتب الثالث (م ١٣٧٥) وفي اولها عبارات اعتيادية معروفة تبدو لنا ذليلة حقيرة اليوم ولكنها كانت جانباً من مراسم تلك الايام وقد جاء فيها :

« الى الملك الشمس ، سيدي ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك . عند قدمي الملك سيدي سبع مرات وسبع مرات اخرى اجثو . انظر ، اني خادم الملك وكلب بيته وجميع امورو احرسها للملك سيدي^٢ » .

التفاق الدولي

كان عبد عشرتا عند كتابة هذه الرسالة في بلدة إرقة Irkat^٣ الفينيقية التي كان قد فتحها ولكن مركز مملكته كان كما يبدو في منطقة العاصي العليا . وكان قد ساعد الحثيين على فتح أمكي Amki^٤ ولكنه كان الآن يخادع الطرفين لكي يتوسع في المنطقة الوسطى ، فبينما كان يدعي الولاء لمصر ويتظاهر بالتعاون مع الحثيين الفاتحين كان بالحقيقة يحاول اكتساب مناطق جديدة لحسابه . وقد سقطت المدن الواحدة بعد الاخرى على الساحل وفي الداخل في يدي عبد عشرتا وابنه أزيرو او نهبت من قبلها ومن قبل الذين اشتركوا معها . وقد ارضى بعض التابعين لمصر وتخلص من البعض الآخر . فاحتل قطنة وحماة وهدد اوبي Ubi (منطقة دمشق^٥) ثم استولى على دمشق نفسها . واخذ ارواد وشيفاتا Shigata

(١) عشرتا او عشرة . انظر الفصل الماتر بشأن هذه الآلهة .

(٢) راجع : J. A. Knudtzon, *Die el-Amarna-Tafeln* (Leipzig, 1908), No. 60 ; cf. A. H. Sayce, *Records of the Past*, new series, vol. v. (London, 1891), pp. 97-8 ; S. A. B. Mercer, *The Tell-El-Amarna Tablets* (Toronto, 1939) No. 60.

(٣) وهي بلدة RQT في النصوص المصرية وArka في العصر الكلاسيكي وعرة اليوم على بعد ١٢ ميل شمال شرقي طرابلس . وهي مذكورة في سفر التكوين ١٥ : ١٧ وفي اخبار الايام الاول ١ : ١٥ ، ومذكورة عند الجغرافيين العرب باسم عرة .

(٤) وهو سهل المنق بين انطاكية وجبال الامانوس . انظر كلامنا عنه في الفصل الرابع .

(٥) وفي الاواح السامرية DI-MASH-QA . انظر ما سيأتي في الفصل ١٢ .

وأُمبي Ambi والبترون^١ وغيرها من مدن الساحل . ويبدو ان الارواديين كانوا بسبب المنافسة التجارية مع اهل جبيل ضد المصريين منذ عهد تحتمس . وكانت سيميرا^٢ Simyra وحدها وهي مقر المقيم المصري وكذلك جبلة^٣ وهي مركز حكم الامير الكنعاني الموالي لمصر رب عدي الذي كان يحكم قسماً من الداخل ويدعي السلطة على الساحل حتى سيميرا ، لا تزالان تقاومان . وأخيراً خضعت سيميرا ، وفصلت جبيل عن مناطقها الداخلية ولم يعد باستطاعتها مواصلة تجارة الاخشاب مع مصر فتعذر عليها البقاء . وارسل رب عدي الموالي لمصر التعرير بعد الآخر - وجموعها نحو خمسين تحميراً^٤ - ملأها بالشكوى من خيانة عبد عشرتا (الكلب^٥) ، وازيرو وتضرع الى سيده فرعون بجماعة لكي يرسل له المساعدات ولكن دون جدوى .

وقد تحرك امنحوتب في احدى المرات وارسل فصيلة من الجنود - بدلاً من جيش كامل تحت قيادته كما كان فعل سلفه تحتمس - نجحت في استرجاع سيميرا واخذ الثورة موقناً ولكنها لم تتمكن من الوقوف تجاه الخطر الذي يسد من الشمال وبعثه تقدم الحثيين .

وقد زال بموت عبد عشرتا موتاً غير طبيعي احد اشخاص الرواية ولكن الرواية

(١) وقد وردت اسماء هذه المدن في النصوص السامرية هكذا : AR-WA-DA, SHI-GA-TA, و AM-BI, BAT-RU-NA و Shigata ليست زغرنا الحديثة (المذكورة في مراسلات ماري باسم Segarātīm) وانما هي شكا شمالي البترون . و Ambi كانت تسمى Ampa عند الاشوريين ، والله عند العرب و Nephin عند الصليبيين وهي الله الحديثة بين شكا وطرابلس . و Batrua هي Botrys عند اليونان واليوم البترون . انظر : Abel, Géographie, vol. ii, p. 4; Dussaud, p. 117.

(٢) وهي في النصوص المصرية DMR و SU-MUR وفي العصر الكلاسيكي Simyros وقد تكون سمرا Sumra الحديثة شمالي مصب النهر الكبير تماماً وجنوبي طرطوس وهناك دلائل على اكتشاف موقعها في ١٩٥٦ . وتوجد اشارة اليها في سفر التكوين ١٠ : ١٨ .

(٣) وهي مدينة جبال Gebel في التوراة (واليوم تسمى جبيل وبالعربية 'KBN, 'KPN, KPNI وفي اليونانية بيبلوس Byblos وباللاتينية Byblus .

(٤) وبعضها محدولة في لندن والاخرى في برلين . انظر : C. Bezold, and E. A. Wablis, Budge The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum (London, 1892), Nos. 12-25; C.Q. Conder, The Tell Amarna Tablets, 2nd ed. (London, 1894), pp. 48 seq.; Knudtzon, Nos. 68 seq.; Mercet, Nos. 68 seq.

(٥) انظر الرسائل رقم ٧٥ ، ٨٥ في Knudtzon .

مصر . واذ كان من شيء قان الوضع اصبح اسوأ . فالفرعون الجديد كان اكثر اهتماماً كما يبدو باصلاحه الديني منه في الدفاع عن امبراطوريته .

وبينما كان أزيرو واخوته وحلفاؤه يستولون على المدن المختلفة كان رب عدي يبعث بتجارير الشكوى بما كان يحصل الى فرعون وعماله وقد كتبت بالمسارية على الواح خزفية . وبما قاله في تلك التجارير « ان ملوك كنعان عندما كانوا يرون مصرياً كانوا يربون من امامه ولكن ابناء عبد عشرتا الآن يهزأون بشعب مصر ويهددونني باسلحة دموية^١ » ويشكو في رسالة اخرى من ان ابناء عبد عشرتا قد اخذوا بعض الناس والضباط واعطوهم لسبلاد سوري Suri كرهينة^٢ . وسقطت اولازا Ullaza و ارداتا Ardata^٣ ومدن اخرى في يد ازيرو بعد مدة وجيزة . واسترجعت سيجيرا وهدمت « لمنع وقوعها في ايدي الحثيين » كما ادعى ازيرو وعندما طلب فرعون اعادة بنائها وعد ازيرو بان يفعل ذلك خلال سنة لانه كان جد منشغل في الدفاع عن مدن الملك ضد الحثيين . ولهذا السبب نفسه ، كما ادعى في مناسبات اخرى ، لم يتمكن من الاستجابة لامر فرعون والذهاب الى البلاط المصري ليشاهد « وجه سيدي الجميل^٤ » . ويعطي تقريراً عن اجماله .

ومهما يكن فان ازيرو ذهب فيما بعد الى مصر بعد ان انتزع من المندوب المصري ايماناً بانه سوف لا يصاب باذى ، ولكنه عاد وجدد ولاءه للقائح الحثي لثبالي سورية واسمه شوبيلولوما^٥ . وفي هذه الاثناء نجد ان رب عدي الذي شعر بانه « اصبح كعصفور في شبكة » اخذ يفقد امله . وقد ارسل اخته واولادها ليلتجئوا الى

(١) الرسالة رقم ١٠٩ في Knudtson .

(٢) الرسالة رقم ١٠٨ في Knudtson وفي التجارير ورد اسم SU-BA-RI و ZU-BA-RI بدلا من Suri . وتصل هذه البلاد اتصالاً وثيقاً بيناني في شمالي سورية ويقول بعض العلماء ان هذا الاسم هو الذي اعطانا اسم «سورية» . قارن مع : Ignace J. Gelb, *Hurrians and Subarians* (Chicago, 1944), p. 48 ; Alexander H. Krappe, « The Anatolian Lion God », *Journal of the American Oriental Society*, vol lxx (1945), p. 153.

(٣) UL-LA-ZA هي ارتوزيا Orthozia في العصر الكلاسيكي وهي ارض ارتوزي الحديثة عند مصب نهر البارد شمالي طرابلس تماماً ؛ و AR-DA-TA هي اربة قرب زهرتا . انظر : Abel, *Géographie*, vol. ii, p. 4 ; Dussaud, p. 85.

(٤) رسائل رقم ١٦٤ - ١٦٧ في Knudtson .

(٥) انظر ما سيأتي بشأنه في نهاية الفصل الحادي عشر .

صوراً التي كان ملكها ابي ملكي غير منضم الى جماعة الامراء الناقمين بل كانت يسترسل في توجيه تحارير الشكوى الى مصر كما كان يفعل رب عدي . واما رب عدي نفسه فقد هرب فيما بعد من جبيل الى بيروت^٢ . ولكن نساءه وابناءه سلّموا الى ازيرو . وعندما اصبحت بيروت في خطر تابع هربه الى صيدا^٣ التي بخلاف منافستها صور كانت قد تحالفت مع الاموريين . وهنا ادركه اخيراً ازيرو فوقع في قبضته .

وهكذا فقد اضطرت مصر للتخلي ليس عن شمالي سورية فحسب وانما عن فينيقية ايضاً التي كانت مصدراً هاماً لموادها الخام . واخذت الشقة تتباعد بازدياد بين سورية وفلسطين .

الاموريون في فلسطين

ويسدل الستار بعد ذلك على الاموريين في سورية الوسطى وينتقل مركز الحوادث الى الجنوب . وقد كان الحثيون متمركزين في شمالي سورية واواسطها ولم يبق خلفاء اخناتون المباثرون بمحلات جديدة ضدم وتظهر رسائل تل العمارنة انه بينما كان الحثيون يحتلون المنطقة الشمالية كانت جماعات جديدة تسمى الحابيروء تغزو المنطقة الجنوبية ويرافقها كما يبدو الآراميون وهم قبائل سامية جديدة اتت من البادية . ويرى بعض العلماء ان الحابييرو هم الساغاز Sa-Gaz انفسهم وكانوا مرتزقة في الجيش الحثي يتعاونون مع عبد عشرتا . وفي احدى رسائل رب عدي الاخيرة الى اخناتون يشير اليهم قائلاً : « منذ ان عاد والدك من صيدا ، منذ ذلك الحين سقطت الاراضي في يد الغاز Gaz » .

(١) SUR-RI واسمها محفوظ في التسمية الحديثة « صور » .

(٢) BE-RU-TA وبالمرية BL-RU-TA وهي اليوم اكثر ازدهاراً من سائر المدن المذكورة . وكلمة b'eroth معناها آبار . انظر: Zellig S. Harris, *A Grammar of the Phoenician* . وقابل سفر يشوع ١٧:٩ ؛ ٢٥:١٨ . p. 85. (New Haven, 1936), Language

(٣) SI-DU-NA وصيحت كذلك باسم اله الصيد البري والبحري .

(٤) راجع ما سيأتي في نهاية الفصل الحادي عشر .

(٥) الرسالة رقم ٨٥ .

عندما دخل الحايبرو فلسطين وجدوا ان ساميين قدامهم الاموريون محتلون قسماً منها على الاقل. وإن عائلات الاتصال التاريخي بين الممالك والجماعات الامورية الكثيرة في سورية التي كانت موزعة في الزمان والمكان مفقودة. ولا يمكننا التأكد ايضاً من ان الحركة الامورية نحو الجنوب كانت حركة اجماعية. واسم الاموريين مثل الحثيين تغير معناه مع الزمن كما يبدو وصار يستعمل بجرية اكثر. وربما كان الاموريون الطبقة الحاكمة في الجنوب^١. وأحد المصادر الرئيسية التي استخدمها مؤرخو العهد القديم وانيماؤه يعطيهم مكانة ممتازة في فلسطين قبل الاسرائيليين ويجعل جميع سكان الاراضي الجبلية وشرقي الاردن اموريين^٢ قبل قدوم بني اسرائيل^٣. وهناك مصدر آخر رئيسي يجعل سكان البوادي خاصة من الكنعانيين. ويتضح ان الاموريين كانوا في القرن الثالث عشر يسيطرون على المواقع الاستراتيجية ورؤوس التلال في سورية الجنوبية وانهم اسسوا بعض المراكز التي تطورت فيما بعد فاصبحت تلك المدن الكنعانية الهائلة التي توقفت عند اسوارها واوراجها القادمون الاسرائيليون.

وبعد مدة تم للاسرائيليين انتزاع السيادة من ايدي الاموريين والكنعانيين. فقد استولوا على المناطق السورية الواقعة شرقي الاردن بعد اجتياح سيخون Sihon وجارتها الامورية في الشمال وهي ارض باشان^٤. وكان عوج Og ملك باشان الذي قيل عنه انه «من بقية الجبابرة» هائلاً في قامته. وكان طول سريره الحديدي (ربما تابوته البازلتي ؟) تسعة اذرع وعرضه اربعة اذرع^٥. وقد جاء في سفر النبي عاموس (٩: ٢) ان قامه الاموريين كانت مثل قامه الارز وانهم اقوياء كالسنديان. وتبدو قامات الاموريين في المباني الاثرية طويلة عسكرية. ولا بد من ان حجمهم وحضارتهم أترا على سكان الكهوف القصار القامة البدائيين في جنوبي سورية حتى ان

(١) Albrecht Alt, « Volker und Staaten Syriens im frühen Altertum », *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), pp. 22-24.

(٢) راجع سفر العدد ١٣: ٢٩؛ يشوع ٢٤: ٢٨، ١٨؛ عاموس ٢: ١٠؛ حزقيال ١٦: ٣؛ ٤٥: ٤.

(٣) واسرائيل هو يعقوب (سفر الخروج ٩: ٧) حفيد ابراهيم.

(٤) سفر التثنية ٢: ٣ وما يليه؛ ١: ٣ وما يليه.

(٥) سفر التثنية ٣: ١١.

الاساطير قامت تتحدث عن انه جيلاً من الجبابرة اتى وتراوج مع بنات الانسان ، وانتقلت هذه الاساطير الى الاسرائيليين^١. ويبدو ان لمثل هذه الاساطير الموجودة عند شعوب اخرى كثيرة بعض الاتصال بظهور قادمين جدد يستخدمون المعادن^٢. وكان البروتزو هو المعدن في هذه الحالة. فقد جعل الاموريون الاولوت رؤوس حراهم النحاسية وخناجرهم وسكاكينهم اكثر صلابة بواسطة التطريق ثم بالمزج مع القصدير. واقدم الخناجر البروتزية من فلسطين تشبه خناجر شمالي سورية. وقد ادخل صهر البروتزو من هناك الى فلسطين قبل ٢٥٠٠ ق. م.

وينتسب شكل الاموريين الى ما يسمى بالنوع الارمنوي الذي يتصف بالرأس المستدير والانف الضخم. ويلاحظ نفس النوع بين عرب الجنوب^٣. واقدم ممثلين للاسرى الاسويين الذين اسرهم الفرعون ساحوراع (نحو ٢٣٥٠ حسب التاريخ على اقرب تقدير) ينتسبون الى هذا النوع. ويصدق الامر نفسه على الذين يظهرون في الرسوم الجدارية في بني حسن وكانوا يجلبون الكحل الى «مدير الصحراء الشرقية» (حوالي ١٨٩٠ ق. م.). وهنا يظهر الشيخ الاموري أبشة وهو غالباً من جنوبي فلسطين مع ابناء قبيلته وبناتها باثواب قصيرة متعددة الالوان ومنسوجة بعناية ودقة ويلبس الرجال نعالاً (او صنادل) والنساء احذية او جوارب. ويشاهد الرجال بلحية سوداء ووجه يشبه العصفور وقزحية عيونهم رمادية اللون وبؤبؤها اسود. ويقود أبشة موكبهم. ويتبع النساء في هذا الموكب رجل وحمارة وعلى ظهره قربة وفي يده مضرب ليلعب على قيثارته ذات الثمانية اوتار. وعلى ظهر الحمار الصبور سرج يرتبط به رمح ومضرب عصي. ومن الاسلحة الاخرى التي يحملها الرجال اقواس مزدوجة وحراب. وهناك قطعة عاج محفورة من اواخر السلالة الاولى (نحو ٢٣٠٠ ق. م.) تظهر سامياً بلباس كان يلبسه في القتال على ما يظن وهو مئزر مزركش بحواش يصل الركبتين تقريباً.

لم تة اء اللغة الامورية كتابات اثرية ذات شأن وانما تركت اسماء اماكن

(١) انظر ماجاء في اعلاه ص ٢٨-٢٩.

(٢) M. E. Kirk, « An Outline of the Cultural History of Palestine », *Palestine Exploration Quarterly*, vol. lxxv (1943), p. 22.

(٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 30.

وامراء فقط. ومع ذلك فإنه يمكننا التأكد بأنها اختلفت عن اللغة الكنعانية من حيث الهجاء فحسب. ويمكن اعتبارها بالواقع لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية أو الفينيقية.

العناية الامورية

ان الديانة الامورية في شكلها البدائي لم تختلف غالباً عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التي كانت شائعة بين الرحل في بادية الشام وبلاد العرب. وكان يوجد بجانب اله القبيلة امورو وهو اله الحرب عدد من الآلهة التي لا تعرف صفاتها بالضبط ويظهر كثير منها في عداد الآلهة الكنعانية فيما بعد. وكان اهمها حدد (بالاكادية آدد او آدو^١) المعروف ايضاً باسم رماتو (صانع الصواعق) وهو اله مطر وعواصف يمثل نوعاً شائعاً في غربي آسيا ويظهر عادة مع الثور والصاعقة. ثم اصبغ بعد ذلك البعل الاعظم. وبصفته اله رئيسي في العرب عرف باسم مارتو. ويوجد اله آخر ذو شأن وهو رشف^٢ وربما كان له بعض الصلة بالنار. واقتبس المصريون في عهد الملكية الحديثة من الكنعانيين. وكان دجن الذي عبده الاموريون الذين فتحوا بابل اله غذاء بالاصل. وقد اجريت الحفريات في معبد مكروس له في مدينة اوغاريت. واقتبس الفلسطينيون كإله السمك وكان يعبد خاصة في غزة. وجميع هذه الآلهة قد ذكرت في الواح ماري.

وكان لاله امورو شريكة تسمى عاشرة Ashirat وتنصف بحب المسرات والنشاط وتشبه نموذج عشتار المعروف. وقد كانت الالهة الرئيسية. وعبادة الافعى التي سبقت قدوم الاسرائيليين كانت متصلة على ما يبدو بالالهة انثى وربما كان ادخلها الاموريون. وفي عداد آلهة جنوبي بلاد العرب نجد ان هذه الالهة متصلة بالاله القمر. واسمها يقابل Ashérah بالعبرية وهي العمود المقدس او جذع الشجرة وتستعمل في الطقوس^٣.

(١) في الرسالة ٥٢ من رسائل تل العمارنة الموجهة من ملك قطنة لطلب المساعدة من امنحوتب الثالث ضد الحثيين غالباً نرى ان الملك يسمي فرعون «يا الهي آدو». وفي تجارير قطنة رقم ٥٢-٥٥ ادخلت تماثيل حورية كثيرة. انظر نهاية الفصل الثاني عشر.

(٢) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ١٢.

(٣) انظر الفصل العاشر في اول الفقرة عن الاصنام.

ومن الطقوس البارزة التي ادخلها الاموريون الى جنوبي سورية العمود المقدس وكان يمثل على ما يظهر اله القبيلة وعادة يقام في مكان مطهر وعادة في مغارة الى جانبها مذبح من الحجر الكلسي لا تدنسه اية آلة^١. والساميون الذين حلوا في جزر محل السكان الاقدمين ومارسوا تضحية اول مولود وكذلك قاموا بالتضحية عند تأسيس الاماكن وبنوا الاماكن المرتفعة للعبادة من الصخور الكبرى - هؤلاء الساميون كانوا اموريين^٢. ومن اقدم الاشارات الى التضحية عند التأسيس إشارة وارادة في شعر سومري ذكرناه آنفاً^٣ حيث يذكر ان الاموري كان يبني باحة معبده «على رجل ميت». وقد تابع الكنعانيون التظم والعادات الدينية التي كان يتبعها ابناء جنسهم الاموريين الذين اتوا قبلهم.

(١) قارن مع ما جاء في سفر الخروج ٢٠ : ٢٥.

(٢) انظر ما جاء في ص ٢٦ وما سيأتي في الفصل العاشر، في الفقرة عن الاماكن المرتفعة.

(٣) انظر ص ٧١

الفصل الثامن

الكنعانيون ثماني شعب سامي رئيسي في سورية

كان الكنعانيون الذين سماهم اليونان بالفينيقيين فيما بعد ثاني جماعة سامية لعبت دوراً هاماً في تاريخ سورية بعد الاموريين . والكنعانيون والاموريون ينتسبون الى موجة الهجرة نفسها . ولذلك فان الاختلاف العرقي بينهم معدوم وان كانت بعض العناصر السومرية والحرورية اندجت بالتدرج مع الاموريين بينما اندجت بعض العناصر المحلية الاخرى مع الفينيقيين . والاختلاف الحضاري ناشئ عن ان مركز الاموريين الاصيلي كان في شمالي سورية ولذلك تعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل . ولذلك كانوا متجهين نحو مصر . والاختلاف الديني كان بالدرجة الاولى اختلافاً في التطور والتكيف حسب البيئة المحلية . واما الاختلاف اللغوي فكان اختلافاً في اللهجة فقط باعتبار ان اللغتين كانتا من الفرع السامي الغربي الذي يضم العبرية . وهذا الفرع نفسه يمكن تسميته بالشمالي الغربي لتمييزه عن الجنوبي الغربي الذي يضم العربية .

كنعان

ان اسم بلاد كنعان الذي كان يعتبر حتى الآن سامياً بمعنى الارض المنخفضة لاختلافها عن مرتفعات لبنان اصبح الآن مشكوكاً في اصله السامي ويظن انه من اصل غير سامي . والاشتقاق الجديد يجعله حوري الاصل Knaggi بمعنى الصباغ الأرجواني وهذا اعطى الصيغة الاكادية في نوزي «كناخني Kinakhni» (وفي مسامرة رسائل تل العمارنة كينناخي Kinakhkhi) وبالفينيقية كنع Kena والعبرية

(١) من قبل كتع kana اي انخفض او تواضع . انظر : Smith, *Historical Geogra-*
phy, pp. 4-5; Claude R. Conder, *Syrian Stone-Lore* (London, 1896), pp 2-3; C.
Autran, *Phéniciens* (Paris, 1920), p. 4; cf. Lewis B. Paton, *The Early History*
of Syria and Palestine (New York, 1901), pp. 68-69.

كنعان اي بلا الارجوان^١. وفي العصر الذي احتك فيه الحوريون احتكاً وثيقاً بساحل البحر المتوسط في القرن الثامن عشر او السابع عشر كانت صناعة الارجوان على الغالب الصناعة السائدة في البلاد. كذلك يشير اسم فينيقية المشتق من اليونانية Phoinix^٢ اي احمر ارجواني الى الصناعة نفسها وبعد ان اطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فان كلمة فينيقي اصبحت بعد حوالي ١٢٠٠ ق. م. مرادفة لكنعاني. ولا بد ان هؤلاء الساميين السوريين الذين لا يختلفون عن كثير من الشعوب القديمة الاخرى كانوا يتألفون من جماعات تشتم باختلافاتها القبلية والمحلية اكثر بما تشتم بوحدها القومية، وكان عليها ان تنتظر اجنبياً ليعطيها اسماً عاماً.

وقد اطلق اسم كنعان في اول الامر على الساحل وغربي فلسطين ثم اصبحت الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية. وكان هذا اول اسم لفلسطين وجميع الاسماء الاخرى اقل اهمية. وفي وثائق العهد القديم الاولى اطلق اسم كنعاني بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد بدون اي مدلول عرقي، وتعير « لغة كنعان^٣ » كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية.

تبدأ الديانة واللغة الكنعانيتان بالظهور من غياهب العصور السامية القديمة حوالي مطلع الالف الثاني ق. م. غير ان اسلاف الذين سموا كنعانيين كانوا غالباً يمتلون البلاد قبل ذلك بالف سنة او اكثر. ويمكن استنتاج ذلك من اسماء الاماكن كما اظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن مثل اريحا^٤ وبيت شان^٥ ومجدو^٦ التي لها اسماء كنعانية واضحة قبل عام ٣٠٠٠ ق. م. وظهر في

(١) راجع : W. F. Albright, « The Role of the Canaanites in the History of Civilization », *Studies in the History of Culture* (Menasha, 1942), p. 25; cf. Alt in *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), p. 25

(٢) قارن مع G. Boufante, « The Name of the Phoenicians », *Classical Philology* vol. xxxvi (1941), pp. 1 seq.

(٣) سفر اشعيا ١٩ : ١٨ .

(٤) اصلها من يريحا Yerēho اي مدينة القمر .

(٥) وهي Beth-shan اي بيت الاله شان واليوم تسمى بيسان .

(٦) او Megiddon المشتقة من جَدَد gadad اي قطع واليوم تل التسل .

الكتابات الاثرية في النصف الاول للالف الثاني مدن اخرى لها اسماء سامية معروفة يمكن اعتبارها كنعانية مثل عكوا^١ وصور^٢ وصيدا^٣ وُجبل (جبل) واركة وسييرا^٤.

بمالك المدن

كانت نتيجة طبيعة اراضي كنعان وموقعها الاستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل ووادي الدجلة وآسية الصغرى ان الكنعانيين لم ينجحوا قط في تأسيس دولة قوية موحدة . وبدلاً من ذلك فانهم كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وصل الى الحكم غالباً بعد ان كان ينتسب الى طبقة الاشراف الملاكين. وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات وابراج للدفاع^٥ يمكن لسكان الريف المجاورين ان يلتجئوا اليها في وقت الخطر وان يقصدها في وقت السلم فتكون لهم سوقاً ومركزاً اجتماعياً . ومثل هذه المدن كانت تشكل مكان الدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الاقرباء او غارات البدو الرحل . غير ان انقسام البلاد الى بمالك مدن صغرى في حالة حرب بعضها مع بعض في كثير من الاحيان وينقصها الاستقرار الداخلي بسبب نزاع النبلاء الطامعين بالسيادة المحلية ، هذه العوامل جعلت البلاد كلها تحت رحمة الدول المجاورة الميالة الى الاعتداء .

انتشرت المدن الكنعانية الاولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرم^٦ في الجنوب ولكن تعرجات الشاطئ القليلة جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدوداً. غير ان جبال امانوس وكاشيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب

(١) Acco (من akko، اي رمل حار) وهي بتوليس Ptolemais في العصر اليوناني واليوم عكا .

(٢) Sôr بمعنى صخر .

(٣) Sidon اي مضيدة بك .

(٤) انظر ما جاء في الفصل السابق .

(٥) ومفرد هذه الابراج migdol وقد بقي هذا الاسم السامي في الصيغة العربية « مجدل » التي تظهر في اجاء الاماكن .

(٦) واصل الاسم من السامية karmel بمعنى ارض ذات بساين .

لم تشكل ترساً كافياً ضد الهجمات من الورا كما فعلت جبال لبنان المرتفعة . ولذلك فان المدن العظيمة وهي التي قدر لها البقاء تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان وهي طرابلس^١ . وبوترس (البترون) وبيبلوس (جيسل) وبيروتوس (بيروت) وصيدا وصور . هذه المدن بالإضافة الى عرقة وسيميرا وارانوس^٢ (ارواد) في الشمال وغيرها من المدن كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة التي تكفي نفسها بنفسها . وفي سورية الجنوبية تقع غزة^٣ وعسقلان^٤ على الساحل ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل مثل جزر ولاكش ومجدو وهازور Hazor وشكيم واورشليم^٥ وقد ذكرت جميع هذه المدن وكثير غيرها في تقارير حملات تخومس الثالث (في مطلع القرن الخامس عشر ق. م.) ورسائل تل العمارنة ويوجد وصف لها في سفر ييشوع والقضاة .

كانت هذه المدن صغيرة في مساحتها . فقد كانت مساحة جزر وهازور^٦ وهما من اكبر المدن بين خمسة عشر وستة عشر فداناً بينما كانت مساحة اريحا ستة فقط . وربما كان وجود مرتفع يسهل الدفاع عنه او ينبوع ماء ، العامل الذي قرر اختيار الموقع . ولكن سور جزر كما اتضح من الحفريات الحديثة كان ضخماً بحيث بلغ سمكه ستة عشر قدماً ، وارتفعت اسوار اريحا حتى بلغ ارتفاعها واحداً وعشرين قدماً^٧ . تلك كانت حصون الكنعانيين القوية التي لقت الرعب في قلوب جواسيس موسى^٨ . وكانت المركبات الحربية التي ادخلها الكنعانيون الى البلاد وسيلتهم

(١) من اليونانية Tripolis اي ثلاث مدن . ولا يزال اسم المدينة الفينيقية القديمة التي كانت على الساحل ولم تظهر اهميتها حتى العصر الفارسي مجهولاً . انظر ما سنذكر بشأنها في الفصل ١٦ في العصر الفارسي .

(٢) وهو اسم غير سامي .

(٣) والاسم مشتق من «عزّة» اي قوة وثبات .

(٤) من العبرية Ashqelon .

(٥) انظر ما سيأتي بشأنها في نهاية الفصل الحادي عشر .

(٦) سيأتي ذكرها ايضاً في الفصل الحادي عشر في الفقرة التي عن المكسوس .

(٧) راجع : A.-G. Barrois , Garstang, *Heritage of Solomon*, pp. 109-110; *Mannuel d'archéologie biblique*, vol. I (Paris, 1939), pp. 145 seq.

(٨) سفر العدد ١٣ : ٢٨ .

الرئيسية في الدفاع . وقد ادخل الحصان في ايام الهكسوس^١ تقريباً (حوالي ١٧٥٠ ق.م). واما سائر اسلحة الهجوم فكانت تضم القوس والسهم برأس بروزي او صواني وخنجراً قصيراً وسكيناً معقوفاً - وقد وجدت آثار من جميع هذه الاسلحة - ونبوتاً ثقيلاً من الحشب القاسي .

وكان سكان الريف غالباً متفرقين قليلي العدد ويحتمل ان لا يكون عدد سكان فلسطين كلها قبل قدوم الاسرائيليين قد تجاوز ربع المليون^٢ . وقد حصل نمو المدن بدون اتباع مخططات موضوعة سلفاً . وكانت المنازل الكنعانية في القرن الخامس عشر كما كشفها علماء الآثار هزيلة في بنائها وغير منتظمة في تخطيطها بوجه العموم . وكانت منازل الفقراء صغيرة الحجم ومزدحمة بعضها بقرب بعض كما في القرى القديمة الطراز اليوم . اما منازل الاغنياء فقد كان لها باحة في وسطها وحولها الغرف . وكانت بعض البيوت مزودة بعنبر للقمع وصهريج خاص^٣ .

المدن الواقعة على جزر

كانت تتمتع بعض المدن مثل ارادس (ارواد) وصيدا وصور بخط دفاع مزدوج . وكان مواطنوها يحتلون موقعين الواحد في البر حيث كانوا يتاجرون او يزرعون بساتينهم والآخر في جزر صغيرة مجاورة يلبأون اليها كلما تدفق الفاتحون الاشوريون . مثلاً عبر الممرات الجبلية . فالارواديون الذين كانت تسمى مدينتهم الكائنة على الساحل انتارادس Antaradus^٤ في العصر الهلنستي كانوا يتجمعون في جزيرتهم الصغيرة كما يفعل الناس في جزيرة منهارتن بنيويورك في ناطحات سحاب مصفرة . وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لاجل جزيرتهم . وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف اليها مياه ينبوع تحت

(١) راجع ما سنذكره عن الهكسوس في الفصل الحادي عشر .

(٢) Garstang, *Heritage of Solomon*, p. 107

(٣) Macalister, *Excavation of Gezer*, vol. i, p. 169 ؛ ولابل وصف سائر المنازل راجع :

Barrois ص ٢٥١ وما بعدها .

(٤) وكان الصليبيون يسمونها Tortosa واليوم طرطوس شمالي عمريت حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الدينية الهامة وهي مبد وقبور .

البحر يحصلون عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع بحيث يتصل القمع بانبوب جلدي^١ وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذبة تحت البحر .

كانت صور الواقعة على جزيرة صغيرة « مبنية بنفس الشكل الذي بنيت فيه ارادس^٢ ». وكانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل بناه الاسكندر اثناء حصاره لها^٣. وقد اظهرت الحفريات الحديثة تحت البحر والصور الفوتوغرافية من الجو ان المرفأ الرئيسي كان في الجهة الجنوبية للجزيرة وان الرصيف الذي كان يحيط به وهو الآن على عمق خمسين قدماً كان طوله ٧٥٠ متراً وسمكه ثمانية امتار وان اسوار المدينة كانت تشرف على هذه المجموعة كلها مع ابراج في كل طرف^٤. ويعتقد ان هذه الاشغال الضخمة بناها الملك حيرام معاصر سليمان الذي بلغت المدينة ذروتها في ايامه . وهذا جعل صور من اقوى الموانئ في شرقي البحر المتوسط . غير ان امبراطورية صور في ذلك العصر وفي جميع العصور كانت قائمة على التجارة والغنى وليس على الاراضي والفتح .

وكانت تقع صيدا وهي شقيقة صور الشمالية على رأس جبلي اختاروه على الاكثر بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض بارصفة اصطناعية . وكان هذا المرفأ يقع الى جهة الشمال ، وفي الجنوب كان يوجد مرفأ آخر يسمى المرفأ المصري وهو اكبر من الشمالي ولكنه ليس اميناً مثله . وكان يحمي المدينة من جهة البر سور . وقلعة صيدا الحالية وتسمى قلعة البحر يعود اصلها الى زمن الحروب الصليبية وتقع على اكبر هذه الجزر . وفي اوائل القرن السابع عشر امر الامير اللبناني فخر الدين المعني بملء المرفأ القديم لينبع اقتراب الاسطول العثماني^٥ .

(١) انظر : Strabo XVI. 2. 13

(٢) Strabo XVI. 2. 23

(٣) انظر ما سيأتي عن حصار صور في الفصل السابع عشر .

(٤) راجع : A. Poidebard, *Un Grand Port disparu : Tyr* (Paris, 1939), pp. 25-26.

(٥) انظر ما سيأتي بشأن الامير فخر الدين في الفصل التاسع والاربعين .

اتحاد المدن

ولتغلب الوقت على عزلة بمالك المدن السياسية ، هذه العزلة التي تعكس تجزؤ البلاد الجغرافي كانت احسن وسيلة ان تحصل احدى المدن على الزعامة ويصبح لها سيادة سياسية على سائر المدن . وكانت المصالح المشتركة تتطلب الاتحاد الاختياري في بعض الاحيان . وقد حصلت على مثل هذه الزعامة او غارت في اواخر القرن السادس عشر وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر وصور بعد هذا القرن وطرابلس في القرن الخامس . وتحت ضغط الخطر المدام خاصة كانت هذه المدن تتعاون وتشكل عصابات واحلافاً . ومن الاحلاف القليلة الهامة المعروفة ذلك الحلف الذي كسره نحوتمس الثالث في مجدو في ١٤٧٩ ق. م. غير ان السلطة الموجهة في ذلك الحلف كانت قادش الواقعة على العاصي . وتظهر مراسلات تل العمارنة بعد ذلك بقرن ليس فقدان العمل المشترك فحسب وانما محاولة الملوك الفينيقين ايضاً للحصول على الفوائد من سيدم المصري بعضهم على حساب بعض . وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم الى فرعون بصورة شخصية وافردية . وقد برهن الكنعانيون خلال تاريخهم الطويل انهم كانوا يجوبون السلم ولا يميلون الى الاعمال الحربية . وكانوا يوجهون اهتمامهم الى نواحي التجارة والقن والديانة وليس الى الحرب . وكانت مدنهم عادة تحمي رأسها امام حوادث القمع الموجهة من مصر وبابل وبلاد الحثيين وفارس ومكدونيا . وكانوا يدفعون الجزية ليضمنوا عدم التدخل في شؤونهم ويأملون ان يكافأوا ولو جزئياً بتوسيع اسواقهم في البلاد الداخلية .

الاقتصاد : الزراعة

وقد سعى سكان كنعان الى اغناء انواع الاقتصاد التي تسمح بوجودها اراضيهم ومواردها الطبيعية . واقدم اعمالهم الرئيسية انحصرت في ميادين الزراعة وصيد الاسماك والتجارة . فالاهتمام بالزراعة كان من نواحي نشاطهم الرئيسية وقد اثر على ديانتهم تأثيراً عميقاً . وكان البذار يتم باليد في اول الامر ثم توسع اكثر عندما ادخل المحراث من بلاد بابل ، وربما دخل المحراث الى جنوبي البلاد من مصر . ووجدت بقايا اعمال الزراعة الكنعانية بين ١٥٠٠ و ١٣٠٠ ق. م. في تل بيت مرسيم (قرية سفر القديمة) . واكتشف فأس من البرونز في رأس الشجرة .

وكانوا يصعدون بمنجل اسنانه من الصوان وتتصل بقبضة من العظم او الحشب بواسطة الملائط . واستعملت هذه الآلة حتى حوالي عام ١٠٠٠ ق.م . حين حل المنجل الحديدي محلها . ومن التاريخ نفسه تقريباً أنت أقدم آلة حديدية يمكن تعيين تاريخها وهي طرف محراث اكتشف في فلسطين الوسطى في جبعة موطن شاول وتسمى اليوم تل الفول . وانت من تل بيت مرسيا محارث ومناجل حديدية بجانب الحرف الفلسطيني ساعدت على تأريخ هذه المكتشفات . وعملية الدراس كانت تم بزلاجة خشبية في اسفلها حجارة صغيرة . وكانت تدرى الحبوب بمنذرة خشبية كبيرة . والطحن كان يطحن في مطاحن يدوية من الحجر ، والحزب كان يخبز في افران اسطوانية من الطوب . ولم تختلف الصورة العامة اختلافاً كبيراً عن العادات الريفية في سورية اليوم كما يتضح من دراسة سريعة لما اكتشف في السنوات الاخيرة من مناجل ومطاحن ومدقات واجران وغيرها من الادوات .

والمحاصيل نفسها لم تختلف كثيراً عن محاصيل هذه الايام . فالمحاصيل النموذجية كانت القمح والشوفان والشعير والفاصوليا والجلبانه والعب والزيتون والتين والمان والجوز^١ . وقد سميت الحبوب والكرمة والزيتون بحق ثلوث بلاد البحر المتوسط في الانتاج الزراعي . وعمد الفلاح في تكييف زراعته بمقتضى خطر عدم كفاية الامطار الى اساليب الزراعة الجافة وتتضمن التناوب السنوي في زرع الارض وتركها بدون زراعة . وكان المجتمع الكنعاني يضم طبقة من الفلاحين او المستأجرين المولودين احرازاً تسمى خابشي Khapshi تقابل طبقة المشكينو Mushkenu في المجتمع البابلي^٢ . وفي الريف اللبناني عمد السكان عندما استنفذوا الوسائل المحلية للعيش الى تحويل منحدرات الجبال الى سطوح متفاوتة الارتفاع (جلول) ببناء جدران يبعد الواحد بضع يردات عن الآخر لتوسيع رقعة الارض المزروعة وحماية التربة ضد التآكل ومثل هذه الجلول (جمع جل) كانت اكثر ملاءمة للحدائق والكروم والبساتين منها للزراعة الحقلية الواسعة . واقدم الاشارات

(١) انظر ما جاء في الفصل الخامس . راجع : Barrois, pp. 309 seq.

(٢) راجع مجموعة قوانين حمورابي ، المواد ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ الخ . وقد بقيت كلمة مشكينو في كلمة مسكين العربية وفي كلمة mesquin التي اقتبسها الانكليزية بطريق الفرنسية والاسبانية . وكلمة خبشي انت من اصل لا يزال بقيتاً في العربية في كلمة خبث .

الى هذه الجلول المدرجة التي تتصف بها مشاهد لبنان حتى اليوم ترد في كتابه اثرية من عهد نحوتمس الثالث .

وام الحيوانات المنجسة كانت الابقار والاغنام والحمر والماعز والخنزير والكلاب، والثلاثة الاخيرة كانت تعيش على فضلات الطعام . وكان اللحم يؤكل في مناسبات خاصة وفي الاعياد فقط ويطبخ في قدور ذات فوهة واسعة . والطعام كان يؤكل باليد او بملاق ذات مسكات عظيمة . ومياه الشرب كانت ترفع من الصهاريج او تؤخذ من الينابيع وتحمل على الرأس في قرب من الجلد او في جرات كبيرة . والمصايح كانت عبارة عن صحن خزفية بسيطة ذات فتحة صغيرة في طرفها لوضع الفتيل . ويرجع اقدمها الى النصف الاول للالف الثاني . وقد وجد عدد كبير من ادوات المطبخ في المواقع القديمة منها الجرار والآنية والصحن الحجرية التي تظهر ان الحياة المنزلية قد بقيت في مظاهرها الاساسية حتى العصر الحاضر .

الصناعة

كان اصحاب الحرف والتجار يحتلون مكانة متوسطة في المجتمع الكنعاني بين الارستوقراطية الاقطاعية المؤلفة من النبلاء الملاكين والمحاربين في سلاح المركبات وبين الطبقة الدنيا المؤلفة من عبيد الارمن والارقاء .

وكان الابناء عادة يتخذون مهنة آبائهم وظل هذا الاسلوب متبعاً حتى العصور الاخيرة . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بان اصحاب الحرف كانوا ينتظمون في نقابات . والنقابات كانت تتألف من جماعات ترتبط بعضها ببعض بروابط المهنة والقرى وتعيش في احياء خاصة . وقد وجدت مثل هذه المنظمات في فلسطين قديماً منذ القرن الثامن عشر ق. م .

وقد بلغت صناعة الخزف وهي من اقدم الصناعات السورية ومن اكثرها نجاحاً ذروتها قبل عام ١٥٠٠ ق. م . وكانت التأثير البابلي ظاهراً فيها منذ ٢٠٠٠ ق. م . واستعمال دولاب الخزف الذي بدأ في اوائل الالف الثاني اعطى المصنوعات الخزفية صفات جديدة وشكلاً متناسقاً . والطين الذي استعمل حينئذ اصبح اكثر نقاوة . واخذت الصفات الامورية القديمة بالزوال واصبح تقليد النماذج الاجنبية وخاصة المصرية والكريتية والميكانية امرأ شائعاً . واستوردت الاواني

الحزفية البراقة بيريقي معدني وآنية الرخام المرّق (اللباستر) من مصر بكميات كبيرة. واستخدمت كذلك الإواني القبرصية كتماذج كما تدل مكتشفات اوغاريت^١ وغيرها من الاماكن. وتقع اوغاريت على الساحل السوري تجاه قبرص تماماً. وبعد عام ١٥٠٠ ق.م. اصبحت التأثيرات القبرصية والميكانية قوية بشكل خاص. وصنعت تماذج خاصة لاجل الاشياء المتصلة بالطقوس الدينية والتقدمات التذرية. واستخدم القصدير في طلي الحُزف واعطائه بريقاً خاصاً. والآثار المكتشفة في القبور تظهر ذوقاً عظيماً ومهارة فنية. وبلغ فن النحت ذروته في القرن السادس عشر.

صناعة المعادن

وكان الكنعانيون على الغالب لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والآخر (نحو ٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م.). فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة. وقد اظهر التحليل الكيمياوي لنصل فأس من اوائل القرن الرابع عشر اكتشاف في رأس الشمرة ليس معرفة اذابة الحديد فحسب وإنما معرفة مزجه بمعادن اخرى لصنع مزيج الفولاذ^٢ وكان هذا الامر مجهولاً حتى ذلك الوقت. واهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً وعن القصدير لاجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز وعن الذهب والفضة ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم. ووجدت صحون الفضة بين غنائم القراغة من سورية. وبلغ فن الصياغة ذروته في القرن السادس عشر. واكتشف ميزان احد الساعة واوزانه في رأس الشمرة. واستخدمت وزنات الفضة غير المسكوكة كتنقود في بلاد آسيا الغربية بالرغم من ان التجارة كانت عموماً بشكل مقايضة. ويشير سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) احد فاتحي سورية الاشوريين الى هذه الاوزان التي صنعها بقوله: «لقد عملت قالباً من الطين وصببت البرونز فيه كما في صنع قطع نصف الشاقل^٣». وقد وجدت السكاكين ورؤوس الحراب والقوس الحربية والمخارز والملاقظ في اريحا من العصر الذي سبق قدوم بني اسرائيل. وبعد ١٥٠٠ ق.م.

(١) انظر ما سيأتي في الفصل العاشر في الفقرة التي عن اوغاريت.

(٢) راجع : Schaeffer, *Ugaritica*, p. 110, No. 2

(٣) Daniel D. Luckenbill, *The Annals of Sennacherib* (Chicago, 1924), p. 123

تظهر في فلسطين اشكال حثية وقبرصية وميكانية من الاسلحة . واكتشفت اساور وخلاخل واقراط وخزائم ومشابك للصدر من البرونز والذهب والفضة في مختلف المواقع . واستخرجت صنوج صغيرة من القرن الرابع عشر من تل « ابو هوام » قرب حيفا . وتظهر الآثار وجود آلات موسيقية كالقيثارة والثاني والمزمار والعود والدف ولكن هذه لم تبقى لسرعة تلفها . وعندما بدأ التجار الكنعانيون باستيراد التمام والجعلان والاختام والحرز والاواني والاسلحة وغيرها من مصر فان صانعي المعادن الكنعانيين اخذوا يقلدونها . وتشيد اشعار هوميروس بصناعة المعدن والفنون الفينيقية وقد ذكرت ان صحناً من الفضة « عمله بدهاء الصيديونيون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله احسن شيء من نوعه في العالم كله »^١ .

العاج

كانت زينة عامة الناس تضم العقود والحواتم من الحجر الكلسي والبور الصخري والعقيق وقد وجدت نماذج منها . ولم تكتشف الا خزرات وتماث قليلة من العاج . وكان العظم يستخدم مكان العاج بالرغم من ان الفيل كان على الغالب موجوداً في سورية الوسطى كما تدل اخبار رحلات الصيد التي كان يقوم بها الفراعنة الى تلك المنطقة . وتعود اقدم قطع العاج الفينيقية الى القرن الرابع عشر . ووجدت تحف مجدو العاجية في قصر من اوائل القرن الثاني عشر وقد تكون من عصر اكثر قدماً . والامشاط التي اكتشفت في قبور في اسبانيا تتبع اسلوب مجدو ولكنها ترجع الى القرن الثامن . واقدم تقليد يوناني معروف للاشغال الفينيقية يرجع الى هذا القرن . وهنالك قطعة عاج من القرن الثاني عشر او الثالث عشر في مجدو ترينا مغنياً يعزف على القيثارة . وبعض قطع العاج الفينيقية رائعة في صنعها وجمالها حتى انها اعتبرت من اثن آثار الفن في الشرق القديم .

الزجاج

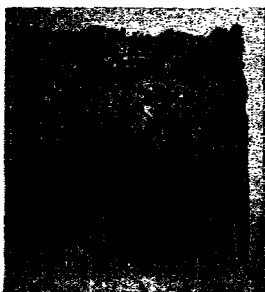
كانت صناعة الزجاج من الصناعات الاخرى التي تفوق فيها الكنعانيون .

(١) الياذة هوميروس الكتاب ٢٣ ، ٧٤٠ - ٧٤٥ . وقد استعمل اسم الصيديون كمرادف للفينيقين .



الالاهة الام على قطعة عاج من العصر الميكاني وجدت في
مينة البيضاء مرفأ رأس الشمرة

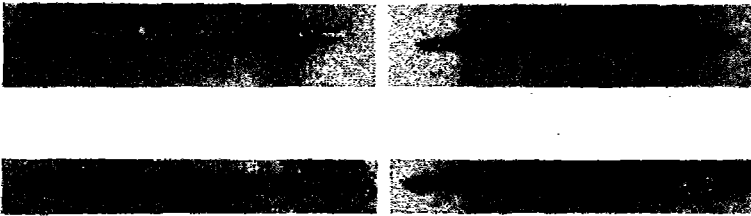
تظهر الالاهة بلباس ميكاني جالسة على منبج وعلى كل من جانبيها اسد وتمسك كوزاً من الترة .
وكان هذا النموذج الزخرفي شرقي الاصل سومرياً الا انه شاع في العالم الايجي



مشطان من العاج



قطع من الملاعق العاجية وقد جمعت ايديها باشكال تسائية



ديايس عاجية

وكانت المرويات الكلاسيكية تنسب اليهم فضل اكتشاف الزجاج غير اننا نعلم اليوم ان المصريين صنعوا الزجاج قبل الكنعانيين بكثير. والاخبار المتعلقة بالكنعانيين يمثلها ما رواه بليني Pliny^١ من ان بعض التجار كانوا يعدون طعامهم على الشاطئ^٢ قرب عكا وقد استخدموا بعض قطع نترات البوتاس التي كان يحملها مركبهم لتوكيز قدورهم على النار. ولكنهم اكتشفوا على اثر ذلك سائلاً شفافاً عندما تعرضت النترات للنار واختلطت بالرمل. ومهما يكن فان الواقع هو ان الفينيقيين هم الذين تاجروا بالزجاج المصري واتفقوا فن انتاج الزجاج القديم.

صناعة الأقمشة

كانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتيادية ومكثها المنزل. وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم واثقال من الحجر والطين تستخدم لاجل الانوال وترجع الى اوائل الالف الثالث. ولاشك ان الصوف كان اقدم المنسوجات. وتذكر وثائق نوزي من حوالي ١٥٠٠ ق. م. الصوف الكنعاني^٢. والقطن الذي كان بالاصل من نبات الهند قد ادخله سنجاريب الى بلاد اشور حيث يشير في احدى الكتابات الاثرية الى «الاشجار التي تحمل صوفاً» والتي كان رجاله «يقطعونها ويسرحونها لعمل الملابس»^٣. ولم يكن القطن شيئاً معتاداً في تلك الايام. وادخل الفينيقيون هذه المادة الى العالم اليوناني في اوائل العصر الهلنستي ومعها اسمها السامي^٤. وكانوا ينتجون الكتان كما يبدو في سورية الجنوبية في القرن العاشر لان روزنامة الجزر التي ترجع الى ذلك التاريخ تذكر «شهر اقتلاع نبات الكتان»^٥. ويعتقد ان الحرير كان معروفاً في صور في القرن السادس اذا صحت ترجمة احدى الكلمات في سفر حزقيا ١٦: ١٠، ١٣. واكتشفت الابر والدبابيس في فلسطين

(١) Pliny Bk. XXVI. ch. 65

(٢) Annual, American Schools of Oriental Research, vol. xvi (1936), No. 77

(٣) James H. Breasted, Ancient Times, 2nd. ed. (New York, 1935), p. 203 انظر:

(٤) والكلمة اليونانية هي Kiton او chiton بمعنى رداء. وكلمة cotton الانكليزية اتت من

«قطن» العربية وهي شبيهة بالكلمة السامية القديمة التي بقيت في كلمة كتان العربية.

(٥) انظر: Gustaf Dalman, Arbeit und Sitte in Palästina (Gütersloh, 1928),

vol. i, p. 7.

(٦) انظر ما سيرد عن الحرير في الفصل العشرين في الفقرة التي عن المحاصيل الزراعية.



حاملو الجزية السوريون ، على قبر من طيبة ، في عهد تحوتمس الرابع (١٤٢٠ - ١٤١١ ق.م.)

يقدم حاملو الجزية أنفسهم ما ليسهم من اواني الذهب والفضة. والذين في القسم الامامي يسجدون او يرفسون اذرعهم كمنوان عبادة فرعون. والوجوه ملتصبة وهناك رأسان بلا شعر. ويظهر رجل في القسم الملوي من الرسم يقود فتاة عارية حلقة الرأس فيما عدا خصل الشعر المتدلية. وهناك رجل آخر واقف يمسك قرناً يحوي دهوناً. وفي القسم الاسفل يبدو اول رجل واقف وعلى ذراعه محفظة ضمنها اتواس، ويمجمل مع الرجل الذي وراه جراراً زرقاه قد تكون من الحبلولة اللازوردية الكريمة. أما آخر رجل فيجعل على صحن أنية للشرب بشكل رأس طائر.

قبل قدوم بني اسرائيل في صناديق بروثية وبدون صناديق. والابر لها ثقوب بينما الدبابيس طويلة برؤوس مضلعة او ذات شقوق. ووجدت ازرار مستديرة بثقبين. وكانت تصنع ازرار الفقراء من الخرف المكسور اما الاغنياء فكانت ازرارهم من العظم او العاج.

وترينا الاشكال في الرسوم الجدارية الموجودة في قبور مصر من اوائل عصر

المكسوس (نحو ١٧٠٠ ق.م.) جماعة من الكنعانيين يلبسون الاثواب الطويلة التي تصل من الكتف حتى الركبة . وهذه الاثواب مصنوعة من القماش المصبوغ ومزودة بالشريط واحياناً مزخرفة بعناية . وبعد ان كان ذلك اللباس مستعملاً لدى الملك والكاهن فان سائر الناس صاروا يلبسونه . ويظهر حاملو الجزية السوريون على قبور طيبة التابعة للسلالة الثامنة عشرة يلتفون بشال ابيض له اطراف حمراء او زرقاء حول جسم الواحد من الحصر فما دونه . ويشاهد الاسرى الكنعانيون في المباني الاثرية المصرية يلبسون القميص او الرداء القصير والتنورة وثياباً فوقها تتألف من قطعة قماش طويلة ضيقة ملفوفة بشكل حلزوني حول الجسم . والمجموعة بكاملها بما فيها لباس الرأس تشبه ملابس البدوي . ورجال الفن المصريون يمثلون ليس الكنعانيين وحدهم وانما الآراميين ايضاً وغيرهم من الساميين باجسام اثقل من اجسام المصريين وفي الغالب بشعر طويل ولحى كثيفة سوداء مروسة . ويتدلى الشعر من الورا بكتل كثيفة حتى الرقبة ويججزه فوق الجبهة ما يشبه الشبكة . والكهنة كانوا يملقون رؤوسهم كما في مصر . وفي العصور التالية كانت النساء يجنبن شعورهن تحت براقع وبعد الزواج كن يلبسن قبعات نطفي رؤوسهن تماماً وبعضائب مثل الالهة^١ .

الارجوان

وهناك صناعة اخرى كانت مزدهرة على الساحل وهي صيد الاسماك . ومدينة صيدا مدينة باسماها الى هذه الصناعة . وكانت المراعي البرية في بعض الاحيان خجبة للامال او غير اكيدة بسبب فقر التربة او تقلب الامطار ولكن البحر كان يزود السكان بالاسماك وخاصة من نوع التونة والملح والصباغ الارجواني .

واقدم ذكر للارجوان قد ورد في نص من رأس الشمرة يقول ان كمية من الصوف قد وزعت بين الحائكين المكلفين بصنع الارجمان^٢ argman . وكانت

(١) سفر اشعيا ٣ : ١٨ .

(٢) انظر مقال Virolleaud في *Journal asiatique* م ٢٣٠ (١٩٢٨) ص ١٤٦ . وتتخذ هذه الكلمة في الاشورية شكل *argamānu* وفي العبرية ارجان (انظر سفر اخبار الايام الثاني ٢ : ٧) وفي العربية ارجوان من اصل غير سامي .

سواحل البحر المتوسط كلها وليس السواحل الشرقية وحدها تحوي بكميات مختلفة صدف الموركس Murex الذي يستخرج منه السائل الأرجواني ، وكانت شعوب اخرى من غير الفينيقيين كالينوسيين واليونان مثلاً تستخدم هذه الاصداف . وتؤكد الاسطورة اليونانية انه بينما كانت الملكة هيلين تنزهه في طروادة على الساحل لتخفف عن نفسها ألم الاسر لاحظت ان السمكة الصدفية التي كان كلبها قد مضغها صبغت فيه بلون ارجواني غامق فاعجبت باللون واشترطت على من يريد ان ينال حظوة لديها ان يقدم لها ثوباً مصبوغاً بالارجوان . غير ان ارجوان صور كان اشهر الاصبغة واثمنها في العصور القديمة . ووجد في جوار صور وصيدا نوع يمتاز من هذا الصدف ، وبما ان الفينيقيين كانوا حريصين على الاحتفاظ بما لديهم منه فقد اكتشفوا هذا الصباغ واستوردوه من اماكن بعيدة مثل ميناء سبارطة وجوار قرطاجة واوتيكاً Utica . ولم يتاجروا بالصباغ نفسه وانما بالاثمسة المصبوغة التي منها الصوف والشعر والكتان والقنب . ولا ندرى ماذا كانت وظيفة السائل بالنسبة للحيوان الصدفى ولكن من المؤكد ان ما زعمه البعض من انه يفرز بصورة طبيعية لتلوين المياه ليحمي نفسه ضد مهاجمه ليس بصحيح .

كان استخراج نقط السائل القليلة من الحيوان الصدفى وتقطير الصباغ يتطلبان اعمالاً واسعة وصعبة . ولذلك كان ثمنها مرتفعاً بالرغم من انها لم تكن مادة محتكرة . وبما ان الاغنياء فقط كان بإمكانهم دفع ثمنها فقد اصبحت الثياب الارجوانية اللون عنوان التفوق^١ وادت فيما بعد الى التعبير المتعلق بالملوك : « مولود في الارجوان » . وفي العصور الهوميرية^٢ والهلنستية^٣ اقترنت الثياب الارجوانية بالملكية والملوك . وكليوباترة ملكة مصر كانت مولعة بها كما كانت هيلين في طروادة . والدلالة على المكانة الدينية السامية فقد لبس الكاهن الاعلى اليهودي لباساً ارجوانياً وكذلك فعل رئيس كهان هيرابولس (منبج) في شمالي سورية^٤ وكاهن جوبيتر في مغنيزيا في آسية الصغرى^٥ .

(١) سفر استير ٨ : ١٥ ؛ الامثال ٣١ : ٢٢ ؛ انجيل لوقا ١٦ : ١٩ .

(٢) الاليزا ٤٤ ، ١٤١-١٤٥ .

(٣) كتاب المكابيين الاول ٨ : ١٤ .

(٤) انظر : Lucian, *De Dea Syria*, § 42 .

(٥) Strabo XIV. ch. 1. § 41 .

وعملية اعداد الصباغ بالضبط ليست معروفة من المصادر الفينيقية . ويصفها
 بـ Pliny^١ فيقول ان السمك الصديقي يؤخذ حياً لانه عندما يموت يفرض هذا
 العصير - وينتزع السائل من احد عروقه ويملح ويترك ثلاثة ايام منقوعاً ثم يغلى
 بجمارة معتدلة واثناء غليانه تنزع الرغوة من وقت الى آخر . وفي حوالي اليوم
 العاشر عندما تصبح محتويات القدر مائعة تعطس المادة النسيجية فيه وتترك لامتصاص
 السائل مدة خمس ساعات ثم تسرح وتوضع ثانية حتى تتشرب اللون تماماً . ويعتبر
 الصباغ على احسنه عندما يتخذ لون الدم المتجمد .

ان كثرة توارد الثروة الى رومة في القرن الاول ق. م. وسّع استخدام
 الارجوان وحمل فيما بعد على تقليد هذا الصباغ في ايطاليا وغيرها من البلاد . واستمر
 انتاجه في الشرق بعد الفتح الاسلامي . وقد ذكر «الارجوان السوري» بين مواد
 الترف التي استوردها تجار البندقية في اواخر القرن الثامن . وبعد سقوط
 الامبراطورية البيزنطية حيث اقتصر امتياز صنع هذا الصباغ على فئة قليلة فقدت
 معرفته تماماً في الشرق . وبقيت في انكلترا حيث نقلت من الشرق في مناطق
 منعزلة حتى القرن السابع عشر .

وفيما سوى الارجوان فان اللبنانيين الاقدمين ادخلوا القرمز^٢ في التجارة القديمة .
 وقد ذكر القرمز في العهد القديم^٣ وكان يصنع من حشرات كانت توجد على نوع
 من السنديان^٤ الذي ينمو حول السواحل الشرقية للبحر المتوسط . وعندما كانت
 تجفف الحشرات وتحل في بعض الحوامض كانت تعطي اللون القرمزي . وكانت
 هذه الحشرات برية في اول الامر ثم صارت تربي من قبل القرس ثم من قبل
 الارمن فيما بعد .

(١) Pliny Bk IX. ch. 62

(٢) وكلمة crimson الانكليزية اتت من قرمز العربية وأصلها فارسي او ارمني .

(٣) سفر اللاويين ١٤ : ٤ ؛ سفر العدد ١٩ : ٦ .

(٤) انظر : Theophrastus, *De historica plantarum* Bk III. ch. 16. § 1

الفصل التاسع

النشاط البحري والتوسع الاستعماري

كان الفينيقيون اول امة بحرية في التاريخ . وبما ان جبال لبنان كانت تعيق التجارة مع الداخل وتزود السكان بالحطب الممتاز لصنع السفن فان البحر المتوسط اجتذب هؤلاء الساميين المقيمين على سواحله الشرقية فاستجابوا اليه وحولوا حياة تنقلهم في ارجاء البادية الى حياة تنقل في البحر . وكان البحر لا يخيفهم والعالم المجهول يفتنهم بدلاً من ان يلقي الرعب في قلوبهم . وبعد ان بدأوا في الملاحة قرب السواحل ليبيعوا اسماءهم وزجاجهم وآنتهم الخزفية وغيرها من المنتجات المحلية اخذوا فيما بعد يجوبون عرض البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وقد ظلوا يحتكرونها مدة طويلة . وتحول الباعة المتجولون الى امراء تجار . وكانوا مستعمرين نموذجيين فنشروا عناصر حضارتهم وحضارة جيرانهم وجعلوها مقبولة لدى الاجانب . وركز الكنعانيون نشاطهم باتجاه البحر خاصة بعد القرنين الثالث عشر والثاني عشر حين اخرجهم الآراميون من سورية الوسطى واضطرم الاسرائيليون والفلسطينيون لمغادرة سورية الجنوبية فاصبحوا نسبياً اعظم الملاحين والتجار في التاريخ .

الطرق البحرية

لم يكن الفينيقيون اولئك الجوالين في البحار الذين تصورهم لنا بعض الرويات . فقد كانوا يتبعون طرقاً مرسومة بدأوا اولاً في استكشافها ثم استخدموها واحتكروها تقريباً . وكانت اقدم طرقهم الدولية تصل بيبيلوس وسائر الموانئ بمصر . ثم اصبحت الطرق الرئيسية تبدأ في صيدا وصور فتصل مصر او تتجه شمالاً الى قبرص وغرباً الى ليكيا تحت جبال طورس ثم الى جنوبي رودس فكريت

وجزيرة كورسيرا حتى صقلية ومنها بطريق جزيرة كوس^١ الى مستعمراتهم في شمالي افريقيا واخيراً غرباً على الساحل حتى مستعمراتهم في اسبانيا. وبالإضافة الى ذلك فقد وجدت طرق عرضية تعبر البحر من الشمال الى الجنوب وبالعكس. وكان الفينيقيون اول من قدم اربع مواد هامة مفقودة في كثير من بلاد البحر المتوسط وهي الاخشاب والتمح والزيت والحر. وبالنسبة لليونان كان ارز لبنان ارزاً فينيقياً^٢. وحمل الفينيقيون بعد ذلك منتجات صنعتهما الرئيسيتين وهما صنع الاقمشة والصناعة المعدنية. وكانت مصر وبلاد الرافدين ذات التربة اللعقية بحاجة ماسة الى الاخشاب الصلبة لبناء المعابد والقصور ولصنع زوارق الصيد والسفن التجارية والحربية. وكانت غابات لبنان ذات الثمار المحروطة الشكل والفضية بالمواد الصمغية بما فيها من اشجار الصنوبر والشوح والارز والترينتين لا تقدم الاخشاب فعسب وانما تقدم ايضاً الزيت والصمغ التي كانت ترافق تجارة الاخشاب. وكانت تستخدم هذه المواد لطلاء السفن والحفاظة عليها^٣. وكان الزيت يستعمل كعطور كما يستهلك للغذاء. وكان الفينيقيون عندما وسعوا اسواق البضائع المستهلكة يوسعون اسواق المنتجات حتى اصبحوا العملاء في توزيع بضائع الشرق في الغرب والبضائع القليلة الآتية من الغرب ومعظمها من المعادن والآنية الحرفية في الشرق. واصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل ان يكون بحيرة يونانية او رومانية بوقت كثير.

الملاحة

وعندما سعى الفينيقيون لترقية المبادلات التجارية بطريق البحر على مقياس دولي اخذوا يدرسون الملاحة درساً اصولياً. وقد كان لهم الفضل في اكتشاف فائدة النجمة القطبية واصبحوا بعد ذلك اول من اتقن فن الملاحة ليلاً والمسير حسب النجوم^٤. واطلق اليونان على هذه النجمة اسم الفينيقيين. وكانت تعوم

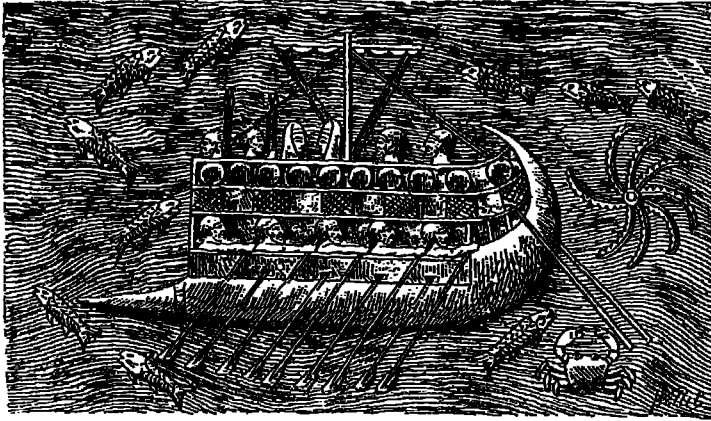
(١) وهي جزيرة بنتلاريا الحديثة والمعروفة عند الجغرافيين العرب باسم قوصرة.

(٢) Theophrastus III. ch. 12, §3; IX. ch. 2, §3

(٣) Theophrastus IV. ch. 2, §§ 2, 3. قارن مع سفر الخروج ٢: ٣.

(٤) قارن مع Strabo XVI. ch. 2, §24.

اخشاب الارز التي لا مثيل لها في العالمين في الجداول المنحدرة ايام الفيضان الى اقرب مرفأ لاجل بناء السفن او للتصدير . وكانت صيدا وصور تتلقى اخشابها من حرمون . وظهرت السفن الفينيقية من حوالي ١٤٠٠ ق. م. مرسومة على المباني الاثرية المصرية وهي بشكل هلال ولها مؤخرة ومقدمة مرتفعتان ومجدافان يستعملان كدفة للسفينة وفي اعلى الصاري شراع واحد مربع على امتداد يردتين . وكانت تسيّر اقدم السفن التي لدينا رسوم عنها بواسطة الشراع والمجاديف . والسفن كانت عريضة في وسطها بحيث كانت حمولتها كبيرة بدون ان تكون طويلة . وتظهر السفن الفينيقية التجارية والحربية من العصور الاخيرة على الآثار الاشورية بمؤخرة مرتفعة ومدك مروس في المقدمة يمكن استخدامه في القتال وطابقين . وبناء السفن الفينيقيون هم الذين بدأوا عادة وضع مجدافين او اكثر الواحد فوق



سفينة فينيقية ذات صفين من المجاذيف

سفينة تجارية او حربية كما تشاهد في زخرف نلفر في جدار قصر سنحاريب حوالي ٧٠٠ ق. م. ويجلس المجذفون كل خمسة منهم في صف واحد على ارتفاعين مختلفين في القسم الاسفل من السفينة مما يجعل عدد المجذفين عشرين . ويجلس الركاب في القسم الاعلى . وترتفع مقدمة السفينة بصورة عامودية بشكل كبش مروس لاغراق سفن العدو .

الآخر . وكان الطابق الاسفل من السفينة عادة يضم صفين كل منهما باربعة او خمسة مجاذيف بحيث كان عدد المجذفين كلهم بين ستة عشر وعشرين . وفي العصور

المتأخرة بلغ عدد المجندين خمسين مجدفاً . وكان الركاب يقيمون في الطابق الاعلى . وكانوا يستعملون عوداً واحداً للشراع وكان الشراع ينشر عندما ترسو السفن او حين يكون الطقس رديئاً . وهذا النوع من السفن هو الذي اقتبسه اليونان الاقدمون كما يتضح من الرسوم على الاواني . ويعتقد ان نفس النموذج . بناء للملك سليمان اولئك « النواقي العارفون بالبحر » الذين ارسلهم صديقه حيرام ملك صور . وكانت سفن سليمان ترسو في عصيون جابر^٢ وهي ميناء مملكة اسرائيل على خليج العقبة^٣ . وكانت السفن تصدر بواسطة هذه الطريق القصيرة الاخشاب والنحاس وتأتي بدلاً عنها بالذهب من اوفير والطور والتوابل من سائر جهات شبه الجزيرة العربية وبذلك تتجنب المرور في برزخ السويس على اطراف مصر . وكانت تجار محاصيل بوية اخرى كالرقيق والحيول الى مصر بدلاً من المنتجات المحلية . وكان التجار الفينيقيون في مدن الدلتا في عهد السلالة العشرين (١٢٠٠ - ١٠٩٠) بارزين بشكل خاص . ويبدو انهم كانوا يتمتعون في ممفيس في القرن الثالث عشر بمقوق خاصة تتصل بوضعهم كأجانب وهذا من سوابق الامتيازات الاجنبية^٥ .

لم يكن الفينيقيون اول امة بحرية فحسب بل كانوا اول امة في التاريخ تاجرت في البر والبحر . وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم اديسا وربما نصيبين بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمرآكزهم على الخليج الفارسي . والفينيقيون حسب مروياتهم المتأخرة اتوا الى ساحل سورية بالاصل من منطقة الخليج الفارسي حيث كانت لهم مدن تحمل الاسماء نفسها مثل ارواد وصور وصيدا^٦ . ويعطينا حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين وصفاً مفصلاً لتجارة الفينيقيين البحرية

(١) انظر سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧ .

(٢) راجع ما سيأتي بشأن هذا الميناء في الفصل الرابع عشر في الفقرة التي عن داود .

(٣) ان القول بان الفينيقيين كانت لهم مراكز في النقب لا يقبله العلماء عموماً . انظر : Garstang, *Heritage of Solomon* p. 371 : W. F. Albright, *Archaeology and the Religion of Israel* (Baltimore, 1942), pp. 59-60.

(٤) يرى البعض ان « النيل » من اصل فينيقي وان الكلمة مشتقة من السامية نهل بمعنى جرى .

(٥) راجع ما سيأتي في الفصل ٤٨ بشأن هذه الامتيازات .

(٦) Strabo XVI. ch. 3. § 4.

والبحرية في مظاهرها المختلفة . وهو يذكر بين وارداتهم الفضة والحديد والتصدير والرصاص من اسبانيا والرقيق واواني النحاس الاصفر من ايونيا والكتات من مصر والحرفان والماعز من شبه جزيرة العرب .

الدوران بحراً حول افريقيا

واعظم عمل بحري حققه الفينيقيون هو الدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين باكثر من الفي سنة وينسب الى الملاحين البرتغاليين عادة انهم اول من فعل ذلك . وقد قام الفينيقيون بهذا العمل باشارة من الفرعون نخاو (٦٠٩ - ٥٩٣ ق. م) من السلالة السادسة والعشرين الذي اعاد حفر الترع القديمة التي كانت تربط الفرع الشرقي للنيل بطرف البحر الاحمر الشمالي . بدأ الفينيقيون رحلتهم من هذا البحر واتجهوا جنوباً نحو المحيط الجنوبي وعند اقتراب فصل الحريف كان ينزل الملاحون اينما وجدوا ويزرعون القمح وينتظرون نهاية الموسم ثم يرحلون من جديد . وبعد ان قضاوا سنتين على هذه الحال عبروا في السنة الثالثة اعمدة هيركوليس (مضيق جبل طارق) وعادوا الى مصر . قال هيرودتس « وهناك قالوا (ما يصدق البعض ولكنني لا اصدقه) انهم بدورائهم حول ليبيا [افريقيا] كانت الشمس على يمينهم » . وهذه العبارة الاخيرة التي لم يصدقها « ابو التاريخ » (اليوناني) تثبت صحة القصة . ذلك انه عندما توجه السفن الى الغرب حول رأس الرجاء الصالح فان شمس نصف الكرة الجنوبية تكون عن يمينها .

المستعمرات

كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون اينما ذهبوا . وبما انهم يمثلون امة صغيرة فانهم كانوا يتسربون الى المناطق الجديدة بدون ان يثيروا الشكوك حولهم كما كان يمكنهم ان يتكيفوا بدون صعوبة حسب اي وضع جديد طالما انه لم تكن لهم حياة سياسية مشتركة - ويشبه ذلك الى حد كبير ما يفعله احفادهم المهاجرون اللبنانيون في العصر الحديث . وقد سيطروا بالتدريج كمستعمرين ومنظمين وادخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ووسعوا آفاقه . وتطورت المراكز التجارية

الواحد بعد الآخر الى مراكز للسكن وتطورت هذه الى مستعمرات . واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض وبلدن الاصلية الام بطرق الملاحة وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية الى سواحل كيليكية واليونان وغيرها من بلاد البحر المتوسط فجعلته مجراً متوسطاً حقيقياً . ويمكن الاعتقاد بان مستعمراتهم في شرقي البحر المتوسط ومنها قبرص استقبلت قبل مستعمرات صقلية وسردينيا في وسط البحر المتوسط وان هذه الاخيرة اسما الفينيقيون قبل مستعمراتهم في افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا . ويرجع نزولهم في جزر اواسط البحر المتوسط الى منتصف القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك . واست قادس Gades (اليوم Cadix) في اسبانيا واوتیکا Utica في المنطقة المسماة اليوم تونس حوالي عام ١٠٠٠ ق. م . وتعتبران من اقدم المؤسسات في تلك المناطق . وقد اشتق اسم قادس Gades من كلمة فينيقية معناها «جدار» او مكان مسور . ولم تكتشف حتى الآن كتابات فينيقية اثرية في سردينيا وقبرص اقدم من القرن التاسع . والكتابة المشهورة المكروسة لبعل لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقاً تعتبر اقدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع الى منتصف القرن الثامن^٢ . واما قرطاجة^٣ سليطة صور الشهيرة واعظم المستعمرات الفينيقية فانها تعود الى نحو ٨١٤ ق. م . وهي احدث من زميلتها في الغرب هيبو Hippo التي كانت مقراً ملكياً (ولذلك اعطيت لقب Regius) وفيها بعد اصبحت اسقفية القديس اوغسطين . وكلمة هيبو كلمة ليبية . وتقيد الاساطير اليونانية ان ليبيا Libya وهي الاسم اليوناني لشمالي افريقيا ثم للقارة الافريقية كلها كانت بالاصل اسم زوجة الاله بوسيدون (اله البحر) ووالدة آجينور Agenor ملك فينيقية .

وبلغ هذا النشاط التأسيسي في غربي البحر المتوسط ذروته كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن . ويشير نجاحه العظيم الى وجود طبقة اقدم من المستوطنين

(١) شعبة بكلمة «جدار» العربية . وكلمة اغادير *agadir* تعني بالبربرية «جدار» ايضاً .

(٢) انظر : G. A. Cooke, *A Text-Book of North-Semitic Inscriptions* (Oxford, 1903), p. 52.

(٣) بالفينيقية قرط حدثت *qart hadasht* اي المدينة الجديدة بخلاف Utica ومعناها المدينة القديمة ومشتقة من عتق .

الساميين في شمالي أفريقيا وربما في جنوبي شبه جزيرة ايبيريا . وقد تكون الهجرة التي حملت الساميين في الالف الرابع الى مصر قد استمرت الى ابعد من ذلك . وهناك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القدماء في مناطق غربي البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية^١ .

أدى تاسيس قادس وراء اعمدة هيركوليس (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) الى دخول الفينيقيين الى المحيط الاطلسي واسفر ذلك عن اكتشاف الاوقيانوس^٢ بالنسبة للعالم القديم . ويعتبر هذا الاكتشاف من اعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم العالمي^٣ . وقد عرف هوميروس وهيسود عن وجود الاطلسي لأول مرة من الفينيقيين . ومن الصعب معرفة مدى توغل الفينيقيين في هذا الاوقيانوس الذي سماه العرب فيما بعد «بحر الظلمات» . واما وصولهم الى كورنوال في انكلترا في مجتهد عن التصدير فقد اكده بعض الثقافات ولكن لا توجد اشارة قديمة الى ذلك . ويقول هيرودتس^٤ انه ليست لديه معرفة خاصة بجزر كاسيتريديس Cassiterides^٥ (جزر القصدير) «التي يجلب منها قصديرا» . وهذه الجزر هي جزر سيلبي Scilly الواقعة قرب طرف كورنوال . ويؤكد سترابو^٦ الذي كتب نحو عام ٧ ق. م. بان الكاسيتريديس تحوي القصدير والرصاص وان السكان يبادلونها

(١) انظر: Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, IV. ch.10. §§ 13-29; الادريسي، صفة المغرب، طبعة دوتري ودي غويه (ليند ١٨٦٤) ص ٥٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ١٢٨٤) م ٦٤ ص ٩٣-٩٤ .

(٢) من اليونانية *oceanos* واشتقاقها من كلمة عوج *ög* (بمعنى حلقة) السامية امر مشكوك فيه . انظر: (R. Henning, « Die Anfänge des kulturellen und Handelsverkehrs in der Mittelmeer-Welt », *Historische Zeitschrift*, vol. cxxxix, No. 1, p. 12; H. Lewy, *Die semitischen Fremdwörter im Griechischen*, (Berlin, 1895), p. 208.

(٣) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, vol. ii (Oxford, 1934), pp. 50, (٣ 52, 386.

Bk. III, ch. 115 (٤)

(٥) من اليونانية *kassiteros* (قصدير) ومنها اتت الكلمة العربية ولكن الكلمة اليونانية من أصل شرقي وان يكن غير فينيقي .

Strabo III. ch. 5. § 11 (٦)

بالخزف والملح والاوراني النحاسية وكان الفينيقيون وحدهم في العصور الاولى يقومون بهذه التجارة من قادس ويكتمون الطريق عن الناس . ويضيف ستراو بان السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكي تجدهي ايضا تلك الاسواق ولكن قائد السفينة كذف بسفينته عمداً على اليابسة وقبض من دولته ثمن المحمول الذي فقده ، وهذا يشير الى احتكار حقيقي لتجارة القصدير والى نوع من الضمان من قبل الدولة . ويتكلم ديودورس الصقلي^١ الذي كتب بعد ستراو بنحو ثلاثة ارباع القرن عن القصدير الذي كان يحمل من بريطانيا الى ساحل الغال المقابل ثم عن طريق الداخل الى ماسيليا (مرسيليا اليوم) وهي مستعمرة يونانية ربما قامت على موقع مستعمرة فينيقية اقدم منها . والكتابة الفينيقية الوحيدة المكتشفة في بريطانيا حتى الآن تركها على الغالب احد عمال احدى الفرق الرومانية من اصل قرطاجي على ما يبدو وترجع الى اول قرن من الاحتلال الروماني^٢ . واكتشف العالم بيتري Petrie في غزة القديمة اقراطاً ملتبوة من ذهب اعتقد انها من اصل ايرلاندي وتاريخها ١٤٥٠ ق.م^٣.

في اسبانيا

كانت معظم المستعمرات الفينيقية في اسبانيا تقع في ترشيش (Tartessus) وخاصة في المنطقة بين قرطجينة وقادس . وهذه الاسماء السامية للاماكن سائعة جداً ونراها على نقود بقيت حتى الآن . واسم ترشيش الذي نصادفه في كتابات التوراة واشور هو اسم فينيقي على الغالب بمعنى المنجم او مكان الصهر^٤ . وكانت مدينة طرسوس في كيليكية التي ولد فيها القديس بولس تحمل نفس الاسم كما انها كانت مستعمرة فينيقية . وطقوس عبادة بملها كانت تشبه تقريباً الطقوس المتبعة في صور وقرطاجة . وسُميت قرطجينة Carthagena باسم المدينة الام قرطاجة في

(١) History Bk V. ch. 38. § 4

(٢) Alfred Guillaume, « The Phoenician Graffito in the Holt Collection of the National Museum of Wales », *Iraq*, vol. vii (1940), pp. 67-69.

(٣) راجع : Flinders Petrie, *Ancient Gaza*, vol. ii (London, 1932), p. 7

(٤) وقد بقي الفعل الذي اشتقت منه في العربية «رَشَّ» . راجع : Albright in *Studies in History of Civilization*, p. 42; cf. Albert Dietrich, *Phönizische Ortsnamen in Spanien* (Leipzig, 1936), p. 32.

شمالي افريقيا . ومدينة ملقة Malaga ^١ معنى اسمها دكان او معمل صغير . ويذكر سترابو ^٢ مكاناً لتخليج الاسماك في هذه المدينة وهو امر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك . ومدينة قانس كانت ايضاً معروفة بانتاج الملح . وكانت قرطبة (Cordoba) بالاصل مدينة ايبيرية استولى عليها الفينيقيون : واقدم نقودها تحمل حروفاً فينيقية استبدلت فيما بعد باليونانية . وقد جمع منها هملقار ابرقة والد هانيبال كما جمع من سائر المدن الاسبانية جيوشاً لاجل حملته ضد رومة . وربما كان اسم برسلونة الواقعة في الشمال متصلاً بكلمة «براق» الفينيقية (برق) التي نراها كلقب بجانب اسم والد هانيبال . وهكذا تأسس بواسطة هذه المستعمرات موطن ثان للحضارة السورية في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

في اليونان

وعاصمة جزيرة مينورقة الحالية واسمها ماهون Mahon تبدو في اول الامر بانها ماجو Mago ^٣ وهو بالاصل اسم قائد قرطاجي . وكان للفينيقيين مراكز في جزر الباليار ولكن سلطتهم على الجزر التي سكنها من عرق ايبيري لم تكن قوية . وكانت لهم ايضاً مراكز في كورسيكا وسردينيا . ومدينة باليرمو في صقلية مبنية على موقع فينيقي قديم . وفي بلاد اليونان يشهد وجود اسماء سامية للمواقع والآلهة الى جانب وجود الاساطير والحرافات الكثيرة بنشاط فينيقي . وتصل كورنثوس وهي مؤسسة فينيقية على القالب باله من اصل فينيقي اسمه مليكرتس ^٤ (ملقارت) كما تذكر الاساطير . ومن الجزر اليونانية التي لها صلة بالاستعمار الفينيقي ساموس وكريت ^٥ وكانت لها مكانة بارزة في هذه الناحية .

(١) من الفينيقية «ملاك» (melākāh) .

(٢) Strabo Bk III. ch. 4. § 2

(٣) من الفينيقية مَجَن magēn (ترس او مجن) . وكلمة mayonnaise الانكليزية أتت غالباً من نفس الكلمة بطريق الفرنسية .

(٤) من الفينيقية ملك قارط اي ملك المدينة الذي اعتبر معادلاً في ما بعد لبطل اليوناني هر كوليس ومبارياته مع خصومه الحيوانات الاثني عشر التي اصبحت وموز البروج تفسر لنا الاشغال الاثني عشر التي قلم بها البطل اليوناني .

(٥) ان اشتقاق اسم ساموس Samos من السامية شَمَش (الشمس) واشتقاق كريت من السامية «كلوت» بمعنى قطع مشكوك فيها . انظر : Hall, *Ancient History*, p. 523; Antran. *Phéniciens*, p. 5.

وتروي الاساطير ان الاله زفس بعد ان تحول الى ثور اختطف اوربا Europa الجميلة ابنة الملك الفينيقي آجينورا Agenor من مرج على الساحل السوري بعد ان وقع في حبها وهرب الى كريت التي كانت مركزاً للحضارة قبل ان تكون هنالك حضارة في البر الاوربي . وفي كريت تزوجها بعد ان استعاد شكله الاصلي . وقد ولد من هذا الزواج الملك والمشرع الكريتي مينوس Minos بينما اتخذت القارة (اوربا) اسم زوجة زفس ووالدة مينوس .

وقد زعم ديودورس^٢ ان سكان مالطة - واسمها سامي^٣ بدون شك - كانوا فينيقيين . وكان لهذه الجزيرة مرفأ من احسن مرفأى البحر المتوسط ولا عجب اذا سميت «ملجأ» وكان يوجد في تراقية مناجم للذهب وتروي الاسطورة ان اول من استثمرها هو قدموس Cadmus السوري شقيق اوربا الذي ارسله والده للبحث عن شقيقته . وقد اشتغل عمال المناجم الفينيقيون في هذه المنطقة بحثاً عن الذهب حتى القرن السابع ق . م . ومن الامور التي تنسب الى قدموس^٤ بناء مدينة ثيبة - وتل الاكربول فيها واسمه قدميا قد سمي بالنسبة اليه - كذلك ينسب اليه انه انجب ولداً اسمه الليريوس تسمت باسمه الليريا (وهي بلاد البانيا اليوم تقريباً) . والواقع هو ان هذه العاصمة الايولية القديمة كانت من اصل سوري كما ان فن العمارة اليوناني القديم الذي منه اتت اشكال كلاسيكية مدين مسورية باستخدام الاعمدة وتيجانها .

وفي العصر الهوميروي كان محمول السفن الفينيقية يضم نباتات ومحاصيل مثل الورد والتخيل والتين والرمان والمر والحوخ واللوز نشرها في بلاد البحر المتوسط كلها^٥ . وقد تكون السفن نفسها هي التي ادخلت من اليونان الى سورية نبات

(١) وفي الايلاذة ١٤ : ٣٢١ ورد اسم فينيكس Phoenix .

(٢) Diodorus, Bk V. ch.12. §§ 2-4

(٣) من فعل مالط بمعنى هرب .

(٤) انظر: 3 IX. 2. 1 ; Strabo Bk VII. ch. 7. § 1 . ويبدو ان اسم قدموس مشتق من قام ومعناها الآتي اي من الشرق او الشرقي .

(٥) انظر ما سنذكره عن قدموس ايضاً في ص ١١٧ .

(٦) Albert G. Keller, *Homeric Society* (New York, 1902), pp. 20, 43-44 والمر

كلمة سامية قديمة استعارتها اليونانية .

الغار والدفل والسوسن والتننع والترجس وقد بقيت الاسماء اليونانية لبعضها في اللغات السامية . وتجارة التوابل كانت بكاملها بيد الفينيقيين الذين حرصاً على الاحتفاظ لأنفسهم بالطرق التجارية كانوا ينشرون الاخبار عن اخطار بلاد التوابل وطرقها . وكان يمتد لمدة طويلة في العصر الكلاسيكي القديم ان سورية تنتج البلسم والمر . ولم يصبح الاصل العربي للمر مؤكداً الا في زمن فتوحات الاسكندر وكانت تجارته في ايدي السبأين قبل الفينيقيين . وكان الغار بشكل تيجان يكمل الشعراء وقد تحولت الحورية دفنة Daphne مرة الى شجرة غار عندما لاحقها عشيقها ابولون وذلك في مكان قرب انطاكية لا يزال يحتفظ باسمها^١ . وقد جذب بلسم اريحا الملكة كليوباترة واستأجرت جنائز في ذلك المكان .

قرطاجة

كانت قرطاجة اكثر المستعمرات نجاحاً بما لا يقاس في افريقيا وان تكن احدتها عهداً . وفي القرن الثامن كانت في ذروة منافستها للوطن الام الذي كان قد اخذ بالانحطاط . وقد عجل في هذا الانحطاط موجة الاستعمار اليوناني في اواخر القرن الثامن واوائل السابع والفتح الاشوري للمدن الفينيقية الذي حصل في الوقت نفسه . ويستدل على مدى التجارة القرطاجية واساليب المقايضة الغربية التي ولدتها من قصة رواها هيرودوتس^٢ حيث يقول ان الملاحين القرطاجيين على ساحل افريقيا الغربي كانوا ينزلون بضائعهم الى الشاطئ ويوقدون النار كإشارة للسكان ثم ينسحبون الى سفنهم . وكان السكان المحليون البدائيون يأتون حين ينظرون الدخان ويضعون ما يقابل تلك البضائع من الذهب وينسحبون . ويعود القرطاجيون فينزلون في البر فاذا رأوا ان الذهب يعادل ثمن البضاعة يأخذونه وينصرفون والأفأنهم ينتظرون من جديد في سفنهم لكي يقوم السكان بمحاولة جديدة في هذه المساومة الحرساء . ويقول الراوي انه « لم يعمد اي من الغريقين الى ان يغش الآخري » .

(١) انظر ما يتعلق بذلك في الفصل الثامن عشر .

(٢) Herodotus Bk IV. ch. 196

وقد بلغ من سيادة قرطاجة التجارية والسياسية ان امبراطوريتها القوية امتدت في القرن السادس من حدود ليبيا الى اعمدة هيركوليس وضمت جزر الباليار ومالطة وسردينيا وبعض مواقع على ساحل اسبانيا والغال . ولم تتح القرصة لصيدا وصور تحت النفوذ المصري والاشوري ان تكونا امبراطورية ولكن قرطاجة فعلت ذلك وادى هذا الى نزاعها مع رومة الآخذة بالظهور التي نازعتها سيادة البحر وبلغ من تسلط الاسطول القرطاجي على هذا البحر انه قيل للرومان بانه لا يمكنهم غسل ايديهم في مياهه بدون اذن قرطاجة . ويقال ان سفينة قرطاجية جانحة ذات خمسة صفوف من المجاذيف استخدمت كنموذج قلده بناؤو السفن الرومان وصنعوا مئة وثلاثين سفينة منه في مدة ستين يوماً .

وفي عام ٢١٨ ق . م . قام هانيبال^١ الذي كان قد اقسام وهو لا يزال يافعاً بان يكون عدو رومة الدائم بمشروعه الذي كرس له حياته وزحف ضد ايطاليا من اسبانيا بطريق جبال الالب . وبعد قتال ناجح دام خمسة عشر عاماً في الارض الايطالية هوجت رومة اثناءه استدعي هانيبال الى افريقيا وهناك كسر في معركة زاما (٢٠٢) الحاسمة في جنوب غربي قرطاجة . وفي ١٩٦ هرب الى صور ومن هناك اتصل بانطيوخس ملك سورية واشترك معه في الحرب ضد اعداء قرطاجة الالقاء^٢ . غير انه كسر نهائياً ولما لم يعد له امل بالحرب انتحر في آسية الصغرى في ١٨٣ وهو يقول : « ان هذا سيفر على الرومان قلعهم في انتظار موت رجل مسن مكروه » .

اما قرطاجة فان ما اثارته من حسد بسبب انتعاشها ودوام ازدهارها قد فرض على عقل كاتو الضيق وعلى غيره من اصحاب النفوذ من الرومان قرارهم بان قرطاجة يجب ان تهدم . وقد تركت المدينة طعمة للنيران لمدة سبعة عشر يوماً في سنة ١٤٦ حتى اخفت موقعها كومة من الرماد . ثم عملوا المهرات فيها ولعنوا ارضها الى الابد . ان هذا العمل وان حكمنا عليه بمقاييس تلك الايام لعمل انحرق وانه لا يزيد الرومان شرفاً .

(١) من الفينيقي حاني بعل اي نعمة بعل .

(٢) انظر ما سيأتي عن انطيوخس في الفصل ١٧ .

الفصل الثاني

الأدب والديانة وسائر مطاير الحياة

ان السفن كالتقوافل تحمل فوق ما تحمل من شحنات البضائع اموراً غير ملموسة تساويها في اهميتها ان لم تفقها بالنسبة للتقدم البشري . وهذه الامور غير المادية هي المؤثرات الحضارية المتنوعة التي اتى بها التجار والمستعمرون الفينيقيون ونشروها بين الشعوب التي احتكوا بها وخاصة اليونان الذين اصبحوا تلامذتهم في شؤون الملاحة والاستعمار واخذوا عنهم اشياء مختلفة في ميادين الادب والدين والفن الزخرفي . وقد اصبح البحر المتوسط بفضل النشاط الفنيقي قاعدة للدوافع الحضارية المتعددة الاشكال التي اتى بها من فينيقية فحسب بل من بلاد بابل ومصر ايضاً . وكان الفينيقيون يلعبون دور الوطاء من الناحيتين الفكرية والروحية كما كانوا من الناحية التجارية .

الابجدية

واول نعمة اعطيت للبشرية في درجة اهميتها كانت الابجدية التي نقلها اليونان غالباً بين ٨٥٠ و ٧٥٠ ق.م . والحقيقة ان اختراع النظام الابجدي ونشره يعتبر من جهة البعض اعظم منحة انعمت بها الحضارة السورية على البشرية . والمنحنتان الاخريان هما ديانة التوحيد واكتشاف المحيط الاطلسي .

وقد حافظ اليونان على الاسماء السامية للحروف وعلى شكلها العام وترتيبها . وكانت تكتب الحروف في اقدم الكتابات الاثرية اليونانية من اليمن الى الشمال كما في الكتابة الفينيقية . واعترف اليونان بما نقلوه في قصة قدموس الذي ينسب اليه ادخال ستة عشر حرفاً . واذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية المتعددة

(١) راجع : Diodorus, Bk. VIII, ch. 57 (56); Pliny Bk. V, ch. 58; Herodotus Bk. III, ch. 67, § 1; Bk. V, ch. 57, § 5.

فانها تشير الى ان المهاجرين من سورية ادخلوا الى بلاد اليونان الابجدية وفن التعدين وعبادة ديونيسيوس اله الحمر^١. ونقل اليونان في القرن السادس ابجدية ادخلوا عليها بعض التحسينات الى الرومان ومنها تولدت معظم الابجديات الاوربية. ومن جهة اخرى فان الآراميين الذين استعاروا ايضاً ابجديتهم من الفينيقيين نقلوها الى العرب والمنود والارمن وسائر الشعوب الشرقية التي تكتب بالابجدية^٢. وكان من صفات الابجدية الفينيقية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً بساطتها مما جعل فن الكتابة والقراءة في متناول الانسان العادي. وقد تكون كتابة عرب الجنوب مشتقة مباشرة من الكتابة السينائية التي كان لها على الفينيقيين فضل تحقيق المرحلة الابتدائية.

ويبدو ان الفينيقيين الذين كانوا اول من استعمل نظاماً ابجدياً راقياً في الكتابة ونشروه في العالم قد اخذوا اساس اسلوبهم من مصادر مصرية هيروغليفية بطريق سيناء. والرموز الهيروغليفية كانت في الاصل صوراً للاشياء التي ارادت الدلالة عنها ولكنها انشأت من وجهة صوتية اربعين اشارة كانت حروفاً ساكنة. غير ان المصريين المحافظين لم يذهبوا الى حد استخدام هذه العلامات الساكنة لوحدها. ولذلك فان العلامات ظلت بدون اهمية حتى حوالي نهاية القرن السابع عشر حين اتفق لاحد الاسرى الكنعانيين او لاحد العمال في مناجم الفيروز في سيناء كما يظن ان يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من اتقان ما فيها من تعقيد وان يستعمل العلامات الساكنة. وكان المكان الذي ربما حصل فيه ذلك هو سراييط الخادم. وقد اعطيت للعلامات الساكنة اسماء سامية وقيم سامية. فقد اتخذ الساميون مثلاً علامة رأس الثور وبدون ان يهتموا ماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية سموا العلامة «الف» باسمها السامي. ثم طبقوا المبدأ الذي بموجبه يعطى الحرف الصوت الاول في اسم الشيء الذي يمثله وفي هذه الحالة استعملوا علامة الالف لاجل صوت أ. وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على «بيت» فسموها «بيت» واستعملوها لاجل صوت ب. وعلامة اليد سموها «يود» واستعملوها لصوت ي، وعلامة الماء سموها «ميم» واستعملوها لاجل صوت م، وعلامة الرأس سموها «ريش» واستعملوها

(١) Herodotus Bk. II. ch. 49

(٢) انظر ما سيأتي بشأن الكتابة الآرامية في الفصل ١٢.

لصوت ر'. وعلى ذلك فان العامل في سيناء استخدم فقط الفكرة الایمجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية وشكل لنفسه مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن ان تهجى بها الكلمات.

العربية	اللاتينية	اليونانية القديمة	راس الشجرة	التبئية	العربية الجنوبية	الشكل الذي تمثله	السينائية
ء	A	Α	𐀀	𐀀	𐀀	راس ثور	𐀀
ب	B	Β	𐀁	𐀁	𐀁	بيت	𐀁
ج	CG	Γ	𐀂	𐀂	𐀂		𐀂
د	D	Δ	𐀃	𐀃	𐀃	رجل يصلي	𐀃
هـ	E	Ε	𐀄	𐀄	𐀄		𐀄
و	FV	Υ	𐀅	𐀅	𐀅	خفذة	𐀅
ز	...	Η	𐀆	𐀆	𐀆	مزدوجة	𐀆
ح	H	Θ	𐀇	𐀇	𐀇		𐀇
ط	..	Ι	𐀈	𐀈	𐀈	يد	𐀈
ي	...	Κ	𐀉	𐀉	𐀉	منخاس	𐀉
ع	L	Λ	𐀊	𐀊	𐀊	ماء	𐀊
ف	M	Μ	𐀋	𐀋	𐀋	انفي	𐀋
...	N	Ν	𐀌	𐀌	𐀌	شبكة	𐀌
ع	X	Ξ	𐀍	𐀍	𐀍	عين	𐀍
...	O	Ο	𐀎	𐀎	𐀎		𐀎
غ	P	Π	𐀏	𐀏	𐀏		𐀏
...	𐀐	𐀐	𐀐	راس انسان	𐀐
ق	Q	Ρ	𐀑	𐀑	𐀑	فوس	𐀑
ر	R	Σ	𐀒	𐀒	𐀒		𐀒
ش	S	Σ	𐀓	𐀓	𐀓	صليب	𐀓
ت	T	Τ	𐀔	𐀔	𐀔		𐀔

جدول يحتوي ايمجيات مختلفة من جنتها ايمجدية رأس الشجرة المسماة

(١) قارن ذلك مع الجدول الموجود في : *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 110 (1948), p. 14; David Diringer, *The Alphabet* (New York, 1948), p. 200.

الكتابات الاثرية الفينيقية

والفينيقيون الذين كانت لهم علاقات تجارية مع سيناء اقتبسوا على الغالب هذه الاشارات و اضافوا اليها وجعلوا منها نظاماً ايجدياً تاماً مؤلفاً من اثنتين وعشرين علامة بدون حروف صوتية بسبب تأثير الميروغليفية المصرية . وهكذا حصل ما سموه بحق اعظم اختراع اتى به الانسان .

وقد اكتشفت كتابات اثرية كنعانية قصيرة بالايجدية الخطية في لاكيش وبيت شمس وترجع الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر^١ . وكتابة لاكيش وجدت على صحن . واقدم نص مفهوم تماماً بالايجدية الكنعانية وجدته الاثري الافرنسي دونان Dunand في بيبيلوس وهو مؤلف من خمسة اسطر ويذكر بناء جدار من قبل شفت بعل ابن ايلي بعل ابن يحيم ملك - والثلاثة كانوا ملوكاً على بيبيلوس^٢ . والحروف في جميع هذه الكتابات من نموذج اقدم من تلك التي وجدت في كتابة احيرام الطويلة المكتشفة في ١٩٢٣ من قبل الاثري الفرنسي موتيه Montet في بيبيلوس وترجع غالباً الى نحو ١٠٠٠ ق.م . واطول كتابة اكتشفت حتى الآن وطولها واحد وتسعون سطراً اتتنا من قره تبه Kara-Tepe شمال شرقي اذنة وقد كتبها ملك فينيقي من القرن التاسع^٣ .

ونظام الكتابة الايجدية الخطية بحروفها الاثني والعشرين والمكتوبة من اليمين الى اليسار^٤ كانت غالباً من عمل الفينيقيين في بيبيلوس . وقد اخترع فينيقيون آخرون وهم الذين عاشوا في اوغاريت نظاماً ايجدياً آخر على اساس مختلف . فقد كتبوا الايجدية بقلم على الواح الطين ولذلك اتخذت شكل علامات مسبارية او

(١) لايكش هي اليوم تل النور في جنوبي فلسطين ، وبيت شمس هي تل الرمية قرب عين شمس غربي القدس .

(٢) راجع : W. F. Albright, « Near Eastern Archaeology », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, N. 95 (1944), pp. 37-8.

(٣) راجع : Julian Obermann, *New Discoveries at Karatepe* (New Haven, 1949)

(٤) ان الكتابة من اليمين الى اليسار بدأت كما يظن ككتابات منحوتة وقد وضعت بهذا الشكل لتناسب الذي يتقش على الحجر . وأما الكتابات من اليسار الى اليمين فانها تمثل بدء الكتابة بالقلم والحبر .

الأكاديمية التي تعلموها غالباً في المدرسة . والاسلوب الذي كتبوا فيه لا يتروك مجالاً للشك بأنهم كانوا يترجمون افكارهم من الكنعانية . واكتشفت بقايا مدرسة للكتابة من هذا النوع حيث امكن للطلاب ان يتعلموا اللغة الدولية لذلك العصر وهي الأكاديمية بمساعدة المعاجم او قوائم المفردات والتأريخ - وكانت ملحقة بمعهد اوغاريت .

وفيما سوى الواح تل الهارنة فقد اكتشف الاثري البريطاني وولي Woolley في ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ثلاثمائة لوحاً مسهبياً (بالأكادية) في تل العطشانة (الألخ Alalakh القديمة) . على العاصي الاسفل وتراوح بين ١٩٠٠ و ١٢٠٠ ق. م . وبعضها تحوي نصوصاً تتصل بالتنجيم وعلم الغيب .

ومثل هذه الكثرة في الكتابات بين اواخر الالف الثالث واواخر الالف الثاني لا تترك مجالاً للشك بان العصر كان عصر تنوع وتلقيح حضاريين تمازجت فيه بحرية الافكار العلمية والدينية من بلاد الرافدين ومصر وسورية وجرى التبادل فيما بينها . غير ان هذه الكتابات لم يبق منها الا القليل . فالمدونات الفينيقية كأن معظمها على مواد قابلة للتلف وهي اوراق البردي وتتعلق بالعمليات التجارية . وكان ورق البردي في هذه الفترة يأتي من مصر واستوردت كميات منه نحو ١١٠٠ ق.م . والقسم الاعظم من النصوص متأخر يتراوح تاريخه بين القرنين الخامس والثاني ق.م . وليس ما يدل على وجود كتابات اثرية فينيقية في فينيقية بعد الميلاد . غير ان اللغة الفينيقية في شكلها القري المعروف بالبوني ظلت تستعمل حتى العصر الاسلامي . والكتابات المكتوبة باللغتين اليونانية والفينيقية والمكتشفة في مالطة وقبرص هي التي سمحت للعلماء الفرنسيين وغيرهم في بذل الجهود منذ اواسط القرن الثامن عشر لتفسير اللغة الفينيقية وبلغت هذه الجهود ذروتها في نشر وترجمة النصوص الباقية من قبل المستشرق الالماني كيزينيوس Gesenius في ١٨٣٧ .

وحصلت حركة بعث ادبي فينيقي بلغت ذروتها في القرن السادس وانتجت شخصية سانخونيائث Sanchuniathon البيروتي العاصم . وكانت الناحية التي ساهم فيها مجموعة اشعار خرافية عن شعبه ترجعها الى اليونانية كما يظن مواطنه فيلوت

الجبيلي في اوائل القرن الثاني م^١ . والمرويات اليونانية تنسب الى طاليس *Thales* من ميلتوس (المتوفى حول ٥٤٦) رئيس « الحكماء السبعة » في بلاد اليونان انه تعلم في فينيقية ما يمكن تعلمه من بلاد بابل ومصر .

ولحسن الحظ ان الكثير من خير ما تركه التراث الادبي الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة . وينطبق هذا خاصة على القطع الغنائية والحكم التي استعارها سفر الامثال والمزامير وبشيد الانشاد وعلى الاخبار الخرافية التي دخلت في سفر التكوين وفي قصص الانبياء . ولم يكن هذا الامر معروفاً الى ان اكتشفت مدينة اوغاريت وكانت في عالم النسيان .

اوغاريت

في ١٩٢٩ بدأت بعثة افرنسية اعمال التنقيب في راس الشجرة بنتيجة ما اكتشفه احد الفلاحين بطريق الصدفة ، واتضح ان المرتفع يضم عدة مدن يعلو بعضها بعضاً ويرجع اقدمها الى الالف الخامس . وكان اسم المدينة في عصر ازدهارها في ١٤٠٠ ق.م . اوغاريت^٢ . وتقع على مسافة ميل واحد الى الداخل بالنسبة لمينائها المسمى «المينا البيضاء» الذي يقابل جزيرة قبرص . وكان يقوم ازدهار المدينة على حركة التجارة التي كانت تمر فيها وفي مينائها . وكان ملكها يسمى نقماد (نقمادا ومعناه نقمة حدد) الذي كانت قواعد اعمدة قصره الملكي مطلية بالفضة . وكان يدافع عن القصر برج مربع ضخم عرضه اربعة عشر متراً وجدران كثيفة .

وتمن المكتشفات المتنوعة التي وجدت في هذا الموقع الالواح الفخارية وعليها كتابة ايجدية من النوع المساري في منطقة المعبد . ومع انها كتبت في القرن الرابع عشر فان نصوصها الاصلية ترجع الى ابعد من ذلك بكثير . والكتابة تضم ثلاثين حرفاً واما اللغة فانها لهجة كنعانية . والمواد المكتوبة معظمها دينية وتتصل بطقوس

(١) حفظ لنا المؤرخ يوسيبوس قسماً كبيراً من ترجمة فيلون ولكن العلماء المعاصرين يعتبرون هذه الترجمة تروبراً من فيلون . وقد ترجم الى الالمانية ما يظن انه ترجمة فيلون بكاملها تحت عنوان : *Sanchuniathon's phonizische Geschichte* (Lübeck, 1837) واسم ساخنوثيات من الفينيقية *Sakkonyaton* ومعناه « الاله Sakkon قد اعطى » .

(٢) واسم اوغاريت معناه حقل والاغلب انه كلمة مستعارة من السومرية .

العبادة. وهذا الاكتشاف يعيد لنا جانباً هاماً من الادب الكنعاني الذي فقد لمدة طويلة. وتدور إحدى القصائد الهامة حول النزاع السنوي بين الله النبات عليان وبعل وخصه موت. وينتصر موت على بعل في اول الامر وهذا طبيعي في بلاد يضع فيها جفاف الصيف حداً لحياة النبات، ولكن عندما تتجدد الامطار في الحريف فان بعل يعود فينتصر على موت. ومن المحتمل ان هذه القصيدة كانت تمثل كمشرحية على الساحل السوري قبل ان يفكر اليونان بالمشرحية بعدة قرون، واذا صح هذا فيكون السوريون قد سبقوا اليونان الذين يعتبرون عادة منشئي التمثيل المسرحي.

وهناك مقارنات ومشابهات من حيث اللغة والافكار بين ادب اوغاريت وسفر ايوب. وتوجد موازات في شعر اوغاريت كما في الشعر العبري. وبما يستلقت النظر التشابه في المفردات والافكار والاوزان الشعرية والتركيب الادبي بين الادب الاوغاريتي والمزامير العبرانية^١. ونجد في الاوغاريتية ان بعل يوصف «براكب القيوم» وكذلك يصفون الله في العبرية (المزمور ٦٨: ٤). وفي احد نصوص اوغاريت نجد ان الرعد هو صوت بعل، وفي سفر ايوب ٣٧: ٢-٥ والمزمور ٢٩: ٣-٥ نجد انه صوت يهوه. وهذا المزمور بكامله من اصل كنعاني ظاهر. وفي كلا الاديان تسمى لوباتان Leviathan «الحية المتحوية» (سفر اشعيا ٢٧: ١)^٢. وبعل يقتل لوباتان وكذلك يفعل يهوه. وهذا الحيوان البحري الخفيف ذو سبعة رؤوس ويظهر بعد قرون في حيوان خرافي متصل بهر كوليس. ودانيال (ومعناه ايل قد حكم) البطل الاوغاريتي الذي يقابل دانيال في قصة سوزانا «يحكم في قضية الارملة ويقضي في مسائل الايتام»^٣ كما يفعل الله في المزمور ٦٨: ٥ وكما يفعل الصالحون في سفر اشعيا ١: ١٧.

ان هذا المركز الدولي القديم - اوغاريت - الذي تظهر في فنه الزخارف

(١) راجع: John H. Patton, *Canaanite Parallels in the Book of Psalms* (Baltimore, 1944).

(٢) انظر: Cyrus H. Gordon, *The Loves and Wars of Baal and Anat* (Princeton, 1943), p. xii.

(٣) Gordon, p. 35; Charles Virolleaud, *La Légende phénicienne de Danel* (Paris, 1936), p. 203

المصرية والحثية واستخدمت في منازله او اني الحزف الامورية ثم القبرصية والميكانيكية وفي اسواقه بيعت السيوف الحورية وسيوف المكسوس قد هدمته الزلازل والنيوان في عام ١٣٦٥ ثم اتته شعوب البحر وخربته نحو عام ١٢٠٠ وهكذا زالت هذه المدينة من التاريخ .

ديانة الحصب

كانت مراجعنا الادبية عن الديانة الكنعانية زهيدة قبل اكتشاف اوغاريت . وكانت تضم كتاباً في اليونانية بعضهم سوريون مثل فيلون الجبيلي ولوكيانوس السيساطي ولكنهم كانوا متأخرين وغامضين نوعاً . وكان لدينا مواد العهد القديم في التوراة ولكن تتصف بروح العداة التي كتب بها المؤلفون العبرانيون ، كما كان لدينا آباء الكنيسة المسيحية الاوائل ولكن معلوماتهم لم تكن اولية . والامر الاساسي في الديانة الكنعانية كما تظهره لنا هذه المصادر والمكتشفات الاثرية الحديثة هو عبادة قوى النمو والتوالد التي يعتمد عليها كيان مجتمع زراعي يتم بتربية الماشية في ارض امطارها قليلة وغير مؤكدة . ويصدق هذا الى حد كبير على جميع الديانات السامية القديمة. ويبدو ان الكنعانيين استعاروا من عبادات جيرانهم وطقوسهم في بابل ومصر كما استعاروا في سائر الميادين الثقافية واعارواهم ايضاً فكانت العملية متبادلة .

والصفات البارزة في ديانة الحصب السامية هذه هي الحزن على موت اله النبات واجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه (اله الموت والعالم الاسفل) حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لانتاج موسم العام الجديد ، والفرح عند عودة الاله الى الحياة . وان زواج الاله او بعل بعد بعثه بالاهة الحصب عشتار تنتج عنه تلك الحضرة التي تكسو الارض في الربيع . وهذا الزواج المقدس الذي يتخذ صفة روحية رفيعة يصبح فيما بعد اتحاداً بين هوه وشعبه . وفكرة الاله الذي يموت ثم يبعث تصبح جزءاً هاماً من الاعراف المسيحية .

ويتصل بفكرة جفاف النبات الدوري بسبب حرارة الصيف وعودته الى الحياة في الربيع عنصر القوة المتجددة للشمس المنتصرة عندما تظهر بعد اتخذها الظاهر

في الشتاء . وقد كانت اسطورة تموز^١ القديمة تتضمن ذلك . وسمى الكنعانيون هذا الاله أدون بمعنى سيد ثم اقتبسه اليونان وجعلوا منه ادونيس . وجعل فيا بعد معادلاً للاله المصري اوزيريس . واصبح ادونيس اشهر الآلهة السورية واقيمت عبادته في اليونان في القرن الخامس . وجعل الفينيقيون حادثته مع عشتار او سيدة بيبلوس^٢ عند منبع النهر الذي يسمى اليوم نهر ابراهيم في لبنان^٣ . ففي هذا المكان جرح تموز بينما كان يصطاد الخنزير البري وحلوه وهو يشرف على الموت الى حبيبته المتألمة . ومنذ ذلك العهد والنهر يصطبغ باللون الاحمر في احد الفصول وهو لوت - دمه كما يعتقدون (وقد شوه علماء الآثار الحديثون هذه القصة عندما اشاروا الى التربة الحمراء التي تجرفها سيول الربيع^٤) . وبينما كان تموز في العالم الاسفل ذبل النبات على الارض وظل ميتاً الى ان دخلت عشتار العالم الاسفل واستعادته . ونشأت الطقوس التي تحتفل بذكرى موته في بيبلوس على خمسة اميال شمالي مصب النهر وتضمنت هذه الطقوس بحث النساء عنه . وكان العيد السنوي يدوم سبعة ايام . وكان الفرع يعم الجميع عند بعثه حتى ان اللواتي يعبدنه من النساء كن يضحكن بشرفهن بينما الرجال يضحون برجولتهم ويخدمون في المعبد كخصيان . وقد تعدل هذا البغاء وتحول فيما بعد الى قص الشعر الرمزي بالنسبة للنساء . واما الحتان الذي كان عادة سامية قديمة فانه بدأ كما يبدو كتقدمة لالاهة الحصب وكان ايضاً بمثابة علامة قبلية فارقة . وقد ترك السوريون هذه العادة بعد نشوء المسيحية حين اعتنقوا الديانة الجديدة .

(١) وهو في البابلية نوموزي *dumu-zi* ، الابن الأمين ، ومن اصل سومري . وقد بقي اسم تموز في تسمية الشهر الرابع للسنة السامية والشهر السابع في التقويم العربي الحديث لأن الشهر كان مكرساً لعبادته .

(٢) زار هذا المعبد لويكاتوس حوالي ١٤٨ م ووصف طقوسه في كتابه : *De Dea Sgria*, §6

(٣) سمي نهر ابراهيم باسم امير ماوروني قديم . والنبع الآن يسمى نبع افقا حيث لا تزال مراسم الاحترام تقام لسيدة المكان العذراء مريم باضاءة المصابيح في خلوة صغيرة تحت شجرة تين مشوهة ، ويمتلق سكان المنطقة من مسيحيين وشيعة قطعاً من ثيابهم على اغصان الشجرة كتنوير لإعادة العافية الى المرضى .

(٤) وهناك رواية اخرى للاسطورة تقول ان ادونيس الذي كان لقبه الفينيقي نمان تحول الى شعائق النمان وهي الزهرة التي تطلخت بدم ادونيس . وكلمة *nemone* الانكليزية انت من نمان بطريق اليونانية ، بينما كلمة نمان العربية انت بطريق السريانية .

وتتابع الحياة والموت لم يقتصر على النبات وإنما شمل الانسان ونتج عنه التأكيد على الناحية الجنسية من الحياة . وقد تجلّى ذلك في البغاء المقدس الذي كانوا يمارسونه بمناسبة طقوس عشّار ليس في بيبلوس وحدها بل ايضاً في بابل وقبرص واليونان وصقلية وقرطاجة وغيرها من الاماكن^١. وبعض مظاهر هذه الطقوس استعارها العبرانيون كما يظهر وكان لديهم ما يسمى «بعمسات المعبود» . والاباحية الجنسية كانت مظهراً بارزاً في الاحتفالات الزراعية عند كثير من الشعوب القديمة في العالمين القديم والجديد . وربما كانت عادة تقبيل الذين يحضرون حفلة العرس للعروس من بقاياها . وقص الشعر لا يزال من الواجبات المتبعة عند الراهبات المسيحيات حين يكرسن انفسهن للعريس الالهي .

الآلهة

ان ديانة كنعان القديمة وبقية العالم السامي باعتبار انها بالدرجة الاولى تقوم على عبادة الطبيعة كانت تضم آلهتين رئيسيتين تعرفان باسماء مختلفة ولكنها في جوهرهما: الجوّ الآب والارض الام . وفي اوغاريت كان الله الجوّ يعرف باسم ايل بينما الالهة الام كانت تسمى عاشره . وكان ايل الاله الاعلى للعالم الكنعاني العبراني^٢ . وبعده يأتي عليان^٣ الذي اصبح كبعل له مكان معين واعتبر حامياً لاحدى المدن . وكانت الامطار والفيال تحت مراقبته . والاعياد كانت تقام لارضائه والتقدمات تعطى لاستعطافه . والذبيحة او التقدمة كانت بجوهرها احتفالاً يشترك فيه العابد والمعبود او حفلة اشتراك . ولعدم وجود اية صورة محفورة كانوا يرمزون الى الاله بعمود او حجرة . والاله مَلُخ (او Molech) الذي تقدم له الاولاد كضحايا كان

(١) راجع : Herodotus Bk. I. ch. 199; Strabo, Bk. XVI. ch. 1. § 20; VI. 2. 6; Baruch 6 : 43; Lucian, §§ 22, 43.

(٢) سفر حزقيال ٨ : ١٤ ؛ ميخا ١ : ٧ ؛ التثنية ٢٣ : ١٨ .

(٣) كان حدد Hadad إله الماصفة والحصب ام الآلهة واكثرها جاذبية بين الآلهة السورية . انظر ما سيرد في الفصل ١٢ .

(٤) وهذه الكلمة لا علاقة لها بالكلمة العبرية « عليون » اي الاعلى في سفر التكوين ١٤ : ١٨ .

(٥) سفر اللاويين ١٨ : ٢١ ؛ سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٠ .

يعتبر انه نفس ملقارت اي سيد المدينة — مدينة صور . وحوادث دفن الاولاد الصغار في الجرار كما اكتشفت في المعابد تثبت مرويات التوراة عن عادة تضحية الاولاد .

كانت رفيقة ايل تسمى عاشرة Asherah (عاترة Athirat) في اوغاريت . وكانت توجد الالهة اخرى اسمها عشتارت Ashtart (عشتارت 'Ashtart) في اوغاريت وتل الهامزة وهي عشتار عند الاشوريين البابليين . وقد كانت عشتارت الالهة الام . وسماها العبرانيون عشتوريت Ashthoreth (وجمعها عشتاروت Ashtharoth) واليونان آستارت Astarte . واقتبسها اليونان وادججت بافروديت فاصبحت اشهر الالهات الحصب . وصارت باعتبارها بعلة (او سيدة) متصلة بمكان معين واصبحت حامية لمدينة . ومن هذه الحاميات بعلة جبيل . وكان اسم عشتار هو الذي تتسمى به الالهات المحلية المقرونة بالبعلم في الاماكن المرتفعة الكنعانية التي كان لها تأثيرها وجاذبيتها الخاصة بالنسبة لعقول العبرانيين كما يظهر حتى ان الانبياء اضطروا لمهاجمتها مراراً^٢ . وقد كُرس ايلول وهو الشهر السادس الذي يقع في نهاية الصيف للالهة عشتار لانه في هذا الشهر وبفضل قوتها كانت تنضج الحياة النباتية التي يمثلها الاله تموز . وبالإضافة الى لقب « بعلة » فقد كانت عشتار تلقب « ملكة » ايضاً وهذا يذكرنا « بملكة السماء »^٣ . وهناك كتابة اثرية عصرية اكتشفت في بيت شان من القرن الثالث عشر تسمى عنات « سيدة السماء »^٤ . وتظهر عنات في لوح من اوغاريت كشقيقة عليان بعل وتعطى لقب العذراء . وقد بقي اسمها في بيت

(١) انظر سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ، ٣٣ ؛ الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ . ويرد هذا الاسم في العربية الجنوبية بشكل عتار من فعل « روى واعتق » ويطلق على إله مذكر . وهذا الاسم الالهي علم عند جميع الشعوب السامية .

(٢) سفر القضاة ٢ : ١٣ ؛ إرميا ٣٢ : ٣٥ ؛ الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ ؛ سموئيل الاول ٧ : ٣-٤ .

(٣) سفر إرميا ٧ : ١٨ ؛ ٤٤ : ١٧-١٩ ، ٢٥ .

(٤) Burrows p. 230

عنان^١ وبيت عنوت^٢ وعنانوت^٣. وكانت الالهة عنات - عشثار تهب الحياة وتبيدها. ومن اوصافها البارزة ايضاً الحب والحرب. وكان رشف^٤ (اللهيب) في نفس الوقت اله الموت والحصب.

المياكل

كانت الفكرة الاساسية في بناء الميكل تزويد الآلهة بسكن لها. فهنا كانت الاله يسكن كما يسكن اي كائن بشري في بيته الخاص. وبواسطة الميكل كان يتاح مجال للاتصال بين الاله والبشر بحيث يتمكن الكائن البشري من تأسيس علاقات شخصية مع الكائن الالهي. واقدم المياكل الكنعانية المكتشفة ترجع الى مطلع الالف الثالث وكانت في اريحا ومجدو. وكان هذا النموذج القديم يتألف من غرفة واحدة لها باب على الجانب الطويل من البناء. ويصبح البناء متكاملًا اكثر بعد منتصف الألف الثاني. واهم صفات مثل هذا الميكل^٥ كما ظهرت في جزر وبيت شان^٦ واوغاريت وغيرها من الاماكن كانت المذبح الصخري والنصب المقدس والعمود المقدس والتعرف تحت الارض. وكان المذبح الذي تقدم عليه الذبيحة اهم هؤلاء بدون شك. والنصب او الحجر المقدس^٧ كان يمثل الاله المذكور وربما كانت

(١) سفر يشوع ١٩ : ٣٥ وهي اليوم البعنة شرقي عكا. (٢) يشوع ١٥ : ٥٩ وتسمى اليوم بيت عينون شمالي الخليل. (٣) اخبار الايام الاول ٦ : ٦٠ وهي اليوم عنقا شمال شرقي القدس. (٤) ويرد هذا الاسم كاسم علم في اخبار الايام الاول ٧ : ٢٥.

(٥) الكلمة المستعملة لذلك هي *hēkalla* (هيكلو اي بيت او قصر) وهي مستعارة من السومرية وبقيت في كلمة «هيكل» العربية.

(٦) نقب في بيسان Alan Rowe و C. S. Fisher. انظر : *Rowe : The Topography and History of Beth-shan (Philadelphia, 1930)*; do. *The Four Canaanite Temples of Beth-shan, pt. I (Philadelphia, 1940)*.

(٧) مصيبة *mazzbāh* وجها مصبوت (من تصب) وترجم بكلمة «تمثال» او عمود في هوشع ٣ : ٤ ؛ الملوك الثاني ١٠ : ٢٧ ؛ التكوين ٣٥ : ١٤ ؛ صموئيل الثاني ١٨ : ١٨.

لاصله علاقة بعضو التناسل . ويجانبه كان العمود المقدس او الشجرة المقدسة^١ وكانت تمثل النبات الدائم الخضرة التي تسكنه آلهة الحصب . وفي بيت شان كان هذا العمود يقوم في مدخل الحرم الداخلي . والغرف الكائنة تحت الارض كانت غالباً تستخدم لتلقي النبوءات . وكانت الاواني المستخدمة في اراقة السوائل والمزخرفة بالحيات ، وطاسات البخور والمباخر التي وجدت تشير الى الاعمال التي استخدمت لاجلها هذه الاشياء^٢ وتفيد بقايا المعابد التي كانت لها مصاطب يغسل عليها العابدون اقداسهم قبل الصلاة ان الروض الذي يشكل جانباً لا بد منه في الصلاة عند اليهود والمسلمين لم يكن مجهولاً عند الكنعانيين . والمباخر الكنعانية اقتبسها اليونان والأتروسكيون . وفي بيت شان كان يقوم مكان مرتفع في مؤخرة المعبد حيث كان يوضع غالباً تمثال الاله ويدل على بدء المكان المعروف «بقدس الاقداس» .

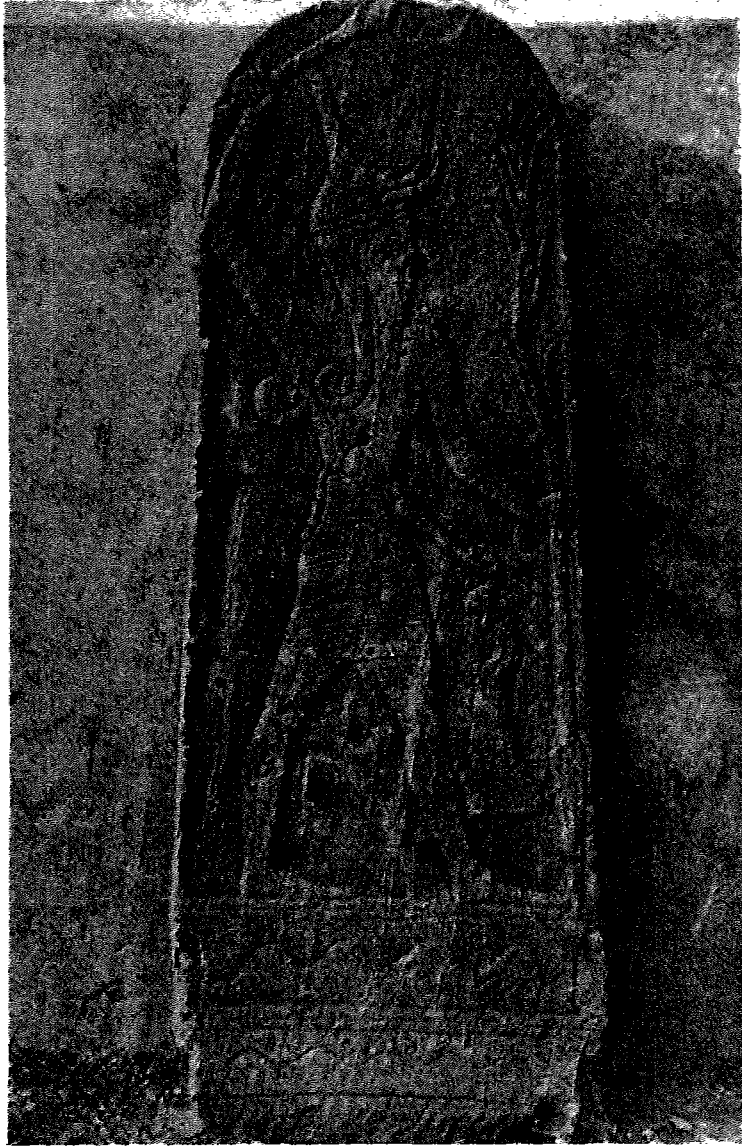
ولا يزال المسلمون والمسيحيون والدروز في سورية وفلسطين اليوم يؤدون واجب الاحترام للاشجار وهي عادة من البلوط او الصنوبر التي تنمو قرب ينبوع او قرب قبر احد الاولياء او القديسين . وتشاهد اليوم قطع الثياب مربوطة بشجرة مقدسة عند افقا حيث ينبع نهر ابراهيم .

الاصنام

اكتفى الكنعانيون عامة بالنصب والعمود المقدسين واستغنوا بهما عن ضرورة صنع الاصنام . والصور والتماثيل الصغيرة البرونزية التي تمثل بعل واقفاً يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة كانت شائعة . والالاهة كانت عادة تمثل عارية ويداها على جانبيها او تمسكان بشدييها كما لو كانت تعطي الغذاء . وقد وجدت تماثيل صغيرة متعددة من هذا النوع مصنوعة من المعدن او الطين . ولكنها كلها تبدو انها كانت

(١) أشيراه *ashērāh* وجها أشيريم ؛ وترجمت بكلمة «سوارى» في سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٣ ؛ الملوك الثاني ٢٣ : ٦-٧ ؛ اشعيا ٢٧ : ٩ . وقد حرمت في سفر التثنية ١٢ : ٣ ؛ ١٦ : ٢١ .

(٢) لأجل رسوم هذه الاشياء انظر : Rowe, *Four Canaanite Temples* الاطواح : ٢٢ : ٢٠ ، ٤١ : ٣٣ ؛ ٥٧ : ٤٤ ؛ ٧٠ : ٥٠ .



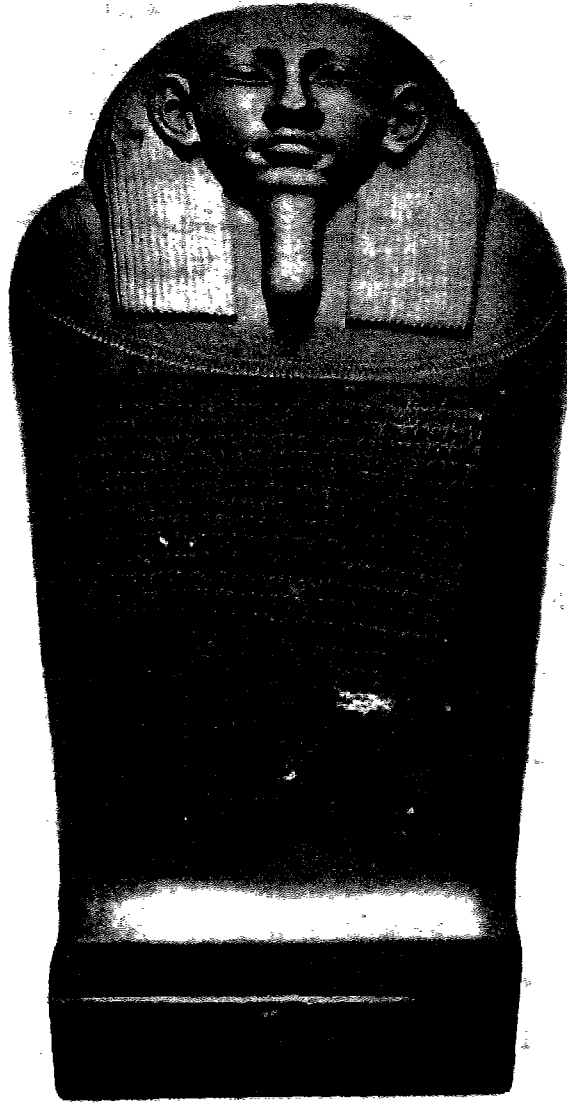
عليان بعل اوغاريت (رأس الشعرة)
يمسك الاله بيده اليمنى نبوتاً ويده اليسرى رمز الساعة ويقف امامه
ملك اوغاريت تحت حمايته .

تستخدم في المنازل وليس في الهياكل . وكانت تحترم بسبب قدرتها السحرية . وكان المتعبد المتعلم يعتبر التمثال مسكن الآلهة اما العامي فربما اعتبر ان التمثال نفسه هو الآلهة . وكانوا يمثلون الالاهة السورية أثارغاثس عادة في اواخر الالف الثاني بشكل امرأة عارية ايضاً وترفع احدى يديها بمسكة بساق نبات الزنبق او بالحيات . وهناك إلهة سورية اخرى هي قادش وتتخذ ايضاً شكل امرأة عارية واقفة على اسد . وكان الاسد او الثور رمزاً للحوية والقوة . اما لماذا اتخذت الحية رمزاً للخصب فان ذلك غير واضح . وقد يكون ذلك لانها كانت تعيش في احشاء الارض . ولا شك ان الاقدمين كانوا يحبون بقدرتها الفائقة على طرح جلدها وتجديد جسمها كل سنة وعلى اصابة من تعضه بملوت المباشر . وقد يتردد الفلاح السوري حتى اليوم في قتل حية سوداء اذا وجدها في منزله على اساس انها قد تكون حاميته .

كانت عبادة الحية شائعة في مصر القديمة وكريت وغيرها من بلاد الشرق . وبيت شان التي كان التأثير المصري ظاهراً في هياكلها الاربعة المكتشفة كانت من مراكز عبادة الحية . وقد كرس اقدم هذه الهياكل الى « ميكال سيد بيت شان » من عهد تحوتمس الثالث (١٥٠١ - ١٤٤٧) . وميكال الذي قد يكون اسمه متصلاً بمبلغ Molech كان احد اشكال رشف اله الكنعانيين والاموريين . وقد اكتشفت طاسة مزخرفة بجية في قسمها الخارجي في هذا المعبد .

« الاماكن المرتفعة »

وفيما سوى الهياكل في المراکز الحضرية فانه كان للكنعانيين اماكن مقدسة محلية معظمها مزارات في الهواء الطلق على رؤوس التلال . تلك كانت « الاماكن المرتفعة » التي كان يهاجها كتاب العهد القديم بصورة متكررة . وفي كثير من الاحيان لم يكن المكان المقدس غالباً سوى مذبح مع ما يلزمه من حجر مقدس .



تابوت بشكل بشري للملك صيدا اشمون عزر
من اوائل القرن الثالث ق. م. والآن في متحف اللوفر

وفي «المكان المرتفع» المشهور في جزر وجدت بقايا اولاد قدموا كضحايا ودفنوا في جرارا^١.

عادات الدفن

وكانت العادة ان يدفن الاولاد بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها بحيث تُدخل رؤوسهم أولاً. وفي اريحا وغيرها من المواقع كانت توضع الجرار تحت ارض المنزل. وحتى في ايام العبرانيين كانوا يتبعون عادة دفن الاولاد في تلك المدينة عند تأسيس المباني الجديدة^٢. وممارسة اسلاف العبرانيين كسائر الساميين لهذه العادة يمكن استنتاجها من قصة ابراهيم الذي شعر بدافع لتضحية ابنه اسحق وقصة ميشا ملك مؤاب الذي ضحى بالفعل ابنه الاكبر^٣.

كان الوضع الانسب لجثة الميت عند دفنها في منتصف الالف الثاني ان تكون ممددة على ظهرها وان يكون اتجاه الرأس نحو الشمال. وكانوا كثيراً ما يدفنون مع الجثة مصباحاً وجرة وصحناً كبيراً وغير ذلك من اواني الطعام والشراب بما يشهد بوجود اعتقاد غامض ان الميت يمكن ان يروقه نوع من المعيشة على الطراز المألوف في هذه الحياة الدنيا. وكانوا يدفنون النساء ومعهن حبات الحرز وسائر نواحي زينتهن كما ان الرجال كانوا يدفنون بسلاحهم. وتابوت الملك احيرام الحجري الضخم المزخرف بموكب جنازتي حيث تظهر النساء الباكيات والحدم الذين يحملون الهدايا يشير الى رغبة في حفظ الجسم. والتحنيط لم يُمارس الا بالنسبة لبعض ملوك كنعانيين تحت النفوذ المصري.

وهناك تأثير مصري آخر يظهر في الدفن عند الفينيقيين وهو وجود التوابيت ذات الشكل البشري. وقد اكتشفت توابيت كثيرة من هذا النوع يظهر فيها رأس بشري وحياناً شكل متكى بكامله على الغطاء وترجع الى ما بين القرن

(١) راجع ما ذكرناه في ص ٢٦ و ص ٨٤.

(٢) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٤.

(٣) سفر التكوين ٢٢ : ١-٣؛ الملوك الثاني ٣ : ٢٧.

السادس والثالث ق. م. ومن اجلها تابوت اشمون عزّر ابن تبنيت^١ ملك «مدينتي صيدا» كما يسمي نفسه وكان يحكم بعد فتح الاسكندر بنحو نصف قرن. وعلى غطاء التابوت كتابة من اطول الكتابات الاثرية المعروفة. والفكرة الاساسية الواردة هي الفكرة المعتادة بمنع ازعاج الميت وذلك بطريق اللعنات من جهة وبالتأكيد من جهة اخرى انه لا توجد كنوز ثمينة مدفونة مع الجثة^٢ وقد كان المصريون اول شعب اجنبي تسلط على فينيقية، وآخر من فعل ذلك قبل فتوح الاسكندر هم الفرس.

(١) اشمون عزّر بمعنى اشمون يساعد. وكان اشمون أم إله منصر لمدينة صيدا وبالأصل كان إله الثبات. ولا يزال اسمه باقياً في خرائب قبر اشمون جنوب شرقي بيروت. واسم «تبنيت» لا يزال في اسم قرية تسمى كفر تبنيت جنوب شرقي صيدا وهي تقابل تبنى Tibni العبرانية (سفر الملوك الاول ١٦ : ٢١).

Cooke, pp. 30-40 (٢)

الفصل الحادي عشر العلاقات الدولية مع مصر وعسبري آسيا

كانت الدول الكبرى في غربي آسيا في الالفين الثالث والثاني ق. م. ثلاث دول هي مصر وبابل والحثيون. وتبعتهما دول ثلاث اخرى وظلت على مسرح التاريخ حتى نهاية القرن الرابع تقريباً وهي دولة الاشوريين والدولة البابلية الحديثة او دولة الكلدانيين ودولة الفرس. والعلاقات المتبادلة من عسكرية وتجارية وثقافية بين الدول السورية وهذه الدول الكبرى المجاورة تشكل الموضوع الرئيسي للحوادث التاريخية خلال فترة نحو ثلاثة آلاف سنة.

المملكة القديمة

ان علاقة مصر ببلاد شرقي البحر المتوسط ترجع الى ما قبل قدوم الفينيقيين في اوائل الالف الثالث. وكانت هذه الصلة تجارية في بادئ الامر ثم تنوعت وعززت واستمرت حتى غزو شعوب البحر في اواخر القرن الثالث عشر. واذا استثنينا فترات قصيرة مثل ظهور الهكسوس في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ومجئ الحابرو في القرن الرابع عشر فان النفوذ المصري في الساحل الفينيقي دام من حوالي ٢٤٠٠ ق. م. حتى حوالي ١٢٠٠ ق. م. وقد استمر التأثير الحضاري والاقتصادي الى ما بعد انتهاء النفوذ السياسي وقام الحثيون في القرن الرابع عشر فتحذوا السيطرة الفرعونية على شمالي سورية وداخلها ووضعوا نهاية لها.

كانت اول مدينة احتلت مكانة رئيسية في العلاقات المصرية السورية مدينة جبلة Gubla (جبيل). وكان المصريون يعرفون هذه المدينة باسم Kupna وهو

(١) يجب الانتباه إلى التفريق بينها وبين جبلة Gabala (GB'L في نصوص اوغاريت) وهي جبلة الحديثة الواقعة إلى الشمال ومن المدن الكنعانية أيضاً.

اسم غير سامي حوله الفينيقيون بعد احتلالها الى جُبلة . وبقي اسمها السامي في «جُبيل» الحديثة . واسمها اليوناني بيبلوس Byblus الذي صار يعني «بايروس» او «كتاب» قد بقي في لفظة «Bible» (الكتاب المقدس او التوراة) . وقبل ان تصبح جبيل الميناء التي يصدر منها البايروس فانها كانت مركز تصدير ارز لبنان المرغوب كثيراً الى وادي النيل . وهناك استخدم الارز في بناء المعابد والقصور والسفن وفي صنع التوابيت والاثاث الفاخر . وقد استورد الفرعون سنقرو (حوالي ٢٧٥٠ ق.م) بحمول اربعين سفينة من الارز لاعماله العمرانية . واقدم اتصال بين مصر وسورية لدينا دلائل مكتوبة عنه هو من عهد هذا الملك . وكانت تصدر الحبوب والزيوت ايضاً لاجل التحنيط من جبيل . والمدن الفينيقية كانت تستورد لقاء ذلك الذهب والمصنوعات المعدنية ومادة الكتابة (البايروس او ورق البردي) . وقد نقش خوفو (Gheops حوالي ٢٦٠٠ ق.م) بافي الهرم الاكبر المشهور اسمه على آتية من الالباستر وارسلها كهدية الى سيدة جبيل . واعتبرت هذه الالاهة من قبل المصريين مساوية لالاهتهم هاتور التي بذلك اصبحت بالنسبة لهم سيدة البلاد السورية . وفي هيكل الدفن الذي يخص ساخوراع من ملوك السلالة الخامسة في ابو صير (خارج ممفيس القديمة) يوجد رسم حملة للبلاد الاجنبية وتظهر فيه غنائم الحرب وبينها زيت الزيتون في جرار كتعانية . وتمكن اونيس (توفي حوالي ٢٣٥٠) وهو آخر ملوك هذه السلالة ان يحافظ على جبيل بواسطة اسطوله وربما كانت المدينة حينذاك من مستعمرات التاج .

وفي كتابات السلالة السادسة الاثرية نبدأ بالقراءة عن «مراكب جُبلة» في ملاحه البحر المتوسط . ولدينا من عهد هذه السلالة اول وصف مفصل للحملات البرية في فلسطين وسورية . وقد قاد هذه الحملات في اوائل القرن الثالث والعشرين اوني Uni قائد الفرعون بيبي الاول Pepi الذي «عاد جيشه سالماً» بعد ان حارب «سكان الرمال» الاسيويين وتوغل في الشمال حيث هدم الحصون وقطع اشجار التين والكرمة^١ .

(١) راجع : James H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, vol. i (Chicago, 1906), § 313.

المملكة المتوسطة

وادعى فراغة السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨) وهي اعظم السلالات في تاريخ مصر السيادة وربما مارسوها بشكل ضعيف ليس على الساحل الفينيقي فحسب بل على فلسطين وقسم كبير من سورية ومنها قطنة Qatna. وقبل احد امراء اوغاريت المدايا من سنوسرت الاول (١٩٧١ - ١٩٢٨) وكان ابو الهول الذي يمثل امنمحت الثالث (١٦٤٢ - ١٦٣٣) يقوم عند مدخل هيكل بعل في هذه المدينة. وتدل اسماء الاماكن على اللوائح المصرية انه في حوالي نهاية حكم امنمحت كانت فلسطين حتى جلعاد في الشرق وفينيقية حتى وادي النهر الكبير في الشمال وهوران ودمشق ومعظم البقاع. جزءا من الامبراطورية المصرية. وقد اتانا من زمن حكم سنوسرت اقدم وصف للحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي في سورية وفلسطين^١.

قصة سنوحي

كان كاتب هذا الوصف من رجال البلاط المصريين واسمه سنوحي (Sinuhe) وقد رأى من الضروري عند اعتلاء سنوسرت العرش ان يهرب الى سورية حيث عاش بين البدو سنوات عديدة. وبعد ان اصبح طاعناً في السن دعي للعودة الى بلاط فرعون حيث دوّن مذكراته بشكل شعري.

وفي اول الامر انقذ زعيم بدوي على حدود مصر حياة هذا الرجل الهارب وزوده بالماء والحليب المغلي وسمح له بالسكنى مع عشيرته. وبعد ان اقام سنوحي في الجنوب ذهب الى جيبيل ومن هناك اجتاز لبنان الى سهل البقاع حيث اصبح من جملة السكان وانتسب الى قبيلة كان اسم شيخها امورياً. وقد شجع الزائر شيخ القبيلة على الخضوع لفرعون ولكن الشيخ لم يظهر رغبة في التنازل عن استقلاله.

(١) كان المصريون يسمون سورية الشمالية رتينو (Retenu) (Rzann) او خورو (Khuru) (Kharn). وقد تكون رتينو تحريف كلمة سامية. أما خورو فقد تكون تحريف كلمة حوريّ وم الحوريون Horites المذكورون في التوراة. وكانت المنطقة بين لبنان الغربي والشرقي تسمى امورو (Amor) والسهل الفينيقي وفلسطين كانا يسميان زاهي (Zahi) (Djahi) بينا الفينيقيون كانوا يسمون فنخو Fenkhu اي بناء السفن.

وتزوج سنوحي من ابنة حامييه الكبرى وخصصت له ارض طيبة فيها تين وكروم وخر اكثر من الماء. «وكان عملها كثيراً وزيتها غزيراً وجميع النجار كانت في اشجارها. وكان فيها شعير وقمح وماشية لا عد لها من جميع الانواع». وورث سنوحي المشيخة على القبيلة عن والد زوجته واصطاد بمساعدة كلابه واستقبل الضيوف على عادة البدو واعطى الماء للعطشان وارشد الضال واشترك في اعمال الغزو. واصبح محبوباً حتى انه اثناء القتال مع احد كبار القبيلة حيث استخدمت السهام والحراب والقوس صرخت النساء لمساعدته وشجعه الرجال. وبعد ان اشتاق هذا المنفي الى بلاده وارتعش لمجرد التفكير بانه سيدفن في ارض غريبة وسيلف بجلد ما عر فقط استجاب لقرار اصدره سنوسرت وكلف ابنه الاكبر بادارة املاكه وترك «الرمل لسكانه وزيت الشجر لاولئك الذين لا يعرفون دهناً احسن منه»^٢ وعاد الى بلاده حيث يمكنه التمتع بترف الاستحمام وبفراش حقيقي.

سورية في الامبراطورية المصرية

ادخلت سورية في الامبراطورية المصرية عند ظهورها في عهد احموس من السلالة الثامنة عشرة (توفي حوالي ١٥٤٦) وهو مؤسس المملكة الحديثة. وكان احموس هو الذي طرد المكسوس من مصر ولحق بهم الى سورية التي منها اتوا وحمل بلاده على اتباع سياسة الفتوح والتوسع. وتابع خلفاؤه من بعده خطة التوغل في سورية وفلسطين. واجتاح تحتمس الاول البلاد كلها حوالي ١٥٢٠ بدون مقاومة كبرى ووصل الفرات الاعلى «بلاد الرافدين» (نهارين) حيث ترك كتابة اثرية تشعر بفوزه وباعماله العظيمة. وقد استلقت الفرات الذي يجري باتجاه معاكس لجري النيل انظار المصريين كأمر غريب. وسرعان ما انتشرت اخبار متنوعة عن «هذا النهر المقلوب الذي تجري مياهه الى الجنوب بينما هي في الحقيقة تجري الى الشمال». واصبح اسم هذا النهر «المياه المقلوبة»^٣.

(١) راجع : Adolf Erman, *The Literature of the Ancient Egyptians* (London, 1927), p. 19.

(٢) Cf. David Paton, *Early Egyptian Records of Travel*, vol. i (Princeton, 1915), text v.

(٣) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii §§ 73, 478.

معركة مجدو

ولم تتوطد سيادة مصر نهائياً في سورية التي أصبحت جزءاً من الامبراطورية المصرية الناشئة الا بعد ان قام المحارب المشهور في مصر القديمة وهو تحوتس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦) بست عشرة حملة حربية . وتتصف الحملة الاولى وهي اهم الحملات بسقوط مجدو في ١٤٦٨ حيث اصطدم الجيش المصري بجلف مؤلف من ٣٥٠ اميراً . وكان الهكسوس الذين طردوا حديثاً من مصر العمود الفقري لهذا الحلف وكان امير قادش علي العاصي رئيسه . وقد دارت رحى الحرب تحت اسوار المدينة المحصنة تحصيناً قوياً . وعندما انسحبت القوات السورية امام هجوم العدو العنيف وجدوا ابواب المدينة مغلقة من قبل السكان . وكان على امير قادش نفسه ان يرفع الى فوق الاسوار وان تستخدم الثياب كجبال لرفعه . وبعد حصار دام سبعة شهور اضطرت المدينة التي كان « الاستيلاء عليها كاستيلاء على الف مدينة » الى التسليم بعد ان فتك فيها الجوع . ووقع الامراء على قديمي فرعون « يطلبون النفس لمنخرم » . واستولى المصريون بطمع على كمية من الغنائم تكاد لا تصدق وتتألف من : ٢٠٤١ حصاناً و ٩٢٤ مركبة (منها ٣٢ لها ترايب مصنوعة من الذهب والفضة) و ١٩٢٩ ثوراً و ٢٠٠٠ من الماشية الصغيرة و ٢٠٠٠٠ من الحيوانات الاخرى و ٢٠٠ درع وعدد كبير من الاسلحة الثمينة . وصادروا من القصر الملكي ٨٧ ولداً و ١٧٩٦ من العبيد الذكور والاناث و اباريق ذهبية و كمية من الاثاث والتماثيل . وقدم الامراء المغلوبون على امرهم رهائن^٢ .

قرر سقوط مجدو ومصر فلسطين . وتقدم تحوتس المعروف بنشاطه نحو الشمال مسافة ٧٥ ميلاً حتى وصل منطقة لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وبنى حصناً . وفي خلال حملته الحامسة استولى على ارواد وبذلك أحكم قبضته على السهل الفينيقي .

(١) ان السحر الذي يميظ بهذا الاسم مصدره آية غامضة في سفر الرؤيا ١٦ : ١٦ حيث يرد باسم ارجندون Armageddon . وقد وضع الرومان جيوشاً بقرها حيث توجد اليوم قرية تسمى الجون (من اللاتينية legio) . قارن مع سفر الملوك الاول ٩ : ١٥ .

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii. §§ 412-443 ; George Steindorff and Keith C. Seele, *When Egypt Ruled the East* (Chicago, 1942), pp. 53-56.

وقد استخدم فرعون في بيانه الحربي الرسمي الذي اعلن فيه سقوط هذه المدينة التجارية العظيمة الواقعة في جزيرة ارواد العبارات التالية :

انظروا ان جلالة نهر مدينة ارواد وما فيها من قح وقطع جمع اشجارها الجمية . انظروا لقد كان فيها محاصيل كل بلاد زاھي . لقد كانت جنائهم ملاءى بثمارها ، وخورم كانت في معاصم كالياه الجارية ، وحبوبهم على الجلول كانت اكثر من رمال الساحل . وقد نغمر الجيش بالحصة التي قالها (١)

ويذكر تھومتس بعد ذلك الجزية التي احتوت على العبيد والحيل والمواشي وصحون الفضة والبخور والزيت والعسل والخمر والنحاس والرصاص والحجارة اللازوردية ، والصوان البلوري الاخضر (فلسبار) والحبوب وارغفة الخبز والثمار وينتهي بهذه الكلمات : « انظروا ان جيش جلالة كان يسكر ويمسح بالزيت كل يوم كما لو كان في عيد في مصر ٢ » .

قادش

وقد اصاب سميرا Simyra جارة ارواد المصير نفسه في حملة تالية . اما قادش^٣ التي كانت مصدر الاضطراب الرئيسي فقد استولى عليها تھومتس اخيراً ولكنه اضطر بعد اثنتي عشرة سنة ان يتوجه ضدها من جديد . وعندما لاحظ امير قادش ان المركبات الحربية المصرية يجرها خيول فحول لها الى حيلة واطلق فرساً اتجهت رأساً الى وسط الحيل فسببت تشويشاً هدد نظام المعركة . ولكن امنمحب Amenemhab القائد ورفيق تھومتس انقذ الوضع حين قفز من مركبته وسيفه في يده « وشق بطنها وقطع ذنبها ووضعها امام الملك ٤ » .

نهادين

كانت الحملة الثامنة التي اسفرت عن انضمام منطقة القرات من اعظم حروب تھومتس في آسيا . وقد توج هذه الحملة باقامة لوحة للحدود شرقي القرات الذي عبره

(١) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 461.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 462.

(٣) وهي رسوم كل التي مند جنوبي بحيرة حمص . انظر : Duasaud, pp. 106-108.

(٤) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 589.

غالباً عند كركميش ولوحة اخرى في جوارها قرب تلك التي اقامها والده تحوتس الاول. ونهب بلاد ميتاني في طريقه. وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النهر كان ينهب المدن ويخربها، ويقطع اشجار البساتين، ويقتلع الذرة ويترك الارض قفراً. وربما قام باكثر من حملة على نهارين وفي احدى هذه الحملات بنى زوارق من خشب الارز في الجبال شرقي جيبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش الى نهارين. وفي طريق عودته بينما كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطعاً من الفيلة وكان احدها على وشك قتله بضربة من نابه لولا يقظة المنحعب الذي اسرع لقطع خرطوميه بضربة من سيفه^١.

تشبه مغامرات امنحوب عددًا من المغامرات الاخرى التي جرت للجنود المصريين في سورية. وقد وصلتنا احداها في قصة استيلاء قائد آخر من قواد تحوتس اسمه جهوتي Djehuti على مدينة يافا^٢ وانتقلت الى القصص الشعبية. فقد دعا هذا القائد امير يافا الى مأدبة وسقاه الخمر حتى سكر ثم قتله. وقيل لاميرة يافا ان زوجها قتل جهوتي وسيعود معه ٥٠٠ كيس من الغنائم. وعلى ذلك فقد فتحت ابواب المدينة وخرج من الاكياس ٥٠٠ جندي مضري كانوا ضمنها فهاجموا الحامية وتغلبوا عليها. واخبر جهوتي الملك عن سقوط يافا بما يلي :

افرح ا ان اباك الصالح آمون قد سلك العدو في يافا وكل شعبة ومدينته. ارسل من يأخذم كأسرى حتى تملأ بيت ابيك آمون راع ملك الآلهة بالعبيد الذكور والاناث الذين سيركون تحت قدميك الى ابد الآبدين (٣).

سجل تحوتس انتصاراته على جدران معبده في طيبة وذكر اسماء المدن التي فتحتها. وتشهد لائحة الغنائم التي حملها معه من عاج وابنوس وحلي وفضة وحجارة كريمة وخشب الحرنوب المطلي بالذهب بغنى البلاد وحضارة سكانها الرفيعة. ولا بد

(١) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 588.

(٢) بالمصرية iapu, yapu، من اللبنيقية يافي yāfi بمعنى جيبيل، ومنها أتت اللفظة العبرية yāfo و Joppa وهي يافا الحديثة.

(٣) راجع: C. W. Goodwin in *Transactions of the Society of Biblical Literature*, vol. iii (1874), pp. 340-48; G. Maspero, *Etudes égyptiennes* (Paris, 1879), vol. i, pp. 53-72; Steindorff and Seele, p. 58.

ان المنطقة الساحلية كانت كثيفة السكان . وقد وضع الكهان هذه الكلمات التالية على لسان الاله آمون حامي تحوتس بشكل اغنية للنصر :

لقد عبرت مياه النحن العظيم لنهارين
في النصر والقوة اللذين منحتهما لك
انهم يسمعون صرختك للحرب ويزحفون الى اوكارم
انني اترع من منخرم نسمة الحيلة واجعل
رهبة جلالتك تخترق قلوبهم
لقد اتيت لاجلك تنوس زعماء جاهي [زاهي]
انني اطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها (١) .

وقد بدأ تحوتس في علاقاته مع سورية المقهورة سياسة أخذ ابناء الاسراء المحليين لينشأوا على روح الصداقة مع مصر واعادتهم بالتدريج ليحلوا محل الجيل القديم المعادي لمصر^٢. غير ان ذلك لم يبدل الامور كثيراً . وبما ان السوريين لم يكونوا قادرين على مقاومة الجيوش المصرية مقاومة متواصلة فانهم لجأوا الى عملية الاسراع في تأدية الجزية والخضوع عند اقتراب العدو والتوقف عن ارسال هداياهم حالما يدير العدو ظهره . ولمدة حوالي نصف قرن بعد معركة مجدو اتت القوى المصرية المسلحة الى سورية وعادت منها عدة مرات . والمحملات المتكررة كانت ضرورية ليس لانخضاع الجماعات المتمردة فحسب بل ايضاً لاجل استمرار وصول الضرائب لحزينة مصر . وكان ارتقاء فرعون جديد الى العرش وخاصة اذا اعتبر اضعف من سلفه مناسبة للقيام بثورة جديدة . وهكذا فان البلاد اصبحت فقيرة من الوجهة الاقتصادية وعاجزة عن الدفاع عن نفسها عسكرياً ضد الدول الجديدة الناشئة في شمالها .

المخطاط السيادة المصرية

كان الوضع كذلك عندما وصل امنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٧١ - ١٣٥٨)

(١) Steindorff and Seele, p. 62.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 467.

الى العرش وكان من اكثر شخصيات التاريخ القديم جاذبية . ولم يكن اهتمام
امنحوتب موجهاً نحو قضايا الدولة وانما نحو القضايا اللاهوتية . وكان في ذلك متأثراً
على ما يظن بزوجه الجميلة والموهوبة نفرتيتي التي يعتقد البعض انها كانت من
اصل سوري^١ . وتشير مراسلات تل الهارنة الى انه قبل موته كانت فلسطين قد
خرجت عن طاعة مصر بصورة تامة . وظلت حرة حتى السنة الاولى من حكم ستي
الاول (١٣١٧ - ١٣٠١) من السلالة التاسعة عشرة . واطهر رعمسيس الثاني
(١٣٠١ - ١٢٣٤) من السلالة نفسها جانبا من الروح الحربية التي انصفت بها
السلالة السابقة . ووصلت حملاته الاولى حتى بيروت . وعلى بعد بضعة اميال الى
شمالى هذه المدينة عند مصب نهر الكلب^٢ حيث تصل الجبال الى البحر خلد
رعمسيس ذكرى حملته بنقش ثلاث كتابات في الصخر الكلسي وقد زالت معالمها
الآن حتى ان الكتابة اصبحت غير مقروءة . وكأنا دشن بذلك بدء سلسلة من
الكتابات في ذلك الموقع استمرت حتى عصرنا هذا منها كتابة تركها الحلفاء في عام
١٩٤٢ وكتابة لبنانية في ١٩٤٦^٣ مما جعل من هذه الواجحة الصخرية متحفاً في الهواء
الطلق . وبين الكتابات الاشورية الست فان كتابة اسرحدون (٦٧١ ق . م .)
وحدها هي المقروءة . ثم تأتي بعدها كتابة بابلية حديثة من عهد نبوخذنصر وكتابة
يونانية انصت وكتابات لاتينية متعددة تركها كركلا (وليس الفيلسوف ماركوس
اوريليوس) وكتابة عربية . وقد ازال الفرنسيون احدى اللوحات المصرية المكتوبة
ونقشوا عليها ذكرى احتلالهم لبنان في ١٨٦٠ - ٤٦١ . وهنالك كتابة افرنسية
اخرى تركها الجنرال غورو الى جانب كتابة في الانكليزية من عهد الجنرال النبي .

(١) وبتالها النصفي الذي كان في متحف برلين حتى عصر حديث يحتفظ في الوانه الطويلة بصورة
جيدة لللكة . وقد وجدته الجيوش الاميركية في غنبا في ١٩٤٥ .

(٢) سمي كذلك بسبب كلب محفور في الصخر ظل قائماً لمدة عدة قرون كحارس للمضيق . وتقول
الاسطورة ان صراخه حين اقتراب العدو كان مرثلاً حتى انه كان يسمع في كل المنطقة . وقد قذف
السلحون الذين يكرهون التمايل هذه الصورة المنحوتة في النهر . وقد اخرج الاوستراليون في ١٩٤٢
ما يمكن ان يكون الكلب الاصلي وهو ذئب موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت .

(٣) غنك ذكرى جلاء الجيوش الاجنبية واكثرها افرنسية عن لبنان .

(٤) Franz H. Weissbach, *Die Denkmäler und Inschriften an der Mündung des Nahr-el-Kelb* (Berlin, 1922).

واستمر انحطاط السيطرة المصرية خلال السلالة العشرين . ولدينا من نهاية هذه الفترة قصة حية تتخذ شكل تقرير سلمه الى فرعون حوالي ١١٠٠ ق. م. موفده ون آمون Wenamon الذي ارسل الى سورية ليأتي بالاخشاب لاجل زورق آمون المقدس . وتبرهن المعاملة المزرية التي نالها على يد امير جيبيل ، اذا كانت تاريخية صحيحة ، ان يمثل مصر لم يعد بإمكانه فرض احترامه على حاكم سوري . ويقول ون آمون في معرض روايته ما حصل : « لقد صرفت تسعة عشر يوماً في مرقأه وكنت يرسل الي كل يوم وبدون انقطاع من يقول : اذهب من مرقأي ، . واصبح ون آمون عاجزاً امام ذكر بعل الحاكم الوطني بعد ان يئس من بعثته وخاف على حياته . وكان يجلس هناك على الساحل ويتحسر بسبب مصابه . وكان معه ذهب وفضة ولكن اوراق الاعتماد اللازمة لم تكن معه . وفي وقت ما ارسل له الامير مغنية مصرية لتروح عنه . واخيراً يرق قلب بعل وعند عودته من الطقوس الصباحية في الهيكل يمنح المندوب التعب القلق مقابلة وهو « جالس في غرفته العليا مسنداً ظهره الى نافذة بينما امواج البحر السوري العظيم تتلاطم على الصخور تحته . ويعلم الحاكم اثناء المقابلة : « اما انا فاني لست بجادمك ولا بجادم الذي ارسلك . واذا ناديت جبال لبنان فان السماوات تنفتح وتأتي الاخشاب هنا على ساحل البحر » . ويعترف بعل بتفوق مصر الحضاري ولكنه يكره فكرة السيادة على منطقته . واخيراً يسمح بعل بالتخلي عن الاخشاب بعد تسلم مبلغ اكبر من المال .

وعلى ذلك فان سورية السني كانت محكم كقطاعة مصرية على الحدود منذ نهاية عصر الهكسوس في اوائل القرن السادس عشر قد اصبحت خارجة عن الامبراطورية في خلال القرن الثاني عشر . وفي هذه المدة كان الحيثيون قد وطدوا اقدمهم في القسم الشمالي للبلاد بينما الآراميون اصبحوا في سورية الداخلية والعبرائيون في سورية الجنوبية والفلسطينيون على الساحل الجنوبي .

١) Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 569.

٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 577.

وحتى عندما كانت سورية ضمن الامبراطورية المصرية فان الادارة الامبراطورية كانت تهدف بوجه الاجمال الى المحافظة على النظام والسيطرة على الطرق الرئيسية وطلب الجزية . وكانت تبلغ المهدفين الاولين بواسطة الحاميات بينما المهدف الثالث كانت تحمقه على يد عدد من الموظفين المقيمين . وكان المقيسون المصريون في المدن الهامة يعينون مفتشين متجولين ليقوموا بجولات التفتيش . وكان الممثل الرئيسي لفرعون في جنوبي سورية يقيم في غزة . وكان يتبعه المفتشون المختصون بجمع الضرائب والحكام المحليون المكلفون بشؤون الحاميات في بعض المدن . واما تفاصيل الادارة الداخلية فانها كانت بيد زعماء وطنيين يسيطرون على قواتهم المسلحة .

التأثير السوري في مصر

وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً فان هنالك دلائل تستلقت النظر بصورة اوسع عن التأثير السوري في مصر . ويتضح التأثير السوري في اقدس قصة مصرية وهي قصة آلام اوزيريس الذي قطع جسده ارباً ووضع تحت شجرة الأثل في جيبيل^١ . ويظن البعض ان الجثة المشوهة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة اوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً^٢ . وقد ادخل الاله حورون Hawron وهو الاله الرئيسي في بينة^٣ الى معابد مصر في ايام امنحوتب الثاني (حوالي ١٤٥٠ - ١٤٢٠) ويظهر في اسم حورحجب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق.م) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم احد ابناء رعسيس الثاني كان ميرى استروت (Meri-Astrot) اي محبوب عشتاروت . وكان يوجد في نوكراتس التي ربما كانت مستعمرة فينيقية معبد لافروديت - عشتاروت في عام ٦٨٨ ق.م .

(١) انظر : Plutarch, *De Iside et Osiride*, § 15. ونبات التamarisk هو بالعربية اشل وبالعربية اثل وفي المصرية أسر 'asr' وكانت هذه الشجرة تتصل باله الاموات . وكانت الشجرة التي دفن تحتها شاول وابناؤه (صموئيل الاول ٢١ : ٣٣) هي شجرة الأثل .

(٢) Garstang, *Heritage*, p. 61.

(٣) سفر اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٦ وتقع بينة على بعد تسعة اميال شمالي أسدود . وكان حورون يعتبر مساوياً للاله ايل على ما يظن .

وهيراكلس الذي كرس له هيكل في كانوبس Kanopus^١ - وهي ايضاً مستعمرة فينيقية على ما يعتقد - كان بدون شك الاله الفينيقي ملقارت .

وكان الاقبال على الفتيات السوريات في مصر اكبر من الاقبال على الفتيات المصريات في سورية . وقد دخل منهن عدد كبير الى مصر بشكل رهائن واماء او زوجات عندما كانت الامبراطورية في ذروتها حتى ان تغييراً ملحوظاً حصل في سحنة افراد الطبقة العليا . وكان بين حريم الملوك والارستوقراطيين اميرات ميثانيات وحشيات وفينقيات في كثير من الاحيان . وهناك تباين واضح بين ملامح نحوتمس الرابع الدقيقة وانفه الاقنى وبين النموذج الذي تمثله سحنة نحوتمس الاول بفكه الكثيف وانفه القصير . واتت مع الزوجات الاجنبيات افكار اجنبية بين دينية وغير دينية . وقطع اخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الاولى تدل على الاستيراد من سورية منذ ذلك العهد البعيد . وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديدية وغناها . وكان الصناع السوريون ينتجون اسلحة ثينة مزخرفة وثياباً مزركشة واواني انيقة واثناً ومركبات مرصعة بالذهب والفضة . واستعار المزينون السوريون من مصر نبات اللوتس (عرائس النيل) والبابيروس (البردي) وشوكة اليهود (acanthus) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الآراولة (الكرسنيم) والسوسن والحتمي نباتات زخرفية . وهم الذين كانوا ايضاً اول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في اوان معدنية^٢ . ولاجل نقل صمغ الصنوبر والصمغ العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في اسفلها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبيل . ووجدت اوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب اسلوب سورية الشمالية كمستوردات في قبور الفراعنة الاولين في ابيدوس . ووصل فن الدهان ذي البريق المعدني الى كريت المينوسية من سورية الشمالية^٣ . وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذه المنتجات الفنية التي اتت بها حوادث الحرب او عمليات التجارة والسياحة واخذوا يقلدونها . وفي

(١) راجع : Herodotus Bk. II, ch. 113.

(٢) Pierre Montet ; *Les reliques de l'art syrien dans l'Egypte du nouvel empire* (٢ (Paris, 1937) p. 179.

(٣) Childe, *New Light*. pp. 258-9.

حركة البعث في فترة سايي في القرون السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد اصالته في القرن التالي وكشفه الفن اليوناني.

ظهر العمود لأول مرة في مصر بعد فتوحات تحتمس الثالث . والاهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها . وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة . وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي اصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة .

ولم تكن القرون الاربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما ان اربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية تركية . ولم يتأثر السكان الوطنيون الا قليلاً بالفكر واللغة المصريين . وبقيت بضع كلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية او القبطية^١ . وفي العصور الفينيقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلين جداً من المصريين هاجروا الى سورية . وكان معظم العلاقات التجارية بيد الفينيقين . ويبدو ان اقليم مصر كان لا يسمح لسكانها بالعيش في بلاد اخرى خاصة حيث الامطار وموجات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة . وقد قال المثل الشائع ان من اعتاد على شرب ماء النيل يجب ان يشرب منه دائماً .

العلاقات مع بلاد الرافدين : سومر

دامت فترة السيطرة المصرية السياسية على سورية مدة اطول من فترة سيطرة بلاد الرافدين^٢ غير ان تأثير بلاد الرافدين الحضاري كان اعظم بكثير من تأثير

١) منها كلمة «ابنوس» اتت بطريق اليونانية ومنها كلمة ebony الانكليزية . وكلمة «واحة» بطريق القبطية ، وكلمة «نخس» بطريق القبطية واصلاً كلمة تعني نوي او اسود ومنها أتت الكلمة العبرية فنطس؛ وكلمة «طوب» بطريق القبطية وهذه الكلمة تشكلت منها كلمة adobe الانكليزية بطريق الاسبانية . وقد اخترع المصريون اسلوبهم الخاص في صنع الآجر ولم يختلف هذا الاسلوب منذ ذلك الحين .

٢) ان تسمير ميزوبوتاميا او ما بين النهرين يجب ان يطلق على المنطقة الشمالية بين الفرات والنجلة ويقابل الولاية الرومانية المروفة بهذا الاسم والمروف في العربية بسم الجزيرة . وقد سمى العرب القسم الجنوبي او بلاد بابل «السراق» . غير ان تسمير ميزوبوتاميا يطلق بصورة عامة على البلاد كلها .

مصر . وكان السوربون اقرب الى الاشوريين البابليين منهم الى المصريين من وجهة عرقية ولغوية وجغرافية .

كان السومريون وهم الشعب غير السامي الذي ابداع حضارة وادي الفرات يمثلون طيلة الالف الثالث ق. م. ام جماعة حضارية في غربي آسيا كلها . واصبحت الكتابة المسمارية التي اخترعوها والافكار الدينية والروحية التي طوروها والآداب التي انشأوها جزءاً من تراث سورية بما فيها اسرائيل وذلك بواسطة خلفائهم البابليين والاشوريين . وصارت اللغة البابلية برموزها المسمارية الوسيلة الدولية للمراسلات الدبلوماسية والتجارية في كل غربي آسيا ودخلت قصص بلاد الرافدين المتعلقة بأنهم ومنها قصة الخليقة والطوفان في الادب اليهودي المسيحي في سورية . وتحولت هذه القصص على يد كتّاب العهد القديم الى قطع ادبية تعتبر من اجل الروائع الادبية التي عرفها الانسان . واستعارت سورية عدداً كبيراً من الكلمات الاكادية بالاضافة الى الكلمات السومرية اثناء هذه الفترة^٢ .

كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضي الداخلية التي تقع فيما وراء سورية . ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجاري تمر فيه معادن كيليكية الحام الى امبراطورية بلاد النهرين . وكانت كميات الفضة والذهب التي وجدت في قبور اور الملكية (حوالي ٢٧٠٠ ق. م.) تمر غالباً بهذه الطريق . وكان غوديا Gudea (حوالي ٢٣٥٠) امير لاغاش Lagash السومري يحصل على الارز من الامانوس بالاضافة الى الذهب من كيليكية . وتجار بلاد ما بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا

(١) وهي لغة بابل واشور السامية الشرقية وسميت كذلك باسم اكد Agade شمالي مدينة بابل ووردت في سفر التكوين ١٠ : ١٠ .

(٢) ومن هذه الكلمات hēkallu (هيكل) التي اتت مباشرة من السومرية (e-gal بمعنى البيت الكبير) الى الكنعانية ؛ و kissa'u اي كرسي اتت من السومرية بطريق الاكادية . وتوجد اسماء متعددة لنباتات والمعادن من اصل اشوري بابلي ادخلت بطريق الفينيقية واليونانية الى اللغات الاجنبية مثل carob (الخروب) cassia (القثاء الهندي) ، chicory (الهندباء) ، crocus (الكرم) ، gypsum (الجص) ، hyssop (حشيشة الزوفاء) ، jasper (اليشب) ، mandrake (تفاح الجن) ، naphtha (الغسل) ، nard (الناردين) ، saffron (الزعفران) ، sesame (السسم) . وكلمة «تجار» العربية اتت من naggāru السومرية الاكادية ، وكلمة «لوح» اتت من lu'u الاكادية .

الحطب المرغوب قد اكتشفوا المرتفعات المكسوة بالغابات في جبال سورية الشمالية حتى قبل ذلك العهد .

بابل

ويشك علماء كثيرون اليوم في ان تكون سورية الشمالية قد خضعت للحكم البابلي في اية فترة من النصف الثاني للالف الثالث . وسرجون الاول (حوالي ٢٢٥٠ ق. م.) وهو اول شخصية عظيمة في التاريخ السامي قد « غسل اسلحته في البحرا » كما جاء في احد النصوص وادعى السيطرة على جبال الارز ولكن تلك الجبال في هذه الحالة كانت الامانوس وليس جبال لبنان . واصلته غزوته الى شمالي سورية . وربما كان خلفه الرابع نارام سين (حوالي ٢١٧٠) يعني جبال الامانوس او الجبال الواقعة شرقي بلاد اشور^٢ عندما ادعى الحكم على البلاد « حتى غابسة الارز » . ولم يسفر الضغط السياسي والعسكري الآتي من المناطق الشرقية عن نتيجة حاسمة الا عندما انهارت الدولة الحثية وظهرت قوة الدولة الاشورية . حينئذ اصبح من مبادئ سياسة حكام بلاد الرافدين ان يتوسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية .

اشور

قامت اشور بمحاولتها الاولى السابقة لاوانها لاجل الظهور كدولة عظمى في عهد تغلات فلاسر الاول الذي غزا سورية في ١٠٩٤ واعلن نفسه فاتح آمورو بكاملها . وبعد ان اجتاز جبال طورس الى بلاد الحثيين ادعى الحصول على ولاء جبيل وارواد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كورث الحثيين في سيطرتهم على سورية . وربما كانت جبيل لا تزال تحت حكم زكر بلع . وقطع الفاتح اخشاب الارز وارسلها الى بلاده لاجل هيككل آلمته . وفي سميرار كعب « بحر آمورو العظيم » الى البر وقتل بطريقه « حصان البحر » او درفيلاً^٣ . وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور البري في جبال لبنان .

(١) Poebel, *Historical Texts*, pp. 175, 181.

(٢) Gelb, *Hurrians and Subarians*, pp. 35-37.

(٣) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 302.

واستولى الغزاة الآراميون على ممتلكات تغلات فلاسر عبر الفرات بعد مدة وجيزة وكان على احد خلفائه اشور ناصربال (٨٨٤ - ٨٥٩) ان يسترجعها. واتبع اشور ناصربال الطريق نفسها التي اتبعها اسلافه وزحف نحو سورية الشمالية ولكنه اتجه بعد ذلك الى الجنوب وعبر العاصي ودخل لبنان ونزل الى البحر بدون مقاومة. وهنا تلقى خضوع المدن الفينيقية وتبين فيما بعد ان ذلك الخضوع كان مؤقتاً. وكان ذلك اول غزو كامل لسورية من جهة بلاد الرافدين. ويقابل هذا الغزو ما تم على يد نحوتمس الثالث المصري قبل ستة قرون. ويعود الى اشور ناصربال وابنه ووريثه شلناصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤) ذلك التنظيم العسكري الذي جعل من بلاد اشور سيده آسيا الغربية.

اصطدم شلناصر في معركة قرقر في وادي العاصي عام ٨٥٣ بتحالف دول سورية وعلى رأسها ملك دمشق الآرامي ومن افرادها آخاب ملك اسرائيل ويمثلون عن صور وسائر دول المدن الفينيقية. وقد تم له تحطيم قوتها. ولكن يستدل على ان النصر لم يكن حاسماً كما ادعى في كتاباته الاثرية من انه اعاد الكرة عدة مرات بقصد اخضاع سورية وفلسطين. ولم يحصل على خضوع المدن الفينيقية الا في عام ٨٤٢. ويذكر في حولياته انباء انتصاره في هذه الكلمات:

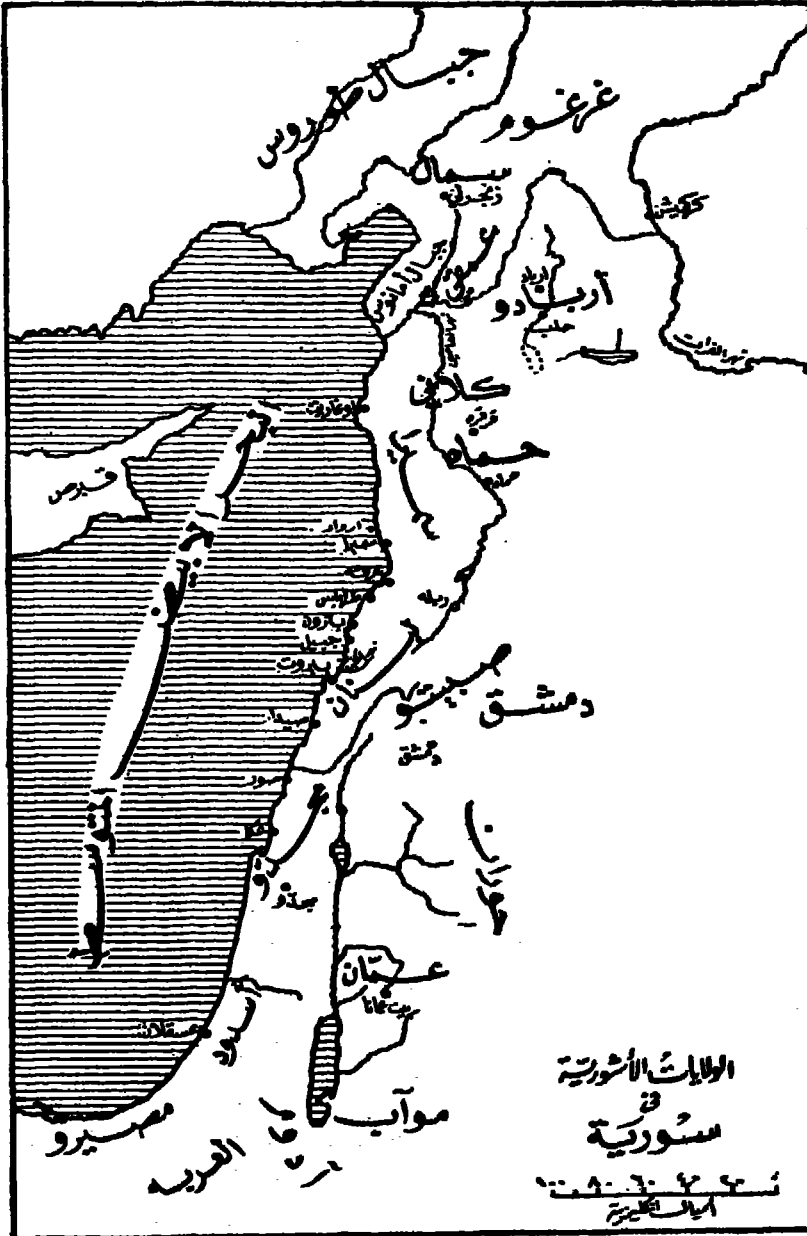
في السنة الثامنة عشرة للملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة. وكان حزائيل ملك آرام يتنق بجيوشه... ولكنني حققت سقوطه... وزحفت الى بعلي رأسي وهو رأس في البحر واقتت صورتي هناك. وفي ذلك الحين تلتقت الجزية من رجال صور وصيدا ومن ياهو ابن عمري (١).

تلاشت الامبراطورية التي اقامها شلناصر وابوه على حساب الدول السورية وغيرها ثم اعاد تأسيسها بعد قرن تغلات فلاسر الثالث^٢ ووريثه. وقد اقام تغلات فلاسر معسكره الرئيسي بين ٧٤٣ و ٧٤١ في أرباد^٣ Arpad ومن هناك ارسل حملات لاعادة فتح سورية او قام بقيادتها بنفسه. واجتاح ابنه شلناصر الخامس

(١) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 672. ويرجح ان يكون الرأس المشار اليه رأس الكرميل ولكن هذا الملك ترك دليلاً عن زيارته ايضاً عند نهر الكلب.

(٢) وهو المذكور باسم Pul في سفر الملوك الثاني ١٥ : ١٩؛ قارن ذلك مع ١٦ : ٧.

(٣) وقد ذكرت في النقوش الاشورية باسم Arpadu. وورد ذكرها في اشعيا ١٠ : ٩؛ ٣٦ : ١٩؛ ارميا ٤٩ : ٢٣. وهي تل ارفاد الحديثة على بعد ١٣ ميلاً شمالي حلب.



فينيقية ومدنها حسب الحوليات السورية التي ذكرها يوسفوس^١. وكانت صيدا وعكا وصور التي في البر ترغب في تحرير نفسها من السيطرة المألوية لصور التي في الجزيرة وزعامتها فاعترفت بالفاتح وسيادته واعطته اسطولاً مؤلفاً من ستين سفينة يعمل فيها نحو ثمانمائة مجذف فينيقي. وقد تفرق اسطول شلنصر في معركة مع سكان الجزيرة ولكن عدداً كافياً من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل. وكانت الآبار الموجودة داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية لحاجات السكان واخيراً انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في ٧٢٢ بماهدة تحفظ لصور كرامتها. وسنوي قصة حصار السامرة الذي بدأ في ٧٢٤ وتسليمها خلفه سرجون الثاني في ٧٢٢ عند الكلام عن مملكة اسرائيل^٢.

جاء الملك ايلو ايلي (لوي Luli بمعنى «الهي هو الاله») وهو ملك صور الميال الى مصر الذي دافع عن مدينته ضد الاشوريين وظهر كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد سرجون الثاني. ويبدو انه فرض سلطته على قسم كبير من فينيقية حتى انه حاول اخضاع قبرص. ولكن سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) ابن سرجون ووريثه طرد ايلو ايلي اخيراً عبر البحر الى قبرص ووضع مكانه الملك ايتبعل^٣ ملك صيدا الميال لآشور. واحرق الفاتح الاشوري في اول الامر بيت ايلو ايلي الصيفي في لبنان وداس كرمه. وتسلفت جيوشه المنحدرات المرتفعة واستعانوا بالرماح والنبابيت وبالاستراحة تحت الارض حتى وصلوا الى قلعة على القمة المكلفة بالثلج واقتيد حراسها مكبلين الى سنحاريب. ولا تزال ذكريات سنحاريب الذي «نزل كما ينزل الذئب الى الحظيرة» ماثلة حتى اليوم عند نهر الكلب حيث نقش على الصخور نقشاً يمكن مشاهدته. وتمكن سنحاريب من القيام بمغامراته في الخليج الفارسي بفضل بنائي السفن والملاحين الذين اخذهم من فينيقية.

وقامت صيدا التي خضعت لسنحاريب في ٧٠١ ضد ابنه اسرحدون في ٦٧٧ ولكنه هدمها وطرح سورها في الماء. وهرب ملكها عبد ملقارت الى عرض البحر

(١) *Antiquities* Bk ix. ch. 14, § 2.

(٢) انظر ما سيرد في الفصل الرابع عشر.

(٣) اينبيل بالفينيقية ايتوبيل itto-ba'al بمعنى «بل ميه». انظر Luckenbill, vol. ii § 309.

نحت بارز الاسرحيون (الى اليسار) بجانب نحت جيل وشميس الثاني عند نهر الكلب



ولكنهم اصطادوه وقطعوا رأسه. وبني حصن اشوري يسمى كار اسرحدون بجانب موقع صيدا بقصد القاء الرعب فيها. وسلم ياكين ايل ملك ارواد مدينته ومعها ابنته. وخضعت مدن فينيقية اخرى تحت زعامة بعل ملك صور لاسرحدون. ووقعت معاهدة بين بعل واسرحدون ولكن ملك صور مزقها حالما شعر بان الوقت اصبح مناسباً لنزع الثير الاجنبي. وهنالك نصب يقوم قرب نصب رعسيس عند نهر الكلب يمثل اسرحدون واقفاً بجبال قرب كتابة اثرية تروي خبر الاستيلاء على ممفيس (في مصر) وعسقلان وصور^١. وفي نصب آخر في زنجولي (شمال القديمة) غربي عينتاب في شمالي سورية يقف اسرحدون ممسكاً بجبل ربط به بعل ملك صور وترحاقا ملك مصر من الانف^٢. والواقع هو ان ترحاقا لم يقع قط في الاسر وهذا النصب كان يقصد منه الدعاية على الاغلب. وفي عهد اسرحدون وخلفه اشوربنيبال (٦٦٨ - ٦٢٦) فتحت مصر ووصلت الامبراطورية الاشورية وعاصمتها نينوى الى اقصى حدودها.

السيادة الكلدانية

ادعى الكلدانيون اصحاب دولة بابل الجديدة السيطرة على سورية كورثة الامبراطورية الاشورية. غير ان المدن الفينيقية لم تكن اقل تمرداً في عهد اسيادها الجدد منها في عهد الاسياد القداماء. وكانت مصر في هذه الاثناء قد تخلصت من الحكم الاشوري وبدأت تتنازع من جديد مع بلاد الرافدين على السيادة على سورية. وكانت المدن الفينيقية بوجه الاجمال اكثر ميلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية.

في عام ٥٨٧ ظهر نبوخذنصر بنفسه في شمالي سورية واقام معسكره في ربة^٣ في وادي العاصي ومن هناك ارسل قسماً من جيشه الى الجنوب للتغلب على المدن

(١) ان هذا النصب هو الوحيد بين النصب الستة الاشورية عند نهر الكلب الذي يمكن قراءة كتابته. انظر: Luckenbill, vol. ii, § 582-585; Weissbach, pp. 27-30, pls. xi, xii. René Mouterde, *Le Nahr el-Kelb* (Beirut, 1932), p. 18, pl. vi.

(٢) A. T. Olmstead, *History of Assyria* (New York), 1923, p. 384; cf. Hall, *Ancient History*, p. 499.

(٣) وتمثلها قرية بنفس الاسم تقع على ٢١ ميلاً جنوبي حمص.

الفينيقية وفتح بلاد اليهودية نهائياً. وبعد حصار دام ثلاث عشرة سنة انتهى في ٥٧٢ خضعت صور^١. وحارب اثناء ذلك ضد سورية المجوفة ومؤاب وعمون وسائر مناطق البلاد^٢. وانتهت بالاستيلاء على صور آخر محاولات الحياة القومية في فينيقية. وكانت المستعمرات اليونانية في هذه الفترة قد حلت محل المستعمرات الفينيقية وورثت نشاطها البحري ونشاط المدن الفينيقية الاصلية. وبذلك انتهى العالم الفينيقي الذي اشتهر بنشاطه وعلمه وحيويته، ولكن الشعب الفينيقي حافظ على شخصيته حتى فتوحات الاسكندر ولم يكن الآراميون الذين اتوا حديثاً ولا الاسرائيليون والفلسطينيون ليحدثوا تأثيراً كبيراً على هذه الشخصية.

التأثير الحضاري

اكتسب السوريون من الحضارة الاشورية البابلية عناصر كثيرة جداً من مادة ودينية ولغوية ونقلوها اخيراً بطريق اليونان الى سكان غربي اوربا. وقد اشرنا سابقاً الى المحراث الذي اخترعه سكان بلاد الرافدين وانتشر في بلاد الشرق الادنى^٣. وادى استخدام المحراث الى انتاج نسي اكبر في قطع الاراضي المزروعة وذلك يجعل استعمال القوة الحيوانية في الزراعة ممكناً. وكان الدولار من الحسنات الاخرى التي منحها سكان بلاد الرافدين للشرق الادنى. وكان ظهور الدولار مساعداً على انشاء نظام متقن للسفر والنقل. ولا يزال تقسيم اولئك السكان للزمن الى سنة مؤلفة من اثني عشر شهراً والى اسبوع مؤلف من سبعة ايام باقياً حتى اليوم. واول يوم في الاسبوع يسمى Sunday بالانكليزية لانهم كانوا يكرسونه لعبادة اله الشمس. واليوم الثاني (Monday) سمي كذلك بسبب تكريسه للاله القمر. ويوم السبت (Saturday) اكتسب اسمه من Saturn (زحل). وتاريخ الاحتفال بعيد الفصح لا يزال متصلاً بالتقويم القمري لهؤلاء الاقدمين. ونقل السوريون الى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظل والساعات الشمسية لقياس مرور

(١) انظر: سفر حزقيال ٢٩ : ١٨ ؛ 1 § 11, ch. x, *Antiquities* Josephus, do., *Apion* Bk. I, ch. 19.

(٢) راجع: 7 § 9, ch. x, *Antiquities* Josephus, وهناك نصبان عند نهر الكلب يصنان نشاطه الحربي والعمراني. انظر: Weissbach, p. 33.

(٣) ان الكلمة المصرية التي تقابل «محراث» هي *epi* وهي الكلمة السومرية - الاكادية *hebi*.

الساعات ، ونظاماً للتنبؤ عن الحسوف والكسوف . وعلامات الابراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً نفس العلامات الاشورية . وكثير من انظمة الموازين والمقاييس قد اتى من البابليين بواسطة السوريين ، وهناك شاهد لغوي لا يزال باقياً في كلمة « mina » .

المكسوس

كان التغفلل المصري القديم في سورية قد توقف في مطلع القرن الثامن عشر بظهور مجموعة من الشعوب الغامضة الميالة الى الحرب والمعروفة باسم المكسوس الذين سيطروا على سورية اولاً ثم على مصر نفسها . ويرجع هذا الاسم الى المصرية heku shoswet^١ ومعناها «حكام البلاد الاجنبية» ولكن المؤرخ المصري في العصر المتأخر مانيثو Manetho وهو اول من استعمل هذا الاسم اعتبر ان معناه «الملوك الراجعة»^٢ . وبعد ان كان هذا اللقب يطلق على الملوك المكسوس انتقل فيما بعد الى الشعب بكامله . كان المكسوس بالاصل حشداً او مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفها منطقة شرقي البحر المتوسط الى مصر ثم اصبحوا يمثلون حركة تضم عدا عن الساميين ، الحوريين والحثيين والميتانيين وهم من غير الساميين . كذلك كان جماعة الحاييرو بينهم . وربما كان لهذه الحركة صلات بحركة المنود - الايرانيين او المنود الاوربيين في الشمال ومن ضمنهم الكاشيون في بلاد الرافدين . ويمكن الاستدلال على ان العنصر الرئيسي كان كنعانياً او امورياً من اسماء حكامهم الاولين كما تظهر على الابنية او تماثيل الجعلان . هذه الحركة هي التي كانت سبباً في قدوم عدد كبير من الحثيين والحوريين وربما من اليبوسيين Jebusites والفرزيين Perizzites وغيرهم من غير الساميين جنوباً حتى فلسطين . والادلة القليلة المتعلقة بهياكلهم العظمية تشير الى ان نموذج البحر المتوسط القديم قد حل محله جزئياً في هذه الفترة نموذج شبيه بالالبي^٣ .

ويشهد على اتصال المكسوس بالحضارة الهندية الاوربية في الشمال استخدامهم

Steindorff and Seele, p. 24; cf. Robert M. Engberg, *The Hyksos Reconsidered* (Chicago, 1939) pp. 6-7. (١)

Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 14. (٢)

Engberg, p. 41. (٣)

للحصان وهو شيء ربما شارك فيه الكاشيون . والى جانب الحصان الذي ادخلوه الى سورية ومنها الى مصر فقد اتى المكسوس بالركبة الى كلا البلدين^١ ولم يستخدم الحصان للركوب . وكانت المركبة التي تجرها الخيل من ادوات الحرب ، ولا بد ان ظهورها ترك نفس التأثير الذي تركته الدبابة او الغازات السامة او اي « سلاح سري » آخر في الحرب العالمية الاولى . والحصان نفسه القى الرعب في قلوب السكان لانهم لم يشاهدوه من قبل . فلا عجب اذا اهمم المكسوس بدفنه في قبر خاص او مع صاحبه كما تدل البقايا في تل العجول او غزة القديمة . وفي بعض الحالات كان يقدم الحصان كذبيحة ويؤكل لحمه^٢ .

وبين الاسلحة الجديدة الاخرى التي ظهرت اتى المكسوس بالسيف الحديدي المنحني والقوس المركب الذي كان قد ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في عهد سلالة اكادية في القرن الثاني والعشرين . وكان تفوق المكسوس في السلاح يرتكز فوق ذلك على استعمالهم البرونز الذي كانت تمر تجارته في شمالي سورية . وبلغت صناعة المعادن في عهدهم ذرى جديدة في سورية ومصر . وتقدمت صناعة الحلي والحزف والعاج والنقش تقدماً بارزاً . وكان الحفر في العظم معروفاً في سورية منذ العصر الحجري ولكن صناعة التنزيل ادخلت غالباً في هذا العصر^٣ وكانت الاشياء المنزلة في اول الامر ذات رسوم بسيطة من خطوط ودوائر . ولا تزال صناعة التنزيل التي تقوم على ادخال قطع من العظم او العاج بقصد الزخرفة في الصناديق الحشبية او قطع الاثاث صناعة فنية مزدهرة في دمشق . وتظهر افكار جديدة في صنع الحزف في عهد المكسوس . وبلغت صناعة الحزف وهي من اكثر الصناعات نجاحاً في فلسطين ذروتها قبل نهاية هذه الفترة .

وانشأ المكسوس نموذجاً خاصاً من المدينة المحصنة لاجل ايجاد تسهيلات لحماية مركباتهم وايوائها لان الحصن الكنعاني الاعتيادي لم يكن بإمكانه تأمين ذلك . وكان هذا النموذج الجديد عبارة عن سياج مستطيل طوله نحو نصف ميل تحيط به

(١) والكلمة المصرية المستخدمة لاجل مركبة هي كلمة « مركبة » السامية .

(٢) Petrie, *Ancient Gaza*, vol. i, p. 4, pls. viii, ix, lvii; vol. ii, pp. 5, 14; vol. iv, p. 16.

Burrows, p. 190. (٣)

اسوار مرتفعة وكثيفة ومنحدرة من الطين المرصوص القاسي . ولزيادة الحرص كانوا كثيراً ما يحفرون خندقاً حوله . وفي سورية تمثل قطنة Qatna وهي على الغالب عاصمتهم فن العمارة عند المكسوس . وفي قادش أثر لهذا النوع . وفي كركميش يظهر الموقع اعمال التحصين ولكن المخطط ليس مستطيلاً . وفي فلسطين تظهر مواقع هازورا^١ وحصن شكيم^٢ مخطط المكسوس المستطيل . وكانت لاكيش وشاروحن ايضاً من مدن المكسوس . واريحا كانت من حصون المكسوس من حوالي ١٧٥٠ حتى ١٦٠٠^٣ . وكانت بيت شمس تحت ادارة المكسوس في هذه الفترة^٤ .

وفرض المكسوس في سورية وفلسطين طبقة اقطاعية حاكمة على السكان المحليين . وكان مجتمعهم منظماً تنظيمياً ضعيفاً في دولة اقطاعية نوعاً تتمركز فيها الثروة في ارستوقراطية مؤلفة من محاربي المركبات بصورة خاصة . وكان النظام تسيطر عليه الصفة العسكرية . وحضارتهم في سورية تشمل القرنين الثامن عشر والسابع عشر .

المكسوس في مصر

وتسلل المكسوس بصورة تدريجية الى مصر حيث ظهر اثرهم منذ ١٩٠٠ ق.م . في اواسط السلالة الثانية عشرة ولكنهم لم يستولوا على السلطة الا في ١٧٣٠ . ويقول المؤرخ ماتيتو في روايته لهذا الحادث :

لقد تركت علينا لفحة من غضب الله . فقد تجرأ شعب وضع الاصل من الشرق لم يتبأ احد عن قدمه على غزو بلادنا فسيطروا عليها بالقوة وبدون صعوبة حتى ولا مفركة . وبعد ان تغلبوا على حكامنا فاتهم احرقوا المدن بوحشية وخرّبوا هياكل الآلهة وعاملوا السكان كلهم بمنتهى القسوة .

(١) ومعناها « جدار او سياج » وهي اليوم تل القدح شمالي بحيرة طبرية .

(٢) وهي اليوم « البلاطة » خارج نابلس الحديثة .

(٣) Garstang and Garstang, *Story of Jericho*, p. 1.

(٤) Elihu Grant, *Rumeileh: Being Ain Shems Excavations*, pt. 3 (Haverford) (1934), p. 11.

القدس على طريق يافا - الخليل . وقرب عين شمس يقوم تل الرملة وهو موقع بيت شمس القديمة .

(٥) Josephus, *Apion* Bk. i, ch. 14.

ويتضح ان دخول المكسوس الى مصر لم يكن شراً مطلقاً فقد ادخلوا الحصان واشياء اخرى تظهر لأول مرة على الآثار المصرية. واقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع الى عصر المكسوس في مصر في القرن السابع عشر^١. واعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية وضعت في ١٥٨٠ تحت حكم المكسوس^٢. وجعل المكسوس المههم بعل معادلاً للاله المصري سيت ونقلوا عبادته الى فراعنة السلالات التالية وخاصة الرعامسة الذين قد يرجع اصلهم الى المكسوس^٣ كذلك ادخلوا بين سائر الآلهة اجت بعل ورفيقتة عنات وجعلوا عشتاروت معادلة لايزيس. ويعتقد ان سكنى اسرائيل في مصر وتدرج يوسف الى السلطة من الحوادث التي تمت في فترة المكسوس.

افاريس

كانت عاصمة المكسوس في مصر مدينة افاريس Avaris^٤ في الدلتا ومنها بسطوا حكمهم في مصر الوسطى. وقد حكمت اول سلسلة من الملوك السوريين هناك قبل السلالة الحامسة عشرة وكانت اسماؤهم كنعانية او امورية واضحة مثل عنات هار ويعقوب هار (بمعنى: ليحيى هار اله الجبل). ويعقوب هذا هو حتماً يعقوب المعروف في التوراة. وكان ملوك السلالة الحامسة عشرة والسادسة عشرة من المكسوس واعظمهم سلطة في السلالة الحامسة عشرة هو خيان الذي نجح كما يبدو في توحيد سورية ومصر في امبراطورية واسعة لمدة قصيرة على الاقل. وآثاره مبعثرة بين بلاد بابل حيث وجد اسد يحمل اسمه وكريت حيث يظهر اسمه على غطاء من الالباستر. وتشبه ذلك في كثرتها آثار ملك آخر من هذه السلالة وهو آبوفيس^٥

James H. Breasted, *The Edwin Smith Surgical Papyrus*, 2 vols. (Chicago, (١ 1930).

T. Eric Peet, *The Rhind Mathematical Papyrus* (London {1923}). (٢

Albright, *From Stone Age*, p. 169 (٣

(٤) ان مدينة افاريس وهي مدينة العنابر التي بناها الاسرائيليون لرعمسيس الثاني وتسمت باسمه (سفر الخروج ١ : ١١) ، وتاليس Tanis في مصر الكلاسيكي ، وتيس التي ذكرها العرب في العصور الوسطى ، وصوعن Zaan المذكورة في التوراة (عدد ١٣ : ٢٢) كلها اشكال مختلفة لنفس المدينة . وموقع المدينة اليوم هو «صان الحجر» الذي يذكرنا باسمها العبري (صوعن) .

Apophis الاول . ويبدو ان المكسوس كانوا في هذا العهد قد اقتبسوا اللقبة المصرية واستعملوا معها الاسماء المصرية.

وبعد قرن ونصف من حكم المكسوس البفيض (حوالي ١٧٣٠ - ١٥٨٠) بدأت حرب التحرير بصورة جدية عن يد امير من طيبة اسمه احموس Ahmose الاول مؤسس السلالة الثامنة عشرة الذي بعد مهاجمات متكررة كسب معركة افاريس الحاسمة وطرد الاجانب من البلاد. وانسحبت قواتهم المسلحة الى سورية حيث كانوا على رأس اتحاد من الامراء الساميين. ولم يدخر احموس وقتاً في ملاحظتهم. واول مكان وقفوا فيه وقفة صامدة كان في معقلهم الجنوبي في شاروحن Sharuhen^١. وكانت مقاومتهم عنيدة حتى ان الحصار دام ثلاث سنوات^٢. وقد بدأ مجملات احموس وخلفائه في سورية اتجاه جديد في سياسة مصر الخارجية استمر في السنين التالية. وكان تحوتس الثالث (م ١٤٤٧) هو الذي سدد الضربات القاضية لسلطة المكسوس في سورية. وعمل المصريون ما في وسعهم للقضاء على آثار اعدائهم ولهذا السبب بقيت معلوماتنا عن المكسوس ناقصة لهذا الحد.

الخوريون

وكانت من الجماعات التي تألف منها خليط المكسوس جماعة الخوريين وهم شعب لاسامي ولا هندي اوربي ولا يزال اصله مجهولاً. وكانت حضارتهم من اكثر العناصر حيوية في اواخر عصر المكسوس والفترات التالية مباشرة. وقد اتى الخوريون من المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحيرة اورمية وجبال زاغروس، وفي اواخر القرن الثامن عشر غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكنوها ومنها اتجهوا الى سورية الشمالية حيث اسسوا احدى الممالك القوية في الشرق الادنى. وكان الاموريون قبل ذلك قد سكنوا ذلك القسم من سورية. وقد يكون ظهور الخوريين في بلاد الهلال الخصيب متصلاً بالحركة العامة التي انت بالهنود الايرانيين الى فارس والهند والتي فرضت نزول الكاشيين من زاغروس الى بلاد بابل.

(١) وقد اقترح ان يكون موقعها تل الفرعة في وادي غزة شمال غربي بحر السبع.

(٢) Breasted, *Records*, vol. ii, § 13; and *A History of Egypt* (New York, 1905) p. 227 وتقول هذه المراجع ان مدة الحصار كانت ست سنوات مما يجعله اطول من اي حصار قبله في التاريخ.

مملكة ميتاني

وقد نجح الحوريون حوالي ١٥٠٠ ق.م. في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها ان امتد حكمها من البحر المتوسط الى مرتفعات ميديا وتضم بلاد اشور. وكانت عاصمتها واشوكاني ويظن ان موقعها هو الفخارية على الحابور شرقي تل حلف وحران. وكان مركزها الرئيسي في بلاد الرافدين أربنجا Arrapkha (كر كوك الحديثة) وقد جرت الحفريات حديثاً في ضاحيتها نوزي^١. وكان يعرف المصريون ميتاني باسم نهارين. ويبدو ان نفس البلاد التي تشير اليها الواح تل الهارثة باسم سوبارتو او «بلاد السوباريين». والسوباريون وهم شعب آخر غير سامي كانوا غالباً بين سكان البلاد قبل وصول الحوريين^٢. وكان الحوريون في ميتاني يشكلون اكثرية السكان ولكن الارستوقراطية والملوك كانوا هنوداً اوربيين. وكان ملوك ميتاني في معاهداتهم مع جيرانهم يتوجهون الى ميثرا وثارونا Varuna وإنندرا وغيرها من الآلهة التي تعبد في الهند. واسماء الملوك مثل توشراتا هي اسماء هندية اوربية واضحة.

وكان توشراتا هذا اشهر الحكام الميتانيين. وقد وجدت تحارير كثيرة في تل الهارثة موجهة منه الى امنحوتب الثالث (توفي ١٣٧٥) والى امنحوتب الرابع (توفي ١٣٥٨). والتحارير مكتوبة بالاكادية وهي اللغة الدولية في ذلك العصر، غير ان تحريراً واحداً كتب بالحورية لغة الدولة الرسمية. وكانت احدى شقيقات توشراتا بين نساء امنحوتب الثالث كما ان احدى بناته تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعده امنحوتب الرابع.

ويخاطب توشراتا امنحوتب الثالث في احدى رسائله بهذه الكلمات :

الى ميموريا الملك العظيم ، ملك مصر ، اخي ،

صهري الذي يحبني والذي احبه ،

١) وبصورة اصح نوزو وهي اليوم يوزغان تبه Yorgan Tepe على عشرة اميال شرقي كركوك حيث يبدأ خط الانابيب الى حيفا وطرابلس.

٢) Gelb, pp. 1-2, 48.

هكذا يقول توشراتا الملك العظيم ، حموك ،
الذي يجيك ، ملك ميتاني ، اخوك :
انني في حالة حسنة . عسى ان تكون في حالة حسنة ! وبيتك ،
وشقيقتي وسائر نسائك واولادك ،
ومركباتك وخيولك وجيشك ،
وبلادك وجميع ممتلكاتك . ليكثر السلام عليك ١!

كانت مملكة ميتاني خلال القرن الرابع عشر في وضع قلق حيث كانت محصورة بين الدولة الحثية الناشئة في الشمال والامبراطورية المصرية الآخذة في التوسع في الجنوب. وتفيدنا الوثائق المصرية السابقة لهذا العهد ان تحوتس الاول وتحوتس الثالث وامنحوتب الثاني قاموا بحروب موفقة ضد نهارين^٢. وقد هوجم توشراتا الصديق الموالي لمصر قبل انتهاء حكمه من قبل الفاتح الحثي العظيم شوبيلوليوما الذي تابع فتوحاته اثناء حكم ماتيوازا ابن توشراتا. وقد نصت معاهدة بين شوبيلوليوما وماتيوازا على احتفاظ الفاتح الحثي بشمال سوريا على ان تكون حدودها الفرات في الشرق ولبنان في الجنوب. أما القسم الباقي من المملكة فقد اصبح تابعاً فيما بعد للملك الاشوري أدنديراري (١٣٠٤ - ١٢٧٣) ثم اصبح قسماً من الامبراطورية الاشورية المتوسعة في عهد وريشه شلمنصر الاول^٣. وهكذا زالت دولة كانت في احد العصور تشارك مصر والدولة الحثية السلطة العالمية.

اللغة الحورية

لم يتمكن العلماء بعد من تفسير رموز اللغة الحورية ولكنها كما يبدو ليست بلغة سامية ولا هندية اوربية. واقدام وثائقها هي ست الواح دينية من ماري والواح قليلة اخرى من الألتخ (Alalakh) (تل العطشانة) في سهل انطاكية. وقد بنيت

١) Bezold, No. 8 ; Mercer, No. 19.

٢) انظر ما جاء في ص ١٤١ .

٣) Gelb, pp. 76, 80-81.

المؤسسة الحورية في الألبخ على مؤسسة امورية سبقتها . وترجع هذه الألواح الى نحو اربعمائة سنة قبل المواد الحورية التي وجدت في بوغاز كوي ورأس الشجرة . واكتشفت في رأس الشجرة بعض الألواح الحورية وقاموس سومري - حوري . واستخرجت من مدينة قطنة Qatna لائحة باسماء الاعلام الحورية . والعدد الكبير من الألواح المكتشف في نوزي من القرن الخامس عشر قد كتبه باللغة الاكادية كتبه حوريون استعملوا بعض كلمات حورية هنا وهناك . وقد عرفت معاني هذه الكلمات من النص الاكادي الذي وجدت فيه . وتلقي محفوظات نوزي ضوءاً جديداً على طرق المعيشة في عهد اسلاف الشعب العبراني وان كان هذا الامر يبدو مستغرباً . من ذلك ان عقود الزواج في نوزي كانت تتطلب من الزوجة العاقر ان تزود زوجها بجارية تلد له اولاداً^١ .

بقايا الحوريين

وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سورية في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ان المصريين اخذوا يطلقون اسم خورو Khuru على بلاد كنعان . وتركت



تمثال نصفي لاجلء المكسوس وجد في غزة ويوضح شكل الوجه الحوري

حضارتهم المادية بقايا من الحزف المدهون بنادج بيضاء على ارضية قائمة وآثار نوع خاص من البناء وفن النقش على الاختام. والخوريون Horites المذكورون في العهد القديم الذين كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الاهمية لم يكونوا سوى هؤلاء الخوريين (Hurrians). وقد اتضح ان ترجمة هذا الاسم «بساكني الكهوف» هي ترجمة خاطئة. وكان الخوريون Hivites غالباً هم انفسهم الخوريون.

ويعتقد ان الخوريين هم الذين اعطوا الاشوريين تلك الملامح التي تميزهم عن ابناء عمهم الساميين في الجنوب اي البابليين والملاح السامية المزعومة التي يتصف بها اليهود هي بالحقيقة حثية حورية. وبعد الفتح الحي لميتاني اصبح الخوريون مشمولين باسم «حثي» المبهم. وفي شرقي سورية امتص الآراميون بقايا الخوريين. وتوجد قرب زحلة في لبنان قرية تسمى الفرزل وتحتفظ بالكلمة التي معناها الحديد (brzl) وترد في نص من رأس الشمرة. ولا يزال النوع السائد حتى اليوم بين اللبنانيين من موارد ودروز. هو النوع ذو الرأس القصير العريض حسب نتائج الابحاث الانثروبولوجية^١. وينطبق الامر نفسه على النصيرية في شمال غربي سورية. ويختلف ذلك اختلافاً واضحاً عن النموذج الطويل الرأس الذي يسود بين البدو في بادية الشام وبين سكان شمالي الجزيرة العربية^٢.

(١) انظر: Carl C. Seltzer, *The Racial Characteristics of Syrians and Armenians* (Cambridge, Mass., 1936), pp. 10 seq.; do., *Contributions to the Racial Anthropology of the Near East* (Cambridge, 1940), pp. 20-21, 37-50; William M. Shanklin and Nejla Izzeddin, «The Anthropology of the Near East Female», *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxii (1937), pp. 379; seq.; C. U. Ariens Kappers, «The Anthropology of the Near East», *Actes du XVIIIe congrès international des orientalistes* (Leyden, 1931), pp. 178-9.

(٢) Carleton S. Coon, *The Races of Europe* (New-York, 1939), pp. 623-4; William M. Shanklin, «The Anthropology of the Ruwala Bedouins», *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. Lxv (1935), p. 379; do. «Anthropology of the Akeydat and the Mauly Bedouin», *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxi (1936), p. 248.

الاطفال في السرير تسبب نطحة الرأس احياناً.

الحثيون

وكان الحثيون الذين تبدو ملاحظهم على الآثار شبيهة بلامع الحوريين شعباً اناضولياً في الاصل يسكن منطقة نهر الهاليس Halys. وكانوا يسمون بلادهم خاطي^١ وعاصمتهم (مدينة خاطي) خطوشش وهي اليوم بوغازكوي على بعد تسعين ميلاً شرقي انقره. ويأتي الاسم الانكليزي من كلمة حطي Hitti العبرية. ولا يزال موقع عاصمتهم القديمة كوشار Kushshar مجهولاً. وفي حوالي ٢٠٠٠ ق. م. تغلب الغزاة المنود الاورييون على القبائل الخاطية ونتج عن تمازج السكالك الاصليين الاناضوليين بالفاتحين المنود الاوروبيين الخاطيون في آسيا الصغرى. وشكل السحنة الذي يتمثل في الانف الكبير والجبهة والذقن المتراجعتان كان شكل السكان الاصليين ولا يزال سائداً في شرقي الاناضول وبين الارمن.

المملكة الحثية القديمة

وكان اول ظهور للخاطيين في عملية حربية كبرى نحو ١٥٩٥ حين نهب ملكهم مرشلس الاول مدينة بابل بنتيجة غزوه لها وانتهت بذلك سلالة بابل الاولى التي كان حمورابي من ملوكها. وكان مرشلس نفسه قد فتح حلبا Halpa (حلب) وهلمها وسبى سكانها وارسل حدد وسائر آلهتها ككفنائهم حرب الى خطوشش التي نقل اليها مركز الحكم من العاصمة القديمة. وكانت حلب مركزاً ليس لعبادة حدد فصحب وانما للملكة اسمها يمحاض كان يحكمها قبل هذه الفترة بقليل يريم ليم الذي كان يسيطر على عشرين من صفار الملوك. وتوغل احد خلفاء مرشلس في اراضي المكسوس جنوباً حتى دمشونس Damashunas التي تشبه لفظة دمشق^٢. واذا كان ذلك صحيحاً فانه يكون اول ذكر لدمشق في التاريخ المدون. ومهما يكن فان ملوك خاطي لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بسلطة دائمة على المنطقة الواقعة جنوبي جبال طورس. وظلت هذه الجبال حدود المملكة القديمة من جهة الجنوب.

(١) وقد وردت في النقوش الاثرية المصرية باسم خيطا Kheta. وربما كان معنى هذه الكلمة «الفضة».

(٢) John Garstang, *The Hittite Empire* (London, 1929), p. 3; *Heritage of Sumer*, p. 30.

المملكة الحثية الحديثة

دامت المملكة الحثية الحديثة او الامبراطورية الثانية من حوالي ١٤٥٠ حتى ١٢٠٠ ق. م. وبلغت ذروتها في عهد الملك القوي شوبيلوليوما (حوالي ١٣٨٠ - ١٣٥٥). وقد حصل بنتيجة تقدمه في ميتاني على مركز ثابت في شمالي سورية وتمكن من انتزاع منطقة تمتد حتى جنوبي جيبيل من المصريين. وفي نهاية حكمه كانت امبراطوريته قد اصبحت اقوى دولة في غربي آسيا. ودخل المكسوس والميتانيون والحوريون في دولة يمكن ان نسميها الآن حثية. واصبحت كركيش المعقل الرئيسي جنوبي جبال طورس.

لم يعتمد شوبيلوليوما فقط على استخدام السلاح. فقد لجأ الى اثاره الاضطراب ضد مصر في مقاطعتها الاسوية واقناع امير اوغاريت ان يتخلى عن حليفه فرعون^١ ونجح في ذلك كله. واستخدم الزعيم الاموري عبد عشرتا وابنه ازيرو «كطابور خامس». واخذ ازيرو بمساعدته يستولي على مدن فينيقية الساحلية. وفي الوقت نفسه كان ازيرو يكتب الى اخناتون عن اسفه البالغ بان مهمته في مقاومة الغزو الحثي لم تسمح له بالحصول على شرف الاجتماع بالوفد من فرعون. واصبحت الامور مضطربة حتى ان المقيم المصري نفسه كان غير قادر على معرفة الصديق من العدو.

معاهدة مع مصر

واستأنف النزاع لاجل السيادة على سورية بين الامبراطوريتين المتنافستين على زعامة العالم حين حاول فراغنة السلالة التاسعة عشرة الاوائل استرجاع ما عجز آخر ملوك السلالة الثامنة عشرة عن الاحتفاظ به. وفي معركة قادش المشهورة التي تلت ذلك (نحو ١٢٩٦ ق. م.) لم يكن النصر الذي ادعاه رمسيس الثاني على عدوه الحثي موثلاً Muwatallish نصراً مبنياً كما ادعاه رمسيس، وذلك بالاستناد الى نتائج المعركة. فقد ادعى رمسيس انه قهر زعيم خيطا وذبح جميع رؤساء حلفائه وهزم العدو حتى العاصي وطرحهم في الماء كالتاسيح؛ وقد سقطوا على

وجوههم الواحد فوق الآخر وتمكن من قتل من شاء قتله^١. والحقيقة هي ان رمسيس تمكن بصعوبة من انقاذ حياته عندما تعرض لكين بطريق الحيلة، وعمل هجوم المركبات الحثية على تفريق محاربيه. وقد اضطر بالنتيجة الى الانسحاب من سورية الشمالية والوسطى والى توقيع ميثاق عدم اعتداء نحو عام ١٢٨٠ مع حتوشلش اخي موتلش والملك الثاني بعده. وهذا هو الميثاق الوحيد الذي وصلنا من العصور القديمة. وكان هدفه كما قالت الوثيقة «ان يكون سلام واطفاء بيننا الى الابد». واعترف الميثاق بان سورية الشمالية ومن ضمنها امورو اصبحت حثية بينما بقيت سورية الجنوبية بما فيها فلسطين تحت الحكم المصري^٢. واحتفظ بنسخة من الميثاق الاصيل منقوشة على لوح فني باللغتين المصرية الميروغليفية والبابلية المسارية.

وبعد فترة من الانحطاط سقطت الامبراطورية الحثية حوالي ١٢٠٠ ق. م. بتأثير هجمات من جهة اخرى وهي منطقة بحر ايجة. ولعب الفريجيون الدور الرئيسي بين الغزاة كما يبدو. وقامت في شمالي سورية على انقاض الامبراطورية الحثية بمالك وطنية صغيرة مراكزها كركميش وحلب وحماة. وكان الاشوريون يسونها بمالك حثية. وكان قيامها في عصر توسع الامبراطورية الاشورية الناشئة نحو الغرب التي كانت دوماً تهدد كيانها. وسقطت الواحدة بعد الاخرى فريسة للدولة المتوسعة من الشرق. وكان فتح كركميش في عام ٧١٧ عن يد سرجون الثاني عنوان انتهاء آخر دولة حثية مستقلة.

صلة الحثيين بفلسطين

وفقدت كلمة «حثي» معناها السياسي بعد انحلال الامبراطورية وحازها مدلول جديد حضاري وعربي. واستمر الاشوريون في تسمية سكان المناطق السحي كان يسكنها الحثيون سابقاً بالحثيين بالرغم من ان اكثرتهم لم تكن لهم صلة عرقية بالخطيين الاناضوليين القدماء او بالخطيين المنود الاوربيين. ولم تكن فلسطين في اي وقت قسماً من الامبراطورية الحثية ولكن عناصر حثية كثيرة وجدت فيها.

(١) Stenodorf and Seele, p. 251; cf. Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, § 396.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, §§ 367-91. انظر تفاصيل هذه الشروط في:

ويطلق مؤلف احدى وثائق العهد القديم اسم الحثيين بوجه عام على جميع سكان البلاد من غير الساميين قبل مجيء العبرانيين . ويدعي هذا المؤلف وجود عنصر حثي بين سكان فلسطين منذ ايام ابراهيم ويعتبر جبرون (الخليل) مدينة حثية^١. ويروي ان عيسو تزوج نساء حثيات وتزوج بنو اسرائيل مع الحثيين^٢. وتشهد الآثار عن وجود تأثير حثي مادي هناك في القرن الرابع عشر بشكل تقدمات نفرية واختام واسلحة ذات اشكال خاصة . وليس من شك في ان سليمان كان لديه نساء حثيات بين حريمه^٣. وعندما خاطب النبي حزقيال^٤ مدينة اورشليم الخائنة قال لها : « ابوك اموري وامك حثية » .

نظام الدولة الحثية

كانت المملكة الحثية فوق كل شيء ارستوقراطية اقطاعية تمارس سلطتها على مجموعة متنوعة من العناصر العرقية. ويرجع نجاحها العسكري كما كانت الحال بالنسبة للهكسوس الى استخدام الحصان والمركبة كسلاح رئيسي . وكان سلاح المركبة يتألف من سائق ومحارب وحامل ترس وكان الترس مربعاً . وفي ساحة القتال كانت الحثيون يستخدمون ايضاً فرقاً منظمة من المشاة يقودها امرأء من الاسرة المالكة او زعماء محليون . وكانت اسلحة الهجوم القوس والنفاس والرمح والسيف المنحني .

اللغة الحثية

كانت اللغة الحثية مزيجاً كما كان الشعب الحثي نفسه غير انه يمكن تصنيفها عموماً كلغة هندية اوربية او متصلة بلغات هذه المجموعة . والارستوقراطية العسكرية كانت كما في ميتاني من اصل هندي اوربي . وربما كانت الارستوقراطيتان من اصل واحد وتشكلان نوعاً من اللغة ذاتها .

(١) سفر التكوين ٢٠:٢٣-٢٠.

(٢) التكوين ٢٦:٣٤؛ القضاة ٣:٥-٦.

(٣) سفر الملوك الاول ١١:١١؛ صموئيل الثاني ١١:٣.

(٤) سفر حزقيال ١٦:٣.

ووجدت اكبر مجموعة من الوثائق الحثية في ١٩٠٦ - ١٩١٢ في بوغاز كوي واتضح ان هذه الوثائق هي محفوظات الدولة وتتألف من اكثر من ١٠٠,٠٠٠ لوح خزفي جمعها ملوكهم نحو ١٣٠٠ ق.م. وهذه اللوح الحزفية المكتوبة بالمسارية التي فسرها عالم تشيكي^١ تشكل اهم مصادر معلوماتنا عن الحثيين. وقد استعمل الحثيون الكتابة المسارية لاجل حاجاتهم اليومية بينما استخدموا الكتابة الهيروغليفية في الآثار. والكتابات الاثرية الهيروغليفية على الصخر تتناوب سطورها من الشمال الى اليمين ومن اليمين الى الشمال وقد فسرت رموزها في السنوات الاخيرة. واهم مواقع الآثار الحثية في سورية التي تحمل كتابات هيروغليفية هي كركيش (جرابلس) وحلب وحماة^٢. وتوجد اربع وعشرون كتابة على الحجر من كركيش في المتحف البريطاني وفي متحف استانبول اربع كتابات من حماة. ووجدت في رأس الشمرة اربعة اختام حثية.

وتتألف بقايا الادب الحثي من ترانيم وصلوات واساطير وعقود ورسائل. وقد اكتشف جزء من مجموعة قوانينهم التي ترجع الى منتصف القرن الرابع عشر^٣. والعقوبات التي تفرض اخف بكثير مما عند الساميين. فليس هنالك تشريع على اساس مبدأ «العين بالعين» ويتضح من كثرة القوانين المتصلة بالزراعة انها كانت تشكل اساس الحياة الاقتصادية.

الديانة

ولا نعلم حتى الآن سوى الشيء القليل عن الديانة الحثية. وتظهر الافكار المتعلقة بعبادة الارواح بصورة بارزة في الشكل البدائي لهذه الديانة. فالينابيع والانهار والاشجار والجبال كانت تعتبر مقدسة. وكان اشهر الآلهة تيشوب اله العاصفة وهو الاله الوطني. وكان الميتانيون يعبدونه. وآلهة المدن كانت مظاهر محلية لهذا الاله. وكان اسمه الحثي تلبنش Telepinush. وهو يقابل الاله السوري حدد ورفيقته تسمى

١) واسم هذا العالم فريدريخ هروزني Friedrich Hrozny انظر كتابه: *Die Sprache der Hethiter* (Leipzig, 1917); *Hethitische Keilschrifttexte aus Boghazkói* (Leipzig, 1919).

٢) Ignace J. Gelb. *Hittite Hieroglyphic Monuments* (Chicago, 1939), p. 8.

٣) F. Hrozny, *Code hittite provenant de l'Asie Mineure* (Paris, 1922).



الاله الحثي تيشوب اله الماصفة

وجد في ١٩٣٠ في تل الاحمر (تل يرسيب القديمة) جنوبي كركميش على الفرات
والآن في متحف حلب

وقد تدل لحية الاله الاشورية الشكل ان تاريخ النصب يعود الى القرن الثاني عشر.
وقرص الشمس المحاط بقمر منح يظهر تأثيراً مصرياً . ويمسك الاله بصاعقة ذات ثلاثة
فروع بيده اليسرى ويرفع فأس حرب بيده اليمنى . والثور الذي يقف عليه هو رمز
القوة والحصب . والاحذية المتوية الى الاعلى لا يزال يلبسها بعض سكان جبال لبنان .

عشتاروت في المعاهدة مع مصر ولكن اسمها الحثي لم يعرف حتى الآن وربما كانت «Ma» وهي الارض الام واقدم آلهة لدى الشعب المغلوب . وعبادة تيشوب — عشتاروت تقابل عبادة تموز — عشتاروت عند السوريين واصبحت في الغرب عبادة ادونيس والزهرة (فينوس)، وفي آسيا الصغرى لدى الفريجيين اصبحت عبادة آتيس Attis وسيبيل Cybele. وكان يمثل تيشوب عادة بشكل رجل يقف على ثور ويمسك الصاعقة . واقوى الالهة انثى كانت الالهة الشمس التي اصبحت الالهة الحرب واتخذت بعض صفات الارض الام . ولباس الاله كما يتضح من الآثار كانت رداء قصيراً وقبعة مخروطية الشكل ، اما لباس الالهة فكان ثوباً طويلاً وقبعة اسطوانية مرتفعة . والاحذية المروسة والمفتولة الى الاعلى في قسمها الامامي كانت من الصفات المشتركة في لباس الالهة الانثى والذكر . والاشكال البشرية كانت تمثل بنفس اللباس ولكن بحجم اصغر . واللبسة الثقيلة والاحذية المفتولة الى اعلى تفيد ان اصل هذا الشعب كان في اقليم بارد تهطل فيه الثلوج .

وعندما احتك الحثيون بالسوريين والمصريين والاشوريين اقتبسوا الالهة الاجنبية . وقد استشهدوا في المعاهدة مع مصر «بالف من الالهة الذكور والاناث». وربما يمكن ان نستنتج من اهمية الالهة الانثى في مجموعة الالهة الحثية ومن الشرط الذي وضعه شوبيلوليوما لمساعدة ماتيوازا لاجل ورائته عرش ميتاني وهو زواج هذا الامير من اميرة من خاطي على ان تكون زوجته الوحيدة — يستنتج من ذلك ان وضع المرأة بين الحثيين كان رفيعاً نسبياً مع وجود ميل نحو اتخاذ زوجة واحدة .

من هم الخاييرو؟

بينما كان الجيش الحثي في فترة العمارنة يقوم باعماله الحربية في الشمال كان جماعة من المرتزقة الاجانب الذين يسمون في الكتابات المسارية الخاييرو Khabiru يجتاحون البلاد في الجهة الجنوبية . وقد اعتبر بعض العلماء هذه الكلمة الاكادية معادلة للكلمة العبرية «عبري» (وعبراني التي تترجم عادة «بالذي يأتي من الجانب الآخر» او بمعنى «العابر» .) ويوصف الخاييرو في وثائق نوزي من القرن الخامس عشر بانهم عبيد اصبوا كذلك باختيارهم . وتظهر هذه الكلمة في المدونات المصرية من حوالي

١٣٠٠ - ١١٥٠ ق. م. بشكل عيرو Epiru (بحرف p) مما يثير الشك في صحة المعادلة بين الحاييرو والعبيرانيين .

ويظهر الحاييرو لأول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشلش الاول (حوالي ١٦٠٠ ق. م.) الذي استأجرهم . وفي رسائل تل العمارنة^١ نرى الحاييرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة وفي ١٣٦٧ يستولون على شكيم . وقد وجهت ستة من هذه التعازير (رقم ٢٨٥ - ٢٩٠) من عبد خيبا^٢ تابع فرعون في اوروسالم (اورشليم)^٣ الى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضد الحاييرو الذين يهدونه . وفي جميع هذه الوثائق يبدو الحاييرو كجماعة متعددة العناصر وبدون اوصاف مشتركة ومعبأة بلاشك في بلاد الرافدين . وقد اطلق هذا الاسم هناك لأول مرة على المحاربين في عهد نارام من (نحو ٢١٧٠) من ملوك السلالة الاكادية القديمة . ويذكر الاسم ثانية في رسالة من ماري من القرن الثامن عشر وفي الواح نوزي من القرن الخامس عشر . وكما يبدو فانه ليس اسماً عرقياً وانما تسمية اطلقت على جماعات من الرحل والاجانب والاشقياء المستعدين للانضمام الى صفوف اي جيش لقاء اجرة او بدافع الحصول على الغنائم .

(١) الرسالة رقم ٢٨٩ .

(٢) القسم الثاني من هذا الاسم هو اسم الالهة حثية حورية .

(٣) اصل الاسم من الكنعانية ياروشلم بمعنى «دع شالم يؤسس» . وكان شالم اله السلام عند الكنعانيين ويظهر في اسمي «ابشالوم» و«سليمان» ، وفي اسماء فينيقية وهو مذكور في لوح من اوغاريت .

انظر : Burrows, p. 229.

الفصل الثاني عشر

الآراميون الشعب السامي الثالث الرمسي

قبل ان يسمى الآراميون بهذا الاسم كانوا قبائل من الرحل في بادية شمالي الجزيرة العربية . وكانوا كسائر البدو من قبلهم ومن بعدهم يضغطون من وقت الى آخر على اراضي جيرانهم النائية في بلاد بابل وسورية وهدفهم امتلاكها . وقبل ان ينتصف الالف الثاني ق.م . كانت هذه القبائل قد سكنت في ضفاف وادي الفرات الاوسط حيث نشأت قوميتها ولغتها . ويمكن الاعتقاد بان الآرامية اتت من لهجة سامية غربية كانت مستعملة في شمال غربي بلاد الرافدين في النصف الاول للالف الثاني . ولم يكتبوا اسمهم « الآراميين » حتى ايام تغلات فلاسر الاول (نحو 1100 ق.م) حين اقاموا في منطقة الفرات الاوسط حتى سورية في الغرب . وكانت الهجرات الحاطية في اوائل القرن السادس عشر على بابل وشمالي سورية هي التي فتحت الابواب كما يبدو في وجه الحركة الآرامية واعطت القادمين الجدد من الصحراء محطاً ثابتاً في تلك المنطقة . وسهل القضاء على ميتاني عن يد الحثيين بعد قرن ونصف حركة الآراميين من جديد . وتبين ان هذه الهجرة الآرامية كانت بعد المبعرتين الامورية والكنعانية ثالث حركة سامية كبرى اتت من الصحراء .

بدء ظهورهم في بلاد الرافدين

كانت جماعات متعددة تشكل اقساماً من الحركة الآرامية ولكنها لم تكن تعرف بهذا الاسم . فبالاضافة الى الحابيرو الذين ذكرناهم سابقاً كان يوجد الاخلامو Akhlamu . وهذه التسمية التي تعني «الرفاق» لم تكن تسمية عرقية وقد اطلقها

(١) قارن مع : Emil G. H. Kraeling, *Aram and Israel* (New York, 1918), pp. 20, 22. واصل اشتقاق كلمة آرام (قارن مع كلمة ارم القرآنية) غير مؤكد.

لاول مرة كما يبدو الاموريون المقيمون في منطقة الفرات على اتحاد من القبائل . ويجئنا الملك الاشوري آدد نيراري الاول (نحو ١٣٠٠ ق.م.) ان اباه قهر جماعات الاخلاموا في شمالي بلاد الرافدين . وفي تحرير ارسله حتوشلش حوالي ١٢٧٥ الى احد ملوك بابل اشارة الى الاخلامو المعادين الذين يقيمون على طول نهر الفرات . ونقرأ قبل ذلك في احدى رسائل^٢ تل العمارنة عن الاخلامو في عهد اخناتون وانهم كانوا يستولون على المدن والاراضي السورية برضى حكام وطنيين غير مخلصين ان لم يكن تحت قيادتهم . وفي الوثائق التي أتت فيما بعد نجد الآراميين والاخلامو مقتونين بصورة وثيقة . فالملك تغلات فلاسر الاول يقول «لقد زحفت الي وسط الاحلامي الآراميين اعداء الاله اشور سيدي»^٣ . وكانت هذه القبائل الآرامية تعيش بجوار كركيش ولكننا نشاهد الآراميين بعد ذلك في بلاد بابل في الشرق يدعون الكلدو (الكلدانيين او البابليين الحديثين) الذين كانت لهم صلة وثيقة بهم . ويصف تغلات فلاسر وخلفاؤه حملاتهم في مات آرمي Mat Arimi او بلاد الآراميين^٤ وذلك في كتابات اثرية اخرى .

انتشارهم في شمالي سورية

يستدل من هذه المدونات الاشورية البابلية وغيرها ان قسماً كبيراً من بلاد الرافدين وسورية الشمالية والوسطى قد اجتاحتها في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر جماعات سامية وان هذه المناطق بدأت تتخذ صفة آرامية باستثناء جيوب حثية قليلة منها كركيش . وقد ادى ضغط الآراميين المتواصل الى طغيانهم التدريجي على الاموريين والخوريين والحثيين في وادي العاصي والمنطقة التي تليها في الشمال والى امتصاص هؤلاء او طردهم . وكان جبل لبنان عائقاً في طريق هذا التوسع نحو الغرب واستمر فيه ازدهار الجماعات الحثية والامورية بينما

(١) Luckenbill, vol. i, § 73.

(٢) الرسالة رقم ٢٠٠ .

(٣) Luckenbill, vol. i, § 239.

(٤) E. A. Wallis Budge and L. W. King, *Annals of the Kings of Assyria*, (٤ vol. i, (London, 1902) pp. 134 seq.; Luckenbill, vol. i, § 366; vol. ii, § 36.

بقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بدون ان تمس . واصبحت دمشق وهي مركز دولة آرامية فيما بعد يسكنها الآراميون في ١٢٠٠ ق.م . وتمطي حوليات وعسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) التهجئة الآرامية لاسم دمشق^١ . وقد احتل الآراميون مدينة حران غالباً وهي احدى مراكزهم في ما بين النهرين قبل احتلالهم دمشق . واقتبس القادمون الجدد بالتدريج حضارة الاموريين والكنعانيين الذين اقاموا بينهم غير انهم احتفظوا بمظهر واحد من حضارتهم وهو اللغة . وبخلاف الاسرائيليين والفلسطينيين الذين اقاموا في اواخر القرن الثالث عشر في جنوبي مناطقهم فان الآراميين احتفظوا بلهجتهم الاصلية التي قدر لها ان تلعب دوراً بالغ الاهمية في حياة غربي آسيا فيما بعد .

الدول الآرامية في ما بين النهرين

وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت الحركات الآرامية والاسرائيلية قد انتهت واصبح الشعبان يجاور واحدما الآخر في موطنهما الجديد . وظهرت الدول الآرامية الاولى في منطقة الفرات الاوسط وهي الممر بين بلاذ الرافدين وسورية . وقد سميت احداها آرام النهرين *Aram Naharain*^٢ والنهران المقصودان هما الفرات ورافده الخابور وليس الفرات والدجلة . وكلمة «نهارين» المصرية هي تحريف لهذا الاسم نفسه . ويظهر هذا الاسم مراراً في الكتابات المسماوية من اواخر القرب الثالث عشر ويميل الى الزوال بعد القرن التاسع عندما كان الاشوريون قد قضوا على الآراميين في هذه المنطقة^٣ . ومن الدول الاخرى في ما بين النهرين دولة فدان آرام^٤ *Padam Aram* ولم تكن باتساع آرام النهرين وكان مركزها مدينة حران .

(١) ويقابل تيرمكي *Tiramaski* اسم آرام . وهناك اسم ذرمشق اي حصن مشق . انظر : W. Max Müller, *Asien und Europa nach altagyptischen Denkmälern* (Leipzig, 1893), p. 234; Dussaud, p. 292; cf. Sina Schiffer, *Die Aramaer* (Leipzig, 1911), p. 136. والشكل الذي يتخذ اسم دمشق في رسائل المارة هو دُمَشقا *Dumashqa* (رسالة رقم ١٠٧ سطر ٢٨) ، دُمَشقا *Dimashqa* (رسالة رقم ١٩٧ سطر ٢) تَمَشكي *Timashgi* (رسالة رقم ٥٣ سطر ٦٣) .

(٢) انظر هذا الاسم في سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ؛ الثانية ٤٣ : ٤٤ ؛ القضاة ٣ : ٨ .

(٣) قارن مع : Roger T. O'Callaghan, *Aram Naharaim* (Rome, 1948), p. 143 .

(٤) قارن مع : Abel, *Géographie*, vol. i, p. 245. انظر سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ؛

والواقع ان الكلمتين تستعملان بالتبادل في العهد القديم . وكانت تقع حوران على طريق تجاري عظيم - ومعنى اسمها « طريق » - واصبحت من اعظم مراكز الحضارة الآرامية . والمرويات العبرانية التي لم تنس الصلة العبرانية الآرامية القديمة جعلت اسلاف الشعب العبراني يأتون من هذه المنطقة قبل استقرارهم في فلسطين . وتقول هذه المرويات ان ابراهيم اوفد رسوله الى حوران ليبحث عن زوجة لابنه اسحق وهي رفقة كما تقول ان يعقوب ذهب بنفسه ليتزوج ليشة وراحيل^١ . وهكذا فان اسلاف ابناء يعقوب هم آراميون من جهة الام . وهناك عبارة تسمي ابا الامة العبرانية آرامياً^٢ . وسفر التكوين الذي يدون بدء التاريخ العبراني يملوء بالتعبير ذات الصبغة الآرامية وبالمفردات الآرامية^٣ . وكان اسلاف الشعب العبراني يتكلمون الآرامية كما يظن قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية .

آرام دمشق

غير ان اهم الدول العديدة التي اسمها الآراميون كانت تلك التي كان مركزها اولاً في صوبه ثم في دمشق . وقد تأسست مملكة دمشق في اواخر القرن الحادي عشر فكانت معاصرة تقريباً لتأسيس المملكة العبرانية وتطورت فأصبحت مملكة كبرى تمتد الى الفرات من جهة والى اليرموك من جهة أخرى . وكانت متاخمة للاراضي الاشورية في الشمال والعبرانية في الجنوب . وكانت سورية الداخلية شرقي جبل لبنان وسورية الشمالية وبلشان تحت سلطتها الاكيدة في حوالي ١٠٠٠ ق.م . ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير الى آرام او سورية . وقد كان هؤلاء الآراميون في سورية خلال قرنين ألد اعداء العبرانيين .

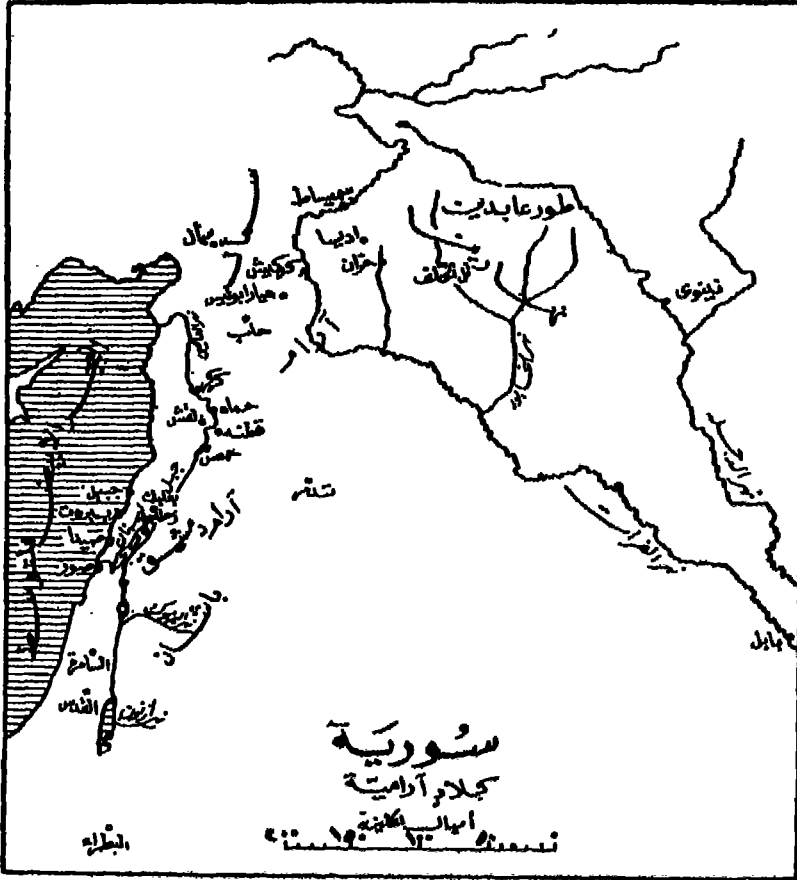
كانت صوبه عاصمة مملكة بنفس الاسم والكلمة مشتقة من صوبه Sebah

(١) سفر التكوين ٢٤ : ٤ : ٢٩ : ٢١ وما يليها .

(٢) سفر التثنية ٢٦ : ٥ حيث يقول « آرامياً تاتياً كان ابي » . وقد جاء في احدى الترجمات « سورياً » . قارن مع : Josephus, *Antiquities*, Bk. I, ch. 7, §2 .

(٣) سفر التكوين ١١ : ٢٨ وما بعدها ؛ ١٢ : ١ ؛ ٢٩ : ٣١ ؛ ٣١ : ٢١ ؛ واول ذكر لعبارة آرامية في التوراة هي يجرشهوئا اي رجم الشهادة (سفر التكوين ٣١ : ٤٧) .

بمعنى احمر او نحاس . ويظن ان موقعها هو في كالسس Chalcis او عنجر الحديثة جنوبي زحلة في البقاع^١ وقد بدأت الاصطدامات بين ملوكها ومنافسيهم العبرانيين



في الجنوب في عهد شاول مؤسس المملكة العبرانية^٢. وكان من اقدم ملوك صوبه حدد عزر (اي حدد عون) الذي ادى انتصار داود عليه الى اعطاء ذلك الملك

(١) انظر: Abel, vol. i, p. 248; Kraeling p. 40 (والكلمة يونانية معناها نحاس) فيما بعد عاصمة بطوريا Ituraea (المذكورة في المجلد لوقا ١٠: ٣) وهي مملكة عربية.

(٢) سفر سموئيل الاول ٤٧: ١٤ .

العبراني السلطة على مصادر ذلك المعدن الهام النحاس^١. ولم ينتصر داود على حد عزر وحلفائه فحسب وانما نجح في احتلال دمشق مؤقتاً. وبعد فترة قصيرة نجد رصين ملك هذه المدينة يعمل كتابع لصوبة ويقوم بمحاربة اسرائيل « طيلة ايام سليمان^٢ ». وتنتقل السيادة بعد ذلك من صوبة الى دمشق. وعندما انقسمت المملكة العبرانية الى قسمين في عام ٩٢٢ كان ذلك من مصلحة ملوك دمشق الذين كانوا يقيمون المملكة الواحدة ضد الاخرى.

واخذ بنحدد الاول^٣ ملك دمشق (حوالي ٨٧٩ - ٨٤٣) من ملك يهوذا كنوزاً ثينة من المعبد ومن القصر الملكي في اورشليم ثم هاجم ملك اسرائيل وجعل جلعاد في شرقي الاردن تحت السيطرة الآرامية^٤. والواقع ان مملكة اسرائيل كانت كما يبدو تابعة اسمية لآرام منذ اواخر ايام ملكها عمري (حوالي ٨٧٥) وعندما رفض آخاب ابن عمري ووريثه دفع الجزية او الانضمام الى التحالف ضد المهجوم الاشوري الذي كان وشيك الوقوع ظهر بنحدد بفتة امام عاصمته السامرة ليجبره على الطاعة^٥.

معركة قورق

وبلغت هذه الغزوة الاشورية ذروتها في المعركة التي حارب فيها شلمنصر الثالث في عام ٨٥٣ ق.م. وكان تحالف الملوك السوريين يضم اثني عشر ملكاً يرأسهم بنحدد^٦ الذي كان جيشه يضم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠٤٠٠٠ من المشاة. وقد

(١) اخبار الايام الاول ١٨:٨؛ صموئيل الثاني ٨:٨. ومدينة بيروت في المذكورة في سفر صموئيل هي اليوم بريتان جنوبي بعلبك.

(٢) سفر الملوك الاول ١١:٢٥.

(٣) كلمة بنحدد او بن حداد في العبرية تقابلها بار حد (اي ابن حداد) في الآرامية. وكان بنحدد الاول وبنحدد الثاني نفس الشخص. انظر: Albright, «A Votive Stele Erected by Ben-Hadad I of Damascus», *Bulletin, American Schools Oriental Research*, No. 87 (1912), pp. 26-27.

(٤) سفر الملوك الاول ١٥:١٨-٢٠؛ اخبار الايام الثاني ١٦:٢ وما بعده.

(٥) سفر الملوك الاول ١٠:٢٠ وما بعده.

(٦) وهو حداد عزر في كتاب: Luckenbill, vol. i, § 611.

اتى الملك آخاب بالجيش الثاني في قوته وبعده اتى جيش ملك حماة . ووقدمت بمالك مدن فينيقية كثيرة قواتها للمساهمة في المعركة . وكان عدد الجيوش التي وقفت بوجه شلناصر في موقعة قرقر على العاصي ٦٠٠٠٠٠ جندي وانتهت بدون نتيجة حاسمة . وكان على الاشوريين ان ينتظروا سنين كثيرة اخرى قبل ان يتمكنوا من اخضاع دمشق .

حزائيل

ويظهر وريث بنعهد واسمه حزائيل (بمعنى « ايل قد رأى » حوالي ٨٠٥) كاعظم محارب في التاريخ الآرامي . فبعد ان صمد لهجومين قام بهما شلناصر في ٨٤٢ و ٨٣٨ قاد حملة ضد اسرائيل ووسع ممتلكاته في شرقي الاردن الى الجنوب حتى نهر آزون (الموجب) الذي يصب في البحر الميت^١ . وكان ياهو (نحو ٨٤٢ - ٨١٤) الذي كان يدفع الجزية لشلناصر هو ملك اسرائيل حينذاك . وكانت اسرائيل تحت رحمة آرام في عهد يواجاز وريث ياهو حتى ان حزائيل لم يترك له اية قوة فيما سوى خمسين فارساً وعشر مركبات^٢ . وتوسع حزائيل في فتوحاته حتى سهل فلسطين الساحلي بقصد الاستيلاء على طرق التجارة مع مصر والجزيرة العربية . ثم « حوّل حزائيل وجهه ليصعد الى اورشليم » ولكنهم منعه من ذلك بعد ان قدموا له الذهب والكنوز التي كانت في المعبد^٣ . وعندما تضعفت قوة الذين خلفوا حزائيل بسبب الهجمات الاشورية عجزوا عن المحافظة على حدود مملكتهم في المناطق الجنوبية . وعادت الحدود القديمة الى سابق عهدها في زمن الملك يربعام الثاني الذي اصبح ملكاً في السامرة في عام ٧٨٥ ، وزاد هذا الملك على ذلك بانه بدأ بهجمة دمشق وحماة .

غير ان الخطر الحقيقي كان مصدره من جانب آخر . فقد كانت القوة العسكرية الاشورية جاهزة للزحف من جديد . واثت الفرصة المناسبة في ٧٣٤ حين هدد

(١) سفر الملوك الثاني ١٠: ٣٢ - ٣٣ .

(٢) الملوك الثاني ١٣: ٧ .

(٣) الملوك الثاني ١٢: ١٧ - ١٨ .

آحاز ملك يهوذا بصورة جدية من قبل فتح Pekah ملك اسرائيل ورضين Rezin ملك دمشق فطلب تدخل الاشوريين^١. واستجاب تغلات فلاسر الثالث لطلبه واجتاح المقاطعات الست عشرة التابعة لدمشق مع المدن التي عددها ٥٩١ مدينة «وهدمها حتى اصبحت مثل الكثبان التي يتركها السيل»^٢. وكان بين الملوك التابعين لاشور والذين حاربوا وسقطوا امام اسوار دمشق بنامو الثاني ملك شمال (زنجري) في اقصى الشمال. ورضين نفسه هرب «وكفارة [او وعل ٢] دخل باب مدينته». وهناك اصبح محاصراً «مثل عصفور في قفص». ولكن الحصار استمر. واخيراً فتحت المدينة في عام ٧٣٢. وقتل ملكها وقطعت اشجار بساينها - موضع فخارها في جميع العصور - «ولم تتجّ واحدة منها» وثني اهلها^٣. وهكذا انتهى امر آرام دمشق وانتهت معها السيادة الآرامية الى الابد.

للتجار الآراميون

فاق توسع التجارة والحضارة الآرامية توسع الآراميين السامي والعسكري ودام الى ما بعد انتهاء هذا الاخير. هذه الحضارة التي بلغت ذروتها في القرنين التاسع والثامن لا تقلد اليوم حق قدرها حتى في الاوساط المتعلمة. والسوريون الحديثون لا يشعرون باصلهم وتراثهم الآراميين بالرغم من ان كثيرين من اللبنانيين يصرون على اصلهم الفينيقي. وكان التجار الآراميون يعيشون قوافلهم الى جميع مناطق الهلال الخصيب وحتى الى منابع الدجلة في الشمال. واكتشفت في خرائب نينوى بعض الموازين البروتزية التي تركوها. وكانوا يحتكرون تجارة سورية الداخلية كما كان يحتكر ابناء عمهم ومنافسهم الكنعانيون التجارة البحرية. وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانئ البحر. وقد تاجر الآراميون بالارجوان من فينيقية وبالطرزات والكتان واليشب (Jasper) والنحاس

(١) سفر الملوك الثاني ١٦: ٥ وما يليه.

(٢) Luckenbill, vol. i, § 777.

(٣) Luckenbill, vol. i, § 776; Hugo Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch zum Alten Testament*, 3rd ed. (Leipzig, 1909), pp. 31-2; cf. Is. 17: 1 seq.

والابنوس والعاج من افريقيا «وبحصول البحار» الذي ربما كان اللؤلؤ الذي اشتهر به الخليج الفارسي خلال العصور^١.

اللغة الآرامية

كان التجار الآراميون هم الذين نشروا لغتهم منذ اول عهدهم في مختلف البلدان وهي فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية. وقد وصلنا من عام ٧٣١ ق.م. في عهد تغلات فلاسر الثالث اول رسم يمثل كاتباً يدون بالآرامية الفنائم المأخوذة من احدى المدن المفتوحة. وهو يمسك بيده ليس قلماً ولوحاً من طين لاجل الكتابة المسيارية وانما ملف بردي وريشة. ويبدو انه كان يكتب بكتابة ايجدية. وفي نحو عام ٥٠٠ ق.م. اصبحت الآرامية التي كانت اللغة التجارية لاجدى الجماعات السورية ليس فقط اللغة العامة للتجارة والحضارة والحكومة في بلاد الهلال الخصيب كلها بل اللغة التي يستعملها سكان تلك البلاد في كلامهم. وكانت فوزها على شقيقاتها اللغات السامية الاخرى بما فيها العبرية تاماً. واصبحت لغة المسيح وشعبه^٢. والاشارة الثانية، ان لم تكن الاولى، للمسيحيين وجدت مكتوبة بالآرامية بحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن ربما كان كنيسة في بومبي مما يجعل تاريخها قبل عام ٧٩ م^٣. وهناك صلاة آرامية تسمى «قدّيش» (المقدس) تشبه الصلاة المسيحية المعروفة بالصلاة الربانية في بعض عباراتها وهي اقدم منها وتبدأ بعبارة «ليتمجد ويتقدس اسمه العظيم»^٤. واسطورة احيقار^٥ الواسعة الانتشار نحووي بعض حكم اشورية او بابلية ولكنها بالآرامية وقد كتبت في القرن السابع او ما بعده.

(١) Olmstead, *History of Palestine*, p. 534.

(٢) انظر بشأن موضوع الآرامية كلجنة التي كتبت بها مادة الانجيل: Charles C. Torrey, *Our Translated Gospels* (New York, 1936).

(٣) راجع: W. R. Newbold, «Five Transliterated Aramaic Inscriptions», *American Journal of Archaeology*, vol. xxx (1926), pp. 288 seq. والاشارة الاخرى هي في اعمال الرسل ١١: ٢٦.

(٤) انظر ما يشبه ذلك في العبرية في حزقيال ٣٨: ٣٢.

(٥) ان هذا البطل الذي يظن انه وضع الامثال قد ذكر لأول مرة في طويبا ١: ٢١ وما يليه ويظهر في عدد من القصص العبرية والسريانية والارمنية والعربية وغيرها. ويسلو تأثيره في قصص ايسوب Aesop.

ولم يقتصر انتشار الآرامية على المناطق السامية . ففي عهد داريوس الكبير (٥٢١ - ٤٨٦) جعلت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الامبراطورية الفارسية وهكذا اصبحت حتى فتوحات الاسكندر اللغة المتداولة في امبراطورية تمتد « من الهند حتى الحبشة ». ان مثل هذا الفوز الذي حققته لغة لا تدعمها سلطة امبراطورية من اهلها ليس له مثيل في التاريخ .

ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الابجدية الفينيقية التي كان الآراميون اول من اقتبسها واستعملت في لغات اخرى في القارة الاسيوية . وحصل العبرانيون على ابجديتهم من الآراميين بين القرنين السادس والرابع وكانوا قبل استعمالون الابجدية الفينيقية القديمة مدة من الزمن . والحروف المربعة التي تطبع بها اليوم كتب التوراة العبرانية نشأت من الكتابة الآرامية . واخذ عرب الشمال ابجديتهم التي كتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الانباط . كذلك حصل الارمن والفرس والهنود على ابجديتهم من مصادو آرامية ، وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من اصل آرامي . وحمل الكهنة البوذيين من الهند الابجدية السنسكريتية الى قلب الصين وكوريا . وهكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريق الآرامية الى الشرق الاقصى وغرباً بطريق اليونانية الى الاميركتين مطوّقة العالم كله .

الكتابات الاثرية

وجدت اقدم الكتابات الاثرية الآرامية المعروفة اليوم في شمالي سورية وتعود الى بدء القرن التاسع . وتوجد بينها كتابة قصيرة من تل حلف (غوزانه^١) . ثم تأتي كتابة اكتشفت حديثاً على نصب نذري على بعد اربعة اميال ونصف شمالي حلب التي كانت تحت حكم دمشق وترجع الى نحو عام ٨٥٠ ق.م . وقد كتب عليها اسم بنحدد الاول والكتابة التالية :

النصب الذي اقامه بار حدد ابن طاب رمآن ابن حاديان ملك آرام لسيدة ملقارت وقد نذره له لانه اضفى الى صوته^٢ .

(١) انظر : Raymond A. Bowman, «The Old Aramaic Alphabet of Tell Halaf», *American Journal of Semetic Languages*, vol. lviii (1941), pp. 359-62; cf. Bowman in *Journal of Near Eastern Studies*, vol. vii (1948), p. 71.

(٢) قارن مع : Maurice Dunand, «Stèle araméenne dédiée à Melqart», *Bulletin du Musée de Beyrouth*, vol. iii (1939), pp. 65-76; cf. Albright, p. 26.

وعلى ذلك فان كتابة زاكر ملك حماة ولعش^١ المشهورة (نحو ٧٧٥) التي كانت تعتبر اقدم كتابة آرامية اصبحت في الدرجة الثالثة في قدمها. وقد اقيم نصب زاكر من قبل هذا الملك الآرامي لتخليد ذكرى انقاذه من هجوم شنه عليه سبعة عشر ملكاً بينهم ملوك دمشق وشمال وعدد من المدن الفينيقية^٢.

واتت كتابات اثرية اخرى تركها الآراميون من زنجبرلي (شمال) وهي مدينتهم الرئيسية في الشمال. وفيما سوى هذه الكتابات على النصب والمباني فان هنالك اوزاناً ومستندات كثيرة عليها كتابات آرامية تتراوح بين القرن الثامن والقرن الخامس ق.م. واوراق البردي الآرامية التي كتبتها جالية يهودية في مصر العليا واكتشفت في الالفنتين (جزيرة اسوان الحديثة) ترجع الى ما بين ٥٥٠ و ٤٠٠ ق.م.

وقد تفرعت اللغة الآرامية مع الزمن الى مجموعتين هما المجموعة الشرقية في وادي الفرات وتمثلها المنذعية والسريانية، والمجموعة الغربية وتمثلها الآرامية التوراتية^٣ والتروجوم ولهجات شمال وحماة والتمرية والنبطية. وكانت تتكلم المنذعية طائفة غنوسطية تسكن قرب الفرات بين القرنين السابع والتاسع م. واصبحت السريانية وهي لغة اديسا لغة الكنائس في سورية ولبنان وبلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحلية، واستعملت بين القرنين الثالث والثالث عشر للنيلاذ ثم حلت العربية محلها. وعندما اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة اديسا وجعلوها لغة الكنيسة والادب والتعامل الثقافي صاروا يعرفون باسم سوريين. واصبح لاسمهم التقديم اي الآراميين مدلول وثني غير مستحب في عقولهم ولذلك تجنبوه بوجه

(١) او لعش وكالت عامتها حزرك وفي التوراة حدواخ (سفر زكرا ١:٩) ولقع على العاصي جنوبي حماة وغربي قلعة. انظر: Olmstead, *History of Palestine*, p. 407; Dussaud, pp. 144, 236-37.

(٢) راجع: H. Pognon, *Inscriptions sémitiques de la Syrie, de la Mésopotamie et de la région de Mossoul* (Paris, 1907), pp. 156 seq.

(٣) وهذه الآرامية موجودة في التوراة في سفر عزرا ٨:٤ حتى ١٨:٦؛ ١٢:٧ - ٢٦؛ وسفر دانيال ٢: ٤ حتى ٢٨:٧. والمبارات الآرامية التي استعملها المسيح المذكورة في انجيل مرقس ٤:١٥؛ ٣٤:٧. وبما ان الآرامية وضمت في سفر دانيال ٤:٢ على لسان الكلدانيين فانها صارت تسمى خطأ كلدانية اذ لغة التي تكلمها الكلدانيون او البابليون الحديثون كانت لهجة من الاكلادية.

العموم وحلت محله التعابير اليونانية وهي سوري Syrian بالنسبة للشعب وسرياني Syriac بالنسبة للغة . ولتذكر ان اليونان كانوا يسمون بلاد آرام «سورية»^١. وكثيراً ما يسمي سكان البلاد سوريين ولغتهم سورية في الترجمة السبعينية للتوراة (Septuagint) وكذلك في الترجمة اللاتينية الشائعة (Vulgate)^٢. وفي التعبير الحديث تقتصر كلمة «سريانية» على لهجات ادنسا والمناطق المجاورة .

الحضارة المادية

اقتبس الآراميون الحضارة المادية للشعب الذي سكنوا بين ظهرانيه . ففي شمالي سورية اصبحوا وراثاً ومتابعين لعمل الحضارة الحثية الاشورية وفي سورية الوسطى ورثوا الحضارة الكنعانية وتابعوها . واتخذت عاصمتهم شمالاً^٣ في الشمال الغربي مظهر مدينة حثية ولكن ملوكها كانوا يتسمون باسماء آرامية على الغالب وتركوا كتابات اثرية بحروف فينيقية . وكانت هذه المدينة من المدن الآرامية النادرة التي جرت فيها حفريات اثرية .

وقد اقام احد ملوك شمال واسمه بنامو الاول الذي عاش في النصف الاول للقرن الثامن تمثالاً ضخماً للاله حدد ارتفاعه تسعة اقدام ونصف ظهر فيه الاله بقبعة ذات قرنين وحية مستديرة مجمدة وعينين منزلتين بالحجارة الكريمة وذراعين ممتدتين لاعطاء البركة^٤. وتقول الكتابة التي تحت زنار التمثال ان م الملك الاكبر كان سعادة شعبه . ويذكر ان الارض التي منحتها اياها الآلهة المحسنة كانت «ارض شعير وقمح وثوم ويعمل الرجال في حرث تربتها وزرع كرومها»^٥. وهناك تمثال تذكاري لبنامو الثاني (٧٣٢ م) اقيم غالباً فوق ضريحه من قبل ابنه ويقول:

(١) انظر ما جاء في ص ٦٦ عن اشتقاق اسم سورية .

(٢) قارن مع سفر حزرا ٧:٤؛ دايايل ٤:٢ .

(٣) شمال ومماها «الشمال». وتقع قرية زنجيرل الحديثة في منتصف الطريق تقريباً بين انطاكية ومرعش وكانت المدينة الرئيسية في شمال او شمال .

(٤) اكتشف هذا التمثال في ١٨٩٠ في كارجين Garzin على بعد ميل ونصف شمال غربي زنجيرل .

(٥) انظر : Cooke, p. 161; Arno Poebel, *Das appositionnelle Pronomen (Chi-* انظر : cago, 1932), p. 43. وسمي بنامو نفسه «ملك يؤودي Ya'udi» ويقابل هوذا .

«وفي أيام ابي بنامو عيّن حاملين للكؤوس وسائقي مركبات»^١ وبذلك زاد في فخامة البلاط الملكي .

ويظهر شكل ابن بنامو الثاني واسمه بار ركّاب منحوتاً بشكل بارز على عرش محفور حفراً فخماً في الابنوس والعاج والذهب ولا يقل ابهة عن عرش سيده ملك اشور . ويرتكز العرش على مخروطيات الارز وفي زوايا المقعد الاربعة رؤوس ثيران . وتحت قدميه يوجد كرسي يمثل هذه الزخارف الفنية . وثوبه الطويل ذو الحواشي وقبعته المروسة من النوع الخبي . اما لحيته وتجاعيد شعره فانها تتبع الاسلوب الاشوري .

حدد الرّاعد

والاله الذي كان يوجه الآراميون اعظم اهتمام لعبادته كان حدد اله الزوابع والرعد ويسمى ايضاً أدد او أدو Addu . وكاله للبرق والرعد كان حدد مفيداً حين يرسل المطر الذي ينحصب الارض وكان مضراً حين يرسل السيول . ومن القابه ريمون (الرّاعد)^٢ . وكان نعمان السوري يسمي اله سيده ملك دمشق بهذا اللقب^٣ . وكان الاسمان يستعملان معاً احياناً فيقال حدد ريمون . ويظهر في نحت بارز من زنجري حاملاً الشوكة ذات القضبان الثلاثة والمطرقة رمز البرق والرعد . وفي ملاطية يبدو في شكل منحوت واقفاً على ظهر ثور وهذا رمز القوى المولدة . وكان ام معبد لاله حدد في هيرابولس (منبج)^٤ ولكن له معابد في مدن سورية اخرى كثيرة وفي لبنان . وكان محبوباً بصورة

(١) قارن مع : Cooke, p. 174; Mark Lidzbarski, *Handbuch der nordsemitischen Epigraphik*, vol. i (Weimar, 1898), p. 443.

(٢) يبدو ان الاكديين استماروا هذه الكلمة (التي لا تتصل بطريق الاشتقاق بكلمة رمون rammon اي الرّمان) من المناطق الغربية . وكان الاشوريون يلفظونها رمان . وقد يكون اسم حدد اشتق من فعل لا يزال في اللغة العربية وهو هدّ بمعنى كسر او هدم .

(٣) سفر الملوك الثاني ٥ : ١٨ .

(٤) بالاشورية Nampigi وبالارامية Nappigu (وفيها بمسد اصبحت مايج Mabug او Mabbog بمعنى تبع من فعل nbag اي تبع) وباليونانية Bambyee وفي اليونانية الرومانية هيرابولس اي المدينة المقدسة، واليوم منبج .

خاصة بين المزارعين في سورية وامتزجت عبادته فيما بعد بعبادة الشمس وزخرف رأسه عند ذلك بالاشعة كما في بعلبك. وفي الغالب يجب اعتبار جوبيتر هليوبوليتانس الذي عبد في بعلبك معادلاً للاله حدد. وفي العصر الروماني تبدل اسمه فاصبح جوبيتر الدمشقي (Jupiter Damascus) .

وقد أمر بنامو الاول ابنه في الكتابة التي تركها على تمثال حدد ان يتلو العبارة الآتية عندما يقدم الذبائح : « لتأكل روح بنامو مع حدد ولتشرب روحه مع حدد ولتفرح بالتقدمة لحدده^١. ويعطينا ذلك فكرة طريفة عن فكرة الآراميين القدماء في الحياة الآخرة. وعرف الآراميون بعبادة تسمية ابنائهم « بار حدد» اي ابن حدد او ابن آلهة اخرى محببة لديهم. وبقيت هذه العادة شائعة في سورية حتى العصر المسيحي وتلقي ضوءاً مفيداً على العلاقة المفترضة بين الاله والذي يعبده .

اتارغاتس

وعبدت رفيقة حدد او زوجته وهي الالهة نوالد في هيرابولس وفي مراكز سامية اخرى باسم اتارغاتس Atargatis^٢. وكان اليونان والرومان يتسبطون الامر فيسمونها «الالهة السورية». وقد اتانا وصف لعبادتها من العصر الكلاسيكي كتبه لوكيانس^٣ وهو سوري من سميساط ولد حوالي ١٢٥ م. وكان يكتب باليونانية. وصفات عبادتها كما كتب عنها لوكيانس هي صفات عبادة الالهة الام السامية وفي النقود التي انت من هيرابولس تراها تلبس تاجاً ويصحبها اسد احياناً. ويتألف

(١) انظر : Cooke, p. 162; Poebel, p. 48.

(٢) وهذا الشكل اليوناني للاسم مأخوذ من الآرامية عتار Atār اي عشتارت بالإضافة الى الآرامية عتاه Atāh (ولا علاقة لها بالآلهة الفرجية آتيس Attis). وكانت عبادة عتار وعتاه بالاصل عبادتين ساميتين مختلفتين ثم اندمجتا. انظر : S. Ronzevalle, « Les Monnaies de la dynastie de 'Abd-Hadad », *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, vol. xxiii (1940), No. 1, p. 26.

(٣) في كتابه De Dea Syria. انظر نس الكتاب وترجمته في : *The Syrian Goddess*, tr. Herbert A. Strong, ed. John Garstang, (London, 1913); ed. and tr. A. M. Harmon, « The Goddess of Surrye, in *Lucian*, vol. iv (London, 1925), pp. 337-411.

رمزها من الهلال مع قرص الشمس . وكان لها معبد في كرنيون Carnion^١ في جلعاد . وكانت عسقلان في فلسطين مركزاً لعبادتها حيث اعتبرت غالباً معادلة لافروديت .

وانتشرت عبادة اتارغاتس بين اليونان في العصر السلوقي وبواسطتهم وصلت الى رومة حيث اقيم معبد باسمها . وتشاهد في الآثار الرومانية جالسة على عرش بين اسدين . وكان كهنتها عموماً من الحصيان الذين اعتادوا القيام برحلات الى اليونان وايطاليا لنشر عبادتها بواسطة التنبؤات والرقص الروحاني وجمع تبرعات الاتقياء لاجل معبدها في هيرابولس .

وهناك نموذج غريب لاتارغاتس على النقود من هيرابولس حيث تظهر محجبة . ووجدت صور اخرى كثيرة لاتارغاتس المحجبة^٢ . وتظهر رسوم نساء محجبات بحجاب ثقيل يشبه حجاب اي مسامة محافظة اليوم على نقش من معبد بعل في تدمر وفي لوح منحوت من دورا اوربس . وترينا بعض الآثار الاخرى الرأس محجباً . ويبدو ان الحجاب كان في الشرق القديم رمز المرأة المتزوجة ولباسها المفروض . وكان التشريع الاشوري من منتصف الالف الثاني ق.م . يتطلب من نساء الرجال الاحرار وبناتهم ان يغطين رؤوسهن حين يخرجن الى الشارع^٣ .

وكانت مجموعة الآلهة الآرامية تضم فيما سوى الزوج الالهي حدد واتارغاتس عدداً من الآلهة الاخرى ذات المكانة الثانوية بعضها محلي والبعض الآخر مستعار من الامم المجاورة . وكانت الآلهة حدد وايل وركاب ايل وشمس ورشوف هي التي اعطت الملك بنامو الاول الصولجان في الكتابة الاثرية التي تركها ومنحته الاشياء

(١) وهي Karnion او Carnain التي هي على الغالب Ashteroth Karnaim (اي عشتاروت ذات القرنين) المذكورة في سفر التكوين ١٤:٥٠ . والموقع الحالي هو إما تل عشترا على احد عشر ميلاً شمال غربي دوعا أو تل الاشعري على اربعة اميال جنوبي تل عشترا وهذا اكثر احتمالاً .

(٢) انظر : Rouzevalle, pp. 25-26.

(٣) راجع : V. Scheil, *Recueil des lois assyriennes* (Paris, 1921), §§ 41, 42; Morris : *Jastrow, Jr., «An Assyrian Law Code», Journal American Oriental Society, vol. 1921*, pp. 34-38. انظر بشأن الحجاب في الشرق القديم : Morris Jastrow, «Veiling in Ancient Assyria», *Revue archéologique*, vol. xiv (1921), pp. 209-38; R. de Vaux, «Sur le voile des femmes dans l'orient ancien», *Revue Biblique*, vol. xlv (1935), pp. 397-412.

التي حلى لاجلها . وركّاب او سائق المركبات هو اله مستورد الى سورية مع اله الشمس الاشوري . وشمس الاشوري هو اسم اله الشمس الذي كان يعبد في العالم السامي كله . ورشوف هو الاله الفينيقي رشف الذي كان كثيراً ما يمثل بشكل جندي مسلح . وفي كتابة زاكر ملك حماة يرفع هذا الملك يديه لبعل شمين (سيد السموات) ويقول : «كل من يحو اسم زاكر ملك حماة ولعش من هذا النصب او يخربه من امام ايل وير El Wer او يزيله من مكانه او يمد يده ضده . . . فان بعل شمين وايل وير وشمس وسهر وآله السماء وآله الارض . . . ستهلكه»^١ . ويتضح ان بعل شمين هو حدد ولكن هوية ايل وير لم تعرف بعد . وسهر^٢ هو الاله القمر . وكانت حران مركز الاله القمر الذي يسمى سين عند الاشوريين . ويرد ذكر هذا الاله على حجر تياه^٣ التي ترجع كتابتها الى القرن الخامس ق.م . باسم شنگالا Shingalla وهو اسم اشوري مستورد معناه سين العظيم . والالهان الآخرا المذكوران على هذا الحجر هما سلم (بمعنى صورة او تمثال) ويشير غالباً الى بعل المحلي ، وعاشرة^٤ .

(١) انظر : Pognon, p. 176; Mark Lidzbarski, *Ephemeris für semitische Epigraphik*, vol. iii (Geissen, 1915), pp. 4, 11.

(٢) وتأتي كلمة شهر العربية من هذا الاصل .

(٣) تياه هي واحة في شمالي الحجاز .

(٤) Cooke, pp. 196-197. انظر ما جاء بشأن عاشرة في ص ١٣٠ .

الفصل الثالث عشر الشعب العبراني

كان العبرانيون الشعب السامي الرابع الرئيسي الذي سكن سورية بعد الاموريين والكتنانيين والآراميين. وكان اهم مركز للاحداث السورية في عهد الاموريين في الشمال في منطقة الجسر السوري. وانتقل مركز هذه الاحداث في زمن الكتنانيين الى الساحل، وكان في زمن الآراميين في الداخل، اما الآن فقد تحول مع العبرانيين الى الجنوب اي فلسطين.

اصل العبرانيين

كان دخول العبرانيين الى كتعان - كما كانت تسمى سورية الجنوبية حينذاك - نتيجة ثلاث هجرات كما يظن ولكن هذه الهجرات غير محددة بالضبط. فقد بدأت موجة الهجرة الاولى في بلاد الرافدين وكانت معاصرة تقريباً للحركة التي حصلت في القرن الثامن عشر وكان من شأنها انتشار المكسوس والحوارين في ساحل البحر المتوسط الشرقي^١. واتصلت الهجرة الثانية بالآراميين في القرن الرابع عشر في عصر العمارنة. واما الهجرة الثالثة التي نعرف عنها اكثر بكثير فقد اتت من مصر والجنوب الشرقي بقيادة موسى ويشوع في اواخر القرن الثالث عشر^٢. وكان الكتنانيون يشكلون معظم السكان عندما اتى الرواد اسلاف الشعب العبراني من بلاد الرافدين. وكان الاموريون يسكنون المرتفعات التي لم يجتلبها جماعة مستقرون بصورة كثيفة وهذا ما اعطى للقادمين الجدد مجالاً للسكنى. وكانت توجد اقوام اقل شأنًا في اماكن متفرقة وبعيدة.

(١) انظر ص ١٦١ و ١٦٢.

(٢) قارن مع: Theophile J. Meek, *Hebrew Origins* (New York, 1936), pp. 3 seq.

وتزواج السكان الجدد مع جميع هؤلاء وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف باصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية وغير ذلك من العناصر غير السامية .

وقد برهنت سورية مرة اخرى بعد مجيء العبرانيين على مقدرتها في امتصاص الدخلاء الرحّل او نصف الرحّل بتشجيعهم على ان يصبحوا مستقرين وان يتروكوا ذلك المصدر الغريب لقوتهم وهو التنقل . فقد اتى الشعب الذي عرف فيما بعد بالعبرانيين بشكل متجولين ومغامرين ومرترقة وجنود لا ارتباط لهم ثم استقروا بالتدريج بين السكان الذين سبقوهم وفاقوهم في مدنيتهم وتعلموا منهم حث الارض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم واهم من ذلك القراءة والكتابة . ويضاف الى هذا كله ان العبرانيين تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم . واللغة الفينيقية واللغة العبرانية القديمة كما هي مدونة في العهد القديم لا تختلفان الا من ناحية اللهجة . واصبح العبرانيون القدماء بوجه الاجمال ورثة المظاهر الاساسية للحضارة الكنعانية المادية واتباع كثير من العبادات والعادات والصفات الدينية الكنعانية .

الدور القبلي

يحيط الغموض ببداية وجود العبرانيين في سورية الذي سجل بشكل اسطوري تقليدي . والمرويات العبرانية المذكورة بشكل مختصر جداً تقول ان ابراهيم^١ - جدم الاكبر او قبيلتهم الاصلية - اتى من اور في بلاد الرافدين بطريق حران واقام موقتاً قرب جبرون (الخليل) . وترك وريثه اسحق^٢ ابناً اسمه يعقوب^٣ . وبعد ان اقام يعقوب في فدان آرام عدة سنوات وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الشأن تفضيلاً له على اخيه عيسو^٤ وتغير اسمه فاصبح اسرائيل^٥ . وحصل

(١) بالعبرية ابرام abh-rām اي الآب رفيع او عالي .

(٢) من العبرية Yīshāq اي ليثيم [ايل] .

(٣) من العبرية Ya'qōbb, اي ليحفظ [ايل] .

(٤) انظر سفر التكوين ٢٥:٢٣، ٢٧-٣٤ .

(٥) بالعبرية Yisrā-'ēl او ليحكم ايل او ايل يحكم .

عيسو على اسم آخر وهو ادوم (اي احمر) وحل ورثته فيما بعد محل سكان منطقة جبل سعير وعرفوا باسم الادوميين^١. وهكذا ازيل عيسو من حياة العبرانيين وتفكيرهم كما ازيل قبلاً اسماعيل^٢ ابن ابراهيم من جاريته المصرية هاجر وفضل عليه اسحق. وبين اولاد يعقوب الاثني عشر كان يوسف^٣ الحادي عشر وهو الابن الاكبر لراحيل وقد باعه اخوته لجماعة في مصر وارتفع شأنه في الدولة المصرية. وبعد ان اقام ورثة يوسف واخوته اجيالاً عديدة في مصر عادوا الى فلسطين تحت قيادة موسى.

ذلك هو مختصر التاريخ العبراني القديم كما وضعه كتاب عاشوا بعد وقوع الحوادث بمئات السنين واستندوا على ما سمعوه وعلى سلسلة طويلة من المروييات الشفهية.

لم يكتب هؤلاء المؤرخون بابتداء مروييتهم بالجد الاكبر للشعب العبراني فتوسعوا في قصة الانسان ولخصوها مبتدئين بالخلقة. واخذوا في ذلك موادهم من مصادر بابلية ولم يصبح هذا الامر محققاً الا بعد منتصف القرن الماضي حين كشف تفسير الكتابات المسبارية عن وجود ما يقابل قصص الخليقة والطوفان وغيرها. غير ان هذه القصص هذبت وبُسطت وصار لها مغزى اخلاقي على يد الكتاب العبرانيين ثم كتبت بشكل جميل حتى انها اصبحت قسماً من تراث البشرية الادبي. وهي لا تزال بشكلها هذا تسلي وتعلم اجيالاً من القراء في جميع البلاد وفي مختلف اللغات.

انه ليتضح ان التاريخ الذي كتبه العبرانيون، مما سبق الدور القبلي ليس بتاريخ. وليس من السهل استخلاص لب الحقائق التاريخية من المروييات التي تتعلق بالدور القبلي نفسه. وقد تمكس لنا قصة ابراهيم اخبار الهجرة الاولى كما ان قصة اسراييل قد تكون انعكاس الهجرة الثانية. وأما قصة موسى فهي تاريخية بالتأكيد.

(١) سفر التثنية ٤:٢، ١٢، ٢٢.

(٢) من العبرية يشع ايل Yishma'el اي ليسع ايل.

(٣) بالعبرية ياسف Yāsaph اي يضيف [ايل].

الخروج من مصر

يبدأ تاريخ بني اسرائيل الحقيقي كشعب اذاً بالخروج من مصر. ان هذا الحادث الهام حصل في الثلث الاخير للقرن الثالث عشر. فقد وجدت احدى القبائل العبرانية - وهي قبيلة راحيل - في مصر في زمن المكسوس مأوى لها وازدهرت. وكان مكان سكنها هناك ارض غوشن Goshen قرب افاريس Avaris عاصمة المكسوس. واخيراً اتى فرعون « ولم يكن يعرف يوسف » وفرعون هذا هو رعمسيس الثاني كما يعتقد (حوالي ١٣٠١ - ١٢٣٤). وقد حصل الخروج غالباً في عهد مرفتاح ابن رعمسيس (١٢٢٤ - ١٢١٥). ويجوي نصب في طيبة بتاريخ ١٢٣٠ ق. م. اقدم ذكر لاسرائيل كاسم شعب في فلسطين. وربما كانت الاشارة لجماعة من الاسرائيليين الذين لم يهاجروا الى مصر.

بعد ان غادر افراد قبيلة راحيل ارض مصر في اوائل القرن الثالث عشر قضاوا عدة سنوات في سيناء وجوار قادش - برنيا^١ حيث تعرضوا لمناعب كثيرة. ان تلك « البرية العظيمة الخيفة » التي ظلت مخاطرهما تراود العبرانيين لمدة اجيال يمكن اجتيازها اليوم بمدة خمس ساعات على طريق من الاسفلت طولها ١٤٠ ميلاً تصل مصر بفلسطين. وفي مدين وهو القسم الجنوبي من شبه جزيرة سيناء وضع العهد الالهي. وتزوج زعيم الاجرائيليين موسى الذي يسمونه ككلمة مصرية معناها « ابن » من ابنة كاهن مدين الذي يعبد يهوه^٢ والذي علم موسى هذه العبادة الجديدة. وكان هذا الاله العربي الشمالي اله صحراء وبالاصل اله القمر ومقره كان خيمة وطقوسه تشمل بعض الاعياد والتضحيات من بين القطيع^٤. وتزوج آخرون غالباً مع المدينيين والقينيين^٥ وسائر سكان بادية شمالي الجزيرة العربية.

(١) سفر الخروج ١: ٨.

(٢) يظن انها عين قديس اليوم على بعد ٥١ ميلاً جنوبي يثر السبع.

(٣) سفر الخروج ١٨: ١٠؛ ١٨: ١٠؛ ١٢. وكلمة يهوه (بالانكليزية Jehovah) من العبرية التي قد تكون صيغة المضارع من فعل هوّه بمعنى أحدث.

(٤) سفر الخروج ١٨: ١٨؛ ١٥: ١؛ سفر العدد ١٠: ٣٥ - ٣٦.

(٥) اي الحدادين (بالعربية قين بالفرد)؛ سفر القضاة ١٦: ١؛ ١١: ٤؛ سفر العدد ١٠: ٢٩. وكان المصريون وعرب الجزيرة العربية يملون عن وجود المادن في سيناء ووادي العربية قبل هذا العصر بكثير.

السكنى في فلسطين

وفي حوالي ١٢٥٠ ق. م. ظهر هؤلاء البداء المتحدرون من اخلاط العشائر في الجهة الجنوبية الشرقية من سورية - اي من بادية شرقي الاردن - وهدفهم احتلال الاراضي الخصبة. وكان عددهم لا يمكن ان يتجاوز ستة آلاف او سبعة آلاف^١ اذا اعتبرنا شروط حياة الصحراء وقلة المياه والكمية المحدودة من الطعام والاراضي الصالحة لرعي القطعان. وتجنب العبرانيون بمالك ادوم ومؤاب وعمون الصغيرة التي تقع الى جنوبي البحر الميت وشرقيه وشماليه الشرقي ولم يحاولوا اخضاعها حتى عهد الملكية.

وكان اول فوز عبراني في شرقي الاردن على سيحون ملك الاموريين وتبعه فوز آخر على عوج (Og)^٢ الملك الجبار ملك باشان. وفي فلسطين نفسها كانت من بين المدن الاولى الكنعانية المحصنة التي سقطت لحيش (تل الدوير)، وعاي (Ai)^٣ واريحا. وكان سقوط اريحا من اروع هذه الحوادث^٤. فقد احرق يشوع اريحا بالنار بأسر يوه «وكل ما بها»^٥. ولم تسقط مجدو في الشمال حتى بعد حوالي مائة سنة. وأدى التغلغل العبراني في الجليل الى فتح حاصور^٦ موقماً وهي عاصمة مملكة كنعانية في الشمال. وكان على العبرانيين ان يعيدوا فتحها في عهد القضاة^٧. ولم تسقط المدن الاخرى المهمة مثل بيت شان وأورشليم وجزر حتى حوالي ١٠٠٠ ق. م او بعد ذلك بقليل.

(١) قارن مع سفر الخروج ١٢: ٣٧؛ العدد ٢١: ١ وما بعده؛ ٤: ٢ وما بعده.

(٢) سفر العدد ٢١: ٢١ وما يليه؛ ٣٣: ٢١ وما يليه.

(٣) قرب دير ديوان الحالية. يشوع ١٠: ٣٠ - ٣١؛ ٣: ٨ وما يليه.

(٤) يشوع ٦: ١٥ وما يليه.

(٥) يشوع ٦: ٢٤؛ ٦: ٢٤.

(٦) تل وقاص او تل القدح وهو على نحو ٣ ٣/٤ الميل غربي جسر بنات يعقوب. سفر يشوع

١٠: ١١ - ١٣.

(٧) سفر القضاة ٤: ٢٣ - ٤: ٤؛ صموئيل الاول ١٢: ٩.

ومع ذلك فان ما يسمى بالفتح العبراني كان من جهة فتحاً عسكرياً ومن جهة اخرى تغلغلاً سلبياً بطيئاً الى ارض « اللبن والعسل ». وبعد ان حصل القادمون الجدد على محط رجل في الارض المزروعة فان قوتهم ازدادت بالتزاوج مع عناصر اقدم وبانضمام اقاربهم اليهم وكانوا قد بقوا في البلاد ولم يهاجروا الى مصر. وهكذا اصبحوا يسودون البلاد. وكان من الطبيعي ان تكون المعارك عظيمة الشأن بالنسبة لمؤرخيهم. ولم تكن تلك المعارك نقطة الارتكاز في المرويات فحسب وانما كثيراً ما حصلت مبالغة في كثير من الحوادث. ويمكن القول بالاجمال ان العملية حصلت باخضاع سكان البلاد للعبرانيين بطريق المعاهدة او الفتح او الامتصاص التدريجي.

وعندما سيطر العبرانيون على البلاد كانوا يقسمونها بين القبائل الاحدى عشرة وتركوا قبيلة لاوي الكهنوتية موزعة بين سائر القبائل لتهم بشؤونها الدينية. وهكذا سكنت قبيلتنا يهوذا وبنيامين في الاراضي المرتفعة لحوال اورشليم بينما استقرت القبائل الاخرى في السهول الاكثر خصباً في الشمال.

القضاة

شملت فترة الاستيطان تقريباً الربع الاخير للقرن الثاني عشر والارباع الثلاثة الاولى للقرن الحادي عشر وهي تقابل ما يسمى بعصر القضاة. وكان هؤلاء القضاة بالحقيقة ابطالاً وحكاماً وطنيين ظهروا بصورة عفوية في ايام الشدة وقادوا شعبهم ضد الاعداء المجاورين او الحكام الاجانب. وكانت دبورة وهي أم ملهمة في اسرائيل من اولئك القضاة وقد قادت مع باراق ست قبائل للنصر على الكنعانيين في الشمال^١. وكذلك كان جدعون الذي رد هجوم المديانيين ومعه ٣٠٠ رجل^٢. وكان شمشون اشهر اولئك القضاة وقد ازدانت قصة نزاعه مع الفلسطينيين باضافات كثيرة على يد القصاصين العبرانيين^٣. واتى المديانيون كغزاة من البدو واستخدموا

(١) سفر القضاة ٤ : ٤ - ١٤ .

(٢) القضاة ٧ : ١٥ وما يليه .

(٣) سفر القضاة الاصحاح ١٥ و ١٦ .

لاول مرة الجمل المدجن . وهكذا ادخلوا سلاحاً جديداً في الحرب وكان له مفعول عظيم خاصة في الغزو على مسافات بعيدة .

الفلسطينيون

وكان الفلسطينيون اقوى المنافسين الذين كان على العبرانيين ان يقاتلهم لامتلاك البلاد . والفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين اتوا من منطقة بحر ايجة . وبعد ان فتح العبرانيون المرتفعات الوسطى بقليل سيطر الفلسطينيون على البلاد الساحلية . وقد اذت حركات غامضة للشعوب في آسية الصغرى والبلاد الايجية في اواخر القرن الثالث عشر الى تفرق قبائل بكاملها فبحثت عن موطن لها في مناطق اقل اضطراباً . وتوافدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريق البر والبحر نحو سورية وبعد تقويضها بعض الدول ومنها اورغاريت^١ وصلت الساحل المصري . وقد هزمت هناك حوالي ١١٩١ ق . م . في معركة بحرية وبوية عن يد رمسيس الثالث ولكنه سمح لها ان تنزل بصورة دائمة في ساحل سورية الجنوبية الذي صار يسمى فلسطينيا Philistia^٢ . واستقرت مجموعة اخرى تسمى التجكر Tjeker في دور Dor جنوبي جبل الكرمل حيث صادفهم المبعوث المصري ون آمون بعد قرن تقريباً^٣ . وكان نشاط لصوص البحر في شرقي البحر المتوسط في زمن ون آمون مصدره جواله البحار هؤلاء . وكان قد اتى قبل الغزوة الفلسطينية جماعة آخرون من شعوب البحر من اليونان وآسية الصغرى وبعضهم اتى بطريق قبرص وتزلوا في الساحل المصري حيث صدم مرتفات حوالي عام ١٢٢٥ ق . م .

ملتهم الخمس

امتد الساحل الذي استولى عليه الفلسطينيون بصورة دائمة من غزة حتى جنوبي

(١) انظر ص ١٢٧ - ١٢٩ . وقد هدمت صور بعد ذلك بمدة قصيرة .

(٢) انظر 403 Breasted, Records, vol. iv, § حيث يوجد اول ذكر لاسم «بليست» Palaeste اسم مكان في منطقة الليرة وهي ابروس . انظر : G. Bonfante . «Pelest «Who were the Philistines?» American Journal of Archaeology, vol. L (1946), p. 251.

(٣) انظر ما جاء في ص ١٤٤ - ١٤٥ .

بافا . واهم المدن التي استوطنوها كانت غزة وعسقلان واشدود وعقرون Ekron وجت^١ Gath واحتفظت باسمائها السامية تحت حكمهم . وكانت جت^٢ أبعد مدنهم في الداخل وسياستهم كانت ان يظاوا قريبين من البحر حيث يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التي تغطيها الكروم فيما وراءه . وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الساحلية وبين بلاد الفينيقيين في الشمال . ولم يؤسس الفلسطينيون مستعمرات ما عدا مدينتي اللد وحقلغ^٣ Ziklag اللتين يمكن استثناءهما . وقد توسعوا من المنطقة الساحلية في الداخل واستولوا على عدد من المدن الكنعانية وتزوعوا السلاح من السكان . وكانت حملات الفراعنة المتتابة لمقاومة سورية وفرض مختلف المطالب عليها قد افقرتها واضعفت مقاومتها امام هجوم قبائل البادية وقرصان البحار . وما كان باستطاعة الفلسطينيين ولا العبرانيين ان يصيبوا ذلك النجاح في تثبيت اقدمهم في البلاد لو ان مصر الامبراطورية كانت لا تزال قادرة على السيطرة التامة عليها .

وبما يساعد في الدلالة على ان الفلسطينيين كانوا اوريين الرسوم التي وجدت على البناء التذكاري الذي اقامه رعسيس الثالث . كما يدل على قدمهم من جزر اليونان وخاصة كريت^٤ نموذج الخزف الذي ادخلوه . وبما انهم اتوا معهم بنسائهم فانهم ظلوا مترفين في اول الامر يشكلون طبقة عسكرية اجنبية تقيم في الحاميات وتمثل حضارة اجنبية . وقد نظمت مدنهم الخمس بشكل بمالك مدن كل منها تحت حكم سيد^٥ ولكنها جميعها كانت تشكل اتحاداً . ويبدو ان السيادة كانت لمدينة اشدود . وتظهر صورة احد اسياهم بلحية على الشفة السفلى وشعر مجدول على الجانب على غطاء تابوت من الخزف وجد في بيت بيت^٦ Beth-pelet (خربة المشاش) قرب بئر السبع في اقصى جنوبي اليهودية .

(١) وقد تكون تل عرق المنشية على ستة اميال ونصف غربي بيت جبرين (Eleutheropolis) .

(٢) وهي في اقصى جنوبي منطقة يهوذا وربما كانت تل الخويلفة على عشرة اميال شرقي تل الشريعة .

(٣) وقد ذكرت بلسم كفتور في سفر عاموس ٧:٩؛ سفر ارميا ٤٧: ٤ .

(٤) وردت في التوراة العبرانية باسم سرن^٧ saren في سفر يشوع ١٣:٣؛ القضاة ٣:٣؛ ١٦:٥؛ صموئيل الاول ٦: ١٦ وهي من الكلمات الفلسطينية القليلة الباقية . وكلمة اخرى هي «كوبع» بمعنى خوذة واتت الى العربية (تبع) بطريق العبرية ورجعها البعض الى الحثية . وكلمة capnt اللاتينية تعود الى نفس الاصل .

وكانت ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادي عشر. فقد كسروا العبرانيين حوالي ١٠٥٠ ق.م. واخذوا منهم تابوت العهد وحملوه الى اشدود^١. وفي نحو عام ١٠٢٠ كانوا يقيمون في حاميات في البلاد المرتفعة نفسها. وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (توفي نحو ١٠٠٤) على مدن بعيدة في الداخل مثل بيت شان^٢. ولا يمكن ان يعني ذلك الا ان الفلسطينيين كانت لهم اليد العليا بالنسبة لبني اسرائيل.

والذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصورة خاصة على اعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصهر واستخدام الحديد لاجل اسلحة الدفاع والمجوم. وهناك صورة خاطفة لمحارب فلسطيني مزود بالاسلحة المعدنية في قصة جليات الذي كانت قناة ربحه «كنول النساجين» وسنان ربحه كان يزن «ست مئة شاقل حديد» والذي كان ترسه ثقيلاً جداً حتى انه احتاج الى حامل ترس خاص «يمشي قدامه»^٣. وقد عرضت بعض حوادث البطولة الحربية الشهيرة عند العبرانيين كما في قصتي شمشون وداود لتعارض مع مظاهر هذه القوة لدى الفلسطينيين.

الحديد

واستثمر الفلسطينيون معرفتهم في صهر الحديد واستخدامه حتى انهم احتكروها. وكانوا يضطرون الاسرائيليين الذين يريدون تحديد آلاتهم الزراعية وادواتهم القاطعة ان يذهبوا الى حدادين فلسطينيين^٤. وكان هذا العائق الكبير في ايام الحرب كما اتضح مما جرى في عهد شاول.

(١) سفر صموئيل الاول ١:٥. انظر بشأن صلة تابوت العهد بما يشبهه وما جاء قبله عند الساميين — اي القبة قبل الاسلام عند العرب والمحمل في الحج عند المسلمين والمطرفة عند البدو — Julian Morgenstern, *The Ark, the Ephod and the «Tent of Meeting»* (Cincinnati, 1945), pp. 1 seq.

(٢) سفر صموئيل الاول ١٣:٣ وما يليه؛ ٣١:١٢.

(٣) سفر صموئيل الاول ١٧:٧.

(٤) سفر صموئيل الاول ١٣:١٩ — ٢٢.

وكان الحثيون قبل قدوم الفلسطينيين قد استخدموا الحديد بصورة محدودة في اوائل القرن الثالث عشر كما يستدل من مراسلات حتوشلش وكان مصدر الحديد المناطق الواقعة على البحر الاسود. غير انه لم يصبح استعمال هذا المعدن شائعاً في سورية حتى قدوم الفلسطينيين. وحافظ الحثيون على اسرار صناعته بحرص شديد كما فعل الفلسطينيون من بعدهم. وقد تفوق الكنعانيون الذين تعلموا من الفلسطينيين استخدام المركبات الحديدية تفوقاً حاسماً على الغزاة الاسرائيليين^١.

ولم يحصل غير الفلسطينيين على معرفة صهر الحديد المعقدة الا في ايام حكم داود (توفي نحو ٩٦٣) حين ضعفت سلطة الفلسطينيين في البلاد^٢. فانه عدا عن تغلبه على الفلسطينيين قد فتح ايضاً بلاد ادوم التي كانت مصدراً غنياً للحديد الخام. وكان هذا المعدن موجوداً في لبنان ايضاً وتعلم الفينيقيون استخدامه في بناء سفنهم. وهكذا فان الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة ام وهي عصر الحديد. وكان ذلك اهم فضل لهم.

وفوق ذلك فانه يمكن الاعتقاد بانهم اعطوا جيرانهم وورثتهم الفينيقيين ميلاً للاسفار البحرية البعيدة كان من نتائجه استكشاف البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الاطلسي الشرقي. وفيما سوى هذا وبقياً قليلة للحضارة المادية بشكل خرف وآلات زراعية ومطارق وازاميل حديدية فان الفلسطينيين كادوا ان لا يتركوا اثرأ يمكن ان يذكرنا بهم. وكجماعة اجنبية فانه لم يكن لهم ما يضمن بقايم سوى تجديد عددهم بواسطة الهجرة وذلك امر مستحيل في تلك الظروف، وفي نهاية حكم داود اخذوا يتجهون نحو الزوال كمشعب. ومع الزمن تأثروا بالساميين واندمجوا بهم ولم يتركوا الا اليسير جداً لمعرفة لغتهم وديانتهم وعمارتهم وسائر مظاهر حضارتهم. وعندما كتب نحياً^٣ في منتصف القرن الخامس لم يذكر الفلسطينيين بل

(١) يشوع ١٧: ٢؛ القضاة ١: ١٩.

(٢) اخبار الاليم الاول ٢٣: ٣.

(٣) سفر نحياً ٤: ٧؛ ١٣: ٢٤.

ذكر «الاشدوديين» الذين كانوا يتكلمون بلسان اشدودي . ومن اسماء الاشخاص النادرة التي وصلتنا اسم «أخيش»^١ . ومن آلتهم داجون^٢ اله الحبوب كما يعني هذا الاسم وقد اقتبس من آلمة الكنعانيين . وكان مركز عبادته اشدود ومقر رفيقته عشتاروت كان في عسقلان . اما عمارة معبد داجون وقصر الحاكم او السيد في غزة^٣ وسائر معايد الفلسطينيين المذكورة في العهد القديم فاننا لا نعرف عنها شيئاً .

(١) سفر صموئيل الاول ٢٧: ٢ .

(٢) سفر القضاة ١٦: ٢٣ ؛ صموئيل الاول ٥: ٢-٧ ؛ اخبار الايام الاول ١٠: ١٠ ؛ سفر المكابيين الاول ١٠: ٨٤ .

(٣) سفر القضاة ١٦: ٢٣ وما يتبع .

الفصل الرابع عشر المملكة العبرانية

المملكة المتحدة

كانت مقاومة العبرانيين للفلسطينيين بصورة خاصة فرصة سنحت لتأسيس المملكة العبرانية . وبالحكومة الملكية يبدأ تاريخ الامة العبرانية . ففي ظلها اصبح للعبرانيين صفات قومية بارزة وان كانوا فقدوا النظرة السياسية . وكان العبرانيون الشعب الوحيد بين الشعوب السامية القديمة الذي انشأ شعوراً قومياً متطرفاً كما ان العبرانيين وحدهم من بين الساميين القدماء احتفظوا بصفاتهم القومية وبفرديتهم . وقد ساعدت الديانة مساعدة كبرى في توحيدهم وتعاونهم .

وكان لجيران العبرانيين من ادوميين ومؤابيين وعمونيين ملوك . والفلسطينيون كان لهم اسياد او اقطاب حافظوا على اتحاد ضعيف . وكان للفينيقيين بمالك مدت وكانت بعضها مثل بينلوس وصيدا وصور قد تطورت وصارت تشكل امماً . غير ان العبرانيين كان لهم حتى هذا الحين قضاة او زعماء يظهرون عندما تدعو الحاجة . ولذلك ذهب شيوخ اسرائيل الى زعيمهم الديني صموئيل وطلبوا منه ان يجعل لهم « ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب »^١ . و« مسح رجل اسمه شاول اول ملك عليهم نحو عام ١٠٢٠ ق.م . رجل « من كتفه فما فوق كان اطول من كل الشعب »^٢ . ففكرة الملكية لم تأت من مصادر خارجية فحسب وانما الملكية نفسها في نظامها تشكلت بالتدريج على اسس مقتبسة من الدول المجاورة . غير انها اختلفت نوعاً في ناحيتين : فالتنظيم القبلي بقي لاغراض ادارية من جهة والملك كان عليه ان يحكم حسب اوامر جوه كما اعلنت بواسطة الرجال الصالحين .

(١) سفر صموئيل الاول ٨ : ٥ .

(٢) سفر صموئيل الاول ٩ : ٢ .

كان الملك العبراني الاول مخيباً للآمال بل كان فاشلاً بالواقع . وكانت اخلاقه ضعيفة وطباعه سوداوية . وكان يعيش كشيخ بدوي في خيمة في بلدته جبعة^١ . ولم تمتد حدود مملكته الصغيرة الى ابعد من منطقة قبيلته بنيامين في اول الامر . ومع ذلك فقد كان انتخابه يعني الثورة ضد الاسباد الفلسطينيين . وبعد قتال طويل قتل الفلسطينيون في معركة جلبوع^٢ ثلاثة من اولاده وجرح شاول بصورة خطيرة ولذلك انتحر . وبعد ان قطع العدو المنتصر رأسه سمر جسده واجساد ابنائه على سور بيت شان وارسل سلاحه كغنيمة حرب الى معبد عشتاروت^٣ .

داود

كان المؤسس الحقيقي للمملكة داود (نحو ١٠٠٤ - ٩٦٣ ق.م) حامل سلاح شاول وقد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ولكنه نجح في النهاية ليس في تحقيق الاستقلال التام فحسب بل ايضاً في توسيع حدود المملكة الى ابعد مما بلغت في ابي وقت آخر . قام داود بسلسلة من العمليات الحربية ادت الى التخلص من نير الفلسطينيين وجعل ادوم ومؤاب وعمون تحت حكمه وحققت له ما هو اغرب من ذلك وهو حكم سورية المجوفة الآرامية حتى حدود مملكة حماة كما يظن^٤ . ووصل جنوده الى دمشق ، وكانت المملكة التي اسسها اقوى دولة محلية ظهرت في فلسطين في ابي عصر . وقد تمت له بنتيجة فتح ادوم السيطرة على طريق التجارة العظيم بين سورية والجزيرة العربية . ولا نعلم عن وجود اية ممالك في بلاد ادوم الصغيرة او في جارتها الشماليين مؤاب وعمون قبل القرن الثالث عشر ق.م . وكانت فروع من الآراميين وبعض الحاييرو قد تزلت كما يبدو في هذه المنطقة في القرن السابق وكان البدو الرحل يجوبون هذه المناطق منذ القرن العشرين . ولا بد ان المكسوس والآراميين قضا على جميع بقايا الحضارة التي سبقت القرن العشرين . ولم تكشف

- (١) وهي تل الفول على اربعة اميال شمالي اورشليم . انظر صموئيل الاول ١٠:٢٦ ؛ ١١:٤ .
- (٢) وهو اليوم جبل القعوة في المرتفع الشمالي الشرقي لجبل افرايم ويشكل مكان انفصال المياه بين حوض قيشون ووادي الاردن . واسم القرية الحديثة جلبون يذكرنا بالاسم القديم .
- (٣) صموئيل الاول ١٣:٣١ - ١٠:١٠ ؛ اخبار الايام الاول ١٠:١٠ - ١٠:١٠ ؛ تلون مع صموئيل الثاني ١:٦ - ١٠:١٠ .
- (٤) صموئيل الثاني الاصحاح ١٠:١٢ ؛ ٢٦:٣١ ؛ ٣١:٣٤ ؛ ٧:٧ .

اعمال التنقيب الحديثة عن ابة مدينة كبيرة في منطقة شرقي الاردن خلال هذه الفترة الطويلة بكاملها .

بعد ان وطد داود وضع مملكته ووسع حدودها واخضع جيرانها تم له تحقيق الوحدة الموقته بين شعبه . ويغلب ان عدد النفوس بموجب الاحصاء الرسمي الذي عمله وهو من اقدم عمليات الاحصاء في التاريخ كان نحو ستمائة او سبعمائة الف نفس^١ . وانتقى داود حصن اورشليم اليبوسي ليكون عاصمة له وكان قد انتزعه من ايدي سكانه اليبوسيين . وكان هذا الاختيار موقفاً . فالمدينة تقع خارج المراكز القبلية الاصلية على الحدود بين القسم الشمالي والجنوبي للمملكة تقريباً وتسيطر على طريق من ام الطرق الداخلية وهو الذي يتجه شمالاً وجنوباً في القسم المرتفع الواقع غربي وادي الاردن . ومع ذلك فان الدفاع عنها كان سهلاً . في هذه المدينة اقام داود مقره الملكي وهو قصر بني بالحجارة وخشب الارز من لبنات وقد بناه معاريون ونجارون صوريون ارسلهم صديقه الفينيقي الملك حيرام (٩٨١ - ٩٤٧ ق.م)^٢ . وكانت الصداقة بين صور واسرائيل مبنية على المنفعة المتبادلة : فصور كانت فقيرة بالمحاصيل الزراعية بينما كانت اسرائيل بحاجة الى المواد التي تنقلها التجارة البحرية . وقد شيد داود بالاضافة الى قصره معبداً وطنياً ليهوه في العاصمة الجديدة وهكذا جعل اليهودية الديانة الرسمية في الدولة الموحدة . واصبح داود الملك المثالي بالنسبة للعبرانيين .

وفي زمن حكم داود « رجل الحرب » يبدأ ظهور الادب العبري وهو من اغنى وارفع ما تركه الشرق القديم من مظاهر حضارية . وظهر المذکر mazkir الذي كانت مهمته الرسمية تدوين الحوادث الهامة وحفظ الحوليات الملكية^٣ . وقد استعاروا الكتابة من الفينيقيين^٤ . ويظن ان الكهان بدأوا فيما بعد باعداد كتب مشابهة للوثائق الرسمية . ومن مثل هذه المدونات استخلص تاريخ الملكية الاولى

(١) قارن مع صموئيل الثاني ٢٤ : ٩ ؛ اخبار الايام الاول ٢٦ : ٥٠ .

(٢) سفر صموئيل الثاني ٥ : ١١ .

(٣) صموئيل الثاني ٢ : ١٦ ؛ سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٨ ، ٣٧ .

(٤) انظر ص ١١٩ .

وادخل جانب منه في العهد القديم . ومؤرخ هذه الفترة كائناً من كان يكتب مواده بأسلوب حيوي موضوعي . وهو يصف داود ليس كملك فقط وإنما كإنسان ويكتب كما يمكن للمعاصر ان يكتب . واول فصلين من سفر الملوك الاول هما اول قطع من النثر العبري . وكتابته عن ترجمة حياة داود في الفصول ٩ الى ٢٠ من سفر صموئيل الثاني هي قطعة رائعة من الانشاء التاريخي . ولم يكتب تاريخ مثل هذا من قبل . وهذا المؤرخ المجهول وهو اقدم المؤرخين يبدو عصرياً بشكل مستغرب . كذلك بدأت مجموعات من المؤلفات الشعرية في عصر داود وكان هو نفسه شاعراً له مكانته . وفي الواقع فان الاثر الذي تركته مواهبه الشعرية والموسيقية كانت عظيماً حتى ان الاجيال نسبت له وضع عدد من الزمير التي بلغ من قيمتها الانسانية العامة واهميتها الدائمة انها لا تزال تستخدم كمصدر وحي وكوسيلة لرفع القوى الروحية .

سليمان في كل مجده

ورث داود ابنه سليمان (حوالي ٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م .) ووصلت المملكة العبرانية في عهده ذروة فائقة من المجد والابهة . فاجار الملوك العبرانيين ليس فيما ما يشبه مشاريع سليمان التجارية والصناعية ونشاطه الواسع في استخراج المعادن واعماله العمرانية ومستوى الترف المائل في معيشته . وكان يعيش بين مظاهر النشاط هذه حياة ملك مستبد شهواني في بلاط شبيه ببلاط مصر او اشور . وملكه جعل العبرانيين ينساقون بصورة اتم في تيار الحياة والمدنية الشرقيتين .

وقد بنى قصر سليمان معاريون فينيقيون واستخدموا في بنائه ارزاً من لبنان . ومفاوضات والده مع الفينيقيين امر مشكوك فيه . واستغرق بناء القصر ثلاث عشرة سنة . وكان الجناح الملكي غنياً باعمدة الارز حتى سمي «بيت غابة لبنان» .

وكان الهيكل الذي بناه اكثر اهمية من الناحية القومية . ويعتقد ان موقعه هو الموقع الذي فيه قبة الصخرة اليوم . وقد بني هيكل سليمان في الاصل ليكون معبداً ملكياً ملحقاً بالقصر واستغرق بناؤه سبع سنوات فقط ولكنه اصبح فيما

بعد مركزاً عاماً لعبادة العبرانيين . وكان المهاريون والبنائون ايضاً من الصوريين واستخدموا ارز لبنان . ولأجل اتمام البناء كان ثلاثون الفاً من رعايا سليمان مسخرين ليشتغلوا بالنوبة فيعمل عشرة آلاف منهم شهراً في لبنان مع رجال حيرام وشهرين في بيوتهم يتابعون اعمالهم المعتادة^١ . وكانت الاخشاب المقطوعة تنزل الى البحر وتنقل ارمائاً الى يافا ثم ترسل الى اورشليم . وكانت زخرفة الهيكل مستوحاة من النادج الكنعانية المعاصرة . وطقوس الهيكل وذبابحه تظهر الاساليب المتبعة عند الكنعانيين . وكان عبيد الهيكل من الكنعانيين . وحتى كلمة «هيكل» نفسها كانت مستعارة من المفردات الكنعانية^٢ .

وكانت اعمال سليمان العمرانية تضم التحصينات والثكنات والعنابر . وترينا اسطبلاته التي كشفت حديثاً حيث كان يضع مركبانه مرابط بصقوف مزدوجة يمكن ان تتسع لاربعمائة وخمسين حصاناً حصل على بعضها من مصر وكيليكية^٣ . وقد بنى بمساعدة صديقه الفينيقي الملك حيرام اسطولاً من السفن لتجارة البحر الاحمر . وكانت قاعدة الاسطول عصيون غابر^٤ التي سميت ايلات Elath فيما بعد وايلة Aila في العصر الروماني . وكان اسطول سليمان يقوم من هذه الميناء تحت ادارة ضباط من صور بمحلات بحرية حول ساحل الجزيرة العربية وافريقيا الشرقية^٥ . وكان الهدف الرئيسي استيراد البخور والعاج والذهب والحجارة الكريمة . وكان النحاس والحديد المنقيان في عصيون غابر يشكلان مادة التصدير الرئيسية فيشحنان بجرأ او ينقلان بطريق القوافل الى الجزيرة العربية بدلاً من السلع المستوردة من هناك ومن الهند . وكانت ادوم وكل المنطقة الواقعة في مملكة سليمان بين البحر الميت وخليج العقبة (وتسمى اليوم العربية) غنية بالنحاس والحديد . ولذلك

(١) الملوك الاول : ١٣ : ٥ .

(٢) انظر بشأن اشتقاق كلمة هيكل في ص ١٤٩ . هامش رقم ٢ .

(٣) قارن مع سفر الملوك الاول : ١٠ : ٢٦ ، ٢٨ - ٢٩ .

(٤) وهي تل الخليلي في رأس خليج العقبة واجريت فيها تنقيت عام ١٩٣٨ ؛ راجع : Nelson Glueck, « The First campaign at Tell el-Kheleifeh », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 72 (1938), pp. 3-18.

(٥) سفر الملوك الاول : ٩ : ٢٧ - ٢٨ ؛ ١٠ : ١١ ؛ اخبار الايام الثاني : ٩ : ١٠ .

اصبحت ميناء سليمان مركزاً للتعدين وصهر المعادن. وكان القينيون Kenites^١ المحليون على الغالب هم الذين علموا الادوميين اتباع سليمان فنون استخراج المعادن وصنعها. وكانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية والمهمة بالتوابل من تلك البلاد خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر باراضي مملكة سليمان.

وقد تضافرت الاساطير والقصص الخيالية على جعل اسم سليمان مرادفاً خلال العصور للقوة والفخامة والحكمة. وحتى الجن^٢ كان يأتمر بأمره في البر والجو. واجتذب بلاطه الفخيم ملكة من جنوبي بلاد العرب وهي الملكة بلقيس المعروفة في المرويات الاسلامية. وتدعي السلالة الحاكمة في الحبشة التسلسل من هذا الاتحاد. ومن الالقب الرسمية للملك الحبشة الحاليين «اسد هوذا». ونسبت امثال كثيرة «لسليان الحكيم» واصبح بعضها قسماً من الكتاب المقدس.

غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هذه الافكار. فالمملكة التي ورثها سليمان كانت اكبر بكثير من المملكة التي اعطاها لمن اتى بعده. وكانت فلسطين تعترف بالسيادة المصرية. وحصن جزر الكنعا في استولى عليه فرعون الذي تزوج سليمان ابنته واعطاه اياه فرعون مهراً لابنته. وكانت هذه الاميرة المصرية احدى افراد حريم سليمان المؤلف من ٧٠٠ من الزوجات و ٣٠٠ من السراري^٣. وقد بنى بتأثير نسائه «اماكن مرتفعة» قرب اورشليم لعبادة آلهة صيدا ومؤاب وعمون^٤. وفي اواخر حكمه حرر الملك الآرامي رصين نفسه ومملكته. وقبل ذلك فان الامير الادومي حدد الذي كان داود قد طرده من منطقته حيث قضى على كل انسان من الذكور - عاد ليزعج سليمان^٥. وكان يستخدم سليمان العمال لاجل اشغاله العامة حسب نظام السخرة. وكان هذا التدبير البعيد عن الحكمة بالاضافة الى نفقاته وتبذيره من الاسباب الاساسية للنقمة التي ادت في عهد خلفه الى انقسام المملكة.

(١) يبدو ان القينيين كانوا قد اصبحوا في عصر موسى مندجين بالديانيين الى حد كبير.

(٢) ترجع هذه الكلمة الى كلمة آرامية معناها «غيباً».

(٣) سفر الملوك الاول ١١: ٣.

(٤) الملوك الاول ١١: ٥-٨.

(٥) الملوك الاول ١١: ١٤-٢٢.

انقسام المملكة

كان داود وسليمان قد وحدوا بصورة مؤقتة شعبي اسرائيل ويهوذا المنفصلين . وكان اقتصاد كل من الشعبين يختلف عن الآخر . فالشعب الذي يسكن الشمال كان مزارعاً يعيش على القمح والزيتون والكروم وسائر محاصيل اراضيه الحصبة . اما الشعب الجنوبي فكان يعيش خاصة على الرعي في المرتفعات الصالحة للاغنام وسائر القطعان . وكانت قبيلة افرايم وغيرها من القبائل الشمالية اكثر تعرضاً للتأثير الكنعاني . وكانت تفضل في مسائل العبادة اللوهم (جمع ايل) وتعبدها بطقوس شمسية مأخوذة من الطقوس الكنعانية القديمة . وكانت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الجنوب تفضلان يهوه الذي مسكنه هيكل اورشليم والذي كانت عبادته اكثر بساطة . غير ان السبب المباشر للانقسام كان اقتصادياً .

بعد موت سليمان في نحو ٩٢٣ ق. م . اجتمع ممثلو القبائل الاثنتي عشرة في شكيم ليسجعوا ابنه رجبعام ملكاً واثرت حينذاك قضية هل هو مستعد ان يخفف عبء الضرائب المفروضة عليهم ام لا ؟ غير ان جواب الفتى رجبعام وهو في السادسة عشرة من عمره كان قاسياً متهوراً حيث قال : ابي ادبكم بالسياط وانا اؤدبكم بالعقارب . ولذلك رفضت القبائل العشر الاعتراف برجبعام وانتخبتم يربعام من قبيلة افرايم ملكاً عليها وكان الناطق بلسانها . وشكلت هذه القبائل مملكة اسرائيل التي كانت عاصمتها شكيم اولاً ثم ترزة ثم السامرة . اما قبيلتا يهوذا وبنيامين فقد ظلنا ثابتتين في ولائهما لرجبعام وشكلتا مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم .

واصبحت المملكتان متنافستين واحياناً عدويتين احدهما للاخرى . وكان لكل منهما ايام ازدهار وانحطاط . وكان توازن القوى يميل تارة لمصلحة اسرائيل وطوراً لجانب يهوذا . وتشرح لنا الاتجاه في طريق الانحلال الداخلي تلك التغيرات الكثيرة في ملوك اسرائيل حيث شهدت تسعة عشر ملكاً في مدة قرنين ، وتلك الثورات والمكائد في كلتا الدولتين . تلك كانت العوامل الداخلية التي ادت اخيراً

الى خرابها. فالعبرانيون كغيرهم من سكان سورية لم يعملوا قط بقول مغنيهم
« ما احسن وما اجل ان يسكن الاخوة معا^١ ».

ملكة اسرائيل

كان اشهر ملوك اسرائيل الاوائل شمري (حوالي ٨٨٥ - ٨٧٤) وبدل اسمه على اصل عربي او بالاحرى نبطي. وكان الاثر المهم الذي تركه مدينة السامرة^٢ التي اسسها وحضنها ونقل اليها مركز الحكم من ترزة^٣. وبني في عاصمته الجديدة قصرآ وسعه وزخرفه ابنه ووريثه آخاب. هذا القصر هو «بيت العاج» الذي اظهرت فيه الحفريات الحديثة اثاثاً منزلاً بالعاج ويبدو ان جانباً كبيراً منه كان مكسواً بالذهب. وكانت ام جماعة من نحائي العاج في تلك الفترة تزدهر في الشمال في سورية حيث كانت توجد منازل غنية ذات غرف مخططة بنحش الارز المنزل بالواح من العاج. وكان في قصور داود وسليمان في اورشليم على الغالب مثل هذه الغرف المخططة بنحش الارز. والقصر الملكي في السامرة هو المثل الوحيد لقصر تأكد العلماء من وجوده من ايام العهد القديم. وقد بلغ من الاثر الذي تركه عمري في معاصريه انه لمدة قرن بعد انتهاء سلالة استمرت الحوليات الاشورية على الاشارة الى السامرة باسم «بيت شمري».

كانت علاقات الملك آخاب (حوالي ٨٧٤ - ٨٥٢) ودية مع جيرانه ولكنه كان يصطدم بصعوبات في بلاده. وقد اشترك كحليف لمملكة دمشق في معركة قرقره التي لم تكن حاسمة. وتزوج ايزابل ابنة اثبعل ملك صور وصيدا التي

(١) سفر الزامير ١٣٣ : ١ .

(٢) وهي حالياً سبسطية من اليوناني Sebastos (بمعنى الموقر) وهو الاسم الجديد الذي اعطي للمدينة على شرف اوغسطس عندما بناها من جديد هيودس الكبير عام ٢٧ ق.م.

(٣) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ . تقع السامرة على ستة اميال شمالي غربي شكيم . وموقع ترزة لم يعرف بعد . انظر «ترزة» في معجم : John D. Davis, *The Westminster Dictionary of the Bible*, rev. Henry S. Gehman (Philadelphia, 1944); Abel, vol. ii, p. 485.

(٤) سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩ ؛ عاموس ٣ : ١٥ ؛ ٦ : ٤ ؛ J. W. Crowfoot and Grace M. Crowfoot, *Early Ivories from Samaria* (London, 1938), pp. 1-6.

(٥) انظر ص ١٩٧ .

كانت ذات شخصية قوية وسيطرت على زوجها وحاولت فرض عبادة بعل صور على اسرائيل^١. وادى ذلك الى نزاع مرير وطويل للسيادة على حياة اسرائيل الدينية بين عبادة البعل وعبادة يهوه.

وبلغت ردات الفعل التي بدأها ايليا واليشع ضد اسرة عمري ذروتها في ثورة تزعمها ضابط في الجيش اسمه ياهو وقضى فيها على السلالة، وطُرحت الملكة الام ايزابل المسنة من نافذة بامرہ وأكلت جثتها الكلاب^٢. واستولى ياهو على العرش في ٨٤٢ ق.م. واعاد عبادة يهوه كعبادة وحيدة في اسرائيل. ولم يكن ياهو موثقاً في حروبه الخارجية. ويمثل هذا الملك او رسوله على «المسلة السوداء» التي اقامها شلمنصر الثالث^٣ يقبل الارض عند قدمي الملك الاشوري ويقدم الجزية بشكل اوان من الفضة والذهب والرصاص. وقبل ظهور ياهو بقليل قام ميشا ملك مؤاب بثورة ضد اسرائيل وخذ انتصاره على نصب اقامه في ديبون^٤. وقد كتب على هذا النصب اطول نقش في العبرية ويعتبر من اقدم النقوش الاثرية في هذه اللغة. وتختلف عن العبرية التي كتبت بها التوراة من حيث اللهجة فقط. وفي حوالي نفس الوقت كانت ثورة اخرى ناجحة تحدث ضد مملكة يهوذا، ويرينا ذلك ضعف تينك الملكتين.

وقد بدت مظاهر غير منتظرة للقوة في عهد يربعام الثاني (حوالي ٧٨٥ - ٧٤٥) وهو الملك الثالث من سلالة ياهو. ففي عهده توسعت الحدود الشمالية على حساب الآراميين^٥. وكشفت الحفريات عن بقايا السور المزدوج الذي اعاد به تحصين السامرة. وتظهر هذه البقايا ان سمك السور يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً في

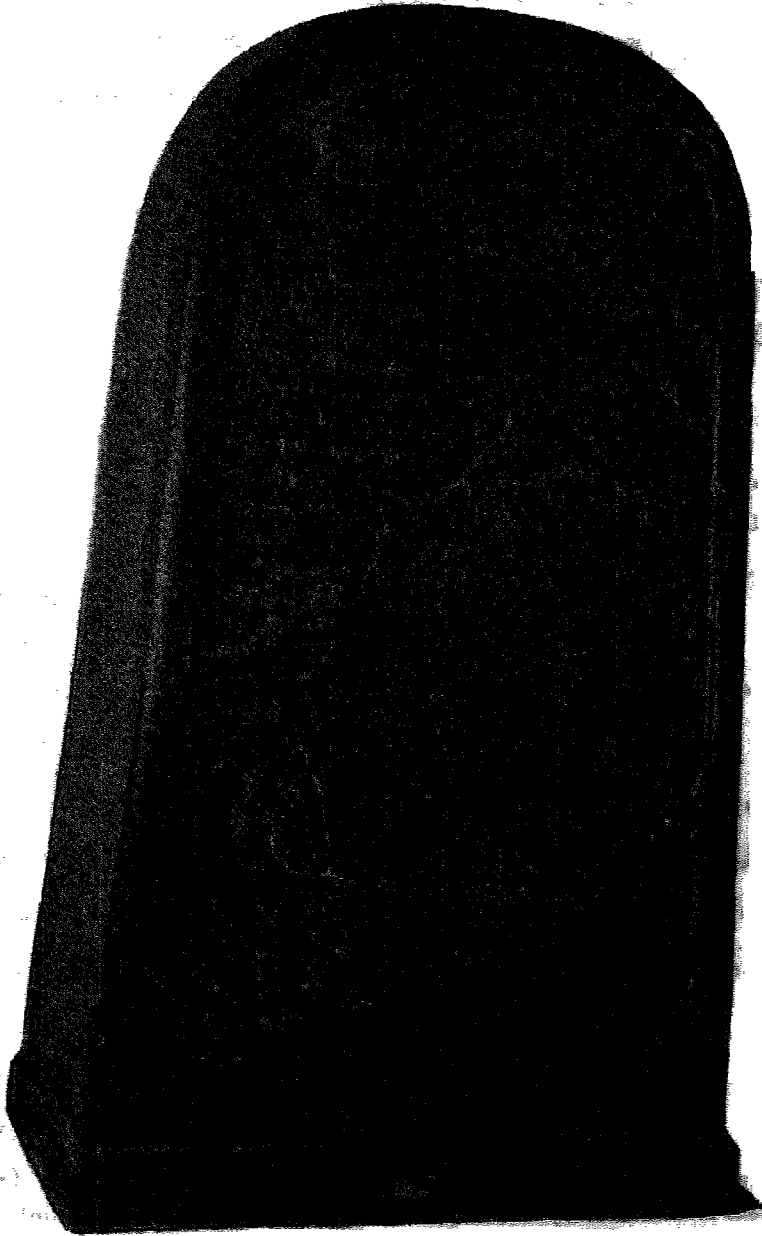
(١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣١ ؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. IX, ch. 6, § 6.

(٢) الملوك الثاني ٩ : ٣٣ - ٣٥.

(٣) Eberhard Schrader, *The Cuneiform Inscriptions and the Old Testament*, tr. O. W. Whitehouse, vol. i (Edinburgh, 1885), p. 199.

(٤) وهي ذيبان في شرقي الاردن والنصب الآن في متحف الوفر. راجع : Cook, *North-Semitic Inscriptions*, pp. 1 seq. والحروف هي حروف فينيقية تماماً.

(٥) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٥.



سجرت مؤاب التي اتم لتكري انتصار ميشامك مؤاب على اسرائيل
اتم قبل ٨٤٢ ق.م. بتليل وهو الآن بالوتر

بعض الاماكن . ويمتاز حكمه زيادة على ذلك بان النبي عاموس كان يتنبأ في بيت ايل^١ في اواخر ملكه .

وكان بإمكان اسرائيل ان تتمتع بالهدوء خاصة لان اشور لم تكن حينذاك في وضع يسمح لها بمتابعة سياسة الاعتداء . كذلك كانت مصر متوارية عن الانظار . غير ان الوضع تغير عندما ظهر تغلات فلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧) الذي جدد سلطة امبراطورية اشور . وقد نجح بسلسلة حملات في اخضاع دمشق وجلعاد والجليل وسهل صاروتة وتحويلها الى مقاطعات اشورية^٢ . ولم يكتف بالاسلوب القديم وهو ابقاء الحاكم الوطني كتابع بل بدأ سياسة جديدة تقوم على ارسال نائبي الملك من بلاد آشور ليحكموا المقاطعات المفتوحة^٣ . وقد حاول رصين آخر ملوك دمشق وفتح ملك اسرائيل حمل آحاز ملك اورشليم على الاتحاد معها في حلف ضد العدو المشترك . وقد اصبحت اسرائيل جزءاً صغيراً مما كانت عليه سابقاً . ودفعت السامرة جزية ثقيلة كما فعلت يهوذا وجيرانها فلسطينا وعمون ومواب وادوم .

نهاية اسرائيل

عندما رفض هوشع ملك اسرائيل بعد بضع سنوات متابعة دفع الجزية هاجمه شلناصر الخامس وريث تغلات فلاسر وحاصر المدينة ثلاث سنوات بسبب قوة حصونها^٤ . وسقطت بين ٧٢٢ و ٧٢١ في يد خلفه سرجون الثاني الذي سبي احسن رجال اسرائيل وعددهم ٢٧،٢٨٠ شخصاً الى ميديا^٥ . وتلاشت بملكية اسرائيل الى الابد . ولم يشكل المسييون سوى قسم صغير من سكان المملكة الشمالية غربي الاردن ويقدر عددهم باربعمئة الف نفس . وهكذا فان «الاسباط العشرة المفقودة» لم تفقد قط . والذين منهم اصبحتوا مسييين اندمجوا بغيرهم . والبحث عن هذه

(١) «بيت الله» وتقع خرائب المدينة وهي اليوم بيتين على ١١ ميلاً شمالي القدس .

(٢) الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ .

(٣) Luckenbill, *Records*, vol. i, § 803, 805, 806, 809 .

(٤) سفر الملوك الثاني ١٧ : ٤ .

(٥) الملوك الثاني ١٧ : ٦ ؛ Schrader, vol. i, p. 264 Julius Oppert in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 28.

الاسباط العشرة وادعاء بعض الجماعات في انكلترا والولايات المتحدة انها متسلسلة منها هي امور تدعو الى السخرية. وقد اظهر الرحالة بنيامين من بلدة تودبلا في القرن الثاني عشر مقداراً اكبر من الفهم التاريخي حين كتب ان الطائفة اليهودية في جبال نيسابور في شرقي ايران ينحدر افرادها من المسييين الاصليين^١.

السامريون

واضاف مرجون وخلفاؤه الى سياسة السبي او نقل الذين كانوا شوكة في جنب دولة اشور شيئاً آخر هو سياسة الاستعمار والاستيطان. فقد اتوا بقبائل من بلاد بابل وعليلام وسورية وبلاد العرب لتحل محل الاسرائيليين المسييين واسكنوها في السامرة ومنطقتها^٢. وقد امتزج المستوطنون الجدد بسني اسرائيل ليشكلوا السامريين. واتحدت معتقداتهم الدينية ايضاً مع عبادة يهوه^٣. وحصل الانشقاق النهائي بين الفريقين حوالي ٤٣٢ ق. م. بعد عودة عزرا ونحميا من السبي حيث دافعا عن فكرة النقاوة المنصرية وطردا من اورشليم حفيد الكاهن الاعلى لزواجه من ابنة الحاكم السامري^٤. ويبدو ان الشاب المطرود اصبح كاهن السامريين وبني هيكل له على جبل جريزيم ليناقد هيكل اورشليم. وكان كتاب اليهود المقدس حينذاك يتألف من الكتب الخمسة فقط. ولذا فان هذا القسم من العهد القديم ظل منذ ذلك الحين الكتاب المقدس الوحيد للسامريين. وقد نقلوه في نوع قديم من الحروف العبرية. وجريزيم وليس صهيون هو المكان المقدس الحقيقي بالنسبة لهم.

وازداد العداء بين اليهود والسامريين مع الزمن. ولم يكن التزاوج بينهم مسموحاً في اي وقت. ومن اطرف احاديث المسيح حديثه مع امرأة سامرية تعجبت كيف يطلب منها ان تعطيه ليشرّب مع انه يهودي^٥. واختار المسيح في مثل من

(١) *The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela*, ed. A. Asher (London, 1840), p. 83; tr., p. 129.

(٢) Luckenbill, vol. ii, §§ 17, 118. وقد اتى اسم السامرة على الغالب من شمر Shemer بمعنى حارس، انظر سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤.

(٣) سفر الملوك الثاني ١٧ : ٢٥ - ٣٣.

(٤) سفر نحميا ١٣ : ٢٨؛ قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IX. ch. 7. § 2; ch. 8. §§ 2, 4.

(٥) انجيل يوحنا ٩ : ٤.

ابعد امثاله رجلاً سامرياً محتقراً ليكون بطل قصة ويلعب فيها دوراً نيلاً^١. وفي اثناء اضطهاد انطيوخس ابيفانس (١٧٥ - ١٦٤ ق. م.) تألم السامريون كما تألم اليهود^٢ بالرغم من موافقتهم بالظاهر على التساهل وتكريس هيكلمهم على جبل جريزيم للاله زفس^٣.

وقد بقيت هذه الطائفة خلال العصور حتى الوقت الحاضر كما تبقى المتحجرات ويمثلها اليوم نحو مائتي شخص يعيشون في نابلس وهي شكيم القديمة. وفي العصور الوسطى كانت تزدهر جماعات من السامريين في غزة والقاهرة ودمشق وغيرها من المدن. ولغتهم هي العربية اليوم. ولا يزال بإمكان السواح الذين يزورون نابلس في عيد الفطير ان يشاهدوا السامريين يضعون حمل الفصح.

مملكة يهوذا

شهد عرش يهوذا عدداً من الملوك يشبه عدد ملوك اسرائيل وهو تسعة عشر ملكاً غير ان هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثلث اكثر من مملكة اسرائيل في الشمال. ومن الحوادث المشهورة في اول عهد المملكة غزو احد فراعنة مصر لها. فان شيشنق Shishonk (وفي التوراة يدعى شيشق) وهو ليسبي اسس السلالة الثانية والعشرين - قد اغتم فرصة تقسيم المملكة اليهودية ودخل البلاد (حوالي عام ٩٢٠) وخرّب المدن ونهب اورشليم وحمل معه كنوز الميكل والقصر ككنائهم^٤. ولم يكن باستطاعة رحبعام ان يصد التزوة. وتزوجت احدى بنات هذا الفرعون من يربعام بينما كانت احدى بنات سلفه قد تزوجت سليمان.

واستفادت يهوذا كما فعلت اسرائيل في القرن الثامن من توقف حركات الهجوم الاشوري والمصري. وكان عهد الملك عزيا (ويدعى احياناً عزريا، حوالي ٧٨٢ - ٧٥١) الذي كان ملكه طويلاً عهد تقدم في شؤون الدولة. وقد اعاد تنظيم الجيش

(١) انجيل لوقا ١٠: ٣٠-٣٧.

(٢) سفر المكابيين الثاني ٥: ٢٣.

(٣) سفر المكابيين الثاني ٦: ٢٠٦؛ Josephus, *Antiquities* Bk. XII. ch. 5§5.

(٤) سفر الملوك الاول ١٤: ٢٥-٢٦؛ Breasted, *Records*, vol. iv §§ 709 seq.

واصلح حصون اورشليم وكسب انتصارات على الفلسطينيين والعربان واخذ الجزية من العمونيين وغيرهم من اعداء المملكة^١. وقد تجاوز اهتمامه الشؤون العسكرية فنشط الزراعة بحفر الخزانات وحى قطعانه في البرية ببناء ابراج لا تزال حتى اليوم ويمكن معرفتها بواسطة قطع الحزف المؤرخة^٢

حزقيا

واصبحت مملكة يهوذا اكثر تعرضاً للهجمات المباشرة من اشور بعد زوال مملكة اسرائيل في عام ٧٢١. وصارت يهوذا بعد ذلك بيضع سنوات في اوائل حكم حزقيا (٧٢١ - ٦٩٣) تدفع الجزية لاشور. فقد اتبع حزقيا سياسة تحيد ضد اشور بعد ان شجعت مصر ولم يكثرث لتحذير النبي اشعيا ولذلك تحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها من الدول المجاورة. ولكي يجتاط ضد وقوع حصار حفر قناة طولها ١٧٠٠ قدم في الصخر ليضمن المياه اللازمة لعاصمته^٣. وهذه القناة هي المعروفة بنفق سلوام Siloam وقد اكتشفت بالصدقة على جدارها كتابة اثرية بالعبرية مؤلفة من ستة اسطر تفيد ان الحفر بدأ من الجانبين وبدقة فائقة: «فينا كان لا يزال [الحفارون يرفعون] المعول الواحد باتجاه الآخر وعندما كان لا يزال يوجد سوى ثلاثة اذرع يجب [حفرها سمع] صوت الواحد يتادي الآخر لان الصخر كان متصدعاً»^٤.

وبنتيجة ذلك قام سرجون وخلفه سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) الشيطان بسلسلة من الحملات والعمليات الحربية الانتقامية ضد فينيقية والمدن الفلسطينية ويهوذا وبلغت ذروتها في عام ٧٠١ في حصار اورشليم. وبعد الاستيلاء على صيدا وعكا وخضوع موفدي اشود وعمون ومواب وادوم تقدم سنحاريب على الساحل الفلسطيني فأخذ ياقا والمدن الاخرى حتى عسقلان وحدود مصر في الجنوب. ثم

(١) اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٦ - ٨.

(٢) اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٩ - ١٠.

(٣) سفر الملوك الثاني ٢٠ : ٢٠ : اخبار الايام الثاني ٣٢ : ٢.

(٤) Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, p. 15 وحروف هذه الكتابة لا تختلف كثيراً عن حروف الكتابة على نصب مواب.

تحويل الى الشرق وفتح لاجيش . وقلومت صور وعقرون^١ . وعندما سمع ان الجيش المصري كان يتقدم الى الشمال وبما انه رأى انه لا يجوز ترك حصن عظيم مثل اورشليم في مؤخرته فانه ارسل فرقة الى اورشليم وزحف مع بقية جيشه نحو الجنوب . والتحم عند التقيہ Eltokeh^٢ في معركة ضد القوات المصرية والحبشية المجتمعة يقودها ترهاقة (طهرقا) وحال دون تقدمها . ولكنه قبل ان يتمكن من تحويل قواته كلها ضد اورشليم «خرج ملاك الرب وضرب في تلك الليلة مئة الف وخمسة وثمانين الفاً من جيش اشور»^٣ . وربما كان ذلك هو الطاعون الذي اصاب جيش نابوليون في تلك المنطقة في ١٧٩٩ والذي كثيراً ما كان يصيب الهجاج المسلمين .

لم تسقط اورشليم غير ان مناطق الريف خربت . واعتقد الملك واشعيا كما يبدو ان يوه سيحمي مدينته مهما كانت الظروف^٤ . وسمع حزقيا ان يحتفظ بعرشه ولكنه اضطر ان يدفع الجزية المتأخرة وان يرسل بناته وغيرهن من نساء القصر والكنوز الثمينة بعد عودة سنحاريب الى نينوى ويفاخر سنحاريب باعماله بالكلمات التالية :

أما حزقيا اليهودي الذي لم يخضع لسلطتي قالني حاصرت ستاً واربعين من مدته القوية السورة والمدن التي يبوارها والتي لا يمكن تدميرها وقتحتها ونهبتها واعتبرتها كقناتم . واما هو فاني حبسته كصغور في قفس في اورشليم مدينته الملكية... ان حزقيا هذا تهرته ابيه ملكي الخفية .

ويبدو ان ما يدعيه من «اخذ» رجال عددم «٢٠٠،١٥٠» رجالاً، يشير الى عدد سكان يهوذا كما كانوا يقدرونه حينذاك وقد اعتبرهم الملك الاشوري غنائم حرب .

(١) وهي اليوم المعير على بعد ستة اميال غربي جزر .

(٢) وهي غالباً خربة القنح على ستة اميال تقريباً جنوب شرقي المعير .

(٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ٣٥ ؛ Herodotus Bk. II, ch. 141 .

(٤) الملوك الثاني ١٩ : ٦ - ٢٠٠٧ .

(٥) راجع ؛ J. M. Luckenbill, vol. ii, § 312 ; cf. Schrader, vol. i, pp. 286, 297 ; Rodwell in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 62 .

سقوط اورشليم

بقي صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦) الذي كان في الحادية والعشرين من عمره متظاهراً بالولاء لنبوخذنصر عدة سنين ثم استسلم لميوله وحاول الاستقلال كما انه استجاب في ذلك لرغبة الزعماء الوطنيين في بلاده واعتمد كالمعتاد على مساعدة مصر. فنقم نبوخذنصر وارسل جيشاً هدفه خراب اورشليم وحاصرها. ورفع الحصار مؤقتاً عندما اقتربت قوة مصرية بقيادة هوفرع Hophra^١ ولكنه سرعان ما عاد وبشكل أشد من السابق. وانهكت قوى الحامية بعد عام ونصف وحدثت ثغرات في الاسوار في ٥٨٦. وهرب الملك ورجال حربه تحت جنح الظلام ولكنهم تابعوه وادركوه في سهل اريحا. وعندما أتى به الى معسكر نبوخذنصر في ريلة قتل ابناؤه امامه ثم سملت عيناه لكي يكون ذلك آخر مشهد يراه. ثم قيد الملك بالسلاسل وحمل الى بابل^٢. اما اورشليم فانها هدمت مع هيكلها. وسبي العظماء من سكان المدينة والبلاد ويقدر عددهم بخمسين ألفاً. ولم يبق الا جماعة من البائسين. ودُمرت^٣ كل مدينة مهمسة في يهوذا تقريباً وظلت كذلك عدة قرون. وفي عام ٥٨٢ كان نبوخذنصر قد اتم إعادة السيطرة على جيوان يهوذا باستثناء صور التي قاومت تحت الحصار حتى ٥٧٢^٤. وكان ملكها والذائد عنها اثبعل الثاني الذي حل محله بعل الثاني في ٥٧٤. وحصلت ثورة ضعيفة في صور عام ٥٦٤ ولكنها اخمدت بسهولة. وهكذا اصبحت سورية كلها مستقرة في ايدي الكلدانيين.

- (١) وذكر بلسم Apries في Herodotus, Bk. II, ch. 161; Diodorus, Bk. I. ch. 68.
 (٢) سفر الملوك الثاني ١: ٢٥ - ٧؛ اخبار الايام الثاني ٣٦: ١١ - ٢٠؛ ارميا الاصحاح ٣٩؛ ٥٢: ٤ - ١١، ٢٧.
 (٣) ارميا ٣٩: ٨ - ١٠؛ ٥٢: ١٢ - ٣٠؛ اخبار الايام الثاني ٣٦: ١٧ - ٢١.
 Josephus, Antiquities Bk. X, ch. 11; Apion Bk. I, ch. 21.
 (٤) انظر ص ١٥٦.

الفصل الخامس عشر مظاهر الحضارة العبرانية

اتبع العبرانيون في مراحل حياتهم الاولى في فلسطين النموذج الحضاري للشرق الادنى الذي كان يمثل الكنعانيون . وقد اعطت كنعان لاسرائيل لغتها واجديتها كما رأينا . وعندما استقر بنو اسرائيل في الموطن الجديد تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا لهجة الشعب الذي عاشوا بينه . وبما ان لهجتهم كانت لهجة كلام فقط فانهم اضطروا ان ينتظروا الحصول على فن الكتابة من جيرانهم قبل ان يكون لهم ادب .

وكنعان علمت اسرائيل الزراعة . فالعبرانيون دخلوا البلاد كبدو رحل وتم انتقالهم من مرحلة الرعي الى الزراعة بعد استقرارهم . وظل كثيرون من احفادهم في اراضي يهوذا المرتفعة يتبعون حياة الرعي غير ان الزراعة اصبحت مورد المعيشة الرئيسي في سهول الشمال الحصينة .

الطقوس المستعارة

ومع الزراعة اكتسب العبرانيون من الكنعانيين بطريقتي التزاوج تلك الافكار والاعمال التي اعتبرت ضرورية لاجل الحصب ولفضان المحاصيل الجيدة . ويعني ذلك انهم اقتبسوا دفعة واحدة تقريباً مجموعة من الطقوس والمشاهد والمراسم القديمة التي تضم الاعمدة الخشبية^١ «والاماكن المرتفعة» وعبادة الحية^٢ والعجل الذهبي^٣ . وكان الاعتقاد بان الطريقة المناسبة في العبادة هي تضحية حيوان وتقدمة هدايا في

(١) «العائرة» . انظر ص ١٢٨ وما يليها .

(٢) سفر الملوك الثاني ١٨ : ٤ .

(٣) سفر الملوك الاول ١٢ : ٢٨ - ٢٩ ؛ اخبار الايام الثاني ١٣ : ٨ .

الهيكل من محاصيل الحقل والقطيع - كان هذا الاعتقاد عاماً بين شعوب سورية وبلاد الرافدين . وكان رقص داود امام تابوت العهد^١ من مظاهر رقصة كنعانية تتصل بالحصب . ولا تزال آثارها باقية في الحركات الطقسية الايقاعية التي يجريها الدراويش في هذا العصر .

والتحريمات المتصلة بالطقوس والمذكورة في الاسفار الخمسة تفيد ضمناً ان هذه العادات كانت قبل تحريمها قد اقتبسها العبرانيون من جيرانهم ثم اعتبرها الرؤساء غير متفقة مع اتجاهات الديانة العبرانية . وكان تحريم طبخ الجدي^٢ في بن امه يبدو غريباً واعطيت له تفاسير خاطئة الى ان اظهرت كتابات اوغاريت ان هذه العادة كانوا يمارسونها هناك .

والاعتراف بيهوه كالاله الرئيسي وذلك بحق الفتح لم يمنع اعتبار الآلهة المحلية مسيطرة على خصب البلاد . وكانت سلطة يهوه على الدولة بينا شؤون الحياة العادية من زراعة وتجارة لم تكن من صلاحياته الرئيسية . وفي بعض الاحيان وخاصة في القسم الشمالي من المملكة كان يهوه يكتسب كثيراً من صفات بعل بما جعله سيد السماء وباعث المطر والمسيطر على العواصف . وكان الاهل كثيراً ما يسمون ابنهم البكر بالنسبة ليهوه بينا يسمون صغارهم بالنسبة لبعل . وتزداد نسبة الاسماء العبرانية المؤلفة من اسم بعل باطراد في الفترة الاولى . وشاول يسمي ابنه ايش بعل Esh-Baal (رُجل بعل) ويونانان يسمي ابنه مريب بعل (بعل يتازع) ، وداود يسمي ابنه بعل يداع Beeliada (بعل يعرف)^٣ . وقد بلغ من منافسة هذا الاله الكنعاني ليهوه انه في ايام ايزابيل وآخاب^٤ لم يكن هنالك اكثر من ٧٠٠٠ شخص لم ينحوا امام بعل وقد سر ايليا على ما يظهر بهذا العدد .

الفن

وليس من شك في الاصل الكنعاني للفن والبناء الديني عند العبرانيين . وهيكل

(١) سفر صموئيل الثاني ٦ : ١٤ .

(٢) سفر الخروج ٢٣ : ١٩ ؛ ٣٤ : ٢٦ .

(٣) اخبار الايام الاول ٨ : ٣٣ - ٣٤ ؛ ٩ : ٣٩ - ٤٠ ؛ ١٤ : ٧ .

(٤) انظر في اعلاه ص ٢٠٩ و ٢١١ ؛ وراجع سفر الملوك الاول ١٩ : ١٨ .

سليمان وهو البناء الاثري الديني الوحيد عند العبرانيين القدماء لم يشيده معابرون صوريون فحسب بل 'خطط وفقاً لتخطيط معبد كنعاني، واتبعت زخرفته نماذج كنعانية'. وكان القصر الملكي في اورشليم ايضاً من عمل الصناع الفينيقيين^١. والملاك (الشيرويم) بشكل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة تمثل نموذجاً فنياً عند الساميين القدماء. وفكرتنا عن الملاك كولد صغير له جناحان ترجع عن طريق فن عصر النهضة ليس الى الثور المجنح الاثوري كما يظن البعض بل الى ابي الهول المجنح او الاسد المجنح الذي له رأس بشري عند السوريين. وكانت جدران هيكل سليمان وستار خيمة الرب تزدان بالشيرويم (الملائكة). وكان بنو اسرائيل يفكرون بالمهم واقفاً او جالساً في عرشه على ملاك^٢.

كانت طقوس الهيكل تستدعي العزف على الآلات الموسيقية^٣. وكان الموسيقيون والمغنون الاول في الهيكل كنعانيين في اشغاصهم وتدريبهم. وعندما بدأ داود بالموسيقى العبرانية المقدسة وراقاها سليمان لم يكن هنالك من نموذج يمكن اتباعه سوى النموذج الكنعاني. والتقايات الموسيقية نفسها في عهد اسرائيل الاخيرة كانت تُسر بارجاع اصلها الى عائلات باسماء كنعانية^٤. ويبرهن رسم امرأة من مجدو تلعب على العود ان تلك الآلة كانت معروفة في فلسطين قبل ايام داود بنحو القوي سنة. ومؤلف سفر التكوين^٥ يعترف بتقديم الآلات الموسيقية التي يستعملها شعبه حين ينسب لاحد احفاد قايين انه كان 'أباً لكل خارب بالعود والمزمار'. وبعد اقتباس هذه الآلات استخدمت لاجل الموسيقى الدينية والزمنية. وكانت اهم آلات الدق عند الاسرائيليين الدف الذي تشير اليه التوراة في اماكن كثيرة^٦. اما آلات النفخ فيمثلها الناي والبوق. وكان الناي قصبة بسيطة مفردة او

(١) راجع اعلام ص ٢٠٥.

(٢) صموئيل الثاني ٢٢ : ١١ ؛ الزامير ١٨ : ١٠.

(٣) اخبار الايام الاول : الاصحاح ٢٥.

(٤) راجع : Albright, *Archaeology and the Religion of Israel*, pp. 14, 126-7.

(٥) سفر التكوين ٤ : ٢١.

(٦) سفر الخروج ١٥ : ٢٠ ؛ القضاة ١١ : ٣٤ ؛ صموئيل الاول ١٨ : ٦ ؛ الزامير ٦٨ : ٢٥.

مزدوجة من النوع الذي لا يزال يستعمله الرعاة في سورية . وكان يصنع البوق (شوفر Shofar) من قرن كبش او ماعز ولا يزال يستعمل في الكنائس العبرانية^١. ومن الآلات ذات الاوتار اصبحت القيثارة مفضلة على غيرها . وليس لدينا فكرة عن الالحان التي كانت تلعب على هذه الآلات .



١ - ملاك من العهد القديم يرتكز عليه عرش احيرام ملك بيلوس

٢ - ملاك من صنع رفايل في مجموعة السكستين بالفاتيكان

وكانت الاغاني ترافق الموسيقى ومن اقدم الاغاني المحفوظة اغنية دبورة التي تذكر انتصاراً كسبه الاسرائيليون على الكنعانيين^٢. وهناك اغان تتصل بالزيارة وتستخدم في الصعود الى الميكل وقد ادجت في عدد من المزامير^٣. وكانت الاغاني بطبيعة الحال مؤلفات شعرية . ويتصف الشعر العبري بالتوازي والمطابقة كما في

(١) انظر : Curt Sachs, *The History of Musical Instruments* (New York, 1940), pp. 110-112.

(٢) سفر القضاة الاصحاح الخامس .

(٣) المزامير ١٢٠ - ١٣٤ .

شعر اوغاريت . وهذه المطابقة المستعارة من الكنعانيين هي التي اعطت الزمامير وغيرها من المؤلفات الشعرية في العهد القديم كثيراً من جلالها وعظمتها وتوقيعها الموزون . ونصف العهد القديم تقريباً شعري في تركيبه .

الشؤون المنزلية

اقتبس العبرانيون كذلك في الشؤون الزمنية عادات اولئك الذين عاشوا بينهم وتراوجوا معهم . وكانت فكرتهم العامة عن الحياة والآخرة تقريباً كما كانت في كنعان . وعادات الدفن كانت متشابهة . فقد كان يوضع الجسم في قبر مع ادوات كانت تستخدم في الحياة اليومية كالصحون والجرار . وكانت ثيابهم وحليهم وخزفهم وحرفهم تتبع الاساليب والازياء الكنعانية . وكان الملوك والانبياى يلبسون رداء طويلاً من نوع خاص فوق ملابسهم واقتبسته النساء فيما بعد . وكانت الطبقة العليا ايضاً تلتف بقماش من الكتان يتألف من قطع مستطيلة من الكتان الرقيق .

كان الغزل والنسيج من الصناعات المنزلية للاستهلاك الشخصي . ومن جملة اوصاف حكمم العبرانيين للمرأة الفاضلة انها «تطلب صوفاً وكتاناً وتشغل يديها راضيتين»^١ . وتدل حجارة الاثقال للاتقال للاتوال التي وجدت بكثرة في قرية سفر^٢ وقطع الانوال الخشبية وبراميل الصباغة التي اكتشفت في لايخيش — تدل على وجود صناعات ممتنعة كانوا ينتجون لاجل الاستهلاك العام^٣ . وكانت هاتان المدينتان من المراكز الكنعانية القديمة . ولم يبرع الصناع العبرانيون في فن سوى فن قطع الحجارة الكريمة . وتظهر لنا الاختتام من عصر الملكية درجة رفيعة من المقدرة في هذا الفن . واسارات التوراة الى عشار الكتبة والحائكين والى ابناء الصباغين^٤ توحى بوجود منظمات ضعيفة تقابل النقابات كانت تضم افراد نفس الحرفة لاجل المصلحة الاقتصادية او الاجتماعية او الدينية المتبادلة^٥ .

(١) سفر الامثال ٣١ : ١٣ .

(٢) ومعنى اسمها «مدينة الكتب» وهي اليوم تل بيت مرسم على ١٣ ميلاً جنوب غربي الخليل .

(٣) راجع : Barrois, *Manuel*, vol. i, pp. 482-487.

(٤) انظر اخبار الاليم الاول ٢ : ٥٥ ؛ ٤ : ٢١ ؛ نحميا ٣ : ١٨ ؛ ٣١ : ١٠ ؛ قارن مع علومس ٧ : ١٤

(٥) انظر ما جاء من ٩٤ و ٩٥ .

كانت منسوجات الكتان تصنع من الكتان الوطني . وكان يزدهر هذا النبات القديم في الساحل الشرقي للبحر المتوسط وفي مصر . وقد زرع في سهل اريحا قبل الاحتلال العبراني^١ . وزال نبات الكتان الاعتيادي تقريباً من فلسطين ولكن الازهار البرية التي تنتسب الى فصيلة الكتان لا تزال تعطي سورية ولبنان منظراً جميلاً في الربيع^٢ . وادخل القطن بعد الكتان بينما استعمل الصوف قبل ذلك بدة طويلة . وكان المنتج المنزلي للصوف الذي يحاك في المنزل ايضاً يشكل اللباس الاعتيادي للطبقة المتوسطة الغنية .

ويذكر تقويم الجزر في منتصف القرن العاشر القمح والزيتون والعنب عدا الكتان . وكانت ارض الميعاد « ارض حنطة وشعير وكرم وتين ورمات ؛ ارض زيتون وزيت وعسل »^٣ . وكانت مكانة القمح عظيمة بين الحبوب . وغزوات الاعداء كانت توجه غالباً ضد البيادر^٤ ولا تزال . واكتشفت حجار رحي صغيرة لطحن القمح في اماكن عديدة . وتدل الافران التي وجدت في بيت شمس ان بعض عادات صنع الخبز قد استمرت حتى العصر الحاضر حيث تستعمل التناوير (جمع تنور)^٥ . وبقايا معاصر الزيت والحجر كثيرة^٦ . وقد وجدت نفايات الزيتون بكميات كثيرة في لاخيش مما يدل على ان هذه الصناعة كانت ذات شأن في عصر الملكية . واقتبس العبرانيون المصباح الكنعاني الذي يستعمل فيه زيت الزيتون للاحتراق واستخدموه وحده لمدة سبعة قرون تقريباً . واقدم مصباح اجنبي مستورد من بلاد الرافدين حوالي ٥٠٠ ق. م . اكتشف في بيت شمس ويظهر فيه التحسن لوجود مسكة في جانبه وغطاء في اعلاه مع ثقب لاجل القليل . وتدل جرة بشكل خلية مخروطية

(١) سفر يشوع ٢ : ٦ .

(٢) George E. Post, *Flora of Syria, Palestine and Sinai* (Beirut, 1896) pp. 181-184.

(٣) سفر التثنية ٨ : ٨ .

(٤) صموئيل الاول ٢٣ : ١ .

(٥) انظر : Elihu Grant, *Rumeileh*, p. 49 ; do., *The People of Palestine* (Philadelphia, 1921) pp. 78 seq.

(٦) لاجل الرسوم المصفاة بذلك انظر : Elihu Grant, *Ain Shems Excavation*, pt. 1 (Haverford, 1931), pp. 27, 78 ; *Rumeileh*, pl. vii.

وجدت في تل النصبة على ممارسة تربية النحل^١. و اشارات التوراة الى البصل والثوم والبقول والعدس والخيار والكزبرة وغير ذلك من الحضار والحبوب تدل على ان عادات العبرانيين الغذائية لم تختلف كثيراً عن عادات جيرانهم^٢. وكانت للحمص والعدس اهمية في الطبخ^٣.

وتظهر الكروم ومنتجاتها بصورة بارزة في الطقوس العبرانية وفي الحياة الاقتصادية. ونبات الكرمة نفسه كان يدل على الحصب^٤. والخمر كان يستخدم لاجل التقدمة في الميكل^٥. وفي الفن كانت الكروم والعنب تظهر على الفسيفساء واعمال النحت في المعابد والمدافن القديمة. والرمان ايضاً كان يستعمل في الزخرفة وعصيره كان مرغوباً فيه كشراب منعش^٦.

وبين الازهار كان الزنبق او السوسن^٧ يعتبر افضلها. وقد ظهر السوسن في زخارف الميكل وعلى النقود فيما بعد. وتكثر الاشارة اليه والى غيره من النباتات في نشيد سليمان. وربما استعمل هذا الاسم بصورة عامية ليشمل شقائق النعمان والاقحوان التي تشكل في الربيع منظراً بهيجاً غنياً بالالوان في حقول سورية. ولا بد ان المسيح كان يفكر في احدى هذه الازهار حين قال انه «ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها»^٨.

(١) انظر: Burrows, p. 172. تقع تل النصبة على نحو ٨ اميال شمالي القدس وميلين جنوبي البيرة واعتبرها عدد من العلماء انها مدينة المصفاة Mizpah. انظر سفر الملوك الاول ١٥: ٢٢؛ صموئيل الاول ٧: ٥-١٦؛ وراجع كلمة Mizpah في Westminster Dictionary.

(٢) انظر سفر العدد ٥: ١١؛ صموئيل الثاني ١٧: ٢٨؛ حزقيال ٤: ٩؛ اشعيا ١: ٨؛ الخروج ٣١: ١٦؛ العدد ١١: ٧.

(٣) سفر التكوين ٢٥: ٣٠.

(٤) سفر العدد ١٥: ٥.

(٥) سفر اللاويين ٢٣: ١٣؛ العدد ١٥: ٥.

(٦) نشيد الانشاد ٨: ٢.

(٧) بالعبرية shoshannāh ومنها اتى اسم Susanna؛ نشيد الانشاد ٢: ١-١٦؛ ٤: ٤؛ ٤: ٥: ٦.

(٨) انجيل متى ٦: ٢٨-٢٩.

التقود

لم تدخل التقود المسكوكة او المحتومة الى فلسطين حتى القرن الخامس ق. م .
 وكانوا قبل دخول التقود يتبعون النظام البابلي المبني على الشاقل كوحدة للوزن .
 وعندما كانوا لا يلجأون الى المقايضة في مبادلاتهم التجارية كانوا يستخدمون الميزان .
 وقد اكتشفت موازين متنوعة مصنوعة بموجب نظام الشاقل في مواقع مختلفة .

وفي اوائل القرن الخامس دخلت الدراهم الاثينية الفضية التي كانت قد اصبحت
 تقريباً نقداً دولياً الى الشرق الادنى وقلدت في فلسطين وبلاد العرب . واقدم
 نقد عبراني وجد حتى الآن يرجع الى اواسط القرن الخامس وربما كان من
 ضرب نحاسي .

المعلمون الدينيون

اذا كانت مساهمة العبرانيين في التقدم العالمي لا تدخل في نواحي الفن والسياسة
 والاقتصاد ففي اية ناحية تقع هذه المساهمة اذاً؟ انها تقع في ناحية الديانة . فالمساهمة
 الدينية هي التي جعلت العبرانيين معلمي البشرية من الناحية الاخلاقية . وعبقريتهم
 بكاملها تظهر في العهد القديم .

ولم يصلنا مؤلف يشبه العهد القديم في اهميته من العصور التي سبقت المسيحية .
 والعهد القديم هو اكثر من مؤلف ادبي ، انه صرح حضارة بكاملها . وقد اتتنا
 بعض آثار اخرى ادبية للحضارات القديمة بطريق الاكتشافات الاثرية الحديثة بعد
 ان ظلت مدفونة في باطن الارض اجيالاً طويلة ، غير ان هذا الاثر الادبي قد وصلنا
 بطريق المرويات والتقاليد المتواصلة . وقد كان العهد القديم خلال العصور قوة
 فعالة في حياة الرجال والنساء . ومرت مادته نفسها باطوار كثيرة من الانتقاء
 والحذف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي . وهناك نوع من الوحدة
 تتخلل العهد القديم . ولم يمض زمن لم تكن فيه مادته موضوع دراسة عميقة . ولم
 ينفك الفنانون والشعراء والكتاب في العصور القديمة والوسطى والحديثة يستمدون

الوحي من مواضع التوراة . ومعظم اللغات المتمدنة تحمل طابع اشارات التوراة والافكار المتصلة بالتوراة .

وهناك عددٌ من المعلمين فضلاً عن المؤرخين ساهموا في تأليف العهد القديم . فقد كان هنالك أولاً المشرع الذي يظهر بشخص موسى وقد تكلم بلسان يهوه . والشريعة الموسوية التي انزلها الله على موسى^١ كان لها ما يقابلها في قوانين حمورابي التي بالرغم من انها اقدم بكثير من خمسمائة سنة تمثل طوراً ارفع من الحضارة وهو الطور الصناعي والتجاري بينما كان العبرانيون في مرحلة الزراعة والرعي . وفي مجموعة قوانين حمورابي كان العبد يحرر في السنة الرابعة^٢ بينما في شريعة موسى كان يحصل ذلك في السنة السابعة^٣ . وكان عقاب السارق في قانون حمورابي ان يعيد الاشياء المسروقة ضعفين او ثلاثة اضعاف^٤ بينما عليه ان يعيدها في شريعة موسى بين اربعة او خمسة اضعاف^٥ . وكان ضرب الاب او الام يعاقب في قانون حمورابي بالتشويه^٦ بينما في شريعة موسى يعاقب بالموت^٧ . وحمورابي ينزل العقاب بالقضاة الذين يقبلون الرشوة^٨ بينما موسى يكتفي بمنع الرشوة^٩ . والشريعتان تضعان العادات والاعراف الموجودة بشكل قوانين وتضمن عادة الثأر البدوية القائمة على مبدأ « العين بالعين »^{١٠} . وهو ارفع بمرحلة من عادة الثأر بدون قيد التي كانت معروفة قبلاً . وحمورابي وموسى تساما قوانينهما من سلطة عليا فأخذها حمورابي من شمس

(١) سفر الخروج ٢٠:١٩ - ٢٢؛ انجيل متى ١٥: ٤ .

(٢) Robert W. Rogers, «The Code of Hammurabi», in *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York, 1912), § 117.

(٣) الخروج ٢١:٢؛ التثنية ١٥: ١٢ .

(٤) Rogers, §§ 120, 124.

(٥) الخروج ٢٢: ١ .

(٦) المادة ١٩٥ .

(٧) سفر الخروج ٢١: ١٥ .

(٨) المادة ٥ من قانون حمورابي .

(٩) سفر الخروج ٢٣: ٨؛ التثنية ١٦: ١٨ - ١٩ .

(١٠) الخروج ٢١: ٢٤؛ التثنية ١٩: ٢١؛ سفر اللاويين ٢٤: ٢٠؛ قانون حمورابي مادة

وموسى من يهوه. غير ان العنصر الاخلاقي في مجموعة موسى كما تحتوحها الوصايا العشر لا يوجد ما يساويه في اية مجموعة اخرى. ولم يأت بما هو احسن من هذه الوصايا العشر سوى المسيح. والمنع او التحريم في هذه الوصايا لا يشمل الاعمال فحسب وانما يتجاوزها الى مجرد التفكير والرغبة.

وكان هنالك معلم عبراني من نوع آخر هو الكاهن kōhēn الذي كان يعلم الشريعة ولكنه كان يعمل اكثر مما يعلم. فقد كان يقوم بالمراسم عند المذبح ويجري سائر الطقوس ويعمل كوسيط بين الانسان والله. وكان الكهنة يشكلون طبقة خاصة بين الامم القديمة والكهانة عند العبرانيين كانت تنحصر في اسرة هارون بصورة وراثية^١.

ومن المعلمين ايضاً الرجل الحكيم. وكان الحكيم العبراني يخاطب الفرد وليس المجموع ورسائله كانت ادراك النجاح اكثر منها الحصول على رضى الاله. والحكمة بخلاف الشريعة كان مصدرها الانسان وكانت نتيجة ملاحظته واختباره. وكتب الحكمة العبرانية الكبرى هي اسفار ايوب والامثال والجامعة واعظمها بل بالاحرى اعظم كتب الحكمة في اية آداب هو بدون شك سفر ايوب.

ومؤلف سفر ايوب لم يكن رجلاً حكيمياً لا مثيل له فحسب بل كان شاعراً لا يجارى ايضاً. والشعر العبراني كسائر انواع الشعر هو نطق صادر عن شعور قوي مفرغ في شكل خاص. والشاعر الغنائي كان اكثر انواع الشعراء شيوعاً في اسرائيل. وكمن كان يهدف في اغنيات النصر التي ينشدها الى الاشادة بالخلاص الذي تم على يد يهوه. وكان يعبر كواضع للزامير عن عواطف رجل تائب يطلب الرحمة او يظهر الفرح بسبب الغفران^٢ او كان يعبر عن عواطف رجل ضعيف يصرخ في وقت الضيق او يمجّد الله لعونه^٣. والشاعر كان معلماً ايضاً في اسرائيل.

(١) الخروج ٢٨: ١٦؛ العدد ٤٠: ٤٠.

(٢) الزامير ٥١: ٣٢.

(٣) الزامير ٣: ٣٨؛ ٣٣: ٢٣.

الانبياء

وكان النبي يتمتع بأهمية خاصة بين سائر المعلمين . وكلمة «نبي» هنا لا تفيد المتنبئ عن حوادث المستقبل وإنما الذي يتكلم بالنبأية عن الله وهذا معنى الكلمة من حيث الاشتقاق^١ . والديانة العبرانية إنما تبدأ بالانبياء .

وقد ظهرت النبوة كاحتجاج ضد عبادة البعل وسائر العبادات الاجنبية . وكان غرضها من وجهة ايجابية تأييد ديانة يهوه . فالانبياء كانوا المدافعين عن يهوه . وبعد ان بدأ انبياء اسرائيل من هذا الاساس فانهم توصلوا الى ناحية ريفية من التفكير الديني ، وفي الواقع اوجدوا ديانة جديدة توحيدية متمركزة حول اله اعلى يعم الكون وهو اله واحد فقط . وقد علم الانبياء ان هذا الاله الواحد هو كائن اخلاقي عادل . واكثر من ذلك فانه يتوقع ان يكون تابعوه اخلاقيين وعادلين . ومثل هذا الاله يسر ليس بالذبائح بل بالعيش الذي يتبع قواعد الاخلاق . والذي همه هو السلوك اكثر من الطقوس . فالتوحيد الاخلاقي الشديد كان المبدأ الاساسي في تعاليم الانبياء .

وقد قام هؤلاء المعلمون الجدد في عالم تتألف دياناته من سلسلة من الاعمال والاصول التي يعتبر الاتباع الصحيح لها جوهرياً للحصول على رضى الاله او لتجنب غضبه واتوا بتفسير جديد لله والانسان وعلاقاتهما . وكان هدفهم ليس خلاص الروح^٢ بل تنمية الفرد والمحافظة على المجتمع . واصبحوا المدافعين عن العدالة الاجتماعية . ولم يقيم اي معلمين دينيين في بابل وخاطي او اليونان يمثل هذه المحاولة لربط الاخلاق بالديانة او اعتبار قواعد السلوك الاجتماعي كأوامر الهية . والعنصر الاخلاقي في كتاب الاموات وغير ذلك من قطع الادب المصري ضعيف جداً اذا ما قورن بما

(١) ان كلمة نبي العبرانية هي عربية في شكلها ومعناها الذي ينبيء واصل الكلمة سامي قديم موجود في الاكادية nabu بمعنى يدعو .

(٢) كان للصيرين وحدم بين الامم القديمة تماثل مفصلة بشأن الحياة بحد الموت . وكان الشبول Sheol وهو مقر الاموات عند العبرانيين غامضاً غير محدد بالضبط وبدون خطة رسمية . وكان الصالحون والاشرار يذهبون اليه وخاصة الاشرار حيث يكون وجودهم جامداً بدون نشاط . انظر سفر التكوين ٣٧ : ٣٥ ؛ صموئيل الاول ٢ : ٦ ؛ المزامير ٩ : ١٧ ؛ ٥٠ : ٦ ؛ ٣١ : ١٧ ؛ سفر الجامعة ٩ : ١٠ ؛ اشعيا ١٤ : ٩ ؛ قارن مع اشعيا ٢٦ : ١٩ ؛ دانيال ١٢ : ٢ .

اتى به انبياء العبرانيين . وقد بنى المسيح على اساس التعاليم العبرانية النبوية وليس على الاسس القانونية او الكهنوتية واكمل محمد البناء على هذا الاساس المشترك . ولذلك فانه ليس من المبالغة ان يقال ان حركة النبوة عند العبرانيين « قد احدثت اعظم حركة في تاريخ البشرية الروحي »^١ .

والتفكير النبوي لم يقتصر على ايجاد فكرة جديدة عن طبيعة الله وصفاته وعلاقة الانسان بالله وبالانسان وانما انتجت نوعاً جديداً من الادب الموزون الفعال . وجانب كبير من تأثيره الشفوي يفقد عن طريق الترجمة . وقد ظهرت اكثرية الادب النبوي بين عامي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق . م .

وكان اقصى ما توصل اليه البابليون والاشوريون والمصريون واليونان نوعٌ من التوحيد المشوب بالشرك (henotheism) يعتقد بوجود اله واحد اعلى بدون ان يمنع الاعتقاد بألهة اخرى . وفي العبادة توصلوا الى عبادة اله واحد مع الاعتقاد بوجود اكثر من اله واحد في الوقت نفسه (monolatry) . واذا كان البعض قد توجه بالصلاة الى مردوخ او اتون او ابولون كما لو كان في ذلك الوقت لا يوجد اله آخر فان ذلك لا يجعلهم موحدين . فالتوحيد هو نظام عقائدي ناشط مكافح لا يقتصر على انكار سيطرة سائر الآلهة في نواحٍ محدودة وانما ينكر وجود الآلهة الاخرى ذاتها . واله التوحيد لا يمكن ان يكون قبلياً او قومياً بل يجب ان يكون امياً عاماً . والاعتقاد بوجود اله اعلى دون ان يمنع الاعتقاد بألهة اخرى (اي henotheism) هو مرحلة متوسطة بين الاعتقاد بتعدد الآلهة وبين التوحيد .

ومن الواضح ان موسى وكذلك داود كانا من اتباع هذه المرحلة المتوسطة من التوحيد . فقد كان يهوه بالنسبة لهما اله العبرانيين وحدهم وسيطرته كانت على ارض اسرائيل^٢ . وهذا الاتصال الوثيق بين الاله والبلاد لم يكن عند العبرانيين وحدهم فقد كان يعترف به معاصروهم . ويهوه الاله العبراني الذي بدأ كإله قبلي يسره ازالة العقوبات القاسية بالمصريين الذين اضطهدوا شعبه ، ثم اصبح الهاً قومياً

Julius A. Bewer, *The Literature of The Old Testament in its Historical Development* (New York, 1926), p. 87.

(٢) سفر الشئبة ٢٨ : ٦٤

يسمح باستئصال الاموريين والكنعانيين^١ ويأمر بقتل المئات من كهنة منافسه^٢ ان هذا الاله (يهوه) لم يرفع الى تلك المكانة الفريدة كاله وحيد في العالم وكاله يتصف بالمحبة والعدالة والرحمة والنفرة الا في مستهل الفترة النبوية . اما كيف حصل هذا التطور فانه ليس من السهل شرح ذلك . وبموجب التفكير القديم كانت القبيلة او الشعب عندما تغلب على قبيلة اخرى او شعب آخر فان ذلك يعتبر برهاناً قاطعاً على ان اله الشعب المنتصر هو الاقوى . وبصورة آلية يقبل الشعب المغلوب هذا الاله . غير ان انبياء العبرانيين لم يتبعوا ذلك التفكير . فبينما كانت جيوش الاشوريين تخضع شعب يهوه كان انبياء يهوه يعلمون بان يهوه كان يستخدم اشور كاداة لمعاينة شعبه لانهم اخطأوا . وهكذا تحول الانكسار الى انتصار ، ومكانة يهوه لم يحافظ عليها فحسب بل ارتفعت الى ذروة فريدة من العالمية .

عاموس الموحد الاول

قد لا يصدق الانسان ان راعياً وجاني جيز من قرية قليلة الشأن في هـوذا والبرية المجاورة كان اول رجل في تاريخ الفكر ادرك وحدة الله وصقته العالمية . ذلك كان عاموس من قرية تقوع^٣ الذي اعلن رسالته حوالي ٧٥٠ ق. م . وقد كان عاموس نبياً يتكلم ولا يكتب وكذلك كان محمد . وربما كان عاموس أمياً . وقد نشر رسالته في مملكة الشمال في عهد يربعام الثاني الذي ادت فتوحاته الى تدفق ثروات ومواد ترف جديدة على المجتمع الاسرائيلي . وكان عاموس اول من نظر الى يهوه كاله شعوب اخرى غير بني اسرائيل^٤ وكاله عدالة اجتماعية . واليك الكلمات التي وضعها على لسان يهوه (الاصحاح الخامس) :

٢١ بغضت كرهت اعيادكم ولست التذ باعتكافاتكم .

(١) سفر يشوع ١٠ : ٨ - ٤٢ .

(٢) سفر الملوك الاول ١٨ : ٣٦ - ٤٠ : قارن مع سفر التثنية ١٣ : ١٣ - ١٧ : ١٧ : ٢ - ٥ .

(٣) ولا تزال آثار هذا الاسم في خربة تقوع او تقوعا وهي قرية خربة تبعد ستة اميال جنوبي بيت لحم .

(٤) عاموس ٩ : ٥ - ٧ .

- ٢٢ اني اذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا ارتضي وذبايح السلامة من مسناتكم لا التفت اليها .
- ٢٣ ابعدي عني ضجة اغانيك ونعمة ربابك لا اسمع .
- ٢٤ وليجر الحق كالنياه والبر كنهر دائم .

اشعيا و قدسية الله

وقد فكر النبي اشعيا الذي بدأ نبوته نحو ٧٣٨ كما فعل عاموس على اساس التوحيد النظري . وكان يعتبر الالمة المتنافسة لا قيمة لها ومن صنع الانسان^١ . وقد احدث تقدماً في تفكير عصره بالاصرار على قدسية الله وباراز كاله المختلف عن نفس الانسان حيث يقول : « قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الارض^٢ » . عاش اشعيا في عهد مضطرب حصل فيه خراب السامرة عن يد سرجون (٧٢٢ ق. م) وهجوم سنحاريب على اورشليم (٧٠١ ق. م) ولكنه كان يقف فوق معاصريه ويقدم مثلاً رائعاً عن الوطنية التي لا تتراجع امام اية تضحية نظراً لوهي ايمانه الذي لا يتزعزع بالله قدوس . وقد ظل لمدة ثلاث سنوات معرّياً وحافياً ليظهر نوع المعاملة التي سيناها الاسرى المصريون والكوشيون على يد الاشوريين^٣ . وكان اشعيا بالاضافة الى ذلك نبياً تكلم عن قدوم المسيح ورأى بعين ايمانه حلم السلام العام تحت رئاسة « امير السلام » تتم سلطته العالم ويطيع الناس سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ويسكن الذئاب مع الخراف^٤ . لقد بشر اشعيا بنظام جديد لم تستطع ان تحققه ٢٦٠٠ سنة من التقدم . وكان اشعيا الثاني وهو مؤلف الاصحاح ٤٠ الى ٥٥ موحداً ايضاً .

ارميا والعهد الجديد

اختلف ارميا عن عاموس واشعيا بانه كان نبياً كاتباً . واتصفت نبوته بالالام

(١) اشعيا ٢ : ١٨ ، ١٠ : ١٠ .

(٢) اشعيا ٦ : ٣ .

(٣) اشعيا ٢٠ : ٣ .

(٤) اشعيا ٦٠ : ٦ - ٧ : ٢ - ٢ : ٤ - ١١ : ١ - ٩ .

التي رافقتها مدة طويلة (٦٢٦ - ٥٨٦ ق. م). وربما كان انبل شخصية في العهد القديم كله. وقد شهد مهاجمة نبوخذنصر لاورشليم في ٥٩٧ وتخريبه لها في ٥٨٦. وكان كعاموس واشعيا الثاني موحداً ولكن توحيديه كان أتم وعملياً أكثر. وقد اعلن بشكل لا يقبل الشك ان جميع الآلهة الاخرى هي اباطيل من صنع الانسان ومن منتجات الخيال^١. وقد حلم كما فعل اشعيا بعهد طوبائي يسود فيه الحق والعدالة^٢.

غير ان ما يتوج سفر ارميا هو في الفصول ٣٠ حتى ٣٣ ويعتبر البعض انها تضم انبل تفكير في العهد القديم. ففيها يقطع يهوذا عهداً جديداً مع شعبه حيث يجعل شريعته في داخلهم ويكتبها على قلوبهم وليس على الواح حجرية كما حصل في عهد آبائهم^٣. وقد اخذ يسوع في العشاء الاخير فكرة العهد الجديد هذه كما ان مؤلف الرسالة الى العبرانيين ذكر الاشارة الاصلية لهذه الفكرة^٤. وفي المناسبة نفسها يعلن ارميا مبدأ المسؤولية الفردية التي تخالف ما قيل سابقاً بان «الآباء اكلوا الحصرم واسنان الابناء ضرسوا»^٥ وهكذا بلغ مرحلة من الشعور الاخلاقي لم تبلغه بعض الامم الاوربية في عصرنا اذا حكمنا من تصرفها في الحرب العالمية الثانية.

أنبياء آخرون وفضلهم

وقد كان لبعض الانبياء العبرانيين الآخرين فضلهم ومساهماتهم. فقد توصل هوشع الذي كان من المملكة الشمالية ونشر تعاليمه بين ٧٤٥ و ٧٣٥ الى الفكرة السامية التي مؤداها ان الله محبة وذلك بعد اختبار مخزن في حياته العائلية^٦. فقد كانت زوجته التي ولدت له ثلاثة اولاد غير امينة ولكنه ظل يحبها؛ وكذلك احب الله اسرائيل غير المحلصة له. وكان النبي ميخا (نشر تعاليمه بين ٧٣٠ و ٧٢٢)

(١) ارميا ٥: ٧؛ ١٤؛ ٢٢؛ ١٠؛ ١٠؛ ١٢؛ ١٦؛ ١٧ - ٢١.

(٢) ارميا ٣٣؛ ٥.

(٣) ارميا ٣١؛ ٣١ - ٣٤؛ ٣٢؛ ٤٠.

(٤) انجيل متى ٢٦؛ ٢٨؛ لوقا ٢٢؛ ٢٠؛ الرسالة الى العبرانيين ١٠؛ ١٦ - ١٧.

(٥) ارميا ٣١؛ ٢٩ - ٣٠؛ قارن مع حزقيال ١٨؛ ٢ - ٤.

(٦) هوشع ١٤؛ ٤.

معاصراً لاشعيا ومدافعاً عن الفقير الذي كان يراهم يتألم من الظلم وقلة العدل . وقد رأى ان الامور ستصبح في وضع احسن^١ . وكلماته المتصلة بالعدالة الاجتماعية كلمات خالدة حيث يقول (الاصحاح السادس) :

٦ بيم اتقدم الى الرب وانحني للاله العلي ؟

هل اتقدم بمعرفات بمعجول ابنا سنة ؟

٧ هل يسر الرب بالوف الكباش بربوات انهار زيت ؟

هل اعطي بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطية نفسي ؟

٨ قد اخبرك ايها الانسان ما هو صالح ؟ وماذا يطلبه منك الرب الا ان

تضع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع الهك ؟

وقد اظهر النبي حزقيال معاصر ارميا في الاصحاح ١٨ شعوراً بالمثل العليا الاخلاقية لم تظهره الامم المسيحية في حروبها في القرن العشرين . وعلى ذلك فان البشرية توصلت في اقوال الانبياء العبرانيين الى مستوى لم تتجاوزه قط إلا في اقوال المسيح وبعثاً في اقوال بولس . وتبنى الاسلام وهو الديانة التوحيدية الثالثة الكبرى في العالم الوجدانية الاخلاقية لليهودية والمسيحية . وشاركت الزردشتية الديانتين القديمتين في بعض الصفات البارزة . وبظهور التوحيد في مظهره اليهودي والمسيحي تم نال عمل مجيد حققته الحضارة السورية القديمة^٢ .

وقد اصبحت الآرامية بعد العبرية اللغة التي وجد فيها الفكر الديني عند اليهود وسيلة للتعبير . ومن اهم المؤلفات الكبرى بعد التوراة يأتي التلمود (بمعنى دراسة او عقيدة) ويضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب الحما المكتوب . واما النص (وهو المشنة بمعنى اعادة او تعليم) فانه ورد بالعبرانية الجديدة بينما تشرح النص (الجماره Gemara بمعنى تنمة) وضع بالآرامية . والتلمود

(١) ميخا : ٤ : ١ - ٨ .

(٢) انظر ص ١٧ - ١٨ وماسياتي في الفصل ٢٥ . راجع : Toynbee, *Study of His-* *tory*, vol. ii, pp. 75-77. وتونبي يحمل الحضارتين العبرية والآرامية منتسبتين لحضارة السورية التي كانت كأصل لها . وهو يعتبر الخلافة المباشرة كشكل جديد ظهرت فيه القوة السورية العامة (ج ١ ص ٦٧ - ٦٨) بمد توقفها بسبب الهلنية النخيلة .

الاورشليمي الذي جمع في القرن الرابع م. لم يبلغ في شهرته واهميته كمرجع درجة التلود البابلي. ومن اقدم الحاخامين الذين اعترف بهم كمرجع هام في تفسير التوراة وفي وضع مبادئ تفسيرية هيلل Hillel الذي ولد في بابل وعاش في اورشليم ومات فيها عام ٩٩ م. وقد اوجز الدين بكلمات قليلة حيث قال: لا تفعل لساثر الناس ما تجده قبيحاً بالنسبة لك^١. وقد علم المسيح^٢ نفس هذا المبدأ وكذلك فعل بولس^٣ الذي درس على شملائييل Gamaliel حفيد هيلل. واشهر من ذلك بين اقوال هيلل قوله: «لا تفعل للآخرين ما لا تريد ان يفعلوه لك»^٤.

(١) قارن مع سفر اللاويين ١٩: ١٨.

(٢) انجيل متى ٢٢: ٣٩؛ مرقس ١٢: ٣١.

(٣) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ٥: ١٤؛ قارن مع رسالة بولس الى اهل رومية ١٣: ٨.

(٤) انظر ما سيأتي في اوائل الفصل ٢٥.

الفصل التاسع عشر

سورية تحت الحكم الفارسي

بين الفترة السامية والفترة الهندية - الاوربية

سيادة الدولة البابلية الحديثة

إن تدمير نابوبولاصر، مؤسس الدولة البابلية الحديثة، بالاشتراك مع كي اخسار Cyaxares الميدي لمدينة نينوى العظيمة في سنة ٦١٢ ق. م. وما تلا ذلك من ابادة قوات الدولة البابلية الحديثة لفلول الجيش الاشوري الذي ارتد الى حرات في ٦٠٩، اثار التساؤل فيما اذا كانت بابل الحديثة ام مصر القديمة هي التي ستوث منطقة شرقي البحر المتوسط. ولم يطل تقرير ذلك اذ ان الهزيمة الساحقة التي الحقها القائد نبوخذنصر، ابن نابوبولاصر، بالفرعون نيخوا في كركميش سنة ٦٠٥ لم تدع مجالاً للشك فيمن سيحظى بالسيادة على تلك المنطقة. وحين تجرأ هوفرع غير متعظ بعبارة سلفه نحاو على تحدي تلك السيادة لاقى المصير نفسه على ارض المعركة في فلسطين. وكان سادة سورية الجدد ويسمون ايضاً بالكلدانيين من الساميين وابناء عم الاشوريين - البابليين ويرجع انهم افراد موجة متأخرة كان لها بعض العلاقة بالآراميين^٢.

وفي هذه الاثناء تتسائل الشعوب التي رزحت لعدة قرون تحت وطأة اعظم قوة عسكرية عرفها العالم فيما اذا كان الوقت قد حان لان تتمتع بحريتها من جديد. وجاءها الجواب الحاسم بتدمير نبوخذنصر (٦٠٥ - ٥٦٢) لاورشليم في عام ٥٨٦ واخضاع صور في عام ٥٧٢ بعد حصار دام ثلاثة عشر عاماً. وكان على سورية الكبرى ان تحكمها بلاد الرافدين من جديد في الثمان والاربعين سنة التالية.

(١) انظر ص ٢١٩.

(٢) انظر ص ١٧٥ و ١٨٤.

سقوط الدولة البابلية الحديثة

انقضى الحكم الكلداني عام ٥٣٨ ق. م. حين هاجم الفرس، وهم شعب جديد ظهر في منطقة ابعده الى الشرق، جارتهم بابل بقيادة كورش. وكان هذا قد وحد الميديين والفرس، وهم ابناؤه عم في الاصل، تحت حكم واحد ثم قهر قارون ومملكته ليديا في اقصى آسية الصغرى^١. وكان يحكم بابل آنثذ نابونيدس (٥٥٦ - ٥٣٨) الملك المولع بالآثار الذي بلغ من اهتمامه بمخلفات الماضي حداً جعله يكثر من صور آلهة المدن الاخرى القديمة في عاصمته بما اكسبه كره كهانه ونقمة رعيتيه. والقریب ايضاً انه اتخذ من تيماء، وهي واحة بعيدة في شمالي الحجاز، مقراً له مدة من الزمن تاركاً شؤون الدولة بين يدي ابنه العاجز بلشاصر^٢. وكان ولي العهد هذا يهتم بحياة البذخ في القصر الملكي المترف الذي بناه نبوخذنصر اكثر من الاهتمام باتخاذ التدابير لاصلاح حصون عاصمته. واتضح معنى الكتابة التي كتبت على جدار القصر والتي تقول « قسمت بمملكته واعطيت للميديين والفرس^٣ ».

دولة عالمية جديدة: الفرس

حلت الكارثة ببابل سنة ٥٣٩ ق. م. وبقيت القلعة والقصر الملكي يقاومان حتى آذار سنة ٥٣٨. وعلى ذلك اعترفت مناطق الامبراطورية البابلية بما فيها سورية وفلسطين بالحكم الفارسي الجديد. ويعتبر سقوط بابل اكثر من مجرد انهيار امبراطورية اذ انه في ذلك الوقت وفي ذلك المكان انتهى عصر وهو العصر السامي وبدأ عصر جديد وهو العصر الهندي - الاوربي. وانقضت ايام الامبراطوريات السامية ولم تعد الا بعد اكثر من الف عام وكانت في هذه المرة برعاية ممثلين جدد

(١) وقارون هذا هو المقصود في التشبيه « غني مثل قارون » وكان قد استشار التنكهنين مرتين قبل اثاره الحرب فأكدوا له « بأنه سيدمر امبراطورية عظيمة » وكالت تلك الامبراطورية امبراطوريته.

انظر Herodotus Bk. I, ch. 53.

(٢) انظر: Sidney Smith, *Babylonian Historical Texts* (London, 1924) pp. 76 seq.; Raymond P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (New Haven, 1929) pp. 105 seq.

وكلمة بلشاصر مشتقة من الكلمة الاكادية بل شار اوصور Bēl-shar-ušur. ومعناها « يا بسل

احمر الملك ».

(٣) سفر دانيال ٥ : ٢٨ .

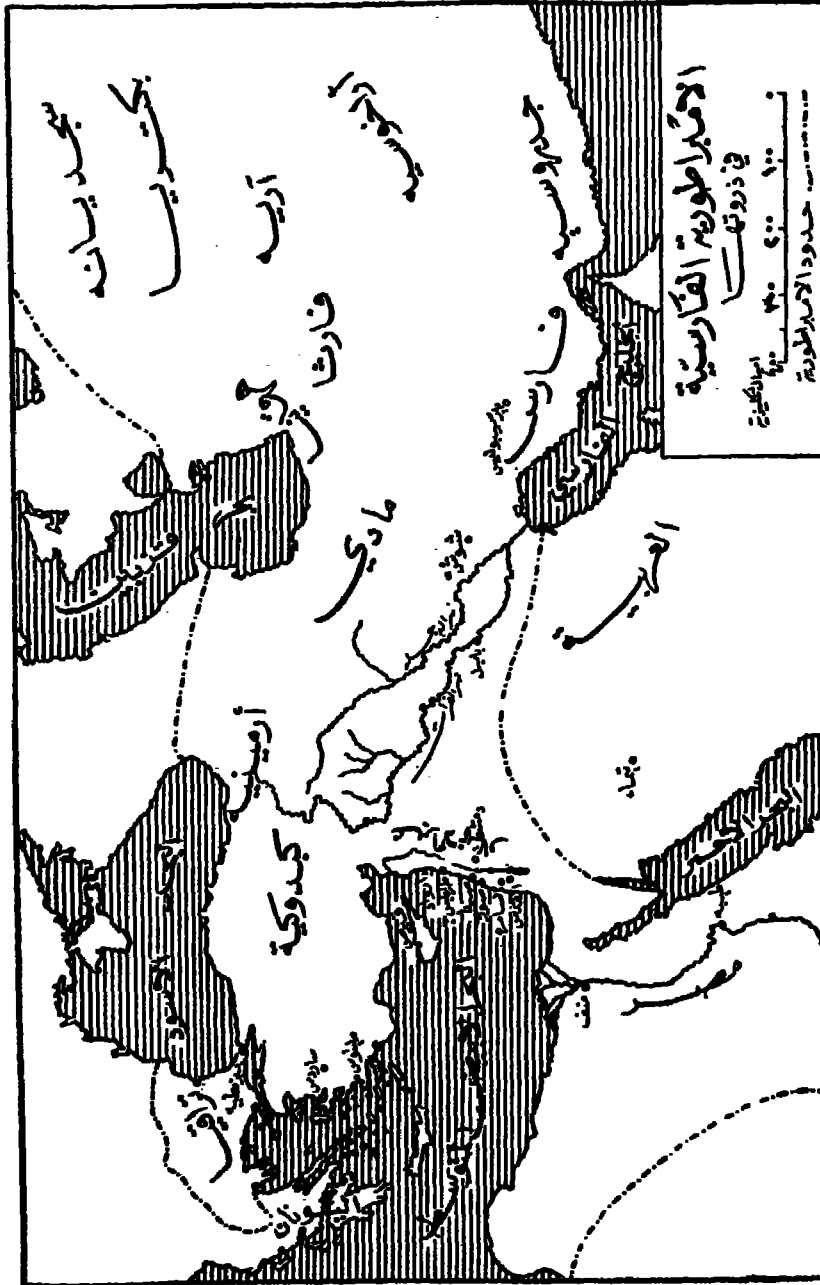
هم عرب الجزيرة الذين لم يكن لهم شأن يذكر في العلاقات الدولية القديمة . اما الفرس الذين بدأت بهم الفترة الهندية - الاوربية فينتسبون الى الفرع الهندي - الايراني من المجموعة الهندية الاوربية . وقد خلفهم في سيادتهم على العالم السامي المكدونيون فالرومان فالبيزنطيون وكلهم من الهنود الاوربيين .

اصبحت دويلات سورية وفلسطين الآن جزءاً من امبراطورية عظيمة تعتبر من اكبر الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم . وقد قدر لها ان تضم بعد ربع قرن من ولادتها العالم المتمدن بأسره الممتد من مصر والمدن الايونية في آسية الصغرى الى البنجاب في الهند . ومن ثم اخذت تتطلع بعين الطبع عبر الهلسبونت الى الجزء المتمدن الوحيد في اوربا . وساعد في جمع اطراف هذه الامبراطورية المترامية شبكة من احسن الطرق التي عرفت حتى ذلك الحين ، يضاف اليها نقد موحد ولغة رسمية هي الآرامية . واصبحت هذه اللغة التي شاع استعمالها طويلاً في الشؤون التجارية اللغة الرسمية للمقاطعات الغربية جنباً الى جنب مع الفارسية . وكانت جميع المراسيم والسجلات المتصلة بهذه المقاطعات تترجم الى اللغة الآرامية الرسمية . وعادت المدن الفينيقية الى الازدهار في ظل هذا السلم الفارسي كمرآكز للتجارة العالمية .

تنظيم الامبراطورية

آلت مهمة تنظيم هذه الامبراطورية الضخمة الى داريوس الاول (٥٢٦-٤٨٦) وهو من اقدر ملوك العالم القديم واكثرهم اطلاعاً وتنوراً . فهو الذي بنى الطرق وحسنها وانشأ نظاماً للبريد واصلح الضرائب وأعد أسطولاً لايجاد طريق بحرية بين مصر وفارس . وكان الفينيقيون عماد هذا الاسطول . وقد قسّم البلاد الى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى مرزبانة يحكم كل منها حاكم يدعى مرزبان . وكانت المرزبان حاكماً مدنياً وليس عسكرياً . ويقوم الى جانبه قائد وامين سر مستقل كل منهما عن الآخر ويتصلان بالعاصمة مباشرة . واضيفت الى سوزا وبابل ، المقربين للملكيين ، عاصمة ثالثة هي برسبوليس^١ حيث شيّد داريوس عدداً من الابنية هدمها

١) سوزا هي المدينة المذكورة في التوراة باسم شوشن والآن تسمى شوش . وخرائب برسبوليس وهي التي قامت بعد فرجادي عاصمة كورش تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال شرقي شيراز .



الاسكندر فيما بعد . وقد تمتعت القوميات الخاضعة في المرزبانات بوضع مستقل لحد ما ولا ريب ان هذا كان من عوامل الاستقرار فيها . وفرض على كل مرزبانة حصة معينة من الجزية تدفعها الى الخزينة الملكية . وكان بعض الموظفين المتجولين بالنسبة للسلطة الامبراطورية بمثابة «عيونها وآذانها» .

يتفوق نظام داريوس على جميع الانظمة التي سبقته بأنه كان نظاماً امبراطورياً يجمع بين الحكم الذاتي المحلي ومسؤولية الحكم المركزي والمراقبة العليا . وفي الحقيقة لم ينافسه نظام آخر حتى عهد الرومان . فهو يجمع احسن خصائص النظامين المصري والاشوري ويتجنب مساوئهما .

كانت سورية وفلسطين بالاضافة الى قبرص في الولاية الخامسة التي سميت مرزبانة «عبر نهرا»^١ . وتدفع جزية مقدارها ٣٥٠ وزنة^٢ وهي جزية خفيفة نسبياً . وكانت لا تزال في قبرص جاليات فينيقية عديدة .

اعادة اليهود من السبي

وجد كورش حين دخل بابل في ٥٣٩ - ٥٣٨ جالية يهودية يعود اصلها الى سبي نبوخذنصر الذي حصل في عامي ٥٩٧ و ٥٨٦ . وليس من الصعب الافتراض بان افراد هذه الجالية قد ساعدوا كورش على احتلال المدينة . وسارع الفاتح الفارسي الى اصدار مرسوم يخول الذين يودون الرجوع الى ارض آباؤهم واعادة بناء معبدهم حق العودة^٣ . وقد تصور ، على ما يظهر ، ان وجود طائفة يهودية في فلسطين تدبر بوجودها لاحسانه سيشكل توازناً فعالاً تجاه الحزب الموالي للمصريين الذي طالما برز في شؤون فلسطين . وتعاكس سياسة كورش هذه سياسة نفي الشعوب الخاضعة التي اتبعها الاشوريون والكلدانيون . واعتبر اليهود كورش كمنخلص ارسله الله^٤ .

(١) ومناها «عبر النهرا» (الفرات) - راجع سفر عزرا ٦: ٦ ، ٨ ، ١٣ .

(٢) انظر : Herodotus, Bk. III, ch. 91 .

(٣) عزرا ٦: ٣ - ٥ .

(٤) اشعيا ٤٤ : ٢٨ ؛ ٤٥ : ١ .

لا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين استفادوا من هذه الفرصة ويبدو الرقم ٤٢،٣٦٠ الذي يعطيه عزرا ونحميا مبالغاً فيه اذا ما قورن بمجموع المسيبين وهو ٥٨،٠٠٠ نسمة كما انه لا ينطبق مع ما جاء في القوائم المفصلة التي تسبق الجمع النهائي^١. ولا بد ان الذين استجابوا لهذه الدعوة هم بصورة رئيسية من العناصر الناقمة ومن الذين لم تكن لهم جنود في الارض الجديدة. وقد عبر شاعرهم عن الحنين الذي راود اكثرهم بكلمات مؤثرة حية (المزمور ١٣٧) حيث قال :

١ - على انهار بابل هناك جلسنا - بكينا ايضاً عندما تذكرنا صهيون .

٢ - على الصمصاف في وسطها عللنا اعدادنا .

٣ - لانه هناك سألنا الذين سبونا كلام تربية ، ومذبذبا سألونا فرحين قائلين رغوا لنا من تزيات صهيون .

٤ - كيف نزم تربية الرب في ارض غريبة ؟

٥ - ان نسيك يا اورشليم تنسي يميني .

٦ - ليصق لساني بمنكبي ان لم اذكرك ، ان لم افضل اورشليم على اعظم فرحي .

وبما لا شك فيه ان كثيراً من المسيبين الآخرين عملوا بنصيحة النبي ارميا (الواردة في الاصحاح ٢٩ من سفر ارميا) :

٥ - ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات واكلوا ثمارها .

٦ - خنوا نساء ولدوا بنين وبنات وخنوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا .

٧ - واطلبوا سلام المدينة التي سيبتكم اليها وصلنوا لاجلها الى الرب لانه بلاها يكون لكم سلام .

وقد فضّل اغنياء المسيبين البقاء حيث هم بدليل ورود اسماء عبرانية بصورة متكررة في الوثائق التجارية لذلك العهد وكانت بعض هذه الاسماء مركبة من اسماء آلهة بابلية . وكانت اهم مراكز اقامتهم على خابور^٢ وهو كبارو (العظيم) لدى البابليين . وتقع هذه القناة العظيمة المتفرعة عن الفرات الى الجنوب الشرقي من بابل . وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان اول افراد ما عُرف

(١) عزرا ٢ : ٦٤ ؛ نحميا ٧ : ٦٦ .

(٢) حزقيال ١ : ١ ؛ ٣ : ٣ ؛ ٣٠ : ٣٣ .

بالدياسبورا Diaspora اي اليهود المقيمين خارج فلسطين . وكانت الديانة اليهودية عاملاً رئيسياً لتماسك اليهود في ديار هجرتهم .

كان زعيم اليهود العائدين^١ زروبابل^٢ وهو من سلالة الملك يوياقين . وقد ارجع معه كتوز الهيكل التي نهبا نبوخذنصر واعترفت به الجماعة العائدة حاكماً عليها لبعض الوقت . وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الهيكل ثانية في سنة ٥١٥ ق. م . في عهد داريوس وقد تم هذا المشروع على نفقة الدولة .

حذا ارتحشستا الاول (٤٦٥ - ٤٢٤) حذو كورش فسمح بعودة فريقين متتالين من المسييين الواحد برئاسة نجحيا والآخر برئاسة عزرا . وكان نجحيا هذا في الحادية والعشرين من العمر يعمل حاملاً للكؤوس في البلاط الملكي وينظن انه من الحصان . وقد وصل اورشليم حوالي ٤٤٤ ق. م . وهدفه الصريح إعادة بناء اسوار المدينة . واتم عمله هذا بالرغم من معارضة جيرانه مثل صنبلات^٣ حاكم السامرة وجشمو^٤ Gashmu الزعيم العربي وحتى بعض وجهاء اليهود المحليين . وحكم نجحيا شعبه في ظل السيادة الفارسية وذلك بين عامي ٤٤٤ - ٤٣٢ ق. م . وكانت الدولة حكومة دينية كما في عهد زروبابل .

وقد ذكرت مرويات التوراة^٥ التي قبلها عدد متزايد من العلماء ان عزرا ،

(١) ان كلمة يهودي وتعني بالاصل احد افراد قبيلة او مملكة يهوذا (التي منها تشتق) اطلقت بعد ذلك على اي فرد من الشعب اليهودي الذي رجع من السبي وشملت اخيراً كل افراد هذا الشعب في العالم . اما كلمة «اسرائيل» فتشير الى فرد من نسل اسرائيل اي يعقوب . ولا تزال كلمة «عبراني» اشمل تعبيراً وتضم كل الاسرائيليين .

(٢) مشتق من الاكادية زرو-باييلي Zeru-babli اي «خربة بابل»؛ ويسمى ايضاً «شش بازار Shesh-bazaar»؛ عزرا ٨ : ١ و ١١ : ٥ ؛ ١٤ : ٥ ويرد «زروبابل Zerobabel» في متى ١٢ : ١ ؛ انظر نجحيا ١ : ١٢ - ٩ .

(٣) وهي بالآشورية سن او بال ليت Sin-ubal-lit اي «سن هب الحياة» . ويرجح انه من نسل شخص اتى به الملوك الاشوريون ليحل مكان الذين نفوا من السامرة . وهو الذي تزوجت ابنته حفيد الكاهن الاعظم .

(٤) وقد يكون من نسل قبيلة عربية كتيبة عمود (يذكرها القرآن باسم عمود) التي نفاها سرجون الى فلسطين .

(٥) عزرا ١ : ٥ وما بعده .

الكاهن والكاتب، قد رجع الى اورشليم قبل نجحيا ليصلح ديانة الشعب برخصة من الملك. وكما كان يهدف الى ايجاد عقيدة دينية نقية صافية فانه كان يهدف ايضاً لايجاد نقاوة العنصر وبلغ من برناجه العنصري انه كان يحتم طلاق النساء غير اليهوديات وعلان ابنائهن غير شرعيين^١. وفي ذلك فاق نجحيا الذي اكتفى بلعن هؤلاء الازواج وجلدهم ونزع شعورهم وانتزاع اليمين منهم بعدم عمل ذلك ثانية^٢. ولم يطرد نجحيا الزوج المذنب من البلاد الا في حالة واحدة.

تمتع اليهود في عهد زروبابل ونجحيا بامتياز الحكم الذاتي. ولكن اللغة العبرية في عهدهم لم تعد تستعمل كلغة دارجة وذلك ليس في بلاد مبيهم فحسب وانما في بلاد يهوذا ايضاً^٣. وقد حلت محلها اللغة الآرامية وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية. واستعمل اليهود الآرامية في مراسلاتهم الرسمية^٤. وقد تركت اللغة العبرية عند اندثارها تراثاً غنياً من المفردات في اكثر اللغات المتحضرة. ويرجع اصل اكثر اسماء الاعلام شيوعاً في الانكليزية كيوحنا ويوسف وبولس ومريم الى اصل عبري.

الفرس في فينيقية

وفي الوقت الذي كان فيه الفرس يشجعون اليهود على اعادة بناء موطنهم القديم كانوا يعتمدون على الموارد الفينيقية لتوسيع امبراطوريتهم. وقد تم هجوم قمبيز (٥٢٩ - ٥٢١) ابن كورش على مصر بمساعدة سفن فينيقية وتنج عنه ضم مصر حتى النوبة الى الامبراطورية الفارسية. ولتزويد فرق المشاة التي تجتاز الصحراء بين فلسطين ومصر بالمياه استؤجرت الجمال من سكان الجزيرة العربية. وتوفي قمبيز في مكان غير معروف في سورية في طريق عودته الى مصر^٥.

(١) عزرا ٣:١٠ - ١٠:٤٥ وما بعده.

(٢) نجحيا ١٣: ٢٥.

(٣) نجحيا ١٣: ٢٤.

(٤) عزرا ٧: ٤.

(٥) يجعل المؤرخ يوسيفوس دمشق مكان وفاته. انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 2, § 2. ويقول هيرودوتس انه مات في « اقبانا Agbatana ». انظر: Herodotus, Bk. III, ch. 64. اما بليني فيقول ان المكان هو « اكبانا Eebatana » على رأس جبل الكرمل. انظر: Pliny, Bk. V, ch. 19.

كان الاسطول الفينيقي ايضاً عماد البحرية الفارسية في هجومها على اليونان بقيادة احشوريش (xerxes) ٤٨٥ - ٤٦٥^١. ويظهر ان الفينيقين رحبوا بفرصة ضرب منافسيهم البحريين القدماء ولذلك قدموا ٢٠٧ سفن. كما اظهرت براعة الفينيقيين الهندسية تفوقها^٢ في حفر قناة عبر البرزخ لتجنب العواصف حول جبل آتوس. وقد حطم الاسطول كله تقريباً في معركة سلاميس البحرية سنة ٤٨٠^٣.

كان داريوس، وألد احشوريش، اول من بدأ النزاع مع بلاد اليونان وهزم جيشه في معركة مراثون سنة ٤٩٠. وكان اليونان في نظره امة من البرابرة وقرصان البحر ومصدر ازعاج دائم لشواطئ آسيا الصغرى في منطقة نفوذه. ومن المؤكد ان مستوى الحضارة الذي كان يمثله داريوس لم يكن باقل من مستوى معاصريه اليونان. فقد كان وخلفاؤه من اتباع زردشت الذي رأى الحياة صراعاً مستمراً بين قوى الخير والنور المتمثلة بأهورا مزدا وبين قوى الشر والظلام المتمثلة بأهريمان. ولم يتفوق على مبادئ الزردشتية الاخلاقية آئند سوى وصايا الديانة اليهودية. وكانت الحرب بالنسبة لليونان، كما عبر عنها شعراؤهم ومؤرخوهم حينذاك، حرباً بين الحرية والاستبداد الشرقي. وسرعان ما لبست ساحات المعارك في مراثون وثرموبيلي حلل الشرف والمجد ورفع الذين ضحوا بحياتهم فيها الى مصاف الابطال القوميين والخالدين. وكان النزاع الفارسي - اليوناني بالنسبة للعالم اجمع المرحلة الاولى في الصراع بين الشرق والغرب، ذلك الصراع الذي تابعه الاسكندر وبومبي ومعاوية وصلاح الدين ومن بعدهم نابليون والنبي.

طرابلس العاصمة الفينيقية

كانت دمشق المدينة الرئيسية في سورية في العهد الفارسي^٤. اما في فينيقية فسمع لاربع مدن هي ارواد وجبيل وصيدا وصور بممارسة الحكم الذاتي المحلي واعطيت

(١) انظر: Herodotus, Bk. VII. ch. 96.

(٢) انظر: Herodotus, Bk. VII, ch. 23.

(٣) انظر: Herodotus, Bk. VIII, chs. 86, 89-90, 96.

(٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

كل منها حق الحكم على دولة صغيرة . وفي القرن الرابع اتحدت دويلات المدن الفينيقية هذه بعضها مع بعض وجعلت طرابلس ، وهي مدينة حديثة العهد ، مقر المؤسسات الاتحادية . وبعد ان كانت طرابلس تتألف في الاصل من ثلاثة مراكز متفرقة تحمل اسماء ممثلي صور وصيدا وارواد توحدت في السنة الاولى من حكم ارتخشستا الثالث (او كوس Ochus ٣٥٩ - ٣٣٨) وسميت « اثار » او ما يشبه ذلك كما ورد على قطعة نقود محلية تعود الى سنة ١٨٩ - ١٨٨ ق. م . وقد دعاها اليونان تريبوليس (بالعربية طرابلس) ^١ . وبما ان هذه المدينة الثلاثية كانت مكان اجتماع المجلس العام الفينيقي فلما قامت بوظيفة عاصمة لفينيقية ^٢ . وكان يعقد المجلس اجتماعات سنوية يشترك فيها نحو ثلاثمائة مندوب . وبلغ من تكبر الموظفين الفرس على الوطنيين في احدى هذه الاجتماعات ان نعم هؤلاء وقرروا التمرد . ولا بد ان الفينيقيين قد شعروا في اواسط القرن الرابع ان شمس الفرس قد آذنت بالغروب .

صيда تتحول الى رماد

بدأت الثورة ضد ارتخشستا هذا في القسم الصيداوي من طرابلس في عام ٣٥١ وانتشرت منه حتى عمّت الساحل الفينيقي كله . وكانت مصر مصدر التشجيع كالمعتاد . وسرعان ما انتقل مركز الثورة الى صيدا نفسها في عهد الملك تينس Tennes . وقطع الصيداويون اشجار الحديقة الملكية في المدينة او يجوارها واشعلوا النار في التبن المخزون لحياة الفرس ثم حصلوا على جنود مرتزة وسفن ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف وعلى الاسلحة والمؤن واستعدوا للصراع المقبل . وسار ارتخشستا من بابل على رأس جيش يقدر عدده بـ ٣٠٠,٠٠٠ من المشاة و ٣٠,٠٠٠ من الفرسان ^٣ . واثناء مسيره كان مراكزه في سورية وكيليكيا يطردون من فينيقية بعد محاولتهم قمع الثورة . وطردت تسع من المدن الفينيقية الرئيسية الفرس

(١) انظر : George F. Hill, *Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia* (London, 1910), § 48.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 15. ; Diodorus, Bk. XVI, ch. 41.

(٣) انظر : Diodorus, Bk. XVI, ch. 40, § 6.

واعلنت استقلالها . وعندما سمع تليس بتقدم ارتحشستا بنفسه على رأس جيش كبير خاف وهرب وسلم مدينته . ومع ذلك قرر سكانها الموت احراراً . وفي ساعة يأسهم احرقوا جميع السفن في الميناء لئلا يحاول بعض المواطنين الهرب واعتصوا في بيوتهم بينما كانت النار تلتهمهم وتلتهم ممتلكاتهم^١ . ويقال ان اكثر من ٤٠,٠٠٠ شخص قد هلكوا بذلك . اما القلائل الذين اسروا فنقلوا الى بابل^٢ . وهكذا اصبحت المدينة التي كانت فيما مضى سيده المتوسط رماداً وحرمت العالم المثقف من وثائقها . وهذه هي المرة الثانية التي تمحى فيها صيدا من الوجود وكانت الاولى على يد اسرحدون في ٦٧٧ . واستسلت بقية المدن الفينيقية متعظة بمصير صيدا المنفجع .

مظاهر الحضارة

لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة السورية وتبدلها تحت تأثير الحكم الفارسي . والواقع هو ان تاريخ سورية كله في هذه الفترة هو من اكثر العصور غموضاً في تاريخ البلاد كله . وتقتصر مصادر معلوماتنا على بعض النقود والكتابات الاثرية المبعثرة والمؤلفات العبرية والكللاسيكية . وتتوقف المصادر العبرية فجأة حوالي العام ٤٠٠ ق. م . وليس لدى علم الآثار سوى قليل من المعلومات . ومع ذلك فمن المؤكد ان الحضارة السورية ظلت مجموعة تامة من عناصر سامية وتشكل المصادر الآرامية الفينيقية عنصرها السائد كما كانت الحال في العصر البابلي الحديث .

واذا افترضنا ان قصة احيقار Abiqar ألفت لأول مرة في الفترة الفارسية فيمكننا ان نتخذها دليلاً على نوع الادب الذي كان يعنى به آنذاك . وهو من نوع ادب الحكم . وهناك ايضاً التأثير الفارسي على الديانة اليهودية الذي يستغرب عدم ظهوره حتى وقت متأخر وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد . والشكل الذي يتخذه هو اتجاه نحو الثنائية التي تتضمن ظهور منافس شخصي للاله الواحد . وقد انتقل هذا المفهوم الثنائي الى العهد الجديد في التوراة حيث يتخذ شكل

(١) انظر : Diodorus, Bk. XVI, ch. 43-45. ; Frederick C. Eiselen, *Sidon* (New York, 1907), pp. 75-77.

(٢) انظر : Sidney Smith, p. 149 ; A. T. Olmstead, *History of the Persian Empire* (Chicago, 1948), pp. 436-7.

معاكسة مبدأ الخطأ لمبدأ الصواب ومبدأ الظلمة لمبدأ النور. ويمكننا ان نوجع تنظيم اليهود المتدرج لطبقات الملائكة ونمو الاعتقاد في يوم الحساب الاخير بما فيه من ثواب وعقاب بعد الموت الى تأثيرات ايرانية. وتكشف فكرة الحساب الاخير كما يعرضها كتاب اخنوخ (١ : ٤١) بما فيها من وزن اعمال الانسان في ميزان عن تأثير فارسي وان كانت فكرة الميزان نفسه تعود الى مصادر بابلية ومصرية سابقة. ولكن مفهوم دانيال عن اليوم الاخير (٧ : ٩-١٢) ليس ايرانياً. ولم تدخل اللغة العبرية والآرامية سوى كلمات قليلة مستعارة من الفارسية القديمة. وكلمة الفردوس Paradise اتت من الفارسية بطريق العبرية واليونانية^١.

اما في مجال البناء فالبقايا الوحيدة المهمة هي قصر ومكان للعبادة وجدا في تل الدور (لاخيش). ويمكن تحديد تاريخ القصر بالضبط في منتصف القرن الخامس وذلك بواسطة قطعة من الخزف الاتيكي الاحمر. ويروج انه كان مقراً فارسياً يجوي مصارف للمياه مستديرة من الاجر وبعض الملاحق الاخرى لتأمين الراحة. وتتبع بعض التماثيل التي اكتشفت حديثاً في انقاض قصر احد الموظفين الفرس في صيدا (قبل ٣٥٠ ق.م) نموذج التماثيل في العاصمة برسبوليس. الا ان التوابيت الرخامية على شكل بشري التي اكتشفت في صيدا بأعداد كثيرة تشير الى ان اصول النحت الاتيكي قد رسخت في البلاد في القرن الرابع. واصبحت الدراخما الاتيكية في هذا القرن الوحدة النقدية المعترف بها بعد ان عمّ تداولها في القرن السابق. ووجد الخزف اليوناني في هذين القرنين سوقاً واسعة في بلاد المتوسط الشرقية. ويصاب الفعجار المحلي بالمحطاط حاسم خلال الفترة الفارسية ومن اسباب ذلك طغيان المنتجات اليونانية. ويمكن القول بوجه عام ان اليونان التي كانت في القرب السابع تتلقى التأثيرات الحضارية من فينيقية انعكس وضعها في القرن الخامس واصبحت تعطي بدلاً من ان تأخذ. وكان هناك نوع من التوازن بين عمليات العطاء والأخذ في القرن السادس. وفي هذا القرن تظهر المراكز التجارية اليونانية في الاراضي السورية ويتزايد عددها بصورة مستمرة بعد ذلك. وكان التجار والصناع اليونان منتشرين في مدن الساحل قبل فتح الاسكندر بقرن على الاقل.

١) تعني بالاصل «حديقة» (انظر سفر الجامعة ٢ : ٥؛ نشيد الانشاد ٤ : ١٣). وتطور التمييز فاصبح معناه «المقر السابوي للباركين». (انجيل لوقا ٢٣ : ٤٣). والكلمة العربية «فردوس» اتت بطريق الآرامية.

القسم الثالث
العصر اليوناني الروماني

الفصل السابع عشر الاسكندر وخطاؤه السلوقيون

وضع فيليب المكدوني الحطط «لتحرير» المدن اليونانية في آسية الصغرى من سيطرة فارس وليرد في الوقت ذاته الزيارة التي قام بها داريوس واحشوريش لليونان ولكن امر تنفيذها ترك لابنه الاسكندر الذي فاق اياه بشهرته ونشاطه. وكانت فيليب قد اوصل مكدونيا الى زعامة الدول اليونانية عندما قتل اغتيالاً.

معركة ايسوس

بدأ الاسكندر في سن العشرين هجموه في ربيع عام ٣٣٤ ق.م. على رأس جيش يتراوح عدده بين ثلاثين واربعين الف رجل. فعبر الملبسوت وانساح في آسية الصغرى، وهي جزء من الامبراطورية الفارسية آنشد، وماكاد يخرج من مضائق كيليكيا ويعبر مناطق السهول حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٦-٣٣٠) ومعه حشد منوع يقرب من مئة الف جندي. وكانت كل شعوب آسية، حسب رواية احد المؤرخين الشرقيين المتأخرين، «مقتنعة ان المكدونيين لن يجرأوا على الدخول في معركة مع الفرس بسبب كثرة عددهم... وفي المعركة التي تلت في ايسوس ٢ (عام ٣٣٣)، وهي يمر ضيق استطاع اليونان بمهارتهم العسكرية ان يقابلوا فيه تفوق الفرس في عدد جيشهم واضطر داريوس الذي كان يقرب المعركة من عربته الفاخرة التي تجرها اربعة خيول جنباً الى جنب الى الاسراع في الهرب مع فلول جيشه شرقاً تاركاً معسكره واهل بيته. وقد عومت نساء الملك معاملة

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 8, § 3.

(٢) انظر: Arrian, *Anabasis Alexandri*, Bk. II, chs. 9-13; Polybius, *Historia-* ram libri, Bk. XII, chs. 17-22.; Diodorus, Bk. XVII. ch. 33. W. W. Tarn, « Alexander », *Cambridge Ancient History*, vol. ١, (Cambridge, 1927) pp. 366-9.

مهذبة نبيلة . وتخليداً لذكرى الانتصار است مدينة الاسكندرونة ، التي لا تزال تحمل اسمه ، مكان الحادث . واعطت اصداء هذا النصر الحاسم مجداً جديداً للاسم اليوناني وملأت قلوب الفرس بالشكوك ان لم يكن بالخوف .

مقاومة صور

لم يتابع الاسكندر عدوه المارب الى الشرق بل اندفع باتجاه الجنوب ليؤمن السيطرة على البحر وعلى كل خطوط المواصلات وراه . وانفذ قائده بارمينيو مع مفرزة من الفرسان على طول وادي العاصي لاحتلال دمشق - مقر قيادة الفرس في سورية . وكان النصر في ايسوس قد جعل البلاد كلها خاضعة له . اما هو نفسه فاتبع الطريق الساحلية فاستسلمت ماراتوس وارواد وجيبيل وصيدا . ولم يتجرأ على اغلاق الابواب في وجه المهاجم سوى صور ، ملكة الساحل الفينيقي ، التي سبق ان تحذرت شلناصر وسرجون ونبوخذنصر . فبنى الاسكندر رصيفاً طوله نصف ميل وعرضه ٢٠٠ قدم من الشاطئ حتى الجزيرة التي يبلغ طولها ميلين . وكانت المدينة التعيسة الحظ تتوقع المساعدة من شقيقاتها في الشمال ولكن هذه عوضاً عن ذلك وضعت سفنها تحت تصرف الفاتح . كما انها توقعت المساعدة من ابنتها البعيدة قرطاجة حيث بعثت شيوخها ونساءها واطفالها . ولكن اهلها خاب هنا ايضاً . وبعد حصار دام سبعة اشهر من البحر والبر خضعت صور للاسكندر في ٣٣٢ فشنق حوالي ٢٠٠٠ من اهلها وباع ما يقدر بثلاثين الفاً في سوق النخاسة . وكان يتبع في ذلك العادة الشائعة في الحرب . واحتفل بنصره باقامة الالعب والشعائر الدينية وبتقديم الذبائح في معبد اله المدينة لمقارت الذي اعتبره معادلاً لهركوليس^١ .

يسجل التاريخ بمقاومة صور لزحف الاسكندر آخر انتفاضة للروح القومية الفينيقية . فقد تحطمت التقاليد القديمة الى الابد ولم تعد الروح القديمة تثبت نفسها ابداً .

حين كان الاسكندر لا يزال يحاصر صور وردته رسالة من داريوس يقترح فيها

(١) انظر : Arrian, Bk. II, chs. 18-24; Diodorus, Bk. XVII, chs. 41-46; Quintus Curtius, *De rebus gestis Alexandri Magni*, Bk. IV, ch. 2.

اقتسام الامبراطورية بحيث يكون نصيب الاسكندر جميع البلاد الواقعة غربي الفرات مع مال كثير وزواجه من ابنة داريوس . و اشار بارمينيو عليه بقبول الصفقة مضيفاً بأنه لو كان مكانه لما كان تردد . فاجابه الاسكندر « وهكذا كنت افعل انا لو كنت بارمينيو » .

لم تكثر غزة بمصير صور فقاومت ببطولة لا تقل عن بطولتها ولكنها لم تثبت طويلاً كما ثبتت . وكانت غزة فيما مضى زعيمة المدن الفلسطينية الحس . وبعد حصار شهرين فهزت حاميتها التي كانت تضم كثيراً من العرب وايدت وجر قائدها الحصي حول اسوار المدينة وهو موثوق بعربات الاسكندر . وبيع سكان المدينة عبيداً . وقد اصيب الاسكندر بجراح طفيفة هنا كما اصيب في ايسوس^٢ . واستولى الفاتح على مخازن ضخمة من التوابل لان المدينة كانت المستودع الرئيسي على البحر المتوسط لمنتجات الجزيرة العربية والبلاد التي تجاورها . و باحتلال غزة دق مسمار آخر في نعش السيادة الفارسية في البحر المتوسط .

اخضاع مصر

اصبحت الطريق مفتوحة الآن الى مصر التي بفتحها يصبح الاسطول الفارسي عديم الفائدة . ولم يبد المصريون اية مقاومة لاستبدال سيد بأخر . وقام الاسكندر اثناء وجوده في مصر بزيارة آمون (الذي اعتبر معادلاً للاله جوبيتر بعد ذلك) في الواحة التي تدعى اليوم واحة سيوه في الصحراء الليبية على بعد نحو مائتي ميل من الحدود المصرية ، وحياه الكاهن الاعلى كابن الاله . كما انه وضع اسس المدينة التي لا تزال تحمل اسمه . وكان هذان العملاقان ينطويان على اهمية بالنسبة للمستقبل ابعد مما كان باستطاعة صانعها التنبؤ به . وكانت عملية الجمع بين فكرة الالهية وفكرة الملكية قد ادخلت الى العالم اليوناني - الروماني وتوطدت اخيراً فيه . ولم يكن يوجد لفكرة الملكية ذات الصفة الالهية ، وهي مؤسسة طبيعية في الشرق القديم ، اي اثر تقريباً في اوربا قبل عصر الاسكندر وخلفائه . وقد برزت الاسكندرية

(١) انظر : Plutarch, « Alexander », in *Vitae* .

(٢) انظر : Arrian, Bk. II, ch. 27. ; Curtius, Bk. IV, ch. 6 .

بالتالي لتصبح مقر الثقافة الهلنستية والوريثة الشرقية لاثينا. وكانت الثانية في المرتبة بعد رومة في العصر الروماني. ويعتبر انشاء هذا الميناء في اقصى الشمال الغربي للدلتا، من الوجهة التاريخية ، اكثر اهمية من مجرد فتح مصر .

المعركة الحاسمة قرب اربيل

عاد الفاتح المكتسح في ربيع سنة ٣٣١ الى سورية حيث بقي مدة كافية للضرب على ايدي السامريين الذين اغتالوا نائبه وللاحتفال ايضاً باهبة وعظمة باقامة الالعاب والشعائر في معبد صور^١. اما امر زيارته لاورشليم في طريق ذهابه الى مصر وتقبل خضوعها شخصياً فأمر مشكوك فيه^٢. وكانت الطريق التي سلكها الآن تمر عبر سورية المجوفة ووادي العاصي وتبلغ القران عند ثابساقس Thapsacus. وامر ان تشيد بجوارها مدينة يرجح ان قائده سلوقس نيكاتور قد اتمها واطلق عليها اسم نيقفوروم Nicephorium^٣. وبعد ان اجتاز بلاد الرافدين باتجاه شمالي شرقي خاض نهر دجلة شمالي موقع نينوى. وهزم على السهل بين ذلك الموقع واربيلا في الشرق آخر جيش حشده ملك من سلالة الاخمينيين السبي انجبت كورش الكبير وداريوس الكبير. وهرب داريوس الثالث بنفسه^٤. وكان هدف الاسكندر التالي مدينة بابل مقر الحكومة المركزي التي بلغ ارتفاع اسوارها ثلاثمائة قدم. ورحب كهنتها الوطنيون وموظفوها الفرس بالقادم الجديد بأكاليل الزهور والهدايا. واستولى الفاتح على كنوز كثيرة ولكنها لا تعتبر شيئاً اذا قورنت بتلك الثروات الخيالية التي اختزنها الاباطرة الفرس في مقرهم الصيفي سوزا والتي سقطت بيد الفاتح فيما بعد. ومن سوزا استؤنف السير شتاء عبر جبال عالية وعرة الى برسبوليس. فنهبت كنوزها واشعلت النار بالقصر الملكي الذي شيده داريوس. وهكذا انتقم لتدمير المعابد اليونانية في اثينا من قبل احشوريش^٥.

(١) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 1-4.

(٢) تارن ذلك مع : Josephus, Bk. XI, ch. 8, §§ 3-5; Olmstead, *History of the Persian Empire*, p. 507, n. 11.

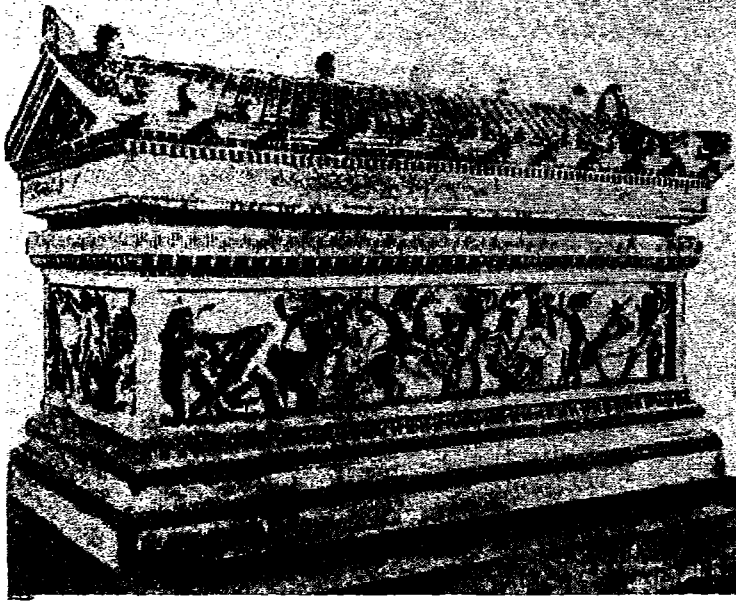
(٣) وهي اليوم الرقة. انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21, Bk. VI, ch. 30. تارن ذلك مع : A. H. M. Jones, *Cities of the Eastern Roman Provinces*, (Oxford, 1937), p. 216.

(٤) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 14-15.

(٥) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 16-18; Diodorus, Bk. XVII, ch. 7.

توجت من وادي برسبوليس في ربيع عام ٣٣٠ كتيبة سريعة على رأسها الاسكندر باتجاه الشمال وكان هدفها اكبثانا (عاصمة ميديا القديمة وهي همدان اليوم) حيث فرّ داريوس . وبينما كانت الكتيبة تتقدم اغتال متآمران داريوس في معسكره . وسمح للاسكندر ان يحصل على الجثة فارسلها الى برسبوليس لتدفن باحتفال ملكي . واعتبر الاسكندر نفسه الآن الوارث الشرعي لآخر ملك فارسي .

توجه الاسكندر شرقاً كأنه لم يكتف بما قد حصل عليه فقام بغزوة عبر نهر سرداريا Jaxartes ثم توغل جنوباً بطريق كابل الى البنجاب في شمالي غربي



«تابوت الاسكندر»

وجد في صيدا والآن في استانبول ويرجع الى اواخر القرن الرابع ق.م. ومن المحتمل جداً انه يمثل معارك الفرس والاسكندر . غير ان جميع الروايات القديمة تقول بان الاسكندر دفن في مصر . وربما كان هذا التابوت قد صنع لحاكم صيدا الفينيقي .

(١) هو نهر سرداريا اليوم ويعرف بلم سيحون بالعربية وهي مقبسة من بسيزون في سفر التكوين ٢ : ١١ .

الهند . وبدأ التذمر بين ضباطه وجنوده المهوكلين ابان حملته الى الهند وتمرد البعض وكان ذلك في عام ٣٢٦ . فعاد الاسكندر الى بابل حيث انصرف الى الملهذات ووضع خطط فتوحات جديدة . وتوفي بالحمى في قصر نبوخذنصر في حزيران ٣٢٣ قبل ان يتم الثالثة والثلاثين من العمر تاركاً وراءه سجلاً فريداً من الاقدام والجلد والحيوية المتدفقة والخيال الحصب . واصبح اسمه متصللاً باسماء ابطال قصص خيالية متعددة مزخرفة بانواع المبالغات الفائقة التصور . ويشير دانيال اليه بوضوح (٢١٥:٨) . ويبدو الاسكندر ذو القرنين في القرآن (٨٢:١٨ وما بعدها) كأنه مكلف برسالة الهية .

امتزاج الشرق والغرب

لعلّ اعظم مأثرة قدمها الاسكندر للتاريخ هي في اتاحته الفرصة لامتزاج الافكار والمؤسسات اليونانية والشرقية . وكانت عملية التداخل الثقافية تد بدأت قبل عهده الا ان فتوحاته زادت في سرعتها وسهلتها . وقد اعطى بنفسه مثلاً على مزج الدم اليوناني والاسيوي بزواجه من الاميرة روكسانا من بكتريا (بلخ) واثنيتين غيرها من الاسرة الملكية الفارسية في سوزا . وشجع ضباطه وجنوده ليحذوا حذوه . وكان يلبس في المناسبات الرسمية الالباس الشرقي . واخذ ينفس في عادات الفرس الناعمة المتفخنة ويقلد بذخ الملوك الاسيويين^١ . وقد حاول على عكس احشوروش ان يصل اوربا وآسيا ليس بالفسور الحشبية والروابط الجامدة بل بروابط الحب الشريف والزواج الطاهر والنسل المشترك^٢ . وانه لحدث عظيم في التاريخ عندما صلى الاسكندر في مأدبة حضرها تسعة الآف مكدوني وفارسي على ضفاف دجلة لاجل وحدة القلوب ودولة مشتركة^٣ وكان الانبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية وتصوروا معها كان تصورهم ناقصاً ، اخوة الانسان . ولكننا الآن امام اول رجل عملي عظيم حلم بمجتمع لا اثر للحواجز فيه بين اليونان والبرابرة وعمل على

(١) انظر : Diodorus, Bk. VII, ch. 8.

(٢) انظر : Plutarch, Complete works, *Essays and Miscellanies*, (New York, 1909), vol. i, p. 164.

(٣) انظر : Arrian, Bk. VII, ch. 11, § 9.

تحقيقه . ولم ينقطع تماماً ذلك الامل البراق الذي ضمنه الفيلسوف الفيثيقي زينون فيما بعد في « جمهوريته » عن افكار الناس منذ ذلك الحين .

كان انشاء المدن التي يروى انها زادت عن السبعين وسيلة اخرى في تحقيق سياسته المدروسة حول تقارب اوثق بين الشرق والغرب . وهدفت هذه المدن الى ثلاثة اغراض وهي ان تكون مراكز سكني للمحاربين المسرحين ، وتشكيل سلسلة من النقاط العسكرية على خطوط المواصلات وخلق مراكز لنشر التأثير الثقافي الهليني . ولا بد ان الاسكندر كان تلميذاً جديراً باستاذة ارسطو اذ كان يحتفظ كما يروى بنسخة من الياذة هوميروس التي نقصها ارسطو بجانب خنجره تحت وسادته . ويقال انه ذكر في رسالة بعث بها من آسية الى استاذة : « اؤكد بالنسبة لي اني افضل ان اتفوق على الآخرين في معرفة الاحسن من ان اتفوق عليهم في مدى سلطتي وملكاتي^١ . وسرعان ما اصبحت اللغة اليونانية لغة العلم . وعندما اتى المسيح برسالته بعد ثلاثة قرون وترجمت الى اللغة اليونانية اصبحت في متناول العالم المتمدن كله .

تجزؤ الامبراطورية

تمزقت الامبراطورية المكدونية المترامية الاطراف التي تمّ ضمها بسرعة بعد موت مؤسسها . وتسابق قواده للفوز باحسن اقسامها . وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية . ويبرز من هذه الفوضى اربعة قواد على رأس اربع دول : بطليموس في مصر وسالوقس في مرزبانه بابل وانتيغونس في آسية الصغرى وانتيباتر في مكدونيا . وهكذا « انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه اربعة قرون عظيمة تنجّه نحو رياح السماء الاربعة^٢ . وكان بطليموس اكثر هؤلاء الاربعة ذكاءً الا ان سالوقس كان بالتأكيد اقدرهم .

سالوقس مؤسس الدولة السورية

برز اسم سالوقس الاول (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م) الملقب نيكاتور Nicator

(١) انظر : Plutarch, « Alexander », in *Vitae*.

(٢) انظر : دانيال ٨ : ٨ .

(المنتصر) لأول مرة في الحملة الهندية التي قادها الاسكندر. ولم تكن منطقة سورية-فلسطين في حوزته لدى اقتسام الامبراطورية لانها الحقت بأسية الصغرى. ولكن بطليموس تغلب في عام ٣١٢ ق.م. بمساعدة سلوقس على انتيفونس في غزة وضم فلسطين الى مقاطعته المصرية. وبقيت كذلك لاكثر من قرن باستثناء فترات متقطعة. واسترجع سلوقس في السنة ذاتها بابل التي كان قد خسرها. وبعد ان ساهم في احراز نصر آخر على انتيفونس في ايبسوس Ipsus (في فريجيا الكبرى سنة ٣٠١ ق.م.) حصل على القسم الشرقي كله من أسية الصغرى بالاضافة الى سورية من الفرات حتى المتوسط^١. واصبحت انطاكية التي بناها على العاصي وسماها باسم والده مقر حكومة سورية ومع ذلك تعتبر السنة ٣١٢ ميلاد الدولة السورية وبدأ التاريخ السالوقي^٢. ويظهر اسم «ملوك سورية» لأول مرة. وكان ايجاد تقويم رسمي اعظم ماثرة للساوقيين بعد تأسيس المدن. وكان بطليموس في هذه الاثناء قد وسع حدود مملكته الى خط يقع شمالي ارواد وجنوبي حمص. وقد تراجع هذا الخط لدرجة كبيرة حتى جنوبي بيروت ودمشق حوالي ٢٥٠ ق.م. ليتقدم مرة ثانية حتى شمالي ارواد بعد خمس وعشرين سنة.

اما في الشرق فقد وسع سلوقس حدود مملكته السورية فشملت فارس حتى نهر جيحون Oxus في الشمال والسند في الجنوب. وهكذا اصبحت المملكة السورية تضم تقريباً القسم الاسيوي من امبراطورية الاسكندر. وكانت مملكة سلوقس اعظم الممالك التي قامت على انقاض ممتلكات الاسكندر في قوتها واتساعها. ولم يكتف بذلك بل اجتاز الملبسبونت في اواخر ٢٨١ ماصماً ان يضم مكدونيا الى ممتلكاته الواسعة وكان عرشها شاغراً بموت قائد آخر من قواد الاسكندر وهو ليسيماخوس Lysimachus غير انه قتل هناك.

اتبع سلوقس سياسة نشر الهلينية التي وضعها الاسكندر فشيّد ما لا يقل عن ست عشرة مدينة تحمل اسم والده انطيوخس وتسع مدن تحمل اسمه وخمساً تحمل

(١) انظر: Appian, *Romaika*, § 55

(٢) دعاه السورويون واليهود التاريخ اليوناني؛ انظر: سفر المكابيين الاول ١٠:٤١. الكتاب ١١. بدأت السنة في ١ تشرين الاول واستتمها حتى اليوم محمود في سورية؛ قارن ذلك مع: Richard A. Parker and Waldo H. Dubberstein *Babylonian Chronology* (Chicago, 1942) p. 18.



اسم امه لاوديسا وثلاثاً باسم زوجه الباكترية آباما^١. اما سالوقية^٢ التي بنيت لتحمي مصب العاصي وتكون ميناء لانطاكية فهي اما من بناء سالوقس او احد خلفائه

(١) انظر: Appian, § 57.

(٢) تذكر غالباً وخاصة على النقود باسم سالوقية بيرية Pieria لتمييزها عن المدن الاخرى التي تحمل نفس الاسم. وبيرية التي هي في الاصل اسم منطقة في مكثونيا اطلقت على مقاطعة تقع على الساحل الشمالي من سورية وعلى ضفة العاصي اليمنى. وقد شيدت على بعد خمسة اميال شمالي العاصي لتستفيد من مكان سهل التحصين ولتجنب المياه الرقيقة الطينية. وبلغ سكانها في ٢١٩ ق.م. ثلاثين الف نسمة.

المباشرين . وقد نقل جثمانه ودفن فيها . وكان يعبد هناك كاله^١ . واصبحت من ثم مدفن السلالة . ومن المدن التي سميت لاوديسا فان تلك التي تقع على الساحل السوري وتسمى بالعربية اللاذقية لا تزال مزدهرة وفيها احسن ميناء على الساحل . وأباميا على العاصي (افاميا لدى الجغرافيين العرب) هي قرية صغيرة اليوم تعرف بقلعة المضيق . وقد اصبحت مركزاً عظيماً في المملكة السورية وكان فيها الجيش والحزينة الحربية واصطبل تابع للدولة يضم ٣٠,٠٠٠ فرس و ٣٠٠ حصان^٢ . وكان بمثابة مستودع حيث تربي فيه فيلة الحرب وتدرّب . اما المدن التي تسمى انطاكية فكانت العاصمة بطبيعة الحال اكثرها اهمية .

كادت الامبراطورية التي بناها سلوقس الاول ان تنهار في عهد الملوك الذين اتوا بعده . ففي عهد احد احفاده ، سلوقس الثاني كالينيكوس (٢٤٦ - ٢٢٦) هاجم بطليموس اورجيتس Energetes سورية واحتل انطاكية وسار بجيوشه دون ان يلقى مقاومة حتى القرات . ولكن الاضطرابات الداخلية اوجبت عودته الى بلاده فاتيحت الفرصة لسلوقس في ان يسترجع مقاطعاته المسلوبة . واغتم الفرثيون في هذه الاثناء الوضع المضطرب في المملكة السورية للتخلص من نيرها . فهزم ارشاق Arsaces ، ملك فرثيا^٣ ، سلوقس في معركة بعد سنة ٢٤٠ ق. م . بمدة وجيزة ويعتبر هذا التاريخ بدء التأسيس الحقيقي للسلالة الفرثية^٤ . وكان ملك برغام منهيماً ايضاً في مد سلطانه على الجزء الاكبر من آسية الصغرى .

كانت المملكة السلوقية قد فقدت الكثير من مقاطعاتها وعظمتها عند اعتلاء

(١) انظر : Appian, § 63.

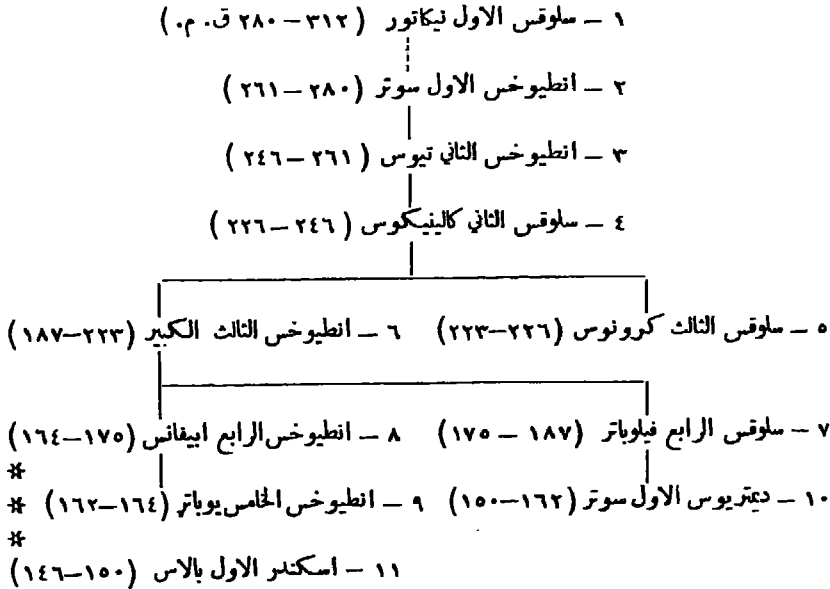
(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

(٣) جزء من مرزبانة في الجنوبي الشرقي من بحر الخزر . وكان الفرثيون من اصل سكيثي .

(٤) احتفل فيها بعد بمرحلة اقدم منها حصلت سنة ٢٥٠ كبداية للاستقلال الفرثي؛ قارن ذلك مع : Edwyn R. Bevan, *The House of Seleucus* (London, 1902), vol, i, P. 285.

انطيوخس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) العرش . وقد عزم انطيوخس على انفاذ الموقف فسار على رأس جيشه باتجاه الشرق أولاً ليسترد المقاطعات الايرانية وكان النجاح حليفه . وعبر جيشه جبال هندكوش ونزل وادي كابل وتوغل جنوباً حتى اصبح على ابواب الهند . وتمتعت هذه الشعوب البعيدة برؤية الجيش المكدوني للمرة الثانية . وقد اهتم لدى عودته الى بابل بالجزيرة العربية كما فعل الاسكندر قبله ، إذ ان الحاجة الى توابلها وسائر منتجات بلادها الحارة وأهمية وضعها المتوسط بين شطري الامبراطورية الشرقي والغربي من وجهة طرق الملاحة كانت كلها اعتبارات ذات شأن . غير ان قيامه برحلة مع اسطوله من الدجلة الى شواطئها الصعبة كانت كافيّاً لاقناع انطيوخس بعدم جدوى اية خطة لاحتلال دائم لمثل هذه الجزيرة الصحراوية . ولذلك عاد في ٢٠٤ ق.م . الى سلوقية على الدجلة ، عاصمة مرزباناته الشرقية .

(١) تمثل الشجرة التالية صلات النسب بين افراد الاسرة السلوقية :



ملاحظة : تشير الخطوط ذات النجوم الى بنوة مزعومة . انظر بشأن الملوك الباقين ما سيأتي في الصفحات التالية ؛ Cf. Parker and Dubberstein, pp. 19 seq ; Neilson C. Debevoise, *A Political History of Parthia* (Chicago, 1938), pp. 70-71.

وجه انطيوخس اهتمامه بعد ذلك الى بطليموس عدوه في الجنوب . وكان قد قام قبلاً في عام ٢١٧ بمحاولة استرجاع الاقسام المنتزعة من سورية ولكنه فشل في معركة جرت على الحدود عند رفح (رافيا Raphia قديماً) . الا ان جهوده الآن في ١٩٨ نجحت . وفي بانياس^١ حيث هزم انطيوخس القوات المصرية استعمل



انطيوخس الثالث الكبير
من تمثال نصلي في متحف الاوفر

(١) كانت منابع الاردن عاصمة بمنطقة مقدسة مكرسة لاله عرف فيه اليونان الههم بان Pan . وحين شيدت مدينة هناك بعد ذلك اطلق عليها اسم بانياس التي ترد في الانجيل باسم قيصرية فيلي . وقد اعاد الوالي فيليب بناءها او رجا وسماها قيصرية على شرف طيبريوس . انظر : Bevan, vol. ii, p. 37; Dussaud, *Topographie*, pp. 390-91.

الجيش السوري، كما في رافيا، الفيلة التي كان الملك قد جلب كمية جديدة منها من الهند^١. وقد استرجع انطيوخس بعد قتال مستمر دام عشرين سنة كل ما فقدته والده وجده تقريباً وكسب بذلك لقب الكبير.

وفي هذه الفترة اتى الى بلاطه وفد من رومة ليحذره من التعرض لمصر. وهذا هو اول اتصال نسع به بين رومة وانطاكية ويعتبر فاتحة عهد جديد في العلاقات الدولية القديمة. وفي هذا الوقت بالذات يلتجئ هانيبال الى سورية ويجرض انطيوخس على مهاجمة ايطاليا^٢. ولم يكن هذا على معرفة تامة بقدرة السلطة الجديدة التي ظهرت في الغرب. وتجراً بدخول الحرب لمصلحة اليونان حيث كان الرومان يتوسعون، ولكنه اصيب بهزيمة على ايديهم في ترموبيلي سنة ١٩١ ق.م^٣. وهزمه الرومان في العام التالي للمرة الثانية قرب مغنيزيا في غربي آسية الصغرى واضطر في عام ١٨٨ ان يتخلى عن كل ممتلكاته وراء جبال طوروس وان يدفع غرامة حربية ضخمة^٤. وهكذا فقد الى الابد آسية الصغرى بما فيها من طرق تجارية برية وبما تقدمه من اتصال مباشر مع الحضارة اليونانية. واصيب البيت السلوقي بضربة قاصمة وهو في اوج النجاح الذي بلغه منذ تأسيسه.

ترك الصلح المهجول والجزية الثقيلة سورية في وضع ضعيف ولكنها لم تبلغ من الضعف درجة تمنعها من اتباع خطة الهجوم من جديد، اذ ما كاد يعلم انطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤) ان مصر تعد حملة لاسترجاع سورية الجوفية - موضع النزاع - حتى بدأ الهجوم اولاً في البر والبحر وهزم الجيش المصري في ١٦٩ ق.م. هزيمة ساحقة في قلعة بيلوزيوم الواقعة على الحدود واسر الملك بطليموس فيلوميتر نفسه. وسرعان ما وقعت مصر السفلى كلها في يدي انطيوخس ولم ترفض الاستسلام سوى الاسكندرية التي تعرضت للحصار لاول مرة في تاريخها. ومع ذلك اسرع

(١) انظر : Polybius, *Histories* Bk. XVI, ch. 18 seq.

(٢) انظر : Livy, *Historiorum*, Bk. XXIV, chs. 43, 60.

(٣) انظر : Appian, §§ 18-20.

(٤) انظر : Polybius, Bk. XXI, chs. 16-17; Livy, Bk. XXVII, ch. 45.

(٥) الفرما بالعربية. انظر : Polybius, Bk. XXVIII, ch. 18.

يرفع الحصار عنها بضغط من رومة التي كان انطيوخس لا يزال يدفع لها اقساط القرامة الحربية^١. وجلا الفاتح السوري عن البلاد وعاد الى وطنه.

الثورة المكابية

وإذا كان باستطاعة رومة ان تحمد من نشاط انطيوخس العسكري فإنه لم يكن باستطاعتها تقييد نشاطه كبشر بالمينية . وقد حقق الملك بفتح مصر ناحية رئيسية من طموحه ، وكانت الناحية الثانية صهر بملكاته في وحدة ثقافية . وكان يتبع في ذلك السياسة التقليدية للأسرة السلوقية التي اعتبرت المينية القاسم المشترك الذي سيلتقي عنده جميع رعاياهم . ولكن انطيوخس ذهب ابعده بما يجب . وبلغ منه ان أعلن نفسه المأ أو الاله الظاهر (تيوس ايفانس) وقرن نفسه في هذه المناسبة بزفس اوليميوس . وبما ان آلهة السوريين لم تكن غيرة فقد منحت اتباعها امتياز عبادة الملك . ولكن الامر يختلف بالنسبة لاله اليهود .

كانت الارستقراطية والاعنياء والطبقة المتطورة بين اليهود في اورشليم قد تجاوزت حتى الآن مع العوامل الخارجية بتبنيها اللغة والعادات اليونانية وكانت على استعداد الآن للتعاون . ولم يكن لديهم اي اعتراض لتسميتهم انطاكيين^٢ . واصبح اللباس اليوناني شائعاً بين الشبان وبدأ الجنازيوم اليوناني بالظهور . واعتمد انطيوخس على تعاونهم فشجع اعتبار يومه مساوياً لزفس واقام مذبحاً في المعبد للاله اليوناني . وكان ذلك كما جاء في دانيال (٣١: ١١) « وتجعل الرجس المحرب » . وكان قد جرد هذا المعبد في طريق عودته من مصر من كل كنوزه . ووضع بعد ذلك يده على ثروات كل المعابد في سورية تقريباً . وقد احتاج للمال ليحقق ترواته ورغباته الخيالية^٣ .

بالرغم من ان زفس اوليميوس الذي اوجده انطيوخس كان يحمل اسما يونانياً فقد كان يحمل شخصية بعل الشرقي كما يحمل شخصية زفس الغربي . وكان

(١) انظر : Josephus, Bk. XXIX, ch. 2; Polybius, Bk. XLVII, ch. 11; Livy, Bk. XLVII, ch. 11; Polybius, Bk. XXIX, ch. 2; Josephus, Antiquities, Bk. XII, ch. 5, § 2.

(٢) انظر سفر المكابيين الثاني ٤ : ٩ .

(٣) انظر : Polybius, Bk. XXVI, ch. 1; Livy, Bk. XLI, ch. 20.

يعبد بصفاته نصف السامية في معابد شبه سامية ويمثل بلباس نصف سامي^١. ومع ذلك كان المتسكون بأصول الديانة والقوميون بين اليهود متحدثين في معارضتهم الأكيدة. ونشبت الثورة اليهودية^٢ سنة ١٦٨ ق. م. بزعامة يهوذا وهو ابن كاهن بسيط يدعى ماتاتياس من الاسرة الهاسمونية. واتخذ بعد ذلك لقب المكابي^٣. ووجهت الثورة في اول الامر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير اكثر منها ضد الحكومة المركزية. وقد نظم يهوذا واخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال وتجنب المراكز النظامية مع القوات الملكية. وكان هناك اتقياء (حاسيديم) بين الذين ثاروا على انطيوخس ولم يقبلوا بتدنيس يوم السبت بقيامهم بأعمال حربية لذلك ابيدوا بسهولة^٤. وتعتبر هذه الحادثة من اقدم حوادث الاستشهاد الديني في التاريخ المدون. وقد احتلت اورشليم بمجهود الاخوة المكابيين فظهر الهيكل واعيدت الذابح اليومية. ولتخليد هذه الذكرى اقيم عيد هنوكة (التكريس) ولا يزال يحتفل به سنوياً منذ ذلك الحين.

جمهورية يهودية

وبالرغم من ان الحركة كانت ذات طابع ديني في بدايتها فانها قد تطورت الى ثورة قومية تهدف الى تحرير البلاد. ولم يكن النزاع ضد القوات السورية فقط بل كان نزاعاً بين المتعصبين والقوميين اليهود الذين لم يترددوا في اخلاصهم للنزعة العبرانية من جهة. وبين انصار الثقافة الجديدة الذين يؤلفون الحزب الهلنستي او حزب الاصلاح من جهة اخرى. وكان النصر في كلا النزاعين حليف المكابيين. وانتخب سمعان شقيق يهوذا سنة ١٤١ ق. م. كاهناً اعظم وحاكماً. ومنع الملك

(١) انظر : M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* (Oxford, 1941), p. 704.

(٢) تمبر جغرافي اول من استعمله عزرا في ٨:٥ ليشير الى ولاية في الامبراطورية الفارسية.

(٣) سفر المكابيين الاول ٢: ٤؛ انظر ايضاً 1 § 6, ch. XII, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 6, § 1. Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 6, § 1. اي المطرقة بالاشارة الى الفريات الساحقة التي اترلت بالعدو.

(٤) سفر المكابيين الاول ١: ٦٢-٦٣؛ ٢: ٣٨.

السلوقي ديمتريوس الثاني نيكاتور اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان^١. واخذ سمعان يضرب النقود. وبدأت اورشليم عصراً جديداً فارخت الوثائق منذ ذلك الحين فصاعداً كما يلي: «في السنة الاولى من حكم سمعان الكاهن الاعظم والحاكم^٢». وهكذا ولدت جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين سنة.

بعد ان انتصر اليهود المكابيون اصبحت نظرتهم القومية اضيق بما كانت عليه عند اليهود القدماء. فحاربوا اخوانهم اصحاب النزعة الهلينية كما حاربوا غير اليهود. وهاجم يوحنا هيركانوس الاول (١٣٥ - ١٠٥) الذي خلف والده سمعان، السامريين الذين استسلموا لمشروع انطيوخس وهدم مدينتهم مع معبدها^٣. وكان قبل ذلك قد اجبر الادوميين الذين كانوا في هذه الاثناء قد توغوا في جنوبي اليهودية على الاختتان والتهود (حوالي العام ١٢٦ ق.م.)^٤. وكانت الجمهورية اليهودية في عهد المكابيين الاوائل ذات شكل ديني. وقد نقش يوحنا على نقوده «يوحنا الكاهن الاعظم» ولكن ابنه اريسطوبولس (١٠٥ - ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك او على حد تعبير يوسيفوس «وضع تاجاً على رأسه»^٥. واتخذ مع سائر ملوك السلالة المتأخرين اسما يونانية بجانب العبرانية. وبعد عهد خلفه اسكندر جنادوبوس (١٠٣ - ٧٦) الذي وصلت رقعة البلاد ذروتها في ايامه اصبحت الكلمات اليونانية مستعملة على النقود بجانب العبرية. وكانت منطقة الجليل بوضعا الذي نعرفه من الانجيل من عمل اريسطوبولس. وكانت تسكنها لمدة طويلة شعوب غير يهودية واصبح يسكنها الآن الايتوريون وهم من اصل عربي ولغتهم آرامية. وقد خيّر

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 6, § 7. وسفر المكابيين الاول ١٣: ٣٤ وما بعده.

(٢) سفر المكابيين الاول ١٣: ٤٢.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4, §§ 2-3.

(٤) سفر المكابيين الاول ٢٩: ٤؛ ٦٥: ٥. انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 9, § 1. كانت كلمة «Idumaea» الشكل اليوناني لايدوم.

(٥) انظر: *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 1.

(٦) اشعيا ٩: ١؛ سفر المكابيين الاول ١٥: ٥؛ انجيل متى ١٥: ٤.

سكان الجليل بين الطرد او الحتان. ففضلت الاكثرية الحتان^١. ولذلك كان كثيرون من السكان الذين عمل بينهم المسيح واتخذ منهم اكثر تلاميذه من اصل غير يهودي ويتكلمون اللغة العبرية برطانة. وكان ينظر اليهم بانهم ادنى من اليهود القداماء. وغير اهل لظهور نبي فيهم^٢. واعتبر التصرف الذي اجراه هيركانوس وابنه سابقة اتبعها آخرون من البيت المسموني في معاملتهم للمدن او الشعوب التي يقهرونها وهو الاختيار بين اليهودية او الابدان^٣.

آخر انتفاضات المملكة السلوقية

لم يكن اليهود وحدهم الذين كانوا يضغطون على المراكز التي تنهار فيها السلطة السلوقية بل كانت القبائل العربية المجاورة ايضاً وخاصة الانباط على حدود الامبراطورية الجنوبية. اخذت فرتيا وبكتريا والبلاد المجاورة بعيداً في الشرق تستعيد استقلالها. وبدت تبرز حوالي العام ١٣٠ ق.م. سلالة عربية في الرها تعتمد اسماً على فرتيا ويسمى اكثر ملوكها باسم الحجر. ونجحت قبيلة عربية اخرى في جعل شيوخها حكام دولة جديدة تتمركز حول حمص (Emesa) وتتبع السلوقيين بالاسم فقط. كذلك توحدت دولة وطنية اخرى تتألف من الايتوريين في سورية المحوفة واتخذت عنجر (Chalcis) عاصمة لها. وكان خلفاء انطيوخس الرابع بوجه العموم عاجزين. وتحت حكمهم اخذت الاسرة السلوقية، التي وقفت امام العالم لعدة اجيال كالاسرة الامبراطورية في الشرق، تفقد بالتدريج مكانتها وسلطتها وكرامتها. ويرينا القرن الذي تلا ابيفانس صورة مضطربة من الثورات الوطنية والانشقاق الداخلي والنزاع العائلي وفقدان المقاطعات بالتدريج. وتقلصت الامبراطورية التي امتدت في الماضي من البحر المتوسط الاسفل والبحر الابيحي الى التركستان والمهند واصبحت الآن دولة محلية في شمالي سورية.

واصبح الانباط العرب الآن قوة هامة وكانوا قد طردوا بقايا الادوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق.م. ثم انتزعوا سورية المحوفة من ايدي السلوقيين حوالي

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 3.

(٢) انجيل مرقس ٧:٠١٤؛ لوقا ٥٩:٢٢؛ اعمال الرسل ٧:٢؛ يوحنا ١:٤٦؛ ٧:٠٤١ و٥٢.
Bevan, vol. ii, p. 256.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 4.

٨٥ ق. م. ووضعت دمشق نفسها تحت حمايتهم لتتجنب مصيراً أسوأ فيما لو وقعت في ايدي الامير الايتوري^١. وكان الايتوريون آنذاك يكتسعون الشاطئ بين جيداً وتيبروسيون^٢ (Theouprosopon) ونجربون حقول جبل ويبروت. وكانت مدن فينيقية اخرى تستعيد آتئذ حريتها المحلية. ولم يبق من المدن الساحلية بين فينيقية ومصر سوى عدد قليل مثل عسقلان لتتعهد بنور الحياة الهلينية. اما البقية مثل غزة حيث ازدهرت الحضارة الهلينية فقد امست خراباً مقفراً شواهد ماثلة تتحدث عن انتقام اليهود^٣.

ضاعت جميع المقاطعات الشرقية في الامبراطورية خلال هذه الفترة من الانحطاط السالوقي. وكان الفرثيون في ١٣٥ ق. م. قد وسعوا امبراطوريتهم حتى اصبحت تمتد من الفرات الى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي. اما في الغرب فقد وقف في وجه الجيوش الفرثية الملك تيفرانس الارمني (ديكران) وحموه مترداتس Mithrodates الكبير^٤ ملك البونت. وفي عهد تيفرانس وصلت المملكة الارمنية ذروة قوتها.

كان هذا الملك الطموح قد اكتسح بلاد الرافدين التي حكمها الفرثيون وفي عام ٨٣ ق. م. كان يكتسح سورية الشمالية و كيليكية^٥ التي كانت لا تزال تحت حكم السالوقيين والتي كان سكانها يشبهون الآراميين. ولم يعد يسمع عن الاويرين السوريين اللذين تلتب كل منهما بالملك آنذاك وهما: فيليب الاول فيلادلفوس

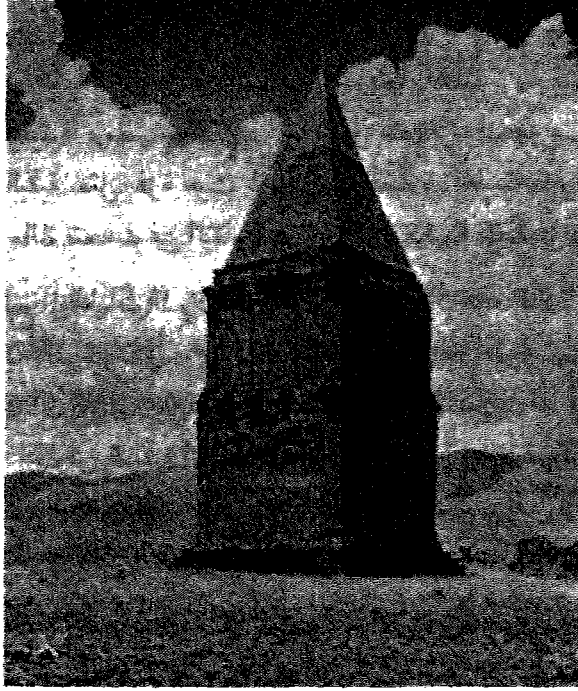
(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 2; *War*, Bk. I, ch. 4, § 8. الايتوريون هم بطور (Jetur) في التكوين ١٥:٢٥؛ سفر اخبار الايام الاول ١:٣١.

(٢) وهي بالفينيقية P'ne-El (بنويل اي وجه الله) وهي الرأس المنحدر الذي يسمى الآن رأس الشقمة. ويرد خطأ باسم شقة في Baedeker, *Palae-tine and Syria* (Leipzig, 1912), P. 338; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, §§ 15, 18.

(٣) انظر: Bevan, vol. ii, p. 264.

(٤) وهي اكثر صواباً من Mithridates. وهي مشتقة من الفارسية (ميتراس Mithras) اي الشمس ويرجح انها تعني «عطية الشمس». وكانت مملكة البونت الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الاسود شمالي ارمينية بالاصل مرزبانة في الامبراطورية الفارسية ثم نالت استقلالها عند انهيارها. ويدعى ملوكها بانهم ينحدرون من ملك فارسي قديم.

(٥) انظر: Appian, 48.



بناء جنائزي او تذكاري على جبل الهرمل قرب بعلبك ربما اقامه احد حكام حصن الوطنيين في
 اواخر العصر الهلنستي. ويظهر البناء مزيجاً من العناصر اليونانية والشرقية في العمارة والزخارف المنحوتة.
 وتظهر في مشهد الصيد الحيوانات والاسلحة بسدون ان يظهر الصيادون وقد رسم هذا البناء ترميماً
 جزئياً في العصر الحديث.

وانطيوخس الخامس بوسيبوس . وبني تيفرانس مدينة ملكية جديدة هي تيفرانوسرتا في منطقة الدجلة العليا . واتخذ لقب «ملك الملوك» . ولم يكن السوريون ميالين الى المقاومة لان المنازعات الاهلية والحصومات بين افراد السلالة الحاكمة انتهكتهم . ورحبت المدن اليونانية نفسها بفرصة التمتع بالحياة الاعتيادية من جديد . وتقبل الجميع الحكم الجديد بارتياح . وقد وصلت جيوش تيفرانس في اندفاعها نحو الجنوب مدينة عكا التي دعت آنذاك Ptolemais واحتلتها حوالي ٦٩ ق.م . وبذلك تعرضت المملكة اليهودية للخطر . وكان يمكن استخدام فلسطين كمرحلة لاحتلال مصر التي رنت اليها رومة بابصارها وخاصة في هذه الفترة حين كانت اسرة البطلمة تتداعى .

الرومان يضمون سورية

بينما كان تيفرانس يوسع ممتلكاته على حساب القرطيين والسوريين كان حموه وحليفه مترداتس ينشئ امبراطورية لنفسه على حساب آسية الصغرى والرومان^٢ . واخيراً اوقفته الجيوش الرومانية عند حده وطردته من البلاد فالتجأ الى تيفرانس الذي رفض تسليمه . واعلنت رومة الحرب فاضطر تيفرانس الى سحب حاميته من سورية في ٦٩ ق.م . واسترجع الامير السلوقي ، انطيوخس الثالث عشر الاسيوي ، منطقة انطاكية واعترفت رومة بذلك^٣ . ولكن فيليب الثاني لم يعترف بحكمه . وكان هذان آخر من لبس تاج السلوقيين الملكي^٤ . ولم تحض مدة طويلة

(١) انظر : Strabo, Bk. XI, ch. 12, § 4; 14. 15. ولم يحدد الموقع بالضبط ولعله ميا فارقين .

(٢) انظر : Strabo, Bk. XII, ch. 3, § 1.

(٣) انظر : Appian, § 49.

(٤) جدول يبين تنمة الملوك السلوقيين وبعضهم كانوا متنافسين يدعون الملك . وقد ذكرنا الملوك الاولين سابقاً ؛ قارن مع : A. Bouché-Leclercq, *Histoire des Séleucides*, (Paris, 1914), pp. 640-641.

١٢ - ديتريوس الثاني نيكانور (ابن ديتريوس الاول) ١٤٦-١٣٨ و ١٢٨-١٢٥ ق.م .

١٣ - انطيوخس السادس تيوس Theos (ابن اسكندر الاول) ١٤٤-١٤٢ .

١٤ - تريفون Tryphon (مفتصب) ١٤٢ - ١٣٧ .

١٥ - انطيوخس السابع سيدتيس Sidetes (ابن ديتريوس الاول) ١٣٧-١٢٨ .

بعد ذلك حتى تمكن مترداتس من استرجاع العرش الذي فقده . فسار يومي هذه المرة ضده وهزمه واحتل البونت. وهكذا ابعث اكبر عدو لرومة في آسية الصغرى وكان ذلك في عام ٦٤ ق.م. وهو نقطة حاسمة في تاريخ سورية. وقد احتلت فلسطين في السنة التالية^١. واصدر يومي قراراً بان تحكم سورية مباشرة من قبل نائب قنصل روماني . وهكذا انتهى عهد ليبدأ عهد جديد وهو العهد الروماني .

١٦ - اسكندر الثاني زايناس Zabinas (ابن ناجر) ١٢٨-١٢٢ .

١٧ - سلوقس الخامس (ابن ديتريوس الثاني) ١٢٥ .

١٨ - انطيوخس الثامن غريبوس Grypus (ابن ديتريوس الثاني) ١٢٥-٩٦ .

١٩ - انطيوخس التاسع سيزيكينوس Cyziceus (ابن سيديتس) ١١٢ - ٩٦ .

وتقلم سورية في السنوات الاكثين والثلاثين الاخيرة من عصر الاضطراب حكام متمردون : سلوقس السادس ايفانيس (ابن غريبوس) ٩٦-٩٣ ؛ انطيوخس العاشر يوسيبوس Eusebes (ابن سيزيكينوس) ٩٤-٩٢ في اطاكية؛ انطيوخس الحادي عشر ايفانوس (ابن غريبوس) ٩٥-٩٤؛ فيليب الاول فيلادلفوس (ابن غريبوس) ٩٢-٨٣؛ ديتريوس الثالث تيوس (ابن غريبوس) ٩٥-٨٨؛ انطيوخس الثاني عشر ديونيسوس (ابن غريبوس) ٨٨-٨٤؛ انطيوخس الثالث عشر الاسيوي Asiaticus (ابن يوسيبوس) ٦٩-٦٥؛ فيليب الثاني (ابن فيليب الاول) ٦٨-٦٤؛ من ٨٣-٦٩ لا يوجد ملك .

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4.

الفضل الثامن عشر العصر الهلنستي

دخلت الهلينية الى غربي آسيا قبل فتوحات الاسكندر كما رأينا قبلاً وقد سهلت هذه انتشارها ثم زادت السياسة السلوقية في سرعة هذا الانتشار وقوته . وكانت نتيجة هذا التداخل بين الثقافتين اليونانية والسامية تلك الحضارة المركبة التي عرفت بالهلنستية لتمييزها عن الحضارة الهلينية او اليونانية الصرفة . وسادت الهلينية وهي ابرز مظاهر العصر السلوقي ليس في سورية فحسب بل في غربي آسيا ومصر . وقد انحصرت الهلينية من وجهة زمنية بين عصرين ساميين اولهما الآرامي وثانيهما العربي ودامت في سورية مدة الف عام حتى الفتوحات الاسلامية .

المدن اليونانية

كان عدد من المدن التي اسسها الاسكندر وخلفاؤه منبتاً لهذه الثقافة اليونانية الانتقائية التي انتشرت خاصة بين غير اليونانيين وقد اختار اولئك المؤسسون المواقع بعناية في نقاط استراتيجية وعند مراكز المواصل الهامة وعلى طول مجاري الانهار . وكانت المستعمرات مدناً يونانية في لغتها وحكومتها . وكان بإمكان السكان اليونان ان يعيشوا ويبقوا كما اتضح بينما كان ذلك متعديراً فيما لو تفرقوا بين جماعات وطنية مختلفة . وكان سكان هذه المدن بالدرجة الاولى من الجنود والمرتبة اليونان والمكدونيين الذين اسكنوا بموجب اوامر ملكية . وقد حصل بعضهم على زوجاتهم من بين السكان الوطنيين . وسرعان ما تهافت المدنيون تدريجياً الى هذه المستعمرات متأملين ببعض الفوائد او لانهم طردوا من وطنهم لعوامل سياسية او اقتصادية . وانضم الى سكان هذه المدن مع الزمن سكان مولدون واصليون اقتبسوا المظاهر الخارجية للهلينية . وهكذا اصبحوا يضمون جماعة من التجار والفنانين والعلماء والعبيد .

كانت العاصمة انطاكية الاولى من بين مراكز نشر الثقافة اليونانية. وقد بنيت حوالي ٣٠٠ ق. م. على الضفة اليسرى لنهر العاصي وعلى بعد نحو عشرين ميلاً من البحر في وادي جبل. واصبحت في عهد السلوقيين اعظم مدينة سياسية في آسيا كلها. وقد فاقتها كمرکز للثقافة اليونانية مدينتا الاسكندرية والقسطنطينية وربما مدينة او مدينتان يونانيتان جديدتان غيرهما. ثم تليها كل من سلوقية ولاوديسة وافامية. وازدهر في هذه المدن عدد من الادباء الفصحاء والفلاسفة في القرنين الاخيرين قبل الميلاد ولم يكونوا من الدرجة الاولى باستثناء بوسيدونيوس.

وفي الوقت الذي كان فيه السلوقيون منهمكين في تأسيس المدن اليونانية شمالي لبنان كان البطلمة يفعلونه مثل ذلك في جنوبيه. ومع ذلك فعكام مصر المكدونيون كانوا اقل حماسة لنشر رسالة الهلينية من حكام سورية. ومن المدن التي اسسوها فيلوتيريا Philoteria^١ على بحر الجليل التي سميت بالنسبة لفيلوتيرا شقيقة بطليموس الثاني فيلادلفوس. امأ بيلاً Pella^٢ الواقعة فيما سمي بعد ذلك بالديكابوليس (المدن العشر) Decapolis^٣ فرجما كانت من بناء الاسكندر نفسه. وسميت كذلك بالنسبة لعاصمة مكدونيا. وهنالک مدينة جيرازا Geraza^٤ وهي ايضاً من مدن الديكابوليس التي يرجح انها اسست كمدينة هلنستية من قبل انطيوخس الرابع وسميت انطاكية على الخريزورواس Chrysorroas^٥. ونستدل من اسماء عدة مدن اخرى مثل اريثوسا Arethusa (الرسن على العاصي جنوبي حماة) وسيروس Gyrrhus (كورس شمالي حلب) على اصلها المكدوني^٦. وتحولت الدساكر او الحصون المحلية في احوال كثيرة الى مدن يونانية - مكدونية.

(١) يرجح انها خربة كرك في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية. انظر: Abel, vol. ii, p. 131; cf. Dussand, *Topographie*, p. 22; Polybius, Bk. V, ch. 70.

(٢) قارن مع: Appian, § 57. وهي بالعربية فعل او فحل.

(٣) انظر انجيل مرقس ٥:٢٠؛ انظر ما سيأتي في الفصل ٢١ بشأن الديكابوليس.

(٤) وهي جرش اليوم من اللغة السامية القديمة ولكن اشتقاقها غير معروف بالتأكيد. انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٣.

(٥) وهو جدول يتبع من عيون في المنطقة الجاورة. انظر Carl H. Kraepling, *Geraza, City of the Decapolis* (New Haven, 1938) pp. 27 seq.

(٦) اريثوسا كانت حورية بئر مشهورة في احدى الجزر اليونانية؛ اما كورس فهي مدينة في مكدونية بجوار بيلا.

بُنيت المدن اليونانية حسب مخطط مرسوم وزودت بالمسارح والحمامات وملاعب الرياضة والساحات العامة وغيرها من المنشآت التي يعبر فيها الفرد عن نفسه كعضو في المجتمع . واحتفظ فيها بالشكل السياسي لدويلات المدن اليونانية مع الاهتمام الكبير بشخصية المواطن كجزء أساسي في المجتمع . وفي هذا كله تختلف المراكز الجديدة عن المراكز السامية القديمة التي كانت تبني عادة حول حصن أو نبع أو معبد كتوأة لها . ولكنها تنمو دون أية خطة وليس فيها أية وسائل للتعبير عن الحياة الديمقراطية . وأصبحت سورية في ذلك العهد تضم من المدن أكثر مما عرفته في أي عصر سبق .

المدن القديمة تصبح مدناً هلنستية

لم يقتصر الساقيون والبطالمة على إنشاء مدن جديدة وإنما حولوا بعض المدن ذات الاسماء السامية القديمة الى مدن هلنستية وغيروا اسماءها . فمدينة عكا يصبح اسمها بتولمايس Ptolemais في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٧ ق.م.) . وتكرماً له ايضاً أصبحت مدينة ربة عمون تسمى فيلادلفيا . وسميت بيت شان (بيسان اليوم) سكيثوبوليس Scythopolis^٢ . وفي الشمال أصبحت بيريتوس (بيروت) تسمى لاوديسة في القرن الثاني وسميت حماة ابيفانية على شرف انطيوخس الرابع . وتبدل اسم شيزر المجاورة وأصبحت لاريسا بالنسبة لمدينة في تساليا . وسميت ادينا بالنسبة لمدينة مكدونية تحمل نفس الاسم . وينسب تحويلها الى مستعمرة مكدونية تسمى انطيوكية كالبروهي Antiochia Callirrhoe الى الاسكندر نفسه . وقد اعاد بناءها انطيوخس الرابع ودعاها انطيوكية^٣ . اما نصيبس Nisibis (نصيبين اليوم) التي تمر بها الطريق الرئيسية للمواصلات بين

(١) هي عمان اليوم عاصمة الاردن ويظهر فيها اثر الاسم القديم .

(٢) دعيت كذلك بالنسبة لسكيتين الذين عانت جمعهم حوالي ٦٢٧ ق.م. في سورية حتى حلوذ مصر . انظر : Herodotus, Bk. I, ch. 105 ; واربما ٦: ٢٣ . واعتبرت هذه القرية فيما بعد الاثر الوحيد لهجومهم .

(٣) انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21 ; Polybius, Bk. V, ch. 51 . ان اقدم شكل لاسمها هو اورهاي Urhai في الآرامية وقد بقي في العربية باسم الرها وتحول في التركية الى اورفا .

سورية وبلاد ما وراء الدجلة فقد بناها نيكاتور كما يتضح من احدى الكتابات الاثرية. وسمح للعنصر الوطني في هذه المدن القديمة ان يحتفظ بمكانته الى درجة اكبر مما كان معتاداً في المدن المؤسسة حديثاً. وغالباً ما كانت تعود المدينة اليونانية او المكدونية المفروضة حديثاً الى وضعها الوطني القديم.

وبما يستلفت النظر ان اكثر هذه المدن القديمة التي استعمرت وبدلت اسمائها قد طرحت بالتالي اسماءها اليونانية وكذلك المظاهر السطحية من الهيئية واستعادتها صفتها السامية واسماءها القديمة التي تعرف بها اليوم. فمدينة بيرويا Beroea هي اليوم حلب وخالكيس Chalcis في سورية المجوفة هي عنبر اليوم (اختصار عين جر) واليوثيروبوليس Eleutheropolis هي بيت جبرين^١. والاستثناء الوحيد هو طرابلس. اما شكيم التي اعاد بناءها الامبراطور تيطس وسميت ي نابوليس (المدينة الجديدة) فهي اليوم نابلس. وكذلك فان اكثر المقاطعات والجبال والانهار التي اتخذت اسماء يونانية تعرف اليوم باسمائها السامية.

ومع ذلك فقد بقي كثير من العناصر الفنية والمعمارية والثقافية الاخرى التي ادخلتها الجاليات اليونانية والمكدونية. وتظهر واضحة في الفترة الرومانية. واننيار المملكة الهلنستية لم يتبعه باي شكل من الاشكال اننيار الثقافة الهلنستية. ومع وجود القوس والفتنطرة فيما سبق فان التاج الكورنثي للاعمدة انتشر باطراد. وكانت المسارح والملاعب التي بناها افراد الاسرة الميرودية في عهد الرومان تتبع النموذج الهلنستي^٢. وفي الحقيقة فان اكثر البقايا الهلنستية في سورية تعود الى الفترة الرومانية.

تفاوت انتشار الهيئية

اختلفت مناطق سورية في استجابتها للمؤثرات اليونانية. ففي الشمال لم يقتصر اطلاق اسماء الوطن الام على المدن بل شمل سائر الاماكن. وبالإضافة الى ذلك فقد اوجدوا تعادلاً بين الآلهة المحلية والآلهة اليونانية واعادوا تسميتها. فاصبح بعل

(١) أو جبريل الواقعة على طريق غزة - اورشليم.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصلين ٢١ و ٢٣.

يسمى نفس واقتبست الاساطير والحرافات الهندية الاوربية في البلاد الجديدة . وكانت تقع على بعد اربعة اميال من انطاكية ضاحتها ومركز افراحها دفنة حيث انقلبت الحورية التي تحمل نفس الاسم والتي تبعا ابولون وقد اسره جمالها الى شجرة غار . وقد حدث المشهد الاصلي في تساليا . وتدقق الانطاكيون والحجاج من كل اطراف سورية الى معبد ابولون في دفنة الواقع في وسط غابة من شجر الغار حيث تكثر المياه . وقد اعطي هذا المعبد حق التجاء الناس اليه واصبح المكان مركزاً للخلاعة . وبوجه الاجمال فان شمالي سورية اصبح «مكدونيا جديدة» حيث شعر العنصر اليوناني المهتل وكأنه في وطنه .

وتأتي بعد ذلك المدن الفينيقية التي يجب ان نذكر ان علاقتها مع العالم اليوناني تعود الى القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك . ولما كانت قد فقدت في هذه الاثناء روحها الوطنية فقد ساعد ذلك على تسهيل عملية الجمع بين العناصر اليونانية والسورية . ولم تتردد صور وصيدا وارواد ولاوديسة - بيروتوس (كما كانت بيروت تدعى احياناً) ومراثوس في سك تقود تحمل كتابات يونانية بجانب الفينيقية . واصبحت الهلينية التي توطدت في سورية الفينيقية اكثر قوة وانتاجاً من تلك التي ظهرت في سورية الآرامية . وفي هذا العصر لا بد ان الفينيقي المتقف كان يشعر وهو في مدينة يونانية كأنه في وطنه تقريباً وكذلك كان يشعر اليوناني في ميناء فينيقي . ولم تقل العناية بالفلسفة والادب اليوناني في صيدا وصور عما كانت عليه في انطاكية ولاوديسة . وكان بعض مشاهير الكتاب في اللغة اليونانية من القرنين الاخيرين قبل الميلاد من مواطني هاتين المدينتين الفينيقيتين . وكان احدهم وهو زينون الصيداوي استاذ سميّة زينون من بلدة كيتيوم في قبرص (٣٣٣ - ٢٦١ ق.م) مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة وهي اعظم ما انتجه العصر . وكيتيوم نفسها مستعمرة فينيقية وكان ابنها المشهور في نظر معاصريه فينيقياً . وذهب زينون « انبل رجال عصره » الى اثينا وبدأ يعلم في رواقها Stoa poikile في سنة ٣٠٢ . وكان صديق انتيفونس ملك مكدونيا وحفيد قائد الاسكندر . ولكنه ابتعد عن السياسة . وانتهى المرسوم الذي وافق ما منحه اياه اثينا من

(١) ولهذا سميت بالعربية «بيت الماء» . انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 6.

(٢) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Civilization*, 3rd ed. (London, 1952), p.330.

التكريم بعد موته بالكلمات التالية : « لقد جعل حياته نموذجاً اتبعته الجميع
لانه كان يعمل بموجب تعاليمه ». وكتب احدهم عن زينون في شعر على قبره
ما يلي :

واذا كانت بلادك الاصلية هي فينيقية .

فهل يجب ان يضريك شيء ؟ الم يأت قدموس من هناك

الذي اعطى اليونان كتبها وفن كتابتها ؟

وترأس فينيقي آخر مدرسة فلسفية في اثينا وهو ديودورس المشاء السوري
الاصل وكان لا يزال ناشطاً في سنة ١١٠ ق. م. وقد ذكره شيشرون^٢. وكان احد
مبادئه الاخلاقية ان الخير الاعظم يتألف من امتزاج الفضيلة مع انعدام الألم
وهذه صيغة تشير الى محاولة التوفيق بين وجهتي نظر الفيلسوفين الرواقية والايبيقورية.
وهناك سوري اكثر شهرة يتبع الفلسفة الانتقائية واسمه انطيوخس العسقلاني
وقد حاول ان يوحد آراء الافلاطونيين والرواقيين. واسس بالاضافة الى اكاديمته
السورية واحده في الاسكندرية واخرى في اثينا. وحضر شيشرون^٣ دروس
اكاديمته الاثينية مدة ستة شهور ويتكلم عنه بتعابير الود والاحترام. ويصفه
بلوطرخس^٤ بأنه « رجل مقنع وخطيب قوي ». ويذكر سترابو^٥ اثناء وصفه لعسقلان
بان مولد انطيوخس فيها عنوان شهرة للمدينة .

بقاء الآرامية

من الطبيعي ان اللغة والثقافة اليونانيتين حصلتا على مكانة خاصة لاقتراعهما
بالشعب الفاتح. وقد اعترف الفريقان ان تفوق الادب والحضارة اليونانية المطلق

(١) انظر : Diogenes Laertius, *Lives of Eminent Philosophers*, tr. R. D. Hicks (London, 1925), Bk. VII, § 30; cf. *The Greek Anthology*, ed. and tr. W. R. Paton (New York, 1927), Bk. VII, § 117.

(٢) انظر : *De Oratore*, Bk. I, ch. 11.

(٣) انظر : *Brutus*, Bk. XCI, ch. 315.

(٤) انظر : « Lucullus », in *Vitae*, ch. 42.

(٥) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29.

امراً لا يقبل الجدل . ولكن الواقع هو ان الشرق الهليني كان شيئاً مصطنعاً . فديانة
 البعليم واليهودية احتفظتا بتقاليدهما القديمة في وسط هذا الشرق الهليني . وبالإضافة
 الى ذلك فان السلوقيين تبنوا العبادات المحلية بأشكال هيلينية واطهر اكثرهم
 احتراماً للالهة المحلية . وحين كان سلوقس الاول يبحث عن موقع لاقامة مرفأه الذي
 كان ينوي بناءه قدم ذبيحة الى زفس المقيم في جبل كاشيوس وهو اله العاصفة
 والرعد المحلي الذي ارسل نسرأ ليريه مكان تأسيسها^١ . واعادت زوجة سلوقس بناء
 معبد أثارغاتيس في بامبليس - هيرابوليس Bambyce-Hierapolis (منبج) حيث
 بقيت عبادة الالهة السامية تزدهر^٢ . وبدأت اسرار جييل تقترن بافروديت
 وادونيس ولكن هذا لا يعني جعل المشرق هيلينياً بقدر ما يعني جعل العالم الهليني
 شرقياً . وبقيت اللغة الآرامية خلال هذه الفترة لغة الشعب الدارجة الذي بقي في
 صميمه سامياً في طرق معيشته . وحتى القرن الثالث الميلادي كانت تدرست وتعمل
 اللغة الآرامية الى جانب اللغة اليونانية كلفة رسمية . وكذلك استعملت دورا -
 اوروبس الآرامية واليونانية في كتاباتها الاثرية . واصبح افراد الجاليات اليونانية
 بالتدريج اكثر تأثراً بالحياة السامية من تأثر الوطنيين بالحياة اليونانية . واعطي
 بعض الملوك السلوقيين المتأخرين القاباً آرامية . فعرف اسكندر الاول (١٥٠-١٤٦)
 بلقب بالاس Balas واسكندر الثاني (١٢٨-١٢٢) الذي لم يكن من الاسرة
 السلوقية بلقب زابيناس Zabinas^٣ . ونجحت الحضارة الوطنية في سورية الآرامية
 وفلسطين اليهودية بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام فاعطت اكثر مما اخذت .

وبما لا شك فيه ان السوريين المثقفين قد درسوا اليونانية وكتبوا بها . ولكن
 ليس هناك ما يدعونا الى الاعتقاد انهم استعملوها في حياتهم البيئية باستثناء اولئك
 الذين نشأوا في المستعمرات اليونانية . ويوجد ان سكان المدن القديمة التي اعيد
 تأسيسها كانوا يتكلمون لغتين . وقد احتفظ الريف بلغته القديمة وعاداته وطريقة

(١) انظر: Malalas, *Chronographia*, ed, L. Dindorf (Bonn, 1931), p. 199

(٢) انظر: Lucian, 17.

(٣) من الواضح ان « Balas » هي ba'la وهي اختصار اسم مركب يظهر فيه اسم الاله بمنزل .
 وزابيناس هو زيبينا Zebina « المشتري » . ويرد الاسم في عزرا ١٠ : ٤٣ . وكان غالباً يعني بالاس
 المشتري من الله .

حياته . ولم تتأثر اكثرية السكان بالحضارة اليونانية بأكثر مما تأثر به السوريون المعاصرون بالحضارة الفرنسية . والذي حصل بنتيجة ادخال الملية هو تزيق البنيان السياسي والفكري الذي كان سامياً صرفاً والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيما بعد . واحتاج الامر الى مرور الف عام قبل ان يمكن اعادة ذلك البنيان .

النشاط الادبي

لم يترك الادب الآرامي في سورية السلوقية اية آثار كما انه لم تكتشف اية كتابات آرامية اثرية من هذه الفترة . وقد تضال النشاط الادبي المحلي امام الشعر اليوناني لشعوره بالنقص حتى كاد ان ينعدم . ولكن ليس من شك بأن كثيرين من كتاب ذلك العصر الذين تسموا باسما يونانية وكتبوا في تلك اللغة هم من اصل سوري . ففي الحقب الاولى من القرن العشرين ظهرت عدة رسائل ومؤلفات اخرى بالفرنسية تحمل اسماء افرنسية المظهر لكتاب لبنانيين ويكاد يستحيل معرفتها بأنها عربية . ويصح الافتراض ان بعض القطع الآرامية الادبية قد كتبت ولكنها لم تصلنا . وكان من الممكن ان تلاقى بعض المؤلفات العبرية مصيراً مماثلاً لو لم يُنح لها حظ ايجاد مترجم يوناني ودخولها في عداد الكتب الدينية غير الرسمية (الابوكريفا) . ومن المصادر الرئيسية لمعلوماتنا عن هذه الفترة سفر المكابيين الاول الذي كتب كما يبدو بين عامي ١٠٥ و ٦٣ ق.م . وترجم الى اليونانية من اصل عبري . ونرى في كتاب اخنوخ المزعوم والذي كتب في الاصل بالعبرية او الآرامية في حوالي نفس الفترة ووصلنا بكامله في اللغة الجبشية فقط — نرى ان الحلود الذي كان حتى ذلك الحين من نصيب الاتقياء فقط قد اصبح يشمل الناس جميعاً وترافقه افكار الثواب والعقاب . وقد يكون في هذا تعبير عن اعظم افكار ذلك العصر . وشغلت احدى المشاكل التي يعالجها اخنوخ ، وهي ازدهار الاشرار ، العقول اليهودية والعقول اليونانية . وانضم كتابان عبريان من العصر السلوقي الى مجموعة الكتب الدينية الرسمية وهما : سفر الجامعة الذي كتب حوالي العام ٢٠٠ ق.م . من قبل يهودي ارستقراطي تأثر بالملية . وسفر دانيال الذي كتب في القرن الثاني ق.م . ويتصل سفر الجامعة بالفكر اليوناني اكثر من الكتاب الآخر .

لم يصبح اي قسم من الامبراطورية السلوقية مركزاً حقيقياً للإبداع الفني والادبي والعلمي ولم يكن الملوك قط مشجعين اسخياء للعلم شأنهم شأن ملوك البطالمة باستثناء بطليموس الاول مؤسس مكتبة الاسكندرية ومتحفها المشهورين في العالم . وقد استست المكنتبات في العواصم وكانت احداهما في انطاكية . واذا اخذنا بعين الاعتبار تحسن المواصلات وانتشار حضارة واحدة وسيادة لغة واحدة فانه كان بإمكان العلم ان يزدهر اكثر لو حظي بتشجيع الملوك . والعالم الوحيد الذي يستحق الذكر في المقاطعات الشرقية هو سلوقس من مدينة سلوقية على الدجلة وهو من اصل كلداني عاش خلال القرن الثاني ق. م . وقال ان الشمس هي مركز الكون . واتبع في ذلك فرضية اريسطرخس^١ وحاول ان يحدد البراهين لها . واتى سلوقس بآراء صحيحة علمياً عن علاقة المد والجزر بالقمر التي ذكرها بوسيدونيوس السوري^٢ .

بوسيدونيوس المؤرخ

انجبت سورية الهلنستية اثنين من الجغرافيين المؤرخين وبعض الفلكيين وعدداً محدوداً من الشعراء الذين لم يكن احدهم من المرتبة الاولى وعدداً كبيراً من الفلاسفة وخاصة من المدرسة الرواقية . واكثرهم من القرن الثاني واولئل القرن الاول ق. م . وقد اقامت الرواقية منذ البدء علاقات وثيقة مع المفهوم السامي للحياة وبقيت خلال وجودها ملائمة لليونان الذين تأثروا بالحضارة السامية والساميين الذين تأثروا بالهلنسية . والرواقية في تأكيدها على الاخوة والدولة العالمية ، وعلى الفضيلة والحياة الاخلاقية ، وبنظرها الى كل ماله علاقة بالجسد من قوة وضعف وصحة ومرض وغنى وفقير بروح اللامبالاة فانها كانت الى حد ما طليعة للمسيحية . كان بوسيدونيوس الآقامي ابرز الكتاب السوريين وهو فيلسوف رواقى ومؤرخ وعالم طبيعي ، ومن اعظم مؤلفاته اثرأ اتقاه لتاريخ بوليبيوس الذي اصبح مرجعاً للمؤرخ ليفي وسترابو وبلوطرخس وغيرهم وهكذا ساهم في مهمة تعليم الرومان الاوائل وسهد الطريق لمجد العصر الاوغسطي . وقد ولد بوسيدونيوس حوالي العام ١٣٥ ق. م . ودرس في اثينا وبعد ان تجول في ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا

(١) من بلدة سلوقس وعاش في الاسكندرية بين ٢٨٠ - ٢٦٤ ق. م .

(٢) انظر : Strabo, Bk. III, ch. 5, § 9.

وصقلية استقر كرئيس المدرسة الرواقية في رودس حيث توفي سنة ٥١ ق.م. وبلغ من شهرته ان بومبي توقف في رودس في طريق عودته من سورية ليستمع الى محاضراته . وعندما وصل القائد الروماني الكبير الى بيت الفيلسوف منع مرافقه من قرع الباب كما هي العادة واطهر احتراماً اكثر باخفاض حزمة العصي^١. ويقول شيشرون^٢ انه هو ايضاً استمع الى محاضرات بوسيدونيوس . ويعتبر عقله آخر عقل عظيم انجسته الحضارة الهلينية قبل ان تتأثر برومة . وتصور المقتطفات التالية من كتاباته الحياة الرواقية للمدن السورية وتصف بعض المنتجات الطبيعية :

كانت هنالك عدة اندية حيث يروحون عن انفسهم بصورة دائمة فيستعملون اماكن الرياضة والحمامات ويمسحون انفسهم بالطيب الثمين والدهون ويستخدمون « المدارس » لانهم هكذا كانوا يسمون قاعات تعلم الاعضاء كما لو كانت منازلهم الخاصة ، ويملاؤون انفسهم في معظم اوقات النهار بالفطور والطعام ويمحون مهم كيات كبيرة ، وسط اصوات القيثارات الصاخبة التي جعلت مدناً يكاملها ترن بالضجيج^٣.

وتنتج الجزيرة العربية وسورية ايضاً البرسية *Persea* وما يسمى بشجر القستق . ويجعل هذا ثمرأ اشبه بالنب له قشرة يضاء وشكل مستطيل مما يشبه الموع وتردحم بعضها على بعض كمنقيد العنب . وداخلها اخضر شاحب وطعمها اقل لثة من ثمرة الصنوبر ولكنها اطيب رائحة منها .

الشعراء السوريون اليونان

ومع ان الشعر اليوناني السوري ليس مبتكراً بشكل يلفت النظر فانه يتميز بتنوعه واهتمامه بجمال الطبيعة وخصب خياله ولونه وقوة شعوره بالمزحل . وكان كثير من الشعراء بارعين في الارتجال وشعر المناسبات . وقد استخدم انثيباتر الصيداوي واصله من صور وعاش في اوائل القرن الاول ق.م . اشعار المناسبات خاصة للحوادث التذكارية وللكتابة على القبور . ويذكر سامعيه في المقطع التالي باقامته في ميناء فينيقي :

(١) انظر : Cicero, *Tusculanarum Disputationum*, Bk. II, ch. 25; Pliny, Bk. VII, ch. 31.

(٢) انظر : Cicero, *De Natura Deorum*, Bk. I, ch. 3.

(٣) انظر : E. S. Bouchier, *Syria as a Roman Province* (Oxford, 1916), p.202; cf. Athenaeus, *The Deipnosophists*, ed. and tr. Charles B. Gulick (London, 1933), Bk. XII, § 527.

(٤) انظر : Bouchier, p. 202; Athenaeus, Bk. XIV, § 649.

حان الوقت لتسرع السفينة فليست هناك زواجع قائمة
ذات تمازج مائلة لتمزق صدر المحيط
والسنولو تبني عشها تحت السفن
وعلى المروج تضحك الاوراق النضفة
اسحبوا مراسيمك المبللة ايها البحارة
واخرجوا المرابي المنفونة من الرمال
وارفعوا الاشرعة المتينة الصنع عندما آمركم
هكذا يأمر ابن باخوس وسيد الميناء

كان انقبياتر ابيقورياً في فلسفته وهذه بعض اقواله :

يقول للمالون بالنجوم اني قصير العمر . اني كذلك يا سلوقس^١ ولكن ذلك لا يعني . ليس هناك سوى طريق واحدة الى العالم الاسفل Hades التي يسلكها الجميع . واذا كانت طريقي اسرع فسأرى مينوس^٢ بسرعة . دعنا نشرب لانه صحيح جداً ان الخمر حصان للطريق بينما يتبع المشاة طريقاً جانبيه الى العالم الاسفل^٣ .

وهناك فيلسوف ابيقوري وشاعر مناسبات آخر اسمه فيلوديمس Philodemus . وقد ولد في اوائل القرن الاول ق. م. في جدرّة^٤ وهي مستعمرة مكدونية استت بين سكان شرقي الاردن شبه الرحل على مرتفع شاهق يشرف على مضيق الهيروماكس Hieromax (اليرموك) والطرف الجنوبي لبحر الجليل (طبرية) . وقد اقام فيلوديمس في رومة في عهد شيشرون الذي مدحه بمجاسة . واكثر اشعاره الباقية هي من النوع الخفيف والغزلي وتؤيد قول شيشرون فيما يختص بميوعة مواضعه ورشاقة طريقته^٥ . وهذا نموذج منها :

(١) انظر : Bouchier, pp. 193-4 ; cf. *Greek Anthology*, Bk. X, § 2.

(٢) يبدو ان الاشارة هي لسوقس الكلداني الذي كان منجماً ايضاً .

(٣) هو ملك كريت ومشرعها الذي اصبح بعد موته احد القضاة في العالم الاسفل .

(٤) انظر : *Greek Anthology*, Bk. XI, § 23.

(٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 11, § 4. الموقع هو قرب ام

نيس اليوم . ويذكر سكان جدرّة في انجيل مرقس ٥ : ١ ؛ لوقا ٨ : ٢٦ ، ٣٧ .

(٦) انظر : *In Pisonem*, chs. 28, 29.

لقد وضعت في حب دييو من بلوس - وليس ما يدعش في ذلك : ثم احببت دييو من ساموس - ولم يكن ذلك امراً كبير الاحمية : وللمرة الثالثة احببت دييو من ناكوس - ولم تمد القضية مجرد تكتة : وفي المرة الرابعة احببت دييو من ارغوس . ويبدو ان الاقدار ذاتها قد استمتني فيلوبيتي [« حب الناس »] لانني اشعر دائماً برغبة ملحة لشخص بلم دييو .

مليغر

لعل اكثر الشعراء طرافة في عصر غير شعري هو مليغر من جدوة (ام قيس) وكان سوري الاصل ومن المرجح انه تكلم الآرامية في بيته وعرف الفينيقية بالاضافة الى اليونانية . وكأكثر الكتاب السوريين في عصره فقد بحث عن رزقه خارج مدينته الاصلية . وفي سن العشرين (حوالي ١١٠ ق. م) هاجر الى صور التي نعرف لحة عن حياتها الداخلية من مقاطعه الشعرية . ولا بد ان حياة المدينة كانت طائشة فالمغنون وعازفو القيثارة كانوا محبوبين والشرب كان شائعاً . وكانت نساء الطبقة العليا يعشن في عزلة ولهن من يرافقهن حين يسرن في الشوارع . وانتقل مليغر بعد ذلك الى جزيرة كوس Cos حيث جمع ديواناً شعرياً سماه الاكليل . ويضم خيرة اشعار الكتاب الاوائل وقد شبه كلاً منهم في شعر من عنده بزهرة جميلة او شجرة انيقة^٢ . ويصف في شعر قصير آخر يلفت النظر باقة من سبعة اولاد عرفهم بنفسه في صور وشبههم بالزنبقة الجميلة والبنفسجة البيضاء العطرة والوردة والكرمة والبرعم والزعفران ذي الصفائر الذهبية وغصن الزعتر وغصن الزيتون الدائم الاخضرار . وقد قدم الله الحب هذه الباقة الى افروديت^٣ . وفيما يلي مقطعان شعريان بما يكتب على القبور من نظم مليغر :

جزيرة صور كانت مريتي وجدرة التي هي اتيكية ولكنها تقع في سورية ولدني . لقد ائبقت من يوكراتس Eucrates انا ، مليغر ، الذي سرت بجانب عرائس مينبوس Menippus بمساعدة

(١) انظر : Greek Anthology, Bk. V, § 115

(٢) انظر : Greek Anthology, Bk. IV, § 1.

(٣) انظر : Greek Anthology, Bk. XII, § 256.

(٤) شاعر هجاء من جدرة ايضاً لمع اسمه حوالي العام ٢٨٠ ق. م . وكان بالاصل عبداً ثم اصبح بعد ذلك من ممتقي المدرسة الكلبية (Cynic) في الفلسفة وعالج حقائق البشر وخاصة الفلاسفة منهم بلهجة تحكمية . وقد استعمل لوكيان هجاءه بكثرة . ودعي مينبوس ابا الادب الرخيص ويذكرنا نثره الفني الذي يترج احياناً بمقاطع شعرية بمقامات الحريري .

آلهة الشمر . فلذا كنت سورياً فما هي العرابة ؟ ايها الفريب انا نقطن بلداً واحداً هو العالم ؛ وشيء واحد انبت كل البشر (١) :

سر جهده ايها الفريب فالرجل المسن ينلم بين الموتى الاتقياء يلقه النوم الذي هو نصيب الجميع . هذا هو مليغر ابن يوكرايمس الذي قرن آلهة الحب الدائمة العذبة وآلهة الشمر مع العرائس . لقد ربه صور التي ولتها السماء وتراب جدوة القدس حتى بلغ اسمه ورعت كوس المحبوبة من الميروبس شيخوخته . فاذا كنت سورياً فقول لك سلام ! واذا كنت فينيقياً أقول لك نايدوس ^٢Naidios ! واذا كنت يونانياً فقول لك Chaire ! (اي السلام) وقل انت نفس القول^٣ .

(١) انظر : *Greek Anthology*, Bk. VII, § 417.

(٢) تبدو هذه الكلمة الفينيقية بمعنى «السلام» بأنها صيغة المضارع لشخص الاول في حالة الجمع من yādhāh ومعناها تقديم الشكر ولها نهاية يونانية .

(٣) انظر : *Greek Anthology*, Bk. VII, § 419.

الفصل التاسع عشر النظم السلوقية

الملكية

كانت النظم السياسية للدولة السلوقية مزيجاً غريباً من عناصر يونانية - مكدونية وعناصر سورية - فارسية وقد سادت هذه الاثيرة فيها. فعلى رأس الدولة كان يقوم الملك بسلطة مطلقة وكان في الحقيقة هو الدولة واليه ترجع السلطات كلها. وكان يعين الموظفين ويسرحهم حسب مشيئته. وكان حكمه فردياً ملكياً يرتكز على حق الفتح والوراثة. وكانت تحيط به هالة مقدسة ورثها عن الاسكندر والملوك الشرقيين. وقد اعلن الاصل الالهي لمؤسس السلالة في مطلع حكمه بواسطة نبوءة قبلت بوجه عام. ثم اصبحت جزءاً من اللقب الملكي في عهد خلفائه. واتخذ السكان الاصليون من غير اليونان موقفاً يحسن وصفه بالاذعان السلي.

كان شكل القصر بما يعرض فيه من مرمر وذهب وبما يظهر فيه من حجاب وخصيان شرقياً اكثر منه غريباً. وكان الملك يضع على رأسه في المناسبات الرسمية تاجاً كرمز للملكية. وكان التاج كما يظهر على النقود عبارة عن شريط ذهبي ضيق. واتخذ الخاتم ايضاً شعاراً للملكية^١. واستعمل سلوقس مرساة منقوشة كخاتم له لاسباب لا تزال غامضة^٢. وتظهر هذه المرساة ايضاً على النقود والاوزان السلوقية. اما اللباس الملكي فقد ظل الرداء الوطني القديم المستعمل في مكدونيا ولكنه زيد في بهائه وصنع من الارجوان. وكان الثوب القرمزي يقترن بالملكية ومنصب الكاهن الاعظم^٣.

(١) انظر سفر المكابيين الاول ٦ : ١٥ .

(٢) انظر : Appian, §. 56.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ١٠ : ٢٠ ؛ ١١ : ٥٨ ؛ 1. ch. XXVI, Polybius.

تميزت الولايم الملكية بالابه وبرزت فيها الصحن الذهبية والفضية والنحور المعتقة والآلات ذات الاوتار وروائح المر وغيرها من العطور الشرقية . وقد ترك لنا بوسيدونيوس^١ صوراً خاطفة عن الحفلات الزاهية التي اقيمت بمناسبة الالعب في دفنة من قبل انطيوخس السابع سيديتس^٢ (١٣٧ - ١٢٨ ق.م). ويقال ان المضيف الملكي سمح لكل مشترك في الحفل ان يحمل الى بيته من لحم الحيوانات البرية والبحرية ما يكفي لاملء عربة بالاضافة الى كميات الحايى المعمولة بالعلل واكاليل المر والبخور ومشبكات الذهب «التي يبلغ طولها طول الرجل». وكان من عادة انطيوخس الثامن غريبوس (المعقوف الانف ١٢٥ - ٩٦ ق.م) ان يوزع في مثل هذه المناسبات على المدعون اوزاً حياً وارانب وغزلاً بالاضافة الى الاكاليل الذهبية والآواني الفضية والعميد والحبول والجمال . وبعد ان يركب كل رجل جمه يشرب نخباً ويقبل الجمل بما عليه والخدام الملحق به . وكانت التسلية الرئيسية بالاضافة الى الولايم تتضمن الصيد والغروسة .

البلاط

كانت الخامشية تتجمع حول الملك ، وبما لاشك فيه ان لغة البلاط كانت اليونانية . ويستبعد ان يكون الملك السلوقي قد عرف لغة اى من مواطنيه الاصليين . وكان يذهب عدد كبير من الامراء الملكيين وهم صغار الى اثينة او رومة لتلقي العلم . وكانت اعلى وظيفة في البلاط هي وظيفة «وزير القضايا» وهي استمرار لمنصب الوزير عند الفرس . وكانت سلسلة الوظائف تضم رئيس الديوان الملكي ووزير المالية والكاتب المالى وقائد الحرس والطبيب الرئيسي . وكان الموظفون في المقاطعات هم الولاة او المرابزة وحكام المقاطعات الصغرى والكتاب ومراقبو الضرائب . وكانت وزارة المالية وزارة مرغوباً فيها بشكل خاص^٣.

ان طبقة النبلاء المكدونيين التي هاجرت من ارض اجدادها وطعمت بطبقة النبلاء الجديدة المتألفة من موظفين ترقوا بعطف الملك - لم تكن في وضع يمكنها

(١) انظر : Athenaeus, Bk. XII, ch. 540.

(٢) لقب بهذا نسبة الى بلده Side في بافلييا حيث نشأ .

(٣) راجع : Appian, § 45.

من تقييد السلطة الامبراطورية . وكانت نساء القصر يتنازعن ويديون المكائيد للوصول الى السلطة . وكان السلوقيون والبطالمة فيما سوى الجيل الاول من خلفاء الاسكندر يتزوجون بامرأة واحدة ولكن كان لبيهم محظيات . وقد منح انطيوخس الرابع محظيته سلطة ملكية على طرسوس ومدينة اخرى في كيليكيما بما ادى الى نقمة سكانها^١ . ومارس افراد الاسرتين عادة الزواج بالثقيقات كما فعل الفراعنة وملوك الفرس . وكان لدى افراد الاسرة المالكة وجماعة الموظفين وفترة من العبيد وكان المجتمع الهلنستي في كل مكان فقيراً في الآلات غنياً في العبيد^٢ .

الجيش

كان الجيش والاسطول تابعين للملك . وتمتع الجيش السلوقي بنفوذ في شؤون الدولة . واعتبر سلوقس الاول انه من المناسب اخذ موافقة الجيش حين هياً ذلك الزواج القريب بين ابنه ووريثه انطيوخس الاول وزوجة ابيه وحين اراد تعيينه على بعض المقاطعات^٣ . وقد تألف الجيش في مراحله الاولى من جميع المكدونيين واليونان في المملكة وكان وسيلة اساسية يصل بها الرجال الى السلطة . وكان مقر قيادته في اقامية ولكن معسكراً اقيم في انطاكية للحرس الملكي . وكان يتألف جيش انطيوخس الثالث في معركة وافيا (رفع) سنة ٢١٧ من ٢٠٤٠٠٠ مستوطن اوربي يدعمهم ١٠٤٠٠٠ من الرجال المختارين من قوميات كثيرة و ١٠٤٠٠٠ من العرب وسائر رجال القبائل الاخرى وعدد من المرتزقة بما يرفع العدد الى ٦٢٤٠٠٠ من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان^٤ . وكان الفرسان اعلى في المرتبة ويتقاضون اجوراً اكثر من المشاة .

كانت الكتيبة نواة الجيش وقد جند افرادها بصورة رئيسية من بين المستوطنين اليونان والمكدونيين وعددها لم يكن ثابتاً . وقد بلغ في معركة مغنيزيا ١٩٠ ق.م .

(١) انظر سفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٠ .

(٢) للحصول على تفاصيل اكثر عن البلاط وحياته ارجع الى : E. Bickerman, *Institutions séleucides* (Paris, 1938), pp. 31-50.

(٣) انظر : Appian, § 61.

(٤) Polybius, Bk. V, ch. 79.

سنة عشر الفأ. وكانت الكتبية مسلحة بالسيوف والرماح الضخمة التي بلغ طولها واحداً وعشرين قدماً تحميها الخوذ والتروس. وكان السلاح الوطني لليونان والمكدونيين الرمح وليس السيف وبقي كذلك. وكان يتألف رماة القذائف من النبالة واصحاب المقاليع وقاذفي الرماح وكلهم من غير الهلينيين. ومدفعية الملوك الهلنستيين التي كانت تضم المنجنيق فتحت فصلاً جديداً في تاريخ فنون الحصار وادت الى تحسن مقابل في فن تحصين المدن. وفي معركة رافيا ساهم الفنان من النبالة واصحاب المقاليع من الفرس والاكراد. اما في معركة مغنيزيا فاشتركت فرقة تتألف من حوالي الف فارس ميدي وفرقة ملكية من الف خيال اغلبهم من السوريين. وسار الرماة العرب وهم يركبون الجمال امام الفرسان وحملوا سيوفاً رشيقة طولها اربعة اذرع لكي يتسكنوا من الوصول الى العدو من علو كبير كهذا^٢.

القبيلة لاجل الحرب

عرف استخدام الجمال والحصان في الحروب في آسية الغربية لعدة قرون ولكن القبيل كان ظاهرة جديدة في الجيش السلوقي واصبح هذا الحيوان شعاراً سلوقياً كما ترينا قطع النقود. ويبدو ان المنود كانوا يقومون بالتدريب في مركز القبيلة في أفامية. واستعمل الملوك البطالمة قبيلة من افريقيا. وفي عام ٢٧٣ ق.م. ارسل حاكم بكتورية عشرين فيلاً الى انطيوخس الثالث الذي استخدمها ضد مصر^٣. وتقابلت القبيلة الهندية والافريقية في ساحة المعركة في مغنيزيا ورافيا وانتصرت الهندية التي كانت تتفوق بعدها على الافريقية في المعركتين بما لا يمكننا تبرير الاستنتاج بانها كانت اقوى^٤. واستخدم انطيوخس في رافيا ١٠٢ من القبيلة^٥. كما ان سلوقس الاول استخدم في معركة ايبسوس (٣٠١ ق.م.) ٤٨٠ منها

(١) انظر : Appian, § 32.

(٢) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 40; cf. Appian, § 32.

(٣) انظر : Sidney Smith, p. 156.

(٤) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 39, § 13; Polybius, Bk. V, ch. 84.

(٥) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 79.

وكانت الى حد كبير سبب نصره الذي اكسبه مقاطعة آسيا . وبلغ مجموع الفيلة التي كانت في المركز السلوقي حوالي ٥٠٠ فيل^١.

وفي ترتيب المعركة كان يركب سائق هندي على رقبة الفيل الذي يحمل برجاً خشبياً يجلس فيه اربعة مقاتلين^٢. ولا بد ان منظر هذه الحيوانات المحاربة كانت يوحى بالرهبة الى حد جعل اليهودي الذي روى اعمالها في احدي معارك المكابيين ان يرى ظهورها مغطاة بالابراج وفي كل منها اثنان وثلاثون من الرجال الاشداء^٣. ويقول نفس الراوي ان الحيوانات كانت تستثار للقتال بعرض «دم العنب والتوت» عليها^٤.

كان يقود فصيلة الفيلة في ساحة المعركة ضابط خاص^٥. ولم تستعمل الحيوانات لتحارب حيوانات الاعداء كما في رافيا بل لتكون ايضاً بمثابة حاجز ضد الحيلة كما في ايبسوس. ويبدو ان هذا هو الغرض الرئيسي الذي كان يستخدم السلوقيون تلك الحيوانات لاجله. وقد استعملوها ايضاً لاقتحام موقع حصين. ويعتبر الفيل من هذه الوجهة دبابة العصر القديم^٦. وكانت تعتبر الفيلة في هجومها على المشاة اعداء هيمته للفرق التي تواجهها لأول مرة ويزول تأثيرها امام المشاة المجرين.

وعندما علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربية في سورية ارسلوا في عام ١٦٣ ق.م. بعثة للقضاء عليها. واثار القضاء على هذه الحيوانات الداجنة والنادرة احد مواطني اللاذقية بحيث طعن رئيس البعثة طعنة هيمته حين كان يتطيب في الجنائز يوم بتلك المدينة^٧. وبعد ذلك بوقت قصير استحوذ شخص سلوقي على فيلة احد البطالمة ولكن احد منافسيه جرده منها. وهذا آخر ما نسمع عنها.

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

(٢) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 40.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ٦ : ٣٧.

(٤) انظر سفر المكابيين الاول ٦ : ٣٤.

(٥) انظر : Appian, § 33.

(٦) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Military and Naval Developments* (Cambridge, 1930), p. 95.

(٧) انظر : Appian, § 46.

وتعتبر السنون التي انقضت بين وفاة الاسكندر وذلك الحادث الفترة الوحيدة في التاريخ التي لعب فيها هذا الحيوان دوراً هاماً في الحروب القريبة .

الاسطول

كلفت نفس البعثة الرومانية التي قضت على فيلة الحرب بمهمة احراق الاسطول السلوقي الذي كان قد زاد عن العدد الذي سمح به لانطيوخس الثالث بموجب معاهدة الصلح . ومع ان الاسطول لم يبق في دور حاسم في اية معركة ذكرتها المدونات التاريخية فانه كانت له غالباً قيمة كافية في الحرب لان تستدعي ادخال مادة في المعاهدة تجدد عدد وحداته وتعين مجال نشاطه في المياه الاسيوية فقط . ويبدو ان قسماً صغيراً منه كان يربط في الخليج الفارسي^١ . وكانت مهمة الاسطول بوجه عام ان يتعاون مع الجيش المحارب وان يجمي التقلبات العسكرية . وبما لا شك فيه ان اكثر تجارته كانوا من الفينيقيين .

كانت وحدة الاسطول هي السفينة ذات الصفوف الخمسة التي حلت في هذا الزمن محل السفن ذات الصفوف الثلاثة الاقل قوة ويرجح انها اخترعت في فينيقية او قبرص قبل زمن الاسكندر بقليل^٢ . وكانت السفن ذات الصفوف الخمسة تجذب بصف واحد من المجاذيف ويعمل خمسة رجال في كل مجذاف . ويمتد ظهر السفينة فوق رؤوس المجذفين . وتجعل السفينة فرق الجنود الذين كانوا يجيئون في القرب الثاني ق. م . بارج خشبية خفيفة منتصبة فوق ظهر السفينة . ويمكن استعمال السفينة نفسها للانقضاض على السفن الاخرى وهو اسلوب يجري برع فيه الفينيقيون .

ادارة المقاطعات

ظهرت وحدة الامبراطورية السلوقية في تجانس تنظيمها العسكري وفي نظام ادارة المقاطعات الذي ورثت قسمه الاكبر من الفرس . ولا نعلم الشيء الكثير عن ادارة المقاطعات المحلية ولكن يبدو ان الجهاز الحكومي القديم كان باقياً .

(١) انظر : Polybius, Bk. XIII, ch. 9 § 5.

(٢) انظر : Tarn, P. 132.

واحتفظت الوحدة الادارية باسمها الفارسي وهو المرزبانة . وقد ادعى ايبان^١ انه كان يوجد اثنان وسبعون مرزبانة في الامبراطورية في عهد سلوقس الاول ولا بد انه مزج بين تقسيمات المرزبانات الداخلية والمرزبانات ذاتها . ويروي بوسيدونيوس^٢ انه كان في سورية ثمان ممرزبانات - اربع في الشمال الكنيف السكان الذي يسمى « Selencis » واربع في الجنوب الذي يسمى « سورية المحوفة » . وقد تجمعت الولايات الشمالية حول المدن التالية : انطاكية ، سلوقية ، افامية ، اللاذقية . ويظهر ان دمشق ولبنان بالاضافة الى فينيقية شكلت اول مرزبانة في سورية الجنوبية . وشكلت السامرة والجليل مع الساحل المرزبانة الثانية . وتألفت الاثنتان الباقيتان من شرقي الاردن وايدومية . وكانت اليهودية في اكثر عهدها كما رأينا سابقاً دولة كهنوتية تدفع الجزية في ظل السيادة السلوقية .

قسمت المرزبانة لاغراض ادارية الى مقاطعات صغيرة أوكلت لحكام ثانويين . ويصعب تحديد ترتيب هذه الاجزاء وربما كانت تتبدل من وقت لآخر . وكانت دارسك التقود الملكية في انطاكية ولكن وجدت دور في المقاطعات في صور وصيدا وارواد وغيرها من المدن الهامة .

المدن

كانت المستعمرات المكثونية - اليونانية منظمة بوجه عام حسب الفكرة الهلينية القديمة بشأن الحكم الذاتي لدولة المدينة . وقد شكلت المدن المتأثرة بالهلينية كذلك دول مدن من هذا النوع . وقد وجب عليها ان تدفع الضرائب وتطيع الاوامر الملكية من وقت لآخر ، ولكن سمح لها بادارة شؤونها الداخلية . وقد سمح للمدن المرموقة بنوع خاص ان تسيطر حتى على مقاطعات مجاورة . وكان يصوت سكان انطاكية كأعضاء جماعة هلينية وربما صوتوا ايضاً في مجلس الجليش الامبراطوري . والميزة المعروفة للمدينة الهلنستية هي شوارعها المستقيمة التي تتقاطع في زوايا قائمة فتقسمها الى مربعات تبدو من نقطة مرتفعة كأنها لوح الشطرنج . اما النموذج العام فهو نموذج مدينة يونانية لها ساحة حمامة (آغورا) في احد الاماكن

(١) انظر : Appian, XI, § 62.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 4.

المتوسطة وتطل عليها المعابد. وبلغت مساحة الآغورا في دورا - اوروبس ٢٨٤٠٧٩ يرداً مربعاً. وتراوح عرض شوارعها بين ١٨ - ٢٤ قدماً وبلغ عرض الشارع الرئيسي ٣٦ قدماً^١. ومن سوء الحظ انه لم تكتمل الحفريات في اية مدينة سلوقية حتى الآن كما في دورا - اوروبس^٢. ومن جهة اخرى كانت المدن الجديدة تختلف في مظهرها كما في سياستها. وبقي العنصر الوطني من السكان فيها يعيش حسب الطريقة التقليدية.

الضرائب

عاش الفلاحون الوطنيون في قرى حافظت على وضعهم وطريقة حياتهم دون اهتمام بتغيرات الملوك. وكانت الارض التي يزعمونها ملكاً للملك او لبعض الملاكين على الغالب وكانوا يشرون ويبيعون معها. وكان وضعهم وضع رقيق الارض. وليس هناك من شك في انهم دفعوا ضرائبهم عيناً.

وتابع السلوقيون عادة جمع العشور التي عرفت منذ اقدم العصور في آسية الغربية وهي عشر محصول الموسم. ويبدو من المصادر المتفرقة ان الضريبة لم تفرض على الفرد بل على الجماعة^٣. وكان يدفع قسم كبير منها عيناً باسم المدينة او السكان او القبيلة من قبل الزعيم او الكاهن الاعظم. وليست لدينا معرفة تامة حول الضرائب المختلفة وكمياتها وطريقة تعيينها ولكن ليس هناك من شك بان كثيراً من هذه الامور كان يقرره التقليد القديم ويتكيف مع الاحوال الاقتصادية المباشرة.

كان هناك بالاضافة الى الجزية وعائدات الارض التي كانت مرتفعة جداً في اليهودية ضرائب ملكية تشمل ضريبة الرأس وضريبة التاج^٤ وضريبة الملح. وقد

(١) انظر: M. T. Rostovtzeff et al., *The Excavations at Dura-Europos*, vol. ix, (New Haven, 1944), pp. 23,25.

(٢) انظر بشأن مخطط لدورا: Rostovtzeff, *Caravan Cities*, tr. D. and T. Talbot: Rice (Oxford, 1932), p. 154.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ١٠:٢٩-٣٠:٤٩. Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4.

(٤) يدل التمييز على ان اليهود اعتادوا ان يقدموا للسلوك السوريين تيجاناً من الذهب ثم قدموا قيمتها بعد ذلك.

اعفى انطيوخس الثالث مدينة اورشليم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك اعفاها بمقدار الثلث وذلك في الوثيقة التي منحها اياها حوالي عام ٢٠٠ ق.م.^١ وبعد نصف قرن حين كان يوجد ملكان سلوقيات متنافسان وهو امر معتاد في ذلك العصر اظهر كل منهما استعداده لتقديم ائمن لدعم اليهود له . وقد عرض احدهما وهو ديمتريوس الاول سوتر في عام ١٥٢ ق.م. في رسالة الى يوناتان الكاهن الاعظم — على اليهود اعفاءهم من الجزء الاكبر من الجزية والضرائب التي كانت تدفع حتى ذلك الحين ومثلها ضريبة الرأس والضريبة على الملح وئمن التيجان بالاضافة الى ثلث محصول الحقول ونصف اثمار الاشجار التي كانت تذهب عادة الى الملك . كما انه عرض اعفاء اورشليم من ضريبة العشر الاعتيادية^٢. ويفهم من ضريبة الملح التي يذكرها كل من انطيوخس وديمتريوس بان مقالع الملح كانت تعتبر من املاك العرش . ومن المرجح ايضاً ان المناجم والمقالع الحجرية والغابات ومصائد السمك يملكها ويديرها الملك . ويخول انطيوخس اليهود في وثيقته حق استيراد الاخشاب من لبنان معفاة من الضرائب لاعادة بناء معبدهم وسائر الابنية^٣.

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 3, § 3.

(٢) انظر سفر المكابيين الاول ٢٩١:١٠-٣٠ : Josephus, Bk. XIII, ch. 2, § 3.

(٣) للحصول على معلومات اوفى عن هذا الموضوع راجع : Bikerman, pp. 106-132, Ros-tovtzeff, *Social and Economic History*, pp. 440 seq.

الفصل العشرون

التجارة والصناعة

كانت سورية العمود الفقري للإمبراطورية السلوقية وانطاكية رأسها السياسي وسلوقية عاصمتها التجارية واقامية مقرها الحربي وسلوقية التي على الدجلة عاصمة جناحها الشرقي وساردس عاصمة جناحها الغربي. وكان ربط هذه الاقسام المختلفة من الامبراطورية والمراكز التجارية والسياسية المختلفة بطرق مناسبة وآمنة يشكل الاهتمام الرئيسي للملوك السلوقيين الاوائل. وكانوا حين يبنون مستعمرة جديدة يهتمون بربطها بالطرق الرئيسية الموجودة والطرق المحلية التي اضاف اليها ملوك سورية ومصر الهلنستيون طرقاً جديدة. وكان من شأن التسهيلات الجديدة في المواصلات وتمتع العالم الهلنستي حتى في عهد تجزئته بشيء من الوحدة والتناسق في الثقافة العامة، بما في ذلك اللغة المشتركة والنقود الموحدة، ان اعطت التجارة حافزاً خاصاً. وقد رافق حركة بناء المدن ذاتها ظهور نشاط تجاري اقتصادي يوناني نتج عنه توافد التجار ورجال الاعمال والصناع.

السياسة السلوقية

كانت تجارة سورية في المستوى الداخلي والخارجي ذات اهمية كبرى بالنسبة للملكة وسكناها. ويبدو ان السياسة السلوقية كانت تهدف اولاً الى ان تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والهند واواسط آسية للاستهلاك المحلي والمرور وتانياً الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع القرب وخاصة العالم اليوناني - الروماني. وكانت مصر منافسة لسورية في تطلعها الى تجارة الترانزيت. وهكذا كان للصراع الحربي المستمر بين السلوقيين والبطالمة اسس اقتصادية وسياسية.

الهند

ويمكن لمنتجات الهند ان تأتي عن طريق البحر الى مستودعات في اليمن

(العربية السعيدة) لتصبح هناك جزءاً من تجارة الجزيرة العربية^١ ومن ثم تنتقل بواسطة القوافل الى البتراء وبلاد البطلمة او يمكنها الاتجاه عن طريق البحر على طول الساحل الغربي للخليج الفارسي قسراً بالعقير Gerrha وتصل الى سلوقية. وهذه البضائع المتجمعة بعد ان تنضم اليها في سلوقية المواد التي تجلبها القوافل البرية كانت تتجه غرباً فتصعد القرات مارة بدورا - اوروبس (الصاحية) الى انطاكية او تتبع الطريق القديمة شرقي دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمرو وتسير غرباً الى نصيبين ومنها الى اديسا ثم الى انطاكية او دمشق. وقد جعل هذا من سلوقية على الدجلة مركز توزيع البضائع بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلفاً لبغداد في العصور الوسطى. وقد بقيت هذه الطريق التجارية الشرقية التي تمر بسلوقية على الدجلة مطروقة خلال القرن الثالث ق.م. ولكن في الفترة المضطربة في اواخر القرن الثاني واول القرن الاول اصبحت الطريق الصحراوية المارة بتدمر اكثر ملاءمة وخاصة لان القبائل التدمرية كانت آتشد في وضع يمكنها من ضمان الامن والمياه اللازمة. وقد بقي هذا الاختصار في الطريق الذي يمر بمدينة الواحة التدمرية مستعملاً بكثرة لمدة نحو اربعة قرون^٢.

كان بإمكان القوافل المنطلقة من مصر او البتراء او الساحل الفلسطيني ان تتبع الطريق الساحلية حتى تصل الى اللاذقية ومن هناك تتصل بسلوقية وانطاكية او يمكنها ان تعطف من مجدو او صور الى دمشق متبعة الطريق الاولى القديمة الكبرى. اما القوافل المنطلقة من ارواد او ماراثوس فيمكنها هي ايضاً ان تتبع الطريق الساحلية شمالاً او تستدير شرقاً باتجاه حمص وافامية. وكانت سلوقية او جارتها انطاكية الواقعة على نهر العاصي الصالح للملاحة آنذاك نقطة الالتقاء في سورية لجميع هذه القوافل.

وكان السلوقيون ابان ذروة حكمهم اسياداً غير منازعين ايضاً لطريق الحرير التي تخترق الهضبة الايرانية وآسية الوسطى حتى منغوليا البعيدة بقدر ما كانت

(١) لتوسع في تجارة الجزيرة العربية الجنوبية راجع : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 44-48.

(٢) راجع ما سنذكره في الفصل ٢٩ بشأن تدمر.

تستخدم في تلك الايام . وكان قسم كبير من تلك الطريق يمر في الممتلكات السلوقية . والتقت منتجات الشرق الاقصى بمنتجات الهند وغربي الجزيرة العربية في بلاد الرافدين وانتقلت غرباً اما بطريق نصيبين والرها او بطريق دورا - اوروبس .

دورا - اوروبس (الصالحية)

كانت تحمي الطرق الرئيسية في عهد السلوقيين سلسلة من المستعمرات القوية المزدهرة التي كانت تستخدم في الوقت ذاته كأماكن مناسبة للراحة لرجال القوافل ومراحل الجمال . وكانت دورا - اوروبس احدى هذه المستعمرات^١ . وقد استست حوالي العام ٣٠٠ ق.م . من قبل سلوقس الاول على الطريق الصحراوية في موضع متوسط بين عاصمتي سورية وبلاد الرافدين وسرعان ما تطورت من حصن قوي الى سوق تجارية هامة . وكانت تقع في مكان يتصف بمنعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويمحيط بها واديان سحيقان . وبلغت المدينة ذروتها كمركز للقوافل في عهد الفرثيين . واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات . وقد احتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦ م . بوقت قصير وهدموها واصبحت بعد ذلك جزءاً من الصحراء . ولم يعرف العلماء خرائثها التي تدعى اليوم الصالحية الى ان عثر ضابط انكليزي في ١٩٢٠ على بعض الاواح المزخرفة المهمة حين كان منشغلاً في حفر الخنادق^٢ . وقد اتضحت اهمية خرائب دورا حتى انها دعت «بومي الشرق» .

جرها (العقير)

كانت جرها Gerrha اهم مركز تجاري على الخليج الفارسي^٣ . وكانت تسيطر هذه المدينة العربية تقريباً على الساحل الغربي للخليج الفارسي وعلى طرق القوافل

(١) تعني كلمة دورو Dūru الاكادية دائرة او جداراً (تارن مع دابال ١:٣) وقد اضيفت «اوروبوس Europos» تخليداً لتكري مكان ولادة سلوقس الاول في مكدونيا .

(٢) انظر : Rostovtzeff, Caravan Cities, p. 153.

(٣) يرجح انها العقير اليوم ويلفظها البدو «عقير» .

الكبرى في ذلك الجزء من الجزيرة العربية. وكان يتجه احد هذه الطرق جنوباً ويصل العقير باليمن بينما تتوجه الطرق الاخرى في قلب الصحراء الى تيه ومنها الى البتراء. وكان الاتصال البحري الرئيسي بين الهند والامبراطورية السلوقية يتم أيضاً بواسطة العقير. ومعلوماتنا القليلة عن هذا المركز التجاري وتجاره تأتينا كلها من المصادر الكلاسيكية^١. ولكنه يصعب تفسير ملاحظة بليني^٢ بان ابراج المدينة كانت مبنية من سربعات من الملح. وليس من دليل في هذه المصادر بان اهل العقير قد خضعوا للسلوقيين في ابي زمن. وقد توقف انطيوخس الثالث في العقير وهو في طريق عودته من حملته في الشرق وكرمهم اهلها بتقديم هدية تتألف من ٥٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠٠٠ وزنة من اللبان و ٢٠٠٠ وزنة من زيت المر او القرقة^٣.

يبدو ان السلوقيين كانوا يتزودون بمخاضهم الرئيسية من بضائع الجزيرة العربية بواسطة اهل العقير وخاصة حين كانت سورية الجنوبية جزءاً من دولة البطلمة. وكانت تتألف هذه البضائع من المر واللبان وغيرهما من المواد العطرية. وكان طلب اللبان كبيراً في الامبراطورية السلوقية لان اية عبادة يونانية كانت او يهودية او غيرها من المعبادات السامية لا تكتمل الا به. وكان يحرق على كل مذبح في العالم الهلنستي كما كان شأنه في العالم المسيحي بعد ذلك. وكانت القرقة ايضاً من محاصيل البلاد الحارة التي لها تقدير كبير وهي في الحقيقة من منتجات الهند ولكن اليونان ظنوها من الجزيرة العربية. وكانت كمية لا بأس بها من البضائع الهندية التي تنتقل الى الاراضي السلوقية تمر بأيدي اهل العقير.

التجارة مع العرب

كانت بضائع الجزيرة العربية والهند واواسط آسيا المشحونة الى سورية يستهلك جزء منها محلياً ويعاد تصدير الجزء الآخر الى الغرب. وكانت تتبع التجارة السلوقية مع الغرب الطرق البرية والبحرية. وقد ساهمت مساهمة غير قليلة في ازدهار سورية. وكانت هذه التجارة تتألف من منتجات سورية الزراعية

(١) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 3; Diodorus, Bk. III, ch. 42.

(٢) انظر: Pliny, Bk. VI, ch. 32.

(٣) انظر: Polybius, Bk. XIII, ch. 9.

والصناعة بالإضافة إلى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة في شرقها. وكانت تجارة الرقيق من العناصر الهامة في التجارة السورية. وقد نشطت هذه التجارة كثيراً في هذه الفترة بين الدول الهلنستية ومع البلاد المجاورة وكان السلوقيون أكثر اهتماماً بها من البطالمة. وقد زودت الحرب سوق الرقيق بالإسرى كما زودته القرصنة بضحايا الاختطاف. وقد حصل تدفق الرقيق بصورة مستمرة نحو المدن اليونانية في الغرب آتياً إليها من سورية والبلاد المجاورة وذلك خلال القرنين الثالث والثاني. وكان الأقبال على الرقيق عظيماً يشبه على الأقل الأقبال على الخدم في عصرنا الحديث. وبالإضافة إلى ذلك فإن عمال المناجم وعمليات البناء والاشغال العامة كانوا تقريباً كلهم من العبيد. وكانت المعابد أيضاً تملك وتتاجر في هذه البضاعة البشرية.

مستعمرات فينيقية جديدة

كانت رودس الدولة التجارية الرئيسية على الطريق البحرية لفترة من الزمن. أما ديلوس وهي جزيرة أخرى ومقر معبد كبير أقيم على شرف أبولون وكان من أكثر المنشآت الدينية شهرة في العالم القديم فقد برزت بعد سقوط كورنثوس في سنة ١٤٦ ق. م. كمركز لتجارة الترانزيت الواسعة. وكان لبيروت علاقات تجارية خاصة مع هذه الجزيرة الأيحية. وبعد أن هدم تريفون Tryphon - وهو مطالب بالعرش السلوقي - مدينة بيروت في سنة ١٤٠ ق. م. استرجعت هذه قوتها كما ترينا النقودا وتمتعت بحيوية كافية لتأسيس مستعمرة في هذه الجزيرة الأيحية. وقد كرس المستعمرة لبوسيدون وهو الإله الحامي لبيروت. وكان لها معبد ذو ملاحق وأروقة معمدة لعرض الخزف الفينيقي. واحتل البيرونيون في النشاط التجاري والاجتماعي والديني في ديلوس مركزاً لا يفوقهم فيه سوى الإيطاليين.

ونتيجة عن تشجيع النشاط التجاري والاستعماري للمدن الفينيقية في عهد السلوقيين والبطالمة تأسس غير مستعمرة واحدة. وقد اقتفى التجار الفينيقيون طريق الاسكندر المحفوف بالاعطاف عبر جندوزيا Gedrozia البعيدة. والصيداويون

في شكيم الذين استأذنوا اثناء الثورة المكابية لتحويل المعبد السامري على جبل جرزيم الى معبد لجوبيتر يرجح انهم من الفينيقيين المتأثرين بالهلينية^١. وكان لصيدا مستعمرة اخرى هي مريسة Marisa^٢ في اقصى الجنوب في ايدومية. وكانت مريسة بلداً تجارياً مزدهراً في عصر البطالمة وهي من تلك المدن الايدومية التي فضل ذكورها الحثان على النفي في عهد يوحنا هيركانوس.

يبدو ان دور اليهود في هذه النهضة التجارية في سورية في عهد السلوقيين لم يكن ابرز من الدور الذي لعبوه في اية فترة سابقة. ويعبر مؤرخهم والناطق باسمهم يوسفوس (حوالي ٣٧ - ١٠٠ م) عن ذلك بقوله: «نحن لا نسكن بلاداً ساحلية ولا نسر بالتجارة ولا في التعامل مع الآخرين الذي ينتج عنها»^٣.

المنتجات الزراعية

اصبحت سورية في العصر الهلنستي الاخير بلداً هاماً في الزراعة والبستنة. وقد بدأ التقدم في هذه الامور في عهد البطالمة في سورية المجوفة وفينيقية وفلسطين. وقد ازداد الانتاج القديم من الحبوب (الشعير والقمح) والنب و غيره من الثمار والتمور والحضروات بواسطة تحسين الاساليب وبدافع الطلبات المتزايدة. وظهرت الآن سوق واسعة للدهون التي كانت تصنع من الازهار المحلية. وادى التعامل الناشط مع البلاد الاجنبية المجاورة الى تبادل المنتجات الزراعية وادخال نباتات جديدة.

ويعتقد ان الفاصوليا والعدس والحدرد والقرع وغيرها من النباتات المصرية النموذجية قد ادخلت الى سورية الجنوبية في عهد البطالمة^٤. ويبدو ايضاً ان شجرة

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, § 5.

(٢) لعل معناها «مكان مرتفع» وهي مريسة الواردة في سفر يشوع ٤٤:١٥؛ قارن مع اخبار الايام الثاني ١١:٨؛ ١٤:٩؛ ١٠:١٠. تعرف بـ «تل سندحته Tell Sandahannah»، على بعد ميل جنوبي بيت جبرين.

(٣) انظر: *Antiquities*, Bk. I, ch. 12.

(٤) انظر: F. M. Heichelheim, «Roman Syria», *An Economic Survey of Ancient Rome*, ed. Tenney Frank vol. iv, (Baltimore, 1938), p. 130; Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 1165.

الفستق وهي فارسية الاصل كما يشير اسمها^١ قد ادخلت الى سورية في هذه الفترة . ثم انتقل هذا النبات ومعه اسمه من هذه البلاد الى اللغات اليونانية واللاتينية والاطالية . وبما يدعو الى الاستغراب ان الطريق التي اتبعتها الاشجار الفارسية الاخرى مثل المشمش والحوخ والكرز كانت عكس الطريق السابقة اذ انها تظهر في ايطاليا قبل الشرق الهلنستي . ولا تذكر المصادر شيئاً في العصور الهلنستية عن البرتقال والليمون وهما من اصل فارسي ايضاً ، ولا عن الموز (والكلمة مأخوذة من الفارسية) وهو من اصل هندي ماليزي . ومع ان القطن قد عرف منذ اقدم الازمان في مصر والهند وادخل الى بلاد آشور حوالي ٧٠٠ ق.م . فانه لم يزرع في سورية السلوقية على مقياس كبير بل كان بالاحرى من الاشياء الطريفة . وكانوا ينتجون الحرير المحلي من دود الحرير البري في غربي آسيا ولكن الحرير الصيني الحقيقي استورد بعد سنة ١١٥ ق.م . واستورد السكر والارز من الهند . ويشير بليني^٢ اشارة عابرة الى محاولة فاشلة قام بها سلوقس (الاول ؟) لتوطين حب الهال الهندي amomum^٣ والনারدين «تلك العطور الناعمة» . ويتكلم بليني في نفس المناسبة عن شجيرة القرقة بانها ليست لها قوة كافية لان تستوطن بجوار سورية .

الصناعة

اصبحت صناعة الحجر والزيت في عهد البطالمة اكثر نشاطاً . وكان هذان المحصولان بالاضافة الى الزيتون والحيز والسمك يشكلان جزءاً اساسياً من غذاء السكان . ولم تكن صناعة الاخشاب في الزمن الهلنستي اقل ازدهاراً منها في ايام القراعنة . وكانت مصر الحالية من الاشجار تعتمد على ارز لبنان الذي كان تابعاً للملك وعلى بلوط باشان . وكان استثمار غابات سورية ولبنان من امتيازات الملوك

(١) هي pistah بالفارسية وتسمى الجوزة .

(٢) انظر : Pliny, Bk. XVI, ch. 59.

(٣) ان اسم هذه الشجيرة ذات الرائحة الذكية التي استخرج منها اليونان والرومان بلسماً غنياً حسن الرائحة هو من اصل هندي وقد اتى بطريق اللغة العربية الجنوبية . ويطلق الاسم اليوم على حب الهال والزنجبيل .

في عهد السلوقيين كما كان الامر في عهد الفرس والاشوريين والفينيقيين^١. وكان بحر الجليل يقدم الشجيرات الذكية الرائحة^٢ وكانت اريحا تحتكر تجارة البلسم^٣.

حافظت صناعة المنسوجات التي ترجع الى ايام الفينيقيين وما قبل ذلك على تفوقها واستمر اصحاب المصانع السوريون يستخدمون نفس البراعة والاساليب الفنية ولكنهم نوعوا الناذج الفنية لتتفق مع اذواق مختلف الزبائن. وكانت صناعة الصوف السورية واسعة بشكل خاص. وبقي الطلب كبيراً على الاقمشة الارجوانية اللون وكانت الاقمشة الصوفية المستوردة الى منفوليا في اوائل العصر المسيحي تشير الى تقاليد سورية هلنستية^٤.

حافظت سورية على شهرتها القديمة في صناعة الخزف والزجاج وهما من اختصاص الشرق الادنى منذ ابعد العصور. وسرعان ما قلّد السوريون الخزف اليوناني الذي غمر سوق الشرق الادنى اثر فتوحات الاسكندر وصنعه في بلادهم. وكان الخزف الشائع بصورة خاصة في البدء هو الخزف الاسود ذو البريق المعدني ثم حل مكانه بعد ذلك نوع من الخزف الاحمر ذو بريق معدني جميل وقد ادخل في القرن الثاني. وتنتشر قطع من الجرار الممهورة من صنع اتيكا ورووس في طول البلاد وعرضها. وكان زجاج صيدا وصور غالي الثمن ومرغوباً فيه جداً. واستمرت هاتان المدينتان تزودان العالم باحسن الزجاج حتى الفترة الرومانية^٥. وكان يوجد رمل ممتاز لصناعة الزجاج بالقرب من صيدا. وقد صنعت هاتان المدينتان وغيرهما من المدن الفينيقية اواني من الزجاج المصبوب وصدرتها قبل ان تخترع الزجاج بطريق النفخ. ولا بد ان هذا الاختراع الذي يعتبر فاتحة عهد جديد قد حصل في آواخر القرن الاول ق. م^٦.

(١) كان الملوك في عهد الرومان ومن المحتمل في عهد الفينيقيين يمتكرون شجر السرو والصنوبر والشوح والعرعر.

(٢) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 16; Polybina, Bk. V, ch. 45, § 10.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 4, § 2; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 41.

(٤) انظر: Rostovtzeff, p. 1223.

(٥) راجع: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 25; Pliny, Bk. V, ch. 17.

(٦) انظر: Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 689.

يجل الرق Parchment وملفات البايروس (ورق البردي) محل الألواح الطينية كإداة للكتابة في العصر المملسي. واحتكرت برغامم الرق منذ القرن الثاني وكملة الرق نفسها معناها بالافرنجية ما يخص برغامم. وقد زودت الاسكندرية العالم بالبايروس. وادخلت هذه المادة من مصر الى سورية وفلسطين وهنالك اشارات متفرقة الى نمو البايروس فيها. ويرجح ان طريقة صنع البايروس تتضمن تزع قشرة النبات ثم قطع الساق طولانياً الى قطع مستطيلة رقيقة وتوضع بصورة عمودية على لوح خشبي ثم توضع فوقها بشكل متقاطع مجموعة اخرى من القطع المستطيلة وتنقع كلها بعد ذلك بالماء وربما تضاف اليها مادة غروية وتجفف في الشمس. ويمكن استعمال الصفحات مفردة او تلتصق لتشكّل ملفات^٢. ومن فينيقية ادخلت هذه المادة الى اليونان حيث شاع استعمالها في القرن السادس.

خطا فن صناعة المعدن خطوات كبيرة الى الامام في هذا العصر. وكانت انطيوخس ايفانيس غالباً ما يتهرب من حاشيته ليزور اما كن صائغي الفضة والذهب وليتحدث في الامور الفنية مع السباكين وغيرهم من الصناع^٣. وكانت تأتي الفضة وكذلك الذهب من بلاد العرب النبطية كما ان الفضة كانت تأتي من جبال طوروس. وكان يأتي الحديد من جبال طوروس ومن جنوبي فلسطين وخاصة ايدومية ومن لبنان في المنطقة المجاورة لبيروت^٤. وبما لا شك فيه ان هذا المعدن كان لاغراض اقتصادية اعلى المعادن قيمة. ويمكن ان يكون البطالمة قد استثمروا ايضاً النحاس والحديد ومناجم اخرى في سلسلة لبنان. واستمر الاستثمار حتى زمن الرومان^٥. واصبح التؤلؤ الذي كان مجهولاً في الغرب قبل عهد الاسكندر ذا قيمة كبرى لاجل الزينة.

(١) انظر: Pliny, Bk. XIII, ch. 22.

(٢) ان الكلمة السامية القديمة للقب قد بقيت في كلمة «محبة» العربية التي تستخدم اليوم للجلات. وترجع كلمة «Papyrus» ومنها اشتقت كلمة «Paper» الى كلمة مصرية تتعلق بفرعون «Pharaoh» ويبدو ان الفراعنة احتكروا هذه البضاعة.

(٣) انظر: Polybins, Bk. XXVI, ch. 1.

(٤) قارن ذلك مع ما سبق في ص ٣٦.

(٥) راجع: Heichelheim, pp. 156-157.

النقد

شجع ضرب النقود في جميع الممالك الهلنستية كعامل في تطور التجارة . وحل النقد بالتدريج كواسطة للتعامل مكان المقايضة التي كانت الاسلوب المتبع لمدة طويلة . وابتدعت مع النقود الاوزان الملكية الصادرة في انطاكية وسلوقية . وسمح بمختلف الاوزان والمقاييس في المقاطعات المختلفة وحتى في المدن ضمن نفس المملكة .

مظاهر الترف

تمتعت سورية السلوقية بفترة ازدهار نسبي بعد ان ازدادت التجارة واستخدمت فيها النقود والاوزان الرسمية وتحسنت الزراعة وتطورت . وقد حفظ التاريخ اخباراً تعطي فكرة عن مقدار الثروات التي جمعها وجهاء العصر ، من ذلك ان هرمياس رئيس وزراء انطيوخس الكبير استطاع حوالي العام ٢٠٠ ق.م . ان يدفع مرتبات الجيش الملكي كله من امواله الخاصة^١ . وهناك مثال آخر عن ديونيسيوس «صديق او مساعد» انطيوخس ايفانيس اذ يروي لنا انه كان لديه في الاحتفال بالالعاب في دفنة الف عبد يسيرون في الموكب ويحملون اواني فضية لا يقل وزن كل منها عن الف دراخمة . ثم تلام ٦٠٠ وضيف ملكي يحملون اواني ذهبية و ٢٠٠ امرأة ترش الزيوت العطرية من اباريق ذهبية . وتعقب هؤلاء في الموكب ٨٠ امرأة جالسات في محفات ذوات مساند ذهبية و ٥٠٠ امرأة في محفات ذوات مساند فضية^٢ . وقد رغب ايفانيس نفسه ان يتفوق على الانتصارات الرومانية فاحتفل بالالعاب دفنة وعرض فيها اواني ذهبية وفضية بشكل يفوق الوصف . وسار في العرض ٣٠٠٠ كيليكلي يلبسون تيجاناً ذهبية و ١٠٠٠٠٠ مكدوني يحملون تروساً ذهبية و ٥٠٠٠ يحملون تروساً برونزية و ٥٠٠٠ يحملون تروساً فضية . وكانت اكثرية الجنود المواطنين البالغين ٣٠٠٠ يضعون اغطية ذهبية على خدودهم ويلبسون تيجاناً ذهبية وكان الباقي اغطية فضية على خدودهم^٣ .

(١) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 50, § 2.

(٢) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 195.

(٣) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 194.

السكان

لا بد ان مستوى المعيشة كان عالياً جداً في كل البلاد في اوائل القرن الاول اعتماداً على شهادة بوسيدونيوس حيث يقول : « كان جميع سكان سورية آمنين من اي ضيق يتعلق بضرورات الحياة بسبب الوفرة الكبيرة التي تقدمها بلادهم ». وبسبب ارتفاع مستوى المعيشة يحسن بنا ان نفترض زيادة في السكان يعود جزء منها الى اسكان الجاليات في عهد مؤسس السلالة وخلفائه الاولين. واستمر الاتجاه نحو التزايد حتى الفترة الرومانية . ويقول سترابو^٢ (حوالي ٦٣ ق. م. — حوالي ٢٤ م.) ان انطاكية « لا تقل كثيراً في الغنى والعظمة عن سلوقية على الدجلة والاسكندرية في مصر ». ويروي ان سكان سلوقية قد بلغوا ٣٦٠٠,٠٠٠ في زمن بليني اي بعد زمن سترابو بقليل . وكان سكان الاسكندرية يبلغون نفس المقدار تقريباً في عهد اوغسطس قيصر . وفي العهد الروماني الذي سبق الامبراطورية قدر عدد سكان سورية بين خمسة وستة ملايين يعيش مليونان منهم في فلسطين^٤.

(١) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch: 210.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 5.

(٣) انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 30.

(٤) انظر : Julius Beloch, *Die Bevolkerung der griechish-romishen Welt* (Leipzig, 1886), pp. 242 seq.

الفصل الحادي والعشرون

سورية كولاية رومانية؛ فترة ما قبل الأمبراطورية

١٨٣

ان تقدم الجيوش الرومانية في غربي آسيا الذي بدأ في معركة مغنيزيا سنة ١٩٠ ق.م. اخذ يتزايد حتى فتح بومبي سورية سنة ٦٤ ق.م. وكانت سورية لدى ضمها في حالة من الفوضى اوجدها فيها الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر. وكان زعماء العرب يسيطرون على المدن في الشمال. وقد اعتدى الانباط واليهود على الممتلكات الهلنستية في الجنوب. واحتل زعماء اللصوص كثيراً من المدن الساحلية الفينيقية وجعلوا منها قواعد للقرصنة. وساعد لبنان الجبلي على تهيئة الاحوال الجغرافية اللازمة لحمايتهم كما فعلت كيليكية قلعة القرصنة في شرقي المتوسط. وبنى القراصنة في المتسعات البعيدة الوعرة في كيليكية حصوناً صخرية لاختفاء عائلاتهم وكنوزهم ضماناً لسلامتهم ولتكون ملاجئ لهم في اوقات الخطر. وما دامت التجارة مع بلاد الرافدين والبلدان الابعد في الشرق اكثر ربحاً فان الاغراء على امتنان القرصنة واللصوصية لم يكن قوياً جداً ولكن الوضع تغير الآن بعد ان سادت الفوضى السلوقية واختل نظام التجارة في البلاد الواقعة وراء الساحل بسبب فتوحات الارمن والقرنين المتتالية. وفي الحقيقة فان احد ملوك السلوقيين ويدعى تريفون (١٤٢ - ١٣٧ ق.م.) وهو عبد في الاصل شجع القرصنة فعلاً في كيليكية واستخدمها كوسيلة لتدعيم قبضته على العرش^٢.

كان القراصنة لصوص الطرق البحرية العامة وكانت هذه الطرق في شرقي المتوسط واضحة الحدود وكثيرة الاستعمال. وقبل قدوم بومبي نظم القراصنة انفسهم في

(١) انظر: Theodor Mommsen, *History of Rome*, tr. William P. Dickson (New York, 1894), vol. iv, pp. 58, 143.

(٢) Mommsen, vol. iii, p. 87; vol. iv, p. 59.

قوة بحرية دولية ضمت في عملياتها حوض المتوسط الشرق كله فسببت بذلك نقصاً في المؤن الذاهبة الى رومة التي كانت تعتمد على التجارة البحرية لتزود بالحبوب . ومع ان بومبي كما يظن قد أباد القرصنة من تلك المنطقة كلها قبل ضم سورية فان بعضهم ظلوا ناشطين هناك حتى في ايام خلفه^٢.

ادخل بومبي سنة ٦٤ ق. م. سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد وهو ولاية سورية Provincia Syria. وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية واصبحت عاصمتها انطاكية بينما جعلت كيليكية ولاية قائمة بذاتها. وسمح للملوك العرب بالبقاء على ان تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الاصلية وان يدفعوا جزية سنوية. ومع ذلك احتفظ ملك الانباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال . وابقيت اليهودية دولة خاضعة ضمن اطار ولاية سورية^٣ ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية والتي ضمها اليهود الى ممتلكاتهم اعيدت الى وضعها السابق ومنحت حرية داخلية في ظل حكام الولايات . وشكلت عشر من هذه المدن عصبة عرفت بالديكابوليس وقد انضمت اليها مدن اخرى فيما بعد. وجميعها تقع شرقي الاردن باستثناء سكيثوبوليس Scythopolis (بيسان) . ومنحت انطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات اخرى الحكم الذاتي ايضاً وجعلت تحت حكام الولايات .

نواب القناصل

اعتبرت ولاية سورية ذات اهمية مركزية هامة في الممتلكات الاسيوية حتى انها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاشتراك في الحرب^٤. وعهد بها الى بعض الموظفين الرومان البارزين جداً . وكان اولهم اولوس غابينيوس Aulus Gabinius (٥٧-٥٥ ق. م.) مبعوث بومبي الكفو الذي زاد في انقاص سلطة المملكة اليهودية بتجريد الكاهن الاعظم هيركانوس الثاني حفيد اريسطوبولس من رتبته الملكية وبفرض خرائب ثقيلة على السكان

(١) انظر : Mommsen, vol. iv, pp. 142-146.

(٢) انظر : Dio (Cassius), *Historia Romana*, Bk. XXXIX, ch. 56.

(٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4, § 4.

(٤) انظر : Appian, § 51.

وتقسيم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كلاً منها مجلس او سنهدرين Sanhedrin. واعاد غابينيوس بناء عدد من المدن اليونانية - السورية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة وبيسان ودورا وغزة^١.

حل كراسوس مكان غابينيوس وكان عضواً في حكومة الثلاثة التي ضمت ايضاً بومبي وبوليوس قيصر. وكان كراسوس طامعاً شرهاً فجعل من سورية بعد وصوله مباشرة في ٥٤ ق. م. قاعدة لعملياته الحربية ضد فرتيا التي كانت عاصمتها طيسيفون Ctesiphon (المدائن) والتي اعتبر غناها بأنه لا ينفذ. وبعد اخضاع البونت وارمينيا على التوالي والحصول على سورية اتصلت رومة مباشرة بفرتيا. وفي الحملة الثانية التي جردها كراسوس في ربيع عام ٥٣ خانه حليفه العربي امجر^٢ ملك اديسا وتمزق جيشه في الصحراء السورية على بعد ثلاثين ميلاً من (حران) Garrhae وقتل. وقطع رأسه ويده اليمنى وارسله ملك الى الفرثيين في سلوقية على الدجلة الذي يقال انه صب ذهباً مصهوراً في حلق الرجل الميت وقال « اشبع نفسك بما كنت تطمع فيه كثيراً في حياتك^٣ ».

خلف كراسوس خازنه القدير كاشيوس وهو احد قتلة قيصر فيما بعد. وقد ادرك كاشيوس ان الهزيمة الساحقة جنوبي حران قد عرضت سورية كلها للخطر لذلك اسرع بالاستعداد للهجوم القادم الذي لم يحصل حتى سنة ٥١. وقد تمركز نائب القنصل في انطاكية على رأس فرقتين وكان على استعداد لابداء مقاومة عنيدة. وشعر الفرثيون بان الحصار سيطول فتراجعوا على طول نهر العاصي وانسحبوا اخيراً من سورية كلها. ومهما يكن فانه كان من اثر هذا الهجوم ان انعش عدداً من الملوك المحليين الذين كان يميل كثير منهم الى الفرثيين.

ادت الحرب الاهلية في رومة والحالة المضطربة في الدولة الرومانية كلها الى

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3.

(٢) تذكره المصادر اللاتينية باسم « ابيجاروس Abgarus ». ويذكره بلوطرخس باسم « اريامنس Ariamnes » في الفصل ٢١ من ترجمة « كراسوس Crassus » في مجموعة التراجم.

(٣) قارن مع : Plutarch, « Crassus », ch. 33 ; Dio, Bk. XL, ch. 27.

(٤) انظر : Dio, Bk. XL, ch. 29.

اضطراب الحالة من جديد في سورية . وحدث اثناء زحف قيصر ضد ابن مثراديس الكبير الذي استغل الحرب بين يومي وقيصر فنصب نفسه من جديد على البونت ان توقف في زحفه في سورية (٤٧ ق.م) ومنح الامتيازات لعدد من ملتها . واثناء تقسيم العالم الروماني من قبل «الحكومة الثلاثية» الثانية التي كان اوكتافيان (اوغسطس فيما بعد) عضواً فيها اعطي مارك انطونيو الشرق بما فيه سورية ومصر . ولم يأت حكمه الذي دام اربع سنوات (٤٠ - ٣٦ ق.م) بالهدوء ولا بالسلم . وعاش حياة ماجنة مع كليوباترة واهمل شؤون الدولة . وقد ادت الغزوة الفرتية الكبرى من ٤٠-٣٨ ق.م الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صور . ولم يستتب النظام الا بصعوبة وبعد مدة . وتمادى انطونيو حتى انه منح جزءاً كبيراً من فينيقية وسورية المجوفة الى عشيقته المصرية وباع ابنه منها ويدعى بطليموس بلقب ملك سورية . وكان يسري في الطفل دم سلوقي بسبب التزاج بين سلالاتي مصر وسورية . وبعد معركة اكتيوم البحرية المشهورة في ٣١ ق.م . التي قهر اوكتافيان فيها انطونيو وكليوباترة مرّ اوكتافيان الامبراطور الروماني المقبل بفلسطين وسورية ورحب به اهلها الذين تاقوا الى حكومة مستقرة . وجعل هذا النصر من اوكتافيان الحاكم الوحيد في العالم الروماني . وبعد اربع سنوات تلقى من مجلس الشيوخ لقب اوغسطس (المعبود، الموقر) وبدأ حكمه كامبراطور . وافتتح فصل جديد في تاريخ العالم .

في ايام هيروودس الملك

عندما عهد الى انطونيو بشؤون الشرق اهل الاسرة المكابية ووضع مكانها الاسرة الهيرودية . وكان مؤسس هذه الاسرة سياسياً ايدوميا ماهراً وهو يودي بالاسم وقد منح الرعوية الرومانية وعينه يوليوس قيصر نائباً (وكيلاً مالياً عندما زار سورية) . واصبح انتيباتر Antipater السلطة الحقيقية وراء هيروكانوس الضعيف . واتخذ هيروودس ابن انتيباتر زوجة ثانية له وهي حفيدة هيروكانوس الثاني وهكذا وحد

(١) انظر : Bouchier, p. 29.

(٢) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 8, §§ 3, 5.

المائلتين^١. وفي عام ٣٧ ق. م. اخذ هيروودس هذا، الذي عرف فيما بعد بالكبير، اورشليم ووطد سلطته كملك وبقي يدير الامور لمدة ثلاث وثلاثين سنة بفضل رومة.

شجع هيروودس المصالح الرومانية على حساب المصالح القومية. وقد نجح حيث اخفق انطيوخس ايبقانس في جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلنستية. وبدأ في مشروع إنشاء ابنية عامة بدال وجه البلاد تبديلاً تاماً. وقد بنى في اورشليم ميداناً لسباق الخيل ومسرحاً ومدرباً واقام العاباً عامة وكانت كلها لا تتفق مع اليهودية. وزيادة على ذلك اعاد بناء المعبد. وكانت السامرة مقره المحبب فزينها بالابنية واعاد تسميتها باسم سبسطية^٢ Sebaste تكريماً لاوغسطس قيصر. وقد نقب العلماء في بقايا ابنيته^٣. وليزيد في سرور الامبراطور سيده اعاد بناء برج ستراتون Turris Stratonis على الساحل وسماه قيصرية^٤ التي قدر لها ان تصبح عاصمة فلسطين الرومانية. وعاش في بلاطه نيقولاوس الدمشقي الذي فاق بوسيدونيوس كقبيلسوف ومؤرخ. وقد ألفت نيقولاوس، الذي عرف اوغسطس شخصياً، تاريخاً عاماً ونقل بوسيفوس عنه مادة القسم المتعلق بهيروودس^٥.

تزوج هيروودس عشر نساء وذبج بعضهم مع بعض افراد امرته وسحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق. وتوفي عام ٤ ق. م. بعد نحو سنتين من ميلاد المسيح. الذي اقترح العلماء انه وقع حوالي (٦ - ٢ ق. م.). وقد وهب بملكته في وصيته المدة الى ابنه ارخيلالوس^٦ Archelaus الذي تنافس مع اخيه هيروودس انتيباس على العرش واستلم جزءاً كبيراً من المملكة ولكن اعطي لقب حاكم Ethnarch

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 6, § 4.

(٢) كلمة «سياستوس Sebastos» اليونانية تعني «اوغسطس Augustus» في اللاتينية.

(٣) اكتشفت خرائب قصره في اوريجيا في ١٩٥٠-١٩٥١ وهي اعظم خرائب من نوعها في فلسطين.

(٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 9, § 6; Pliny Bk. V, ch. 14; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 27. يمكن ان يكون ستراتون الذي سمي البرج باسمه ملك صيدا حين فتحها الاسكندر.

(٥) نشرت اجزاء من مؤلفات نيقولاوس من قبل: Ludwig Dindorf, *Historici Graeci minores*, vol. i, (Leipzig, 1870), pp. 1-153.

(٦) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 8, § 1.

فقط^١. واصبح هيرودس انتيباس حاكم منطقة الجليل^٢. وهو الذي بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر^٣. وكان هيرودس انتيباس كأبيه وغيره من افراد سلالة ذا وجهين : فهو يهودي في وطنه وهلنستي خارجه . وحين خلع ارخيلائوس (٦ م.) وضعت اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام او الثواب الرومان الذين كان خامسهم بيلاطس البنطي .

الهلبنية الرومانية

دامت الهلبنية ذات الصبغة الرومانية التي ظهرت في ٦٤ ق. م. حتى سنة ٣٣٠ م. حين نقل قسطنطين الكبير عاصمته من رومة الى بيزنطة مفتتحاً بذلك فترة جديدة في تاريخ بلدان المتوسط. ويجب ان نذكر ان الحضارة الرومانية ذاتها كانت وارثة للحضارة اليونانية القديمة ومنتفعة بها بالاضافة الى كونها استمراراً لها . وفي الحقيقة فان الرومان بصفتهم من الهنود الاوربيين كانوا الوحيدين من بين شعوب المتوسط الذين برهنوا عن مقدرة في قبول اكثر من المظهر الخارجي لحضارة اقربائهم اليونان^٤. اما بالنسبة لاكثرية السكان الساميين والحاميين في آسية الغربية وشمال افريقية فقد بقيت تلك الحضارة كأنها مفروضة عليهم من الاجانب .

عندما اتى القرن الاول ق. م. كان قد حصل انسجام بين الحضارتين اللاتينية واليونانية . وتمت تسوية لصالح اللغة اليونانية التي بقيت لغة التعامل في الشرق كما كانت قبلاً ولكن اللاتينية اصبحت اللغة الرسمية في الادارة . وكان اليونان ضعفاء في الجانب السياسي والتنظيمي على عكس الرومان الذين كانوا اقرباء فيه . اما في المجالات الفنية والفلسفية حيث كان اليونان اقرباء فكان الرومان ضعفاء . وهكذا تابعت الهلبنية تقدمها في سورية بعد ان تقوت وزادت غنى في ظل الرومان . وبفضل الحماية الرومانية بقيت في مأمن من الخطر «البربري» . وتابعت الحياة في المدينة اليونانية

(١) منناه «حاكم شب» ؛ انظر : Josephus, Bk. XVII, ch. 11, § 4.

(٢) انظر انجيل لوقا ٣ : ١ .

(٣) انظر : Josephus, Bk. XVIII, ch. 2, § 3.

(٤) انظر : M. Cary and T. J. Haarhoff, *Life and Thought in the Greek and Roman World* (London, 1940), p. vi.

السورية باشكالتها السياسية المميزة وتعاقب احتفالاتها ولهوها ونشاطها الفكري سيرها كما كانت قبلاً . وكانت تلك السلالات المحلية التي سمح لها الرومان الاقوياء بالبقاء وهي سلالة هيروودس في اليهودية والحارث Aretas في البتراء واذينة Odenathus في تدمر قد اصطبغت جميعها بصيغة يونانية .

لم تتحمل الجماعات المحلية في ظل نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة في ممارسة استقلالها الذاتي . فقد احتفظت بديانتها ولغتها وعاداتها الخاصة . واخذ الرومان على عاتقهم مسؤولية حمايتها . وكان هذا يتم بواسطة الجيوش الايطالية . وكانت تؤخذ الجزية من السكان الوطنيين بدلاً عن الخدمة العسكرية . وكان الحكام الرومان الذين يارسون اشرافاً عاماً على الشؤون الداخلية يعيّنون عادة لفترة قصيرة ولا يتقاضون من الدولة راتباً ، هذا اذا استثنينا ما كانوا يستطيعون جبايته باساليب مريبة وبتنازيم الضرائب .

الفصل الثاني والعشرون

أوائل الامبراطورية الرومانية

حكومة الولايات

عندما أصبحت رومة دولة عالمية انتقل مركز التاريخ السياسي لأول مرة من آسيا الى اوروبا حيث بقي فيها منذ ذلك الحين باستثناء فترة الخلافة . ولم يكن لدى رومة الامبراطورية سوى نموذج واحد تستطيع ان تتبعه في ادارتها للولايات الاسيوية الغربية وهو النموذج السلوقي. ولذلك كان من الطبيعي ان يتبع الاباطرة الرومان نفس المبادئ العامة وان يحتفظوا بنفس نوع الحكم الذي كان سائداً في عهد الملوك الهلنستيين الذين كانوا قبلهم .

وبسبب موقع سورية كولاية على الحدود تتاخم الدولة الفرتية وهي الدولة المنافسة الخطرة الوحيدة لرومة وعدوتها الخيفة فقد جعلت ولاية امبراطورية وكان الامبراطور نفسه نائب قنصل لها . ولهذا عهد بها الى نائب (Legate) له رتبة قنصلية دائماً وتتراوح مدة وظيفته بين ثلاث وخمس سنوات . وكان منصب الحكم فيها الى جانب منصب حكم بلاد الغال اشرف المناصب التي يمكن ان تمنحها الامبراطورية واكثرها قيمة^٢ . وكانت سورية في الشرق كبلاد الغال في الغرب مقراً مركزياً للسلطة العسكرية . وكان يساعد الحاكم هيئة كافية من اهم افرادها الموظفين الذين كانوا يهتمون بجمع واردات الدولة . وكانت الجباية تتم اما مباشرة او بواسطة تازيم الضرائب . وكان يوجد تحت امرة النائب او الحاكم قوة عسكرية كبرى تتألف من اربع فرق وكانت كلها تقريباً في اوائل الامبراطورية من الجيوش

(١) قارن مع الجليل لوتا ٢: ٢ : Victor Chappot, *La Frontière de l'Euphrate* (Paris, 1908) pp. 20 seq.

(٢) راجع بشأن لائحة الحكم : Gustave A. Herrer, *Studies in the History of the Roman Province of Syria* (Princeton, 1915), pp. 11-65.

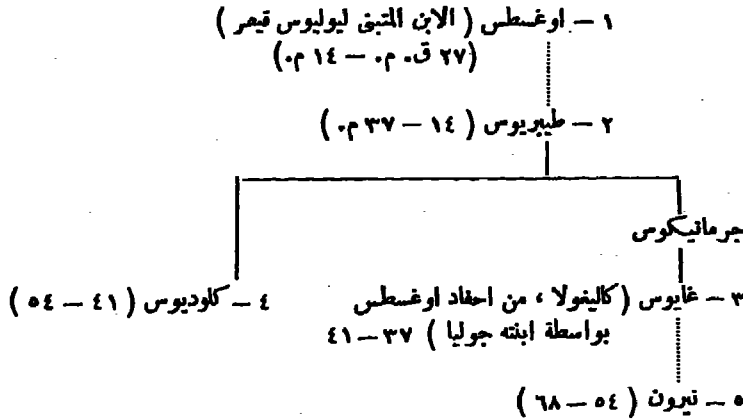
الايطالية. وكان حاكم سورية مسؤولاً عن سلامة الممتلكات الرومانية في آسيا الغربية كلها. ومن اقدم الولاة كيرينيوس Quirinius الذي عينه اوغسطس وقام باحصاء لليهود. وكان بيلاطس البنطي في الحقيقة موظفاً مالياً في اليهودية بين (٢٤-٣٧م) ولكن طيبريوس^٢ كلفه بإدارة جميع شؤونها تحت اشراف حكام سورية وقد طرده احداهم ويسمى فيتيلبيوس Vitellius لسوء معاملته للسامريين^٣.

الحكومة المحلية

عاشت الجماعات المحلية تحت حكومات مختلفة فاحتفظت المستعمرات المكدونية اليونانية بحكامها الذين كان يتبعهم مجلس للشيوخ ومجلس شعبي. وبقيت دولة المدينة اليونانية القديمة نموذج التنظيم الاداري. وكذلك احتفظت دول المدن الفينيقية بحكوماتها التقليدية التي تسودها اقلية غنية وقد اصطبغت الان بالصبغة

(١) يذكر في لوقا ٢:٢ باسم كيرينوس. ولعلم من Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 1, §1; Bk. XVII, ch. 5, §2. اما الرجل الذي ولد المسيح اثناء حكمه فهو كوينتيليوس فاروس Quintilius Varus الذي عين في ٦ ق.م. وكان سلفه هو سنتيوس ساتورنيوس Sentius Saturninus (٩-٦ ق.م). راجع Tacitus, *Annales*, Bk. III, ch. 22; Suetonius, *Vitae Duodecim Caesarum*, Bk. III, ch. 49.

(٢) نسب السلالة اليوليانية - الكلودية :



ملاحظة : يشير الخط المنقطع الى علاقة تبني .

(٣) انظر لوقا ٣:١؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 4, §§. 1, 2; ch. 6, § 5; Tacitus, *War*, Bk. II, ch. 9, § 2; Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

اليونانية . اما الجماعات الآرامية في الداخل فاستمرت تسيطر على شؤونها الداخلية كالسابق . وعاش العرب في ظل غير نظام واحد . ففي حمص Emesa كان الحكم بيد الملوك الكهنة وفي عنبر Chalcis الى الجنوب في سورية المجوقة كان يحكم ايضاً حاكم وطني . واستمرت هاتان الامرتان من الامراء في الحكم حتى اواخر القرن الاول الميلادي . وعلى حدود الصحراء حيث كان طراز المعيشة البدوي او شبه البدوي لا يزال سائداً كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية واتباع النظام القبلي في الادارة . وفي اليهودية حيث لم يعد الكاهن الاعظم ملكاً اصبح رئيس طائفة وكانت الارستقراطية اليهودية هي التي تعينه . وظهرت رومة طيلة حكمها شيئاً كثيراً من التسامح تجاه مثل هذا التنوع .

كان وراء هذا التنوع في التنظيم والسيطرة شيء من التشابه العرقي والحضاري يفوق كل ما كان في السابق . فجميع السوريين قد اصبحوا الآن ساميين تماماً يتكلمون لغة واحدة هي الآرامية ويكتبون بثقافتهم بلغة واحدة هي اليونانية . فالقينيقيون الذين تأثروا بالهلينية اكثر من جيرانهم وانسابهم الاراميين في الداخل فقدوا سيطرتهم في القرن الاول الميلادي على لغتهم الاحلية التي بقيت سائدة حتى زمن متأخر في مستعمراتهم في افريقيا . اما اليهود الذين لم تقتصر اقامتهم في هذه الفترة على اليهودية بل كانت لهم جاليات في جميع المدن السورية الكبرى فقد احتفظوا بالعبرية كلغة مقدسة . ومن بين العرب كان الايتوريون الاقرباء في شمالي فلسطين والايديوميون الذين تهودوا اسماً واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين يتجهون نحو تبني الآرامية . اما العرب الذين ظلوا بداءة فانهم تمسكوا دون شك بلغتهم العربية . واستمر الانباط في الجنوب الذين كانت لهم من بين جميع العرب اوثق الصلات مع الرومان في استعمال العربية في كلامهم ولكنهم استخدموا الآرامية في كتاباتهم الاثرية . وعلى وجه العموم فان هذه الصورة كانت تظهر تبايناً كبيراً بالنسبة للفوضى العرقية والحضارية اثناء عصر المهارنة مثلاً .

وانتشر العنصر المكثوني اليوناني في جميع المدن السورية وكان اكثر ما يكون في المستعمرات السلوقية مثل انطاكية ولسوقية وأفامية ولاودية وفي

مراكز التجارة كاللندن الفينيقية والفلسطينية الساحلية ودمشق وتدمر في الداخل . وكان هؤلاء المقيمون ينحدرون من المحاربين القدماء والتجار والصناع والمغامرين من المكدونيين واليونان الذين اتوا ليعيشوا في الشرق لاسباب سياسية او غيرها . ولم يؤسس الرومان سوى مستعمرات قليلة . فكانت لهم جالية من المحاربين القدماء في بيروت في عهد اوغسطس واخرى في بعلبك واصبحت كلتاهما مركزين نشيطين للحضارة الرومانية^١ . وكان عدد الذين يتكلمون اليونانية بين هذه الجاليات اكبر من عدد الذين يتكلمون اللاتينية ، وكان كثيرون من هؤلاء يعرفون اليونانية من قبل ويمكنهم الاتصال بالسكان الوطنيين وبالجاليات الاخرى بواسطة هذه اللغة . وفوق ذلك فان الرومان كانوا بعكس اليونان مترفعين ولم يهتموا بحضارة السكان الذين يحكمونهم . وكان هدف الرومان الرئيسي في سورية ان يجعلوها قاعدة ضد العدو وان يستثمروا مواردها . ولم يظهر السوريون سوى اهتمام قليل في الحملات الرومانية العسكرية الا حين كانت سلامتهم تهدد .

فضل الرومان

لم يكن عمل الادارة الرومانية في ولاية كسورية ذات حضارة راقية كالحضارة الرومانية ، وان اختلفت عنها في صفاتها ، ناجحاً او مزدهراً النجاح والازدهار اللذين بلغهما في الولايات الاخرى شبه المتحضرة مثل اسبانيا او بلاد الغال . فالجاليات اليونانية والمدن الفينيقية واليهودية في سورية لما لها من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية ولما فيها من مدارس في الفن والفلسفة والادب - لم تجد ما تستعيره من رومة الا القليل . وقد بقي الادب اللاتيني بالنسبة لها كتاباً مغلقاً^٢ . ولكن الامر يختلف بالنسبة للعرب والعرب الآراميين اذ اقيمت بينهم في شرقي لبنان الشرقي وفي القسم المأهول من شرقي الاردن مستعمرات رومانية بدأت كل واحدة منها بنواة من المقيمين الايطاليين ثم تجتمع حولهم آخرون واصبحوا جماعات خاصة . وامكن القيام بذلك بعد ان ضم تراجان سنة ١٠٦ م . شرقي الاردن وهوران التي كانت قبلاً تحت حكم الانباط ثم جعلها اوغسطس تحت حكم هيروودس .

(١) انظر ما سنذكره في الفصل ٢٣ .

(٢) انظر : Bouchier, p. 5 .

وفي سنة ١٠٥ اخضع تراجان البتراء فالحقت البتراء العربية Arabia Petraea بالامبراطورية الرومانية تحت اسم الولاية العربية Provincia Arabia. ولما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى فان الادارة الرومانية انشأت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء لحماية الاماكن التي كانت راقية الحضارة وكثيرة السكان بصورة خاصة. وكان جنود هذه الحصون على الغالب من قوات مساعدة اتت من القبائل الموالية. وكان الطريق العرضي بين الشرق والغرب الذي يصل مدن الدجلة والفرات بمدن البحر المتوسط ماراً بتدمر يجتاز هذه المنطقة. وكان يعبرها طريق طولاني كبير دعاه الرومان طريق ماريس Via Maris وورد في التوراة باسم طريق الملك King's Highway^١. ويبدأ هذا الطريق من دمشق فيسير في خوران الى جلعاد ومنها الى مؤاب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق قوافل الجزيرة العربية. وهذا الطريق الرئيسي في شرقي الاردن الذي يعود الى آواخر الالف الثاني ق. م. قد رصفه تراجان واستخدم كطريق عسكرية لفرق الجيش ثم استعمله الحجاج المسلمون بعد ذلك^٢. وقد شجعت التسهيلات الجديدة ميلاً نحو حياة الاستقرار لدى الجماعات البدوية او نصف المتحضرة. وكانت التحضر نقطة اساسية في السياسة الرومانية. ويمكن القول بمايجاز ان الخدمة الرئيسية التي احدثها الادارة الرومانية للولاية السورية هي انفاذها من الاضطرابات الاهلية وحميتها ضد الاعداء الخارجيين. كذلك فتحت امامها بهذه المناسبة سوقاً عالمية.

سورية في ذروتها

ان استعادة سورية لقوتها في القرن الاول من الحكم الامبراطوري (حوالي ٣٠ ق. م - ٧٠ م) بعد الانحطاط الذي هوت اليه نتيجة للحروب الخارجية والاهلية كان سريعاً ومؤكداً. ووجدت الولاية نفسها جزءاً اساسياً من امبراطورية

(١) انظر سفر التكوين ١٤-٥٠؛ عدد ٢٠:١٧؛ ٢١:٢٢. راجع للاستزادة عن الطرق الرومانية: Peter Thomsen, «Die romischen Meilensteine der Provinzen Syria, Arabia und Palestina», *Zeitschrift des deutschen Palastina-Vereins*, vol. xl, (1917), pp. 1 seq.; Christina P. Grant, *The Syrian Desert* (London, 1937), pp. 62-65.

(٢) اصبح الطريق منذ ان اصلحته حكومة الاردن في السنوات الحديثة يدعى طريق الملك عبد الله.

كانت تمتد من الاطلسي وبحر الشمال الى الفرات ومن الرين والدانوب الى الصحراء الكبرى وساد النظام والسلم الروماني في ظل الجيوش الامبراطورية. وتوطد الامن من خطر اللصوصية والقرصنة كما صلت الهجرات الفرتية والعربية. وشددت الحراسة على الممرات الاستراتيجية مثل ممر كيليكية. وربطت شبكة من الطرق التي تعتبر من المظاهر البارزة للمهارة الادارية والمهندسية بين اجزاء الامبراطورية كلها في وحدة متراصة نسبياً. ولا تزال توجد حتى اليوم احجار المسافات التي كانت تقوم على الطرق السورية. وكان الرومان يهتمون بالمحافظة على هذه الطرق وعلى تصريف المياه من حولها. واسس اوغسطس مصلحة للبريد جعلت صلة الادارة المركزية بمثلها في الولايات اكثر ارتباطاً. ونشطت التجارة وعاد الازدهار. وارتاحت الدولة الرومانية كلها بعد سنة ٧٠ م. لفترة طويلة من الاضطرابات الاهلية الخطرة. ومن حسن حظها انها تمتعت بين ٩٦ م. - ١٨٠ بسلسلة من الابطرة الاكفاء الذين بدأوا بنوفا Nerva وانتهوا بماركوس اوريلوس ويوصف عصرهم بأنه «عصر الابطرة الصالحين». ولم تحكم دولة كبرى كما حكمت الدولة الرومانية في القرن

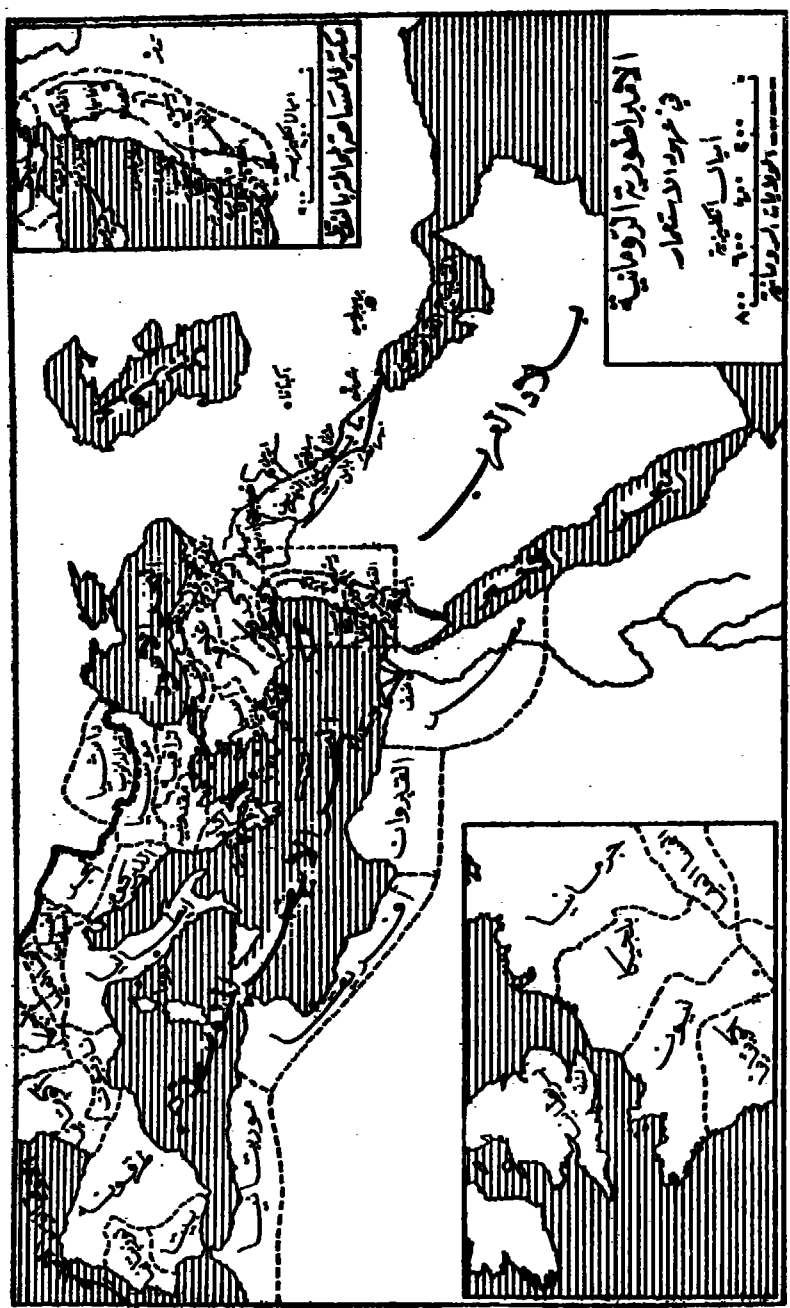
(١) جدول الابطرة الخمسة الصالحين :

١٢ - نرفا (٩٦ - ٩٨)
⋮
١٣ - تراجان (٩٨ - ١١٧)
⋮
١٤ - هادريان (١١٧ - ١٣٨)
⋮
١٥ - انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١)
⋮
١٦ - ماركوس اوريلوس (١٦١ - ١٨٠)

ملاحظة : تشير النقاط الى علاقة تبني.

جدول لأسرة الانطونيين :

١٥ - انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١)	
⋮	⋮
١٧ - لوشيوس فيوس (١٦١ - ١٨٠)	١٦ - ماركوس اوريلوس (١٦١ - ١٨٠)
⋮	⋮
١٨ - كومودس (١٨٠ - ١٩٢)	



الثاني الميلادي^١. ووصلت الامبراطورية الى ذروتها في عهد هادريان (١١٧-١٣٨) وكان والياً سابقاً في سورية. وكانت سورية الرومانية قد حصلت في عهد سلفه تراجان (٩٨-١١٧) على اوسع امتداد لها واكبر ازدهار^٢.

وفي ذلك القرن توحد العالم المتمدن كله تقريباً (والمتمدن من الاطلسي الى اواسط آسيا تحت حكم واحد. ولم تقم قبلاً مثل هذه الامبراطورية. وفي تلك المملكة الواسعة ارتفعت شعلة الحضارة عالياً وازدهرت باشعاع اكثر مما عرف في اي عصر مضى في التاريخ. وفي قلب تلك المملكة تماماً كان يقوم البحر المتوسط كمركز للاشعاع والاحياء. وسورية تقع على شاطئه الشرقي. وبلغ من التسهيلات وانتشار الامن انه كان باستطاعة الانسان ان يسافر بامان من يورك في انكلترا الى ضفاف الفرات في اي وقت تقريباً. وكان بإمكان المسافر ان يستعين بلغة واحدة وهي شكل معين من اللغة اليونانية للانتقال من شرقي اسبانيا الى وادي السند.

وزاد في وضع سورية كأول ولاية في الامبراطورية نجاح الفرق الرومانية المرابطة فيها في رفع قائدها فسباسيان Vespasian الى العرش الامبراطوري في عام ٦٩ م. والفوز على منافسه الذي اختارته الفرق المرابطة في المانيا. وبعد اكثر من قرن من ذلك (١٧٥) حين تلقت الفرق في سورية اساعة كاذبة بان ماركوس اوريليوس قد توفي سارعت الى اعلان قائدها افنديوس كاشيوس^٣ امبراطوراً وهو من مواطني كورس^٤ في شمالي سورية وحاكم المقاطعات الشرقية.

قوة الانتاج الاقتصادي

ان الشعور بالامن وتوسع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة كل هذه عملت على تشجيع الانتاج الاقتصادي الى حد لم يعرف قبلاً. وانعكس الازدهار في ارتفاع مستوى المعيشة وظهور المدن الجديدة. ولا بد ان سكنت

(١) انظر : Cary and Haerhoff, p. 82.

(٢) انظر : Bouchier, p. 40.

(٣) انظر : Harrer, pp. 35-36.

(٤) تقع على منحدرات جبل طوروس شمالي شرقي انطاكية؛ راجع ما سيأتي في الفصل ٣٩.

سورية الكبرى المتزايدين قد بلغوا في القرن الثاني سبعة ملايين^١ وهو رقم لم يتوصل اليه في اي عهد. ولا يجتمل ان يكون عدد السكان السوريين قد تجاوز هذا الرقم في اي زمن. وفي سورية المجوفة كان سبب الحطب العظيم يعود جزئياً لعامل آخر وهو تنظيم المياه التي يأتي بها العاصي تنظيمياً فعالاً. وشملت الاختراعات الآلية في العصر الروماني المحراث المتطور وما يعرف باللوب الارخيدي وطاحونة الماء. كما طرأ تحسن ايضاً على التواعير ولا بد ان ذلك الوادي كله، وقسم منه الآن شبه صحراوي، كان مركز زراعة ناشطة^٢. وتوجد بقايا معاصر الزيت شرقي حمص حيث لا توجد اية اشجار اليوم. وأفاميا التي بلغ عدد سكانها الاحرار بموجب احصاء كيرينيوس في عهد اوغسطس ١٠٧،٠٠٠ نسمة^٣ هي اليوم ارض مقفرة. وشرقي الاردن نفسها التي اغلبها صحراء اليوم كانت بالنسبة ليو سيفوس^٤ ارضاً تكثر فيها المحاصيل والسهول التي تنتج مختلف انواع الثمار كالبطخ والعنب والزيتون. وان خصب التتمة الشمالية لشرقي الاردن وهي حوران (Auranitis Trachonitis) كان يضرب به المثل. وقد تحولت هذه المنطقة في ظل الرومان من بلاد رعاة ونصف متحضرين الى بلاد مدن وقرى. وكانت المنطقة كلها تعتمد على استعمال الصهاريج التي تجمع فيها مياه الامطار غير المنتظمة والغزيرة احياناً. ولما كانت حوران تقع على طرف الصحراء هي وعاصمتها بصرى^٥ Bostra فانها كانت اول منطقة سكنها وزرعها رجال القبائل من الصحراء. وقد وسعت المدينة في عهد تراجان وحصنت واطلق عليها اسم نوبا تراجانا بصرى Nova Trajana Bostra وكانت ملتقى هاماً لطرق القوافل الزاهية الى دمشق والبحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج الفارسي. واصبحت بعد ديوكلتيان Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥)

(١) تارن مع Heichelheim, pp. 158-159; Henry Lammens, *La Syrie, précis historique*, (Beirut, 1921), vol. i, p. 11; Beloch, pp. 245 seq.

(٢) انظر: Theodor Mommsen, *The Provinces of the Roman Empire*, tr. William P. Dickson (London, 1909), vol. ii, p. 136.

(٣) انظر: *Ephemeris epigraphica*, vol. iv (Berlin, 1881), p. 538.

(٤) War, Bk. III, ch. 3, § 3.

(٥) ترد في سفر المكابيين الاول: ٥: ٢٦، ٢٨ باسم Bosora ويعرفها الاتراك باسم اسكي شام (الشام القديمة) وهي بصرى اليوم.

عاصمة ولاية بلاد العرب . ودرجة الازدهار التي بلغتها هذه المنطقة في عهد الرومان لم تبلغها حتى في عهد الامويين الذين كانت عاصمتهم دمشق^١ .

الزراعة

تعطينا بعض العبارات المتفرقة في كتابات سترابو (توفي حوالي ٢٤ م.) وبليني (توفي عام ٧٩) واثيناوس (زها في ٢٢٨) وغيرهم من الكتاب اللاتين فكرة عن الازدهار العام في زراعة سورية. وتظهر قمم جبال لبنان الشاهقة المتوجة بالغابات بنفس المظهر السابق. وكثير من الكتاب يميلون هذا الجبل من المناطق المشهورة بالاشخاب. ويمكن الافتراض بان نظام حماية الاشجار البرية والقطع المنتظم كان يطبق على شجر الارز على الاقل. ويعد بليني^٢ بين اشجار سورية شجرة النخيل والفسق والتين والارز والعرعر والبطم والساق. وادخل في القرن الاول الميلادي عدد من الاشجار السورية الى ايطاليا. ويعتبر فيتليوس Vitellius الحاكم في عهد طيبريوس صاحب الفضل في ادخال انواع متعددة من شجر التين والفسق الى مقره الريفي في ألبالونغا^٣ Alba Longa. واثناء زيارة نيقولاوس الدمشقي لرومة بصحبة هيروودس الكبير قدم لاوغسطس هدية من احسن ثمار النخيل وهو ما عرف بالبلع النيقولاوي بالنسبة له وكان حلواً كالعسل وكان حجمه كبيراً حتى انه «اذا وضعنا اربعة منه جنباً الى جنب يبلغ طولها ذراعاً». وكانت تستخدم في زراعة الكرمة وغيرها من النباتات المثمرة الآلات المائبة والمعاصر وطرق التسيد الراقية^٤. وادخل شجر الخوخ الدمشقي الى ايطاليا قبل عهد بليني بزمان طويل. اما شجرة العناب فادخلت قبل عهده بقليل^٥. ويشير بليني^٦ الى الاشجار التي تحمل ثمار

(١) قارن مع يهوت: مجسم البلدان ج ٢، ص ٣٥٨.

(٢) انظر: Pliny, Bk. XIII, chs. 10-13.

(٣) انظر: Pliny, Bk. XV, chs. 21, 24; Athenaeus, Bk. XI, §500.

(٤) انظر: Pliny, Bk. XIII, ch. 9; Athenaeus, Bk. XIV, ch. 22.

(٥) قارن مع انجيل من ٢١ : ٢٣.

(٦) انظر: Pliny, Bk. XIII, ch. 10; Bk. XV, chs. 12-14.

(٧) انظر: Pliny, Bk. XV, ch. 8; XXIII, ch. 50.

الزيت وتنمو غزواً عفويّاً في الاقسام الساحلية من سورية وثمرها حلو الطعم ويستخدم في الاغراض الطبية وهي كما يبدو شجرة الترنبتين .

شكّلت الحبوب غذاء السكان الرئيسي . وزيادة على الحبوب التي تعتبر من لوازم المعيشة كان الارز الذي يتطلب رياً اصطناعياً يزرع بشكل متقطع على طول الساحل^١ . وكانت الخضراوات ذات الاوراق من اكثر الاطعمة شيوعاً بالإضافة الى الحبوب . ولم يكن هناك طلب نظامي للحوم الا بين الاغنياء . ونذكر من بين الخضار التي كانت تزرع بصورة واسعة العدس واللوبيا والفاصوليا والحمص والحمص الجبلي والتمرس . وكان التمرس يستعمل بكثرة للمواشي . وكان الفقراء يستسيغون بصورة خاصة النباتات البصلية كالبصل والكراث والثوم . ومن التوابل التي ازدهرت في سورية الكزبرة والحردل واليانسون والكمون والزنجبيل والتنع^٢ . وتذكر المصادر فطر اورشليم وثوم هليوبولس وبصل عسقلان^٣ . وكانت عسقلان تنتج الحناء ايضاً التي كانت لها قيمة كبيرة . وكان ملفوف سورية مرغوباً . وحين يعدد بليني^٤ انواع الفجل وهو نبات خاص بسورية يعتبر الفجل السوري الذي كان قد ادخل حديثاً الى ايطاليا احسنها . وفي رأي هذا المرجع الروماني حول التاريخ الطبيعي كانت زنابق انطاكية ولاوديسة اكثرها قيمة^٥ . وقد زرع نبات الباييروس واستخدم كإداة للكتابة . واستمرت زراعة الكتان والقنب والقطن في آسية الغربية كلها . ولا يزال عرق السوس ينمو كنبات بري قرب المستنقعات وعلى ضفاف الانهار حول انطاكية .

البنسنة

كانت البنسنة السورية مظهرأ جميلاً في الحضارة الرومانية القديمة . وتعود الى

(١) انظر : Strabo, Bk. XV, ch. 1, § 18.

(٢) انظر سفر الخروج ٣١:١٦ ؛ سفر العدد ٧:١١ ؛ انجيل متى ١٣: ٣١ ؛ انجيل مرقس ٤: ٣١ ؛ انجيل متى ٢٣: ٢٣ وسفر اشعيا ٢٨: ٢٥ ، ٢٧ .

(٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29 ; Pliny Bk. XIX, ch. 32.

(٤) انظر : Pliny, Bk. XIX, ch. 26.

(٥) انظر : Pliny, Bk. XXI, ch. 11.

اصول سامية قديمة تطورت عن زراعة الاثمار والازهار والاعشاب الواسعة التي كانت تعتمد فقط على الري الصيفي . ولم يكن الفردوس السامي سوى حديقة غرسها السيد الاله شرقاً في عدن^١ . وكان هذا الفردوس يتبع نموذج البساتين الارضية في البلاد المروية بصورة اصطناعية بين فلسطين وفارس . وقد شجّع فن البستنة السامي في زمن الحكم الفارسي وازداد اتقاناً في عهد الرومان . وكان يطبق ليس على مقياس خاص فحسب بل على مقياس عام ايضاً كما نرى في الغابات المقدسة والاراضي التابعة للمعابد . وكانت دفنة التي كرس معبداً وغابتها للاله ابولون احدى المناطق المشهورة بمجالها في العالم الروماني . فاجتذبت الحجاج والزوار من بلاد الامبراطورية^٢ . واصبحت الحدائق التي يعتزل الانسان فيها للراحة والتي رافقت حضارة المتوسط وظهرت في انطاكية ودمشق واورشليم نموذجاً اولياً لحدائق المتعة التي اوجدت في رومة ومن بعدها في غرناطة^٣ . ولا يزال الماء يستعمل حتى اليوم كعنصر فني في النوافير التي تنشر المياه بما يشبه السبرقع في باحات الدور في دمشق .

الصناعة

يبدو ان صناعة الاصبغة في مناطق صناعة النسيج في صيدا وصور قد استمرت في عهد الرومان . وكان الارجوان الفينيقي عظيم القدر في كل مكان . وبلغ في عهد سترابو^٤ من كثرة عدد معامل الاصبغة في صور ان اصبحت المدينة « غير مرغوبة كمكان للسكنى » . ويذكر بليني^٥ ان اوراق السماق كانت تستعمل في دباغة الجلود ولا تزال تستعمل حتى اليوم . وكانت سورية ومصر المصادر الرئيسية للبضائع الكتانية لكل الامبراطورية كما كانت من احسن مصادر الجلد . وكانت الصناعة

١ سفر التكوين ٨:٢ وراجع بشأن اشتقاق كلمة «الفردوس» ما سبق في ص ٢٤٩ .

٢ انظر ما سيأت في الفصل ٢٣ .

٣ انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 528-529.

٤ انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 23.

٥ انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 13.

٦ يشير كتاب العهد الجديد الى دباغ في يافا - اعماله الرسل ١٩:٤٣؛ ١٠:٦ .

بمعناها الحرفي «صناعة يدوية». ولما كانت تنقصها التجارب والآلات فقد بقيت جامدة. واستخدمت عدة نباتات سورية لانتاج الادوية والروائح العطرية للسوق المحلية والخارجية. وراجت الحُجور السورية عن جدارة في العالم القديم كله^١. وكانت انطاكية وجبيل^٢ وطرابلس وبيروت وصور ولبنان وحوران وعسقلان وغزة تنتج الحُجور. ويقال ان خمر أفامية كان يصلح للمزج مع العسل^٣. ووردت اشارة الى خمر الجليل في العهد الجديد^٤.

يأتي الاسفلت او الزفت في المرتبة الاولى بين الموارد المعدنية وكانا يوجدان بكميات كبيرة في منطقة البحر الميت (Lake Asphaltites) بمقدار اقل في جوار صيدا^٥. وكانت كبريتات الزئبق والزرنيخ السورية تستخدم في الدهان ولكبريتات الزرنيخ لون ذهبي^٦. ومن جملة نواحي استخدام النساء للكوربا صنع اطارات المنازل^٧. وكان الالباستر في دمشق اكثر بياضاً من سائر الانواع^٨. ويبدو ان الجص كان يحضر في سورية بنفس الطريقة التي يحضر بها اليوم الجبس الجاف^٩. ووجدت مقالع للاحجار بالقرب من انطاكية^{١٠} التي كان فيها ايضاً مقالع حجرية كما في هليوبولس. وكان يستخرج النحاس في جبل لبنان وجنوبي فلسطين بجوار اريحا وفي بيروت ومنابع نهر الاردن. وكانت اكثر مناجم الشرق الادنى تسيطر عليها الحكومة ويستخدم فيها العبيد. وكانت تصنع التماثيل ايضاً. وعندما امر

(١) انظر: Strabo, Bk. XV, ch. 3, § 22.

(٢) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 29, § a.

(٣) انظر: Pliny, Bk. XIV, ch. 9.

(٤) انجيل يوحنا ٣:٢؛ قارن مع: Josephus, War, Bk. III, ch. 10, § 8.

(٥) انظر: Pliny, Bk. XXV, ch. 51; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 42. البحر الميت خطأ «بحيرة سيربونيس Sirbonis».

(٦) انظر: Pliny, Bk. XXX, ch. 22.

(٧) انظر: Pliny, Bk. XXXVII, ch. 2.

(٨) انظر: Pliny, Bk. XXXVI, ch. 12.

(٩) انظر: Pliny, Bk. XXXVI, ch. 59.

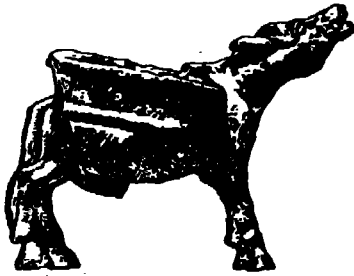
(١٠) انظر: Libanius, Orattones, No. 11, § 25.

الامبراطور كاليغولا (٣٧-٤١) بوضع تمثال ضخم له ليقام في معبد اورشليم طلب نائبه في سورية الى صانع من صيدا القيام بذلك^١. وشكل اصحاب مختلف المهن كالتجار واصحاب السفن والباعة والصناع جمعيات للحماية المشتركة وتبادل المنفعة. وكان في تدمر نقابة لصائغي الذهب والفضة كما كان يوجد في جرش نقابة لصائغي الفخار. ولا بد ان معامل الاسلحة الامبراطورية التي انشأها الامبراطور ديوكليتيان (توفي عام ٣١٣) في انطاكية ودمشق واديساهي امتداد لشركات اقدم^٢.

التجارة

كانت التجارة وخاصة بظهورها الخارجي والداخلي المورد الرئيسي للثروة. واغنى مدن الشرق الادنى الروماني كانت المدن التجارية كالبتراء وتدمر وجرش ومدن الساحل الفينيقي. وكان الصناعيون والملاكون يأتون في المرتبة الثانية في الغنى بعد التجار.

كان التجار على وجه العموم من اهل البلاد. ويظهر التاجر الروماني (Negotiator, mercator) وهو ظاهرة جديدة في تاريخ الشرق على اثر ضم بومبي



تمثال بروتزي صغير لحمار وخرجه
ويبدو الحمار برأسه المرفوع ووجاهه
التصلبتين وهو يتهدق

لسورية. وهذا التاجر كان ايطاليا او ايطالياً يونانياً ويستقر اول الامر في انطاكية. وفي عصر اوغسطس يصل البتراء. ومع ذلك فإنه يتراجع خلال القرن الاول الميلادي امام منافسه السوري المعروف بمهارته وخبرته وامام اغراء الاسواق الجديدة في الغرب حتى يختفي فعلاً من السوق^٣. وبقيت التجارة فردية كالصناعية. وكانت الشركات

(١) انظر : Philo (Judaicus), Opera, ed. Leopold Cohn and Paul Wendland (Berlin, 1915), vol. vi, ch. 31, §§ 220-222.

(٢) انظر : Malalas, p. 307, ll. 20 seq.

(٣) انظر : M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Roman Empire (Oxford, 1926), pp. 158-159.

او عمليات المشاركة نادرة. واستمرت تجارة العبيد في الازدهار. وكان المدينون المفلسون يسمون لانفسهم لدائنيهم. وكان تجار العبيد المحترفون يقبضون على اليافين الطائشين ويحتطفون الاطفال ويشترون الاطفال غير المرغوب فيهم.

بلغت المبادلات التجارية السورية ذروتها في ايام الحكم الروماني الذهبية حين كانت مدن القوافل كالبتراء وجرش وبصرى وتدمر ودورا اوروبس مراكز تجارية مزدهرة. ثم نشطت الطرق البحرية حين اعاد تراجان تجديد القناة التي تصل النيل بالطرف الشمالي الغربي الاقصى للبحر الاحمر والتي كان القراعنة القدماء اول من بدأ بجفرها. وصدرت المدن الفينيقية البلح « واحسن طحين من القمح »^١. وكان اللبان المصدر من سورية^٢ يعود اصله بالحقيقة الى جنوبي الجزيرة العربية^٣. وصدرت محاصيل نباتات غربي آسيا المستخدمة في الطب والعطور الى العالم الروماني كله. وتمتعت العطور والعقاقير المنتجة في تلك المنطقة بشهرة عالمية. وغالباً ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة المبة والسلفيوم silphium والمجيداريس magidarيس والناردين الآتية من سورية. وكانت الخمر والزيت المختلفة والثار المجففة والدهون تصدر بالكميات. وقد وجدت في مصر وقبرص وايطاليا وجنوبي روسيا آتية تحمل توقيع شخص باسم انيون Ennion من صيدا وهو من اشهر صناع الزجاج السوريين في القرن الاول الميلادي^٤. ولا بد انه كان لمعاملة مكتب في رومة. وكان لصانع زجاج آخر من صيدا مكتب فرعي في بلد بعيدة مثل كولونيا. وكذلك عاش احسن عمال البرونز في منتصف القرن الاول الميلادي في صيدا. وقد وجدت في امكنة متعددة خارج سورية بقايا منتجات

(١) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 28, § a.

(٢) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 27, § f.

(٣) انظر: Hitti, *History of the Arabs*, pp. 47-48.

(٤) انظر: Heichelheim, p. 189; Rostovtzeff, p. 540, n. 43.

الحائكين السوريين كالاقمشة الكتانية والصوفية الرخيصة والحرائر ذات اللون الارجواني .

اشتملت واردات سورية على الخزف من اليونان وايطاليا والسمك المجفف من مصر واسبانيا وورق البردي من مصر والمر والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والتوابل والجواهر من الهند والحرير من الصين . وكانت عكا مركزاً هاماً لتجارة السمك . وكانت الحيوانات البحرية تشكل جزءاً كبيراً من الغذاء الشعبي لسكان السواحل . واستعمل ورق البردي في صناعة جبال السفن كما استعمل لاجل الكتابة .

الفصل الثالث والعشرون

حياة المدينة والريف

القرى

لم يختلف المظهر العام لحياة الريف في سورية الرومانية بصورة جذرية عن النموذج القديم . وكانت البلاد مرصعة بالآف القرى التي يسكنها على الغالب الفلاحون الذين يعيشون على انتاج الكروم او المزارع . ولا توجد آثار لعبودية الارض في هذه القرى وليس هناك وثائق تفيد عن وجود عبيد تابعين للدولة للقيام بالاعمال الوضيعة . ويرجح ان اعمال الشرطة في القرى كانت تقع على عاتق المدينة التي توجد القرية في منطقتها . وليس هناك ما يدل بوضوح عن قيام القرية بانفاق المال لاجل التربية والصحة العامة او اعمال الخير . ولا بد ان بعض الاراضي المحيطة بالقرية كانت مشاعاً وتؤلف مصدر ايراد للقرية . وكان الافراد احياناً يملكون القرى .

كان نموذج الرجل العادي هو الفلاح او زميله القروي الذي يعمل كنجار او حداد او صانع احذية او بائع . وكان تأثر هذه القرى بالحضارة الرومانية ضئيلاً كتأثرها بالحضارة الملمينية . وقد تمسك القرويون وخاصة اولئك الذين يعيشون بعيداً عن مراكز المدن بطرق حياتهم التقليدية بصورة شديدة . واثت الكتابة ومحتويات النقوش الاثرية التي تعود الى القرون الميلادية الثلاثة الاولى وقد وجدت في الصفا وهي منطقة بركانية تبعد حوالي مائة ميل جنوبي شرقي دمشق لتظهر دوام الشعائر والعادات القديمة^٢ .

(١) انظر : George M. Harper, Jr., *Village Administration in the Roman Province of Syria* (Princeton, 1928), p. 57.

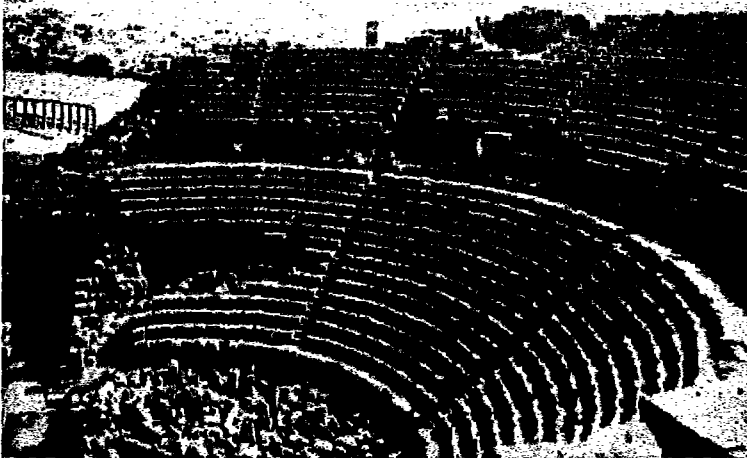
(٢) انظر : René Dussaud and Frédéric Macler, *Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne* (Paris, 1903), pp. 54 seq.

الاغنياء

وتأتي الطبقة الارستقراطية الوطنية فوق طبقة الفلاحين وتتألف من كبار الملاكين واصحاب قطعان الاغنام والماعز الساكنين في المدن المجاورة . وكانت افراد هذه الطبقة زعماء ايضاً في القضايا الدينية . وكانت مدن القوافل والمدن الساحلية والمستعمرات اليونانية الرومانية تُزوي التجار الاغنياء والصناعيين وموظفي الحكومة . واوجد الرق في المدن طبقة الذين يعتبرون انفسهم ارفع من ان يعملوا . واستخدم بعض السادة اوقات فراغهم بصورة حسنة في خدمة المدينة او الدولة وآخرون في خدمة الادب والفن . ولكن اكثرهم شكلوا طبقة مترفة تنهك في الرياضة والاهو والنشاط الاجتماعي . ومع ذلك فان عوامل الاقليم والمفاهيم التقليدية للحياة عملت على الاعتدال في العادات . وان شعور الولاء نحو العائلة - وهو اثنى عنصر في تراث العصر القبلي - لم يفقد سيطرته على السكان ولا يزال حتى اليوم قوة حية .

الاحوال الاجتماعية

كانت نساء الريف يخرجن سافرات كما هي الحال اليوم . اما نساء المدن فكان



المسرح الجنوبي الكبير في جورش
بني في عهد دوميتيان في نهاية القرن الاول

يلبسن براقع تقتصر على الرأس فقط او تحيط بالرأس وتتدلى على الاكتاف بما يشبه طريقة الحجاب الحديثة. ويظهر الوشم احياناً على ثائيل النساء وغالباً ما يكون على الصدر وهي عادة لا تزال موجودة.

وبما ان القانون الروماني لم يعترف بغير زوجة واحدة فلا بد ان نظام تعدد الزوجات لم يكن سائداً في الاقسام المأهولة في سورية الرومانية. ويبدو ان الحثان وهي عادة سامية قديمة قد اهل نتيجة للاحتكاك مع المنود الاوربيين^١ وترك نهائياً بتأثير المسيحية.

كانت انواع الالهو في المدن المتأثرة بالحضارة الهلينية او الرومانية وفي المدن الساحلية هي من النوع اليوناني الروماني العادي كالمصارعة وسباق العربات والمباريات الموسيقية والتمثيلات المسرحية. وكان ركوب الهجن شائعاً في المناطق المجاورة للصحراء. وكان الصيد محبباً لدى الاغنياء. وترينا البقايا الاثرية مناظر صيد الدببة والبقر الوحشي والغزلان والخنازير البرية من قبل رماة السهام او حاملي الرماح الراكبين. واستعملت كلاب الصيد احياناً. اما الحمامات العامة وهي مزيج من الجمنازيوم والحمام الساخن وكانت قد ظهرت في سورية السلوقية فقد ظلت موجودة في الفترة الرومانية.

منذ اوائل عصر الامبراطورية بدأ السوري يقترن في تفكير الرومان بالموسيقى والرقص والالعاب السرك وغيرها من انواع التسلية. ويظهر في الادب اللاتيني ذكر راكبي خيل السباق من لاوديسة وممثلين من بيروت ولاعب السرك من صور وراقصي الباليه من قيصرية والعاظفين على الناي من مدينة هليوبولس والموسيقين من غزة والمصارعين من عسقلان. وانشأ الممثلون السوريون المحترفون فرقاً منظمة تذهب من مكان الى مكان ويمكن استئجارها في الولاثم ومناسبات الاعياد. ولا بد ان رومة قد رعت عدة فرق كهذه وكان بعضها من انطاكية. ويصرح الشاعر الهجاء الروماني جوفنال^٢ (حوالي ٦٠ - ١٤٠ م.) بلهجة غاضبة: «لقد اخذ نهر العاصي السوري منذ مدة طويلة يصب مياهه في نهر التبر حاملاً معه رطانتة

(١) انظر: Herodotus, Bk. II, ch. 104.

(٢) انظر: Satura, No. 3, ll. 62-65

وعاداته وقيثاراته واوتار اعواده». وتحدث الرومان عن لاعبات الناي السوريات ambubaia^١ كما يتحدث الناس اليوم عن المرأة الباريسية المتأتقة. وجاء في خبر لاثيناوس^٢ ان فينيقية «ترن بالاغاني البديئة من اقصاها الى اقصاها». وتفرغ الامبراطور الخليع فيروس Verus بعد حملته الى البلاد الفريسية في سنة ١٦٦ م للهو والمتعة في اللاذقية ودفنة ثم عاد الى عاصمته بقافلة من الموسيقيين والممثلين والمهرجين السوريين وغيرهم من المسلمين الذين اثروا في ذوق العصر بصورة محسوسة^٣.

انطاكية ودفنة

وكان لانطاكية وضاحتها دفنة قصب السبق في حياة الترف والحلاعة. وليس هناك مكان آخر في سورية الرومانية حيث يبدو التمتع بالحياة كهدف رئيسي للسكان وواجباتها كأمر ثانوي كما في هذه البقعة من شمال سورية. وسمح بومبي لانطاكية بان تحتفظ بامتياز الحكم الذاتي الذي حازته في عهد السلوقيين. وقد جردها سبتيموس سفيروس بعد ظفوره في ايسوس (١٩٤) من رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) وجعلها «قرية» تابعة للاذقية بسبب تأييدها لمنافسه. وجعلها خلفه كرا كلا مستعمرة^٤. وانعم يوليوس قيصر عليها بعدة منشآت من بينها مسرح ومدرج. وسام هيرودس الكبير ببناء طريق ورواق معبد^٥. واطاف اليهسا كاليغولا وتراجان وهادريان عدداً من الحمامات. ورصف انطونينوس بيوس طريقها الرئيسي بالقرانيت الذي اتى به من مصر. واعاد كومودس (١٨٠-١٩٢) تنظيم العاها الاولية الدورية. وكانت في زمن يوسيفوس^٦ ثالث مدينة في

(١) مشتقة من الكلمة السريانية ambūbo وتعني الناي.

(٢) انظر: Athenaeus, Bk. XV, § 697c.

(٣) انظر: Mommsen, vol. ii, p. 132; Bouchier, p. 17.

(٤) انظر: Glanville Downey, « The Political status of Roman Antioch », *Be-rytus*, vol. vi (1939-1940), pp. 1 seq.

راجع بشأن امتيازات المدن والمستعمرات: A. H. M. Jones, *The Greek city* [(Oxford, 1940), pp. 132 seq.

(٥) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3; *War*, Bk. I, ch. 21, § 11.

(٦) انظر: War, Bk. III, ch. 2, § 4; George Haddad, *Aspects of Social Life in Antioch in the Roman-Hellenistic Period* (Chicago, 1949), pp. 70-73.

الامبراطورية (بعد رومة والاسكندرية). وكانت المصاييح تضيء شوارعها المبلطة وساحتها العامة بعد حلول الليل. وكانت هذه المدينة بخلاف المدن الاخرى «يوازي فيها توهج الانوار في الليل بصورة عامة تألق النهار»^١. ويشير ليبيانوس احد فصحاء انطاكية المتأخرين^٢ (٣١٤ - حوالي ٣٩٣) في خطبة يمدح فيها مدينته الى هذه الصفة فيقول: «تخل انوار اخرى مكان نور الشمس وهي مصاييح تفوق بكثير احتفال المصريين بالنور، وعندنا يتميز الليل عن النهار باختلاف وسائل التنوير فقط». ولا يوجد وصف كهذا بالنسبة لاية مدينة اخرى. ويفخر ليبيانوس^٣ بعد ان يصف منابع دفنة والقناة التي تتجه منها الى انطاكية فيقول:

لكل ساقية في الحمامات العامة غزارة تشبه النهر، والوضع متشابه بالنسبة لعدد من الحمامات الخاصة. ويقدر ما هناك بيوت للسكن هناك أيضاً مجار للمياه لا بل نجد في بعض البيوت عدداً من هذه المجاري. كما ان اغلب الصانع تتمتع بهذه الفوائد نفسها. ولهذا فاننا لا نعرف القتال عند الأبار العامة حول من يخرج الماء اولاً - وهو شر يقاسي منه عدد كبير من المدن حين يكون الازدحام شديداً حول الأبار وتعالى الاصوات بسبب الجرار المحطمة. اما لدينا فان المراكز العامة للمياه تجري مياهها لاجل الزينة طلالا ان كل انسان لديه مياهه داخل بيته. ويبلغ من صفاء هذا الماء ان الدلو يبدو فارغاً ويبلغ من بهجته انه يهتزنا للهل منه.

كان الطريق بين انطاكية ودفنة وطوله خمسة اميال تحيط به الحدائق العامة والتوافير والمنازل الخاصة والابنية الفخمة التي تتناسب مع موكب الافراح الذي كان يحدث بين بوابة المدينة ومركز المسرات المألوفة. وكانت دفنة ذاتها التي يبلغ محيطها عشرة اميال حديقة للمسرات، وهي على حد تعبير ليبيانوس «انقى هبة اعطتها ملكة العرائس». وكان المكان ذا شهرة عالمية بسبب مياهه السائلة المتدفقة وممراته الظليلة واشجاره الجميلة من الغار (الذي سميت باسمه) وسروه الطويل وجميع ذلك كان مكرساً لأبولون. وقد ابقى الاباطرة المسيحيون انفسهم فيما بعد على هذه الاشجار. وكان القانون الذي يمنع قطعها لا يزال ساري المفعول في القرن السادس^٤. وكانت توجد ساقية في الغابة المقدسة تضرب مياهها لاسباب

(١) انظر: Ammianus Marcellinus, *Rerum gestarum*, Bk. XIV, ch. 1, § 9.

(٢) انظر: *Orationes*, No. 11, § 267.

(٣) انظر: *Orationes*, No. 11, §§ 244-245.

(٤) انظر: Procopius, Bk. II, ch. 14, § 5.

مجهولة في فترات معينة. وكان الكهنة الملازمون لها يصابون ايضاً بغيوبة ويحيبون على الاسئلة المطروحة عليهم . وكان الاباطرة انفسهم يستشيرون نبوءة دفنة هذه . وكان يتمتع معبد ابولون وديانا الذي بناه سلوقس في الاصل بحق ابواء اللاجئين^١ . وكان فيه صفوف من الاعمدة على الجانبين وجدران تشع برخامها . وينتصب فيه تمثال ضخم لأبولون يكاد يمس السقف . وكان الاباطرة القدماء الذين يزورون دفنة يقيمون في الحيام . وقد بنى ديوكليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) قصرأ فيها واخاف تيدوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥) الى جماله . وبني هادريان الذي كان نائباً للامبراطور



القناة الرومانية التي تجلب المياه من دفنة الى انطاكية

على سورية وتلقى في انطاكية انباء اعتلائه العرش عدة ابنية في انطاكية ومسرحاً في دفنة . كما انه اصلح او وسع الاقنية التي تزود البلدين بالمياه . وقد ازدانت دفنة بعدة ابنية اخرى . ولم تتفوق عليها اية مدينة في الامبراطورية في بهاء ابنيتها العامة

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 6. وسفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٣ .

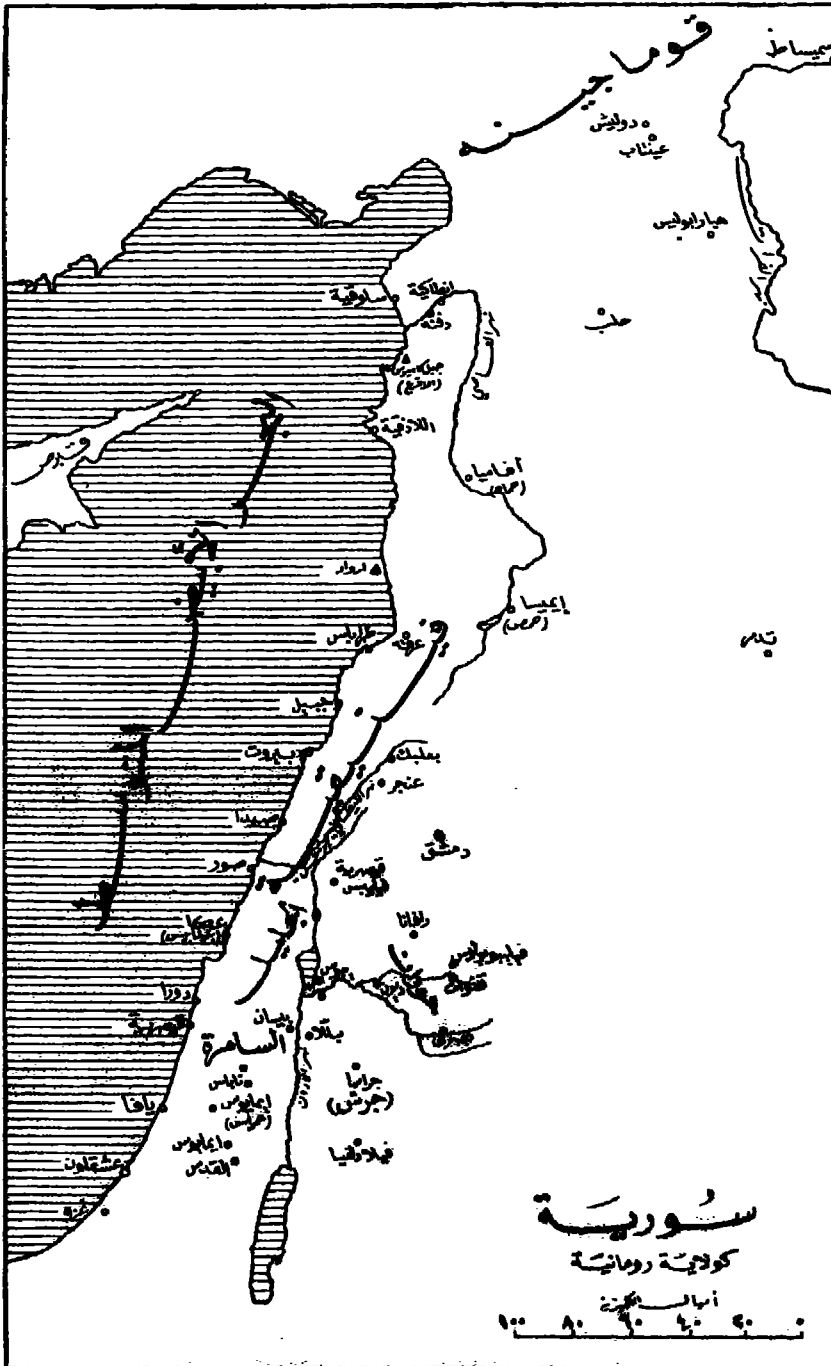
وفخامتها^١. وكان الشارع الرئيسي فيها الذي يبلغ طوله ميلين والذي توجد على جانبيه صفوف من الاعمدة المغطاة ويتوسطه طريق عريض للعربات يجتاز وسط المدينة بمحاذاة نهر العاصي^٢.

كانت دفنة منذ ايام السلوقيين مركز اعظم الاحتفالات بالالعاب في سورية. وقد اوصى احد اعضاء مجلس الشيوخ الاغنياء من انطاكية - وكان قد رافق اوغسطس في عودته الى رومة - بكل ثورته لاقامة احتفالات في دفنة تدوم ثلاثين يوماً للالعاب الاولمبية وتشتمل على الرقص والروايات التمثيلية وسباق العربات ومباريات الرياضة والمصارعة. وفي اوائل القرن الثالث مدت فترة الاحتفالات الى خمسة واربعين يوماً. وساهمت النساء في بعض هذه الالعاب. وكانت الاحتفالات كما يمكن ان يتوقع مشهداً لبعض الحوادث الاخلاقية الشاذة. واصبح يضرب المثل بدفنة لحلاعتها.

كان الانطاكيون المعروفون بكبريلانهم وشغبيهم وروحهم النقادة مشهورين ببراعتهم في فن السخرية ولا بد انهم لم ينسوا بأن مدينتهم كانت فيما مضى مدينة ملكية ولذلك كانوا على استعداد لتأييد اي مطالب بالعرش يرشحه الجيش السوري. وكانوا يتخاصمون دائماً مع الاباطرة الذين يقيمون في مدينتهم. وقد جرد هادريان المدينة من حق اصدار النقد كما جردها ماركوس اوريلوس من حق انتخاب مجلس لها. ونقل سبتيموس سفيروس الزعامة بين المدن السورية الى اللاذقية حيث بقيت موقتاً وجعلت انطاكية ملحقه باللاذقية لمدة من الزمن كما ذكرنا. وكان الاباطرة يمنحون الالقاب والامتيازات لبعض المدن مكافأة لها على حسن سلوكها ويمجدونها منها كعقاب لعدم ولائها. وقد امر سفيروس بتقسيم سورية الى ولاية شمالية تسمى سورية المجوفة وسمح باقامة فرقتين فيها والى ولاية جنوبية وتسمى فينيقية السورية وسمح بفرقة واحدة. وقد بدأ نزاع انطاكية فيما بعد مع بوليانس الذي امضى فيها شتاء سنة ٣٦٢ يستعد لمحلته الفارسية حين حاول تحديد اسعار المشروبات والرقص. وكان اعضاء مجلس الشيوخ يسيطرون على «السوق السوداء». وكانت اكثرية السكان

(١) انظر : Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 129.

(٢) انظر : G. Downey, « Imperial Building Records in Malalas », *Byzantini-sche Zeitschrift*, vol xxxviii (1938), p. 308.



آنذاك من المسيحيين ولكن الامبراطور لم يكن مسيحياً وقد حاول إعادة الوثنية . فسخروا منه بأنه قزم يتباهى بالحية تيس^١ . وكانوا هم انفسهم حليقين دائماً حتى في شيخوختهم . وكان تراجان قبله بمدة طويلة قد جعل انطاكية مقر الحملات القرتية التي انتهت فيها حياته . وحين كان الامبراطور يشتم فيها سنة ١١٥ م . تعرضت المدينة لاعنف زلزال تذكره المصادر وكاد ان يهلك هو فيه . «وقد بلغ من اهتزاز جبل كاشيوس نفسه ان بدت قممها كأنها تنحني وتنفصل عنه وتقع على المدينة ذاتها^٢ . اما الكارثة الثانية التي حلت بالمدينة فكانت حين احتلها شابور الاول (Sapor) الفارسي في سنة ٢٦٠ م . وكان المواطنون في تلك الاثناء منهمكين في التمتع برواية مسرحية حين صاحت زوجة الممثل فجأة ، «هل نحن في حلم ام ان القرس هنا؟» فالتفت جميع الناس حولهم واذا بالسهام تطمر عليهم^٣ . واشعلت النار في المدينة وذبح كثير من سكانها دون ان يفقد احد من القرس .

لاوديسة وأفامية

كانت لاوديسة (اللاذقية) ، منافسة انطاكية التي تقع الى جنوبها ، مركز مسرات محبب ايضاً يتردد عليه الوجهاء . وفي اوائل القرن الاول الميلادي كانت التلال القليلة الانحدار التي تشرف على المدينة مغطاة كلها حتى قممها تقريباً بالكرمة . وكانت الكروم تمتد شرقاً حتى افامية تقريباً وتصدر الحور من ميناء لاوديسة الممتاز الى الاسكندرية^٤ . وقد قام هيرودس الكبير (توفي ٤ ق. م .) الذي دشن السياسة اليهودية الملكية في اغداق النعم على المستعمرات الرومانية كوسيلة للحصول على رضى الاباطرة - فزود لاوديسة وغيرها من المدن بقناة للمياه^٥ لا يزال يشاهد قسم كبير منها حتى اليوم .

فأخرت افامية وهي مستعمرة شقيقة للاوديسة في الداخل منذ ايام السلوقيين

(١) انظر : Ammianus Marcellinus, Bk. XXII, ch. 14, § 3.

(٢) انظر : Dio, Bk. LXVIII, ch. 25, § 6.

(٣) انظر : Ammianus, Bk. XXIII, ch. 5, § 3.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 9.

(٥) انظر : Josephus, War, Bk. I, ch. 21, § 11.

بالخدائق الملكية المملثة بمحوانات الصيد وبالاراضي المجاورة الغنية بالمراعي . وقد وجد في معبدها نصب لالاهة مشهورة ويرجح انها هي التي تنبأت بالعظمة المقبلة لجوليا دومنة مؤسسة السلالة السورية الامبراطورية وشجعت خطط زوجها سبتيموس سفيروس لوصول العرش . وقد زار سفيروس المدينة ثانية بعد ان اصبح امبراطوراً . وقد وجدت تقدمات للاله بعل الافامي في اماكن بعيدة في الغرب مثل فيزون Vaison في جنوبي فرنسا حيث اقيم معبد « لبعل سيد الحظ »^٢ . وبرز بعض ابناء افامية في العصرين البيزنطي والمسيحي^٣ .

حمص

تقع حمص على العاصي جنوبي افامية وقد احتفظت بحكامها الوطنيين من الملوك الكهنة خلال فترة الحكم الروماني . وكانت دمشق وتدمر واديسا من المدن التي تحكمها طبقة ارسقراطية وطنية . وكانت كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة . الا ان الدولة التدمرية تطورت الى دولة كبرى^٤ . وانضمت طبقة النبلاء في حمص وكذلك في تدمر ودمشق الى طبقة النبلاء الامبراطورية لفترة من الزمن وساهمت بالتالي في ادارة الامبراطورية حتى قبل ان يتوصل اثنان من اعضائها الى العرش الامبراطوري^٥ . وكان مؤسس الاسرة المحصية رجلاً حرق اسمه باللاتينية فاصبح سامبسيجرامس Sampsigeramus^٦ . وقد جرد الامبراطور دوميتيان (٨١-٩٦) افراد ذريته من العرش . ومع ذلك عاد احد ابناء الاسرة للظهور في زمن فالريان

(١) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ بشأن هذه السلالة .

(٢) انظر : *Philologus*, vol. xxxi (1872), p. 362.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤ .

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

(٦) يرد خطأ باسم « سامبسيكرامس Sampsikeramus » في 10 § 2, ch. XVI, Bk. Strabo, تاريخ مع : Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 248. ويدعو ان معنى الاسم بالآرامية « ليقوي اله الشمس » . انظر مقال : Pauly-Wissowa, *Real-Encyclopedic der classischen Altertumswissenschaft*.

وقاد في عام ٢٥٨ م . حامية مدينته ضد الفرتين^١ كما فعل ملوك اديسا الذين اسمهم (الجمبر) وملوك تدمر في مناسبات مختلفة. ونال معبد بعل في حمص شهرة حين رفع احد صغار كهنته واسمه بسيانوس Bassianus الى عرش القياصرة حيث تسمى الاكابالس Elagabalus (٢١٨-٢٢٢) بالنسبة الى اله مدينة حمص^٢. وتسمى المدينة على نقود هذا الامبراطور باسم متروبولس وكانت تسمى على نقود سلفه كراكلا مستعمرة. واصبحت هذه المدينة فيما بعد عاصمة فينيقية اللبنانية^٣.

دمشق

كانت دمشق وهي عاصمة سورية سابقاً ولاحقاً قد تقوقت عليها انطاكية وبعض المدن الساحلية طيلة العصر السلوقي والروماني . ولم يعرفها الكتاب الكلاسيكيون الا اهتماماً ضئيلاً . وكانت منطقة دمشق في زمن سترابو^٤ لا تزال تتعرض لغارات اللصوص الذين كان يتسع احد كهوفهم في تلال منطقة اللجاء المعروفة باسم Trachonitis (أي الوعرة) في الجنوب لايواء ٤٠٠٠ منهم . وكان من المحتمل ان يغير قطاع الطرق هؤلاء على القوافل الآتية من العربية السعيدة (اليمن) . وبلغ من اتساع منطقة دمشق ان دخلت في عهد طيبريوس في نزاع على الحدود مع صيدا^٥. وكانت تعتمد لاجل ازدهارها على تجارتها وبساتينها المروية بالاضافة الى واردات منطقتها . ويبدو ان وضعها قد تحسن في القرن الثاني . فقد رفع هادريان المدينة الى رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) ومنحها اسكندر سفيروس (٢٢٢-٢٣٥) حقوق المستعمرة . وأسس فيها في عهد ديوكليتيان مصنع للأسلحة وهذه دلالة مبكرة على براعة اهلها في صنع السلاح . وحمل ابناؤها التجار المهما السامي حدرمان تحت اسم جوبيتر الدمشقي الى الغرب حتى ايطاليا . واصبح احد كهنة

(١) انظر : Malalas, p. 296.

(٢) تشبه كلمة « الاكبال » التمييز العربي له الجبل . انظر مقالة : «Elagabal», Pauly-Wiss-owa . انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

(٣) قارن مع : Malalas, p. 296.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

(٥) انظر : Josephus, Antiquities, Bk. XVIII, ch. 6, § 3.

الاله جوبيتر اوبتيوس مكسيموس دامسكينوس Jupiter Optimus Maximus
Damascenus عضواً في مجلس الشيوخ المحلي في ميناء بتيولي Puteoli الذي يسمى
اليوم بوزبولي Pozzuoli^١.

بيروت

كانت بيروت Berytus الوحيدة بين المدن الساحلية التي لعبت دوراً هاماً في
نشاط غير النشاط التجاري والاقتصادي. وقد منح الاكبالس مدينة صيدا حقوق
المستعمرة. ونالت صور حقوق متروبولس في عهد هادريان ورفعها سبتيموس
سفيروس الى مرتبة مستعمرة مكافأة لها لانها دعمته في نزاعه لاجل السلطة
الامبراطورية اثناء النزاع مع نيجر الذي ايدته بيروت. ولكن بيروت كانت من
اقدم المستعمرات الرومانية في سورية وقد منحها اوغسطس اللقب الفخري كولونيا
جوليا ارغستا فيلكس Colonia Julia Augusta Felix بالنسبة لابنته^٢. وقد تحسن
مناؤها في عهد هذا الامبراطور باضافة رصيفين على شكل هلال لهما ابراج في كل
طرف ويمكن ان تمتد منها سلسلة لمنع دخول السفن غير المرغوبة. ولما كانت
بيروت مركز مفرزة من الفرقة الثالثة العالية منذ ايام اوغسطس فقد اصبحت
مدينة ذات حامية وكان سكانها يقدمون جنود الاحتياط حين يحتاج نائب الامبراطور
الى ذلك^٣. واصبحت في وقت باكر جداً جزيرة رومانية في بحر هليني. وبما ان
ملوك اليهود كانوا يرغبون باستعطاف الاباطرة الرومان عن طريق منح الهبات
للمستعمرات فقد خصوا مدينة بيروت بكثير من عطفهم المادي. فشيّد اغريبيا
الاول (٤١-٤٤) حفيد هيروودس الكبير في بيروت. مسرحاً فائقاً في فخامته
وجاله كما بنى مدرجاً وحمامات واروقة معمدة انفق عليها بلا حساب^٤. وجرت في
تدشينها حفلات موسيقية كما حصل عرض لاعاب المصارعة. ولجل الزيادة في
روعة البرنامج ادخل نحو سبعمائة زوج من المجرمين الى الملعب وتصارعوا حتى قضا

(١) انظر: *Corps Inscriptionum Latinarum*, vol. x (Berlin, 1883), No. 1576.

(٢) راجع: Pliny, Bk. V, ch. 17, § 20.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 10, § 9.

(٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIX, ch. 7, § 5.

الواحد على الآخر . وبعد سنوات قليلة احتفل تيطس بعيد ميلاد والده فسباسيان بعرض مشاهد مماثلة ولكن الضحايا في هذه المناسبة كانوا من اسرى اليهود^١. وقد جعل اغريببا الثاني (توفي سنة ١٠٠) من بيروت مقره المحبب وموئل احتفالاتها السنوية واقام فيها عدة تماثيل . وكانت حفلاتها المسرحية والعباب السرك فيها لا تزال شائعة في القرن الرابع .

اشتهرت المدينة في مجال آخر من النشاط . فقد كانت مركز اشهر مدرسة للقانون الروماني في الولايات ولذلك اصبحت كعبة رجال القانون في الشرق كله وبقيت كذلك لآخر عصر الامبراطورية^٢. وكان يظهر بوسيدون (نبتون) الاله الحامي للمدينة على النقود ممسكاً بيده رحماً بثلاث شوكلات او تجره خيول البحر .

هليوبولس

كان لبيروت مستعمرة شقيقة في سورية المجوفة هي هليوبولس . وقد احتفظ الرومان بهذا الاسم اليوناني (مدينة الشمس) وكان قد فرضه السلوقيون حين جعلوا الهما بعل معادلاً للاله الشمس . واستعاد الاسم السامي القديم، الذي يمكن ان يكون معناه بعل البقاع وليس مدينة بعل، مركزه وبقي في اسم بعلبك . وجعل اوغسطس المدينة مستعمرة ووضع فيها حامية من نفس الفرق التي استخدمت في جعل بيروت مستعمرة . وسميت على النقود التي صدرت في عهده باسم كولونيا جوليا اوغسطا هليوبولس Colonia Julia Augusta Heliopolis . ولكن صفة المدينة الرومانية بقيت اقل من صفة بيروت وصفتها اليونانية اقل من انطاكية بينما كانت صفتها السامية اكثر من الاثنتين .

كان العازفون على القيثارة من هليوبولس معروفين في كل الامبراطورية مثل موسيقيي انطاكية . وكانوا يدعون للاشتراك ليس في مناسبات الاعياد فحسب بل في طقوس المعابد ايضاً . وكانت نساء المدينة مشهورات بجمالهن وهي نعمة منحتهن اياها الالهة السورية التي تلازم منحدرات لبنان المجاورة^٣ كما اشتهر الرجال

(١) انظر : Josephus, War, Bk. VII. ch. 3, § 1 ; ch. 5, § 1.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤ .

(٣) انظر : « Descriptio », in Karl Müller, *Geographie Graeci minores*, vol. ii (Paris, 1861), p. 518.

بفصاحتهم وذلك من ايجاء عرائس الشعر في منطقتهم الجليية . ولكن الشهرة العالمية للمدينة كان مصدرها معبدها العظيم .

ويرجع هذا المعبد الذي كرس في الاصل لعبادة الاله السوري حدد الى ما قبل العصر السلوقي على الغالب . وتمتعت شعائره بشهرة كبرى حتى قبل ان يعاد بناؤه ويوسع من قبل الاباطرة الرومان . وقبل ان يبدأ تراجان حملته الثانية ضد الفرتين (١١٦ م) بدأ باختبار قدرته على التنبؤ بتقديم ورقة بيضاء من ورق الكتابة في مغلف مختوم وجواباً على ذلك تلقى ورقة فارغة بما اعطاه فكرة رقيقة عن قوة بصيرة المقام وقدرته على التنبؤ^١ . ثم تابع استشاراته بصورة جدية فجاءه الجواب بصورة رمزية وكانت عبارة عن حزمة من الاخشاب ملفوفة بقطعة من القماش . وكان موت تراجان في سنة ١١٧ في كيليكية ونقل رفاته منها الى رومة تفسيراً كاملاً وان يكن متأخراً لما ظهر من المعبد .

بدأ التوسيع المتقن لمعبد هليوبولس في عهد انطونينوس بيوس (١٣٨-١٦١)^٢ واستمر ببطء حتى زمن كراكلا (٢١١-٢١٧) وغيره من اباطرة السلالة السورية الذين اتقوا البناء وجعلوه من عجائب الدنيا . ويظهر المعبد لأول مرة على احد وجهي نقود سبتيموس سيفروس . وحفر كراكلا وامه السورية جوليا دومنة كلمة «هليوبولس» على نقودهما . ولا تزال التذور على شرف هذين الاتنين مقروءة جزئياً في اللغة اللاتينية على قاعدة رواق المعبد العظيم حيث تقول الكتابة الاثرية ان الاعمدة النحاسية قد كرسست وان التيجان طليت بالذهب على شرفهم من قبل احد افراد الفرقة العسكرية^٣ . ويرد اسم المعبد ايضاً على نقود فيليب العربي (٢٤٤ - ٢٤٩ م.^٤) .

كان المعبد يضم تمثالاً ذهبياً للاله وقد ظهر بشكل شاب حليق اللحية يلبس ثوب سائق عربية فيمسك في يده اليمنى سوطاً وفي اليسرى رموز الصاعقة وسنابل

(١) انظر : Macrobius, *Saturnaliorum*, Bk. I, ch. 23, §§ 14-16.

(٢) انظر : Malalas, p. 280. حيث يذكر ان الطونينوس بن المعبد كله .

(٣) انظر : *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. iii, No. 138.

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ .

القمح^١. وكان يحمل هذا التمثال في بعض الاحتفالات السنوية على اكتاف اعيان



شكل يمثل جوبيتر اوبتيموس مكسيموس هليوبوليتانس في بعلبك

هليوبولس الذين اعدوا انفسهم لهذه الاحتفالات المهيبة بخلق شعور رؤوسهم ونذر التقشف والطهارة. وكانت تقديس في هذا المعبد ايضاً حجارة سوداء مخروطية وقد نقل الاكبالس احداها الى احد معابد رومة. وكان يقام معرض تجاري في المدينة بهذه المناسبة. وقد جعل المعبد من هليوبولس اشهر مدينة في منطقة لبنان وثاني مدينة بعد انطاكية في ولاية سورية لعدة قرون. وحمل التجار والمحاربون القدماء الى بلاد كثيرة في الغرب هذا الاله السامي القديم باسم جوبيتر هليوبوليتانس وكان لقبه Jupiter Heliopolitanus الكامل هو جوبيتر اوبتيموس مكسيموس هليوبوليتانس Jupiter Optimus Maximus Heliopolitanus.

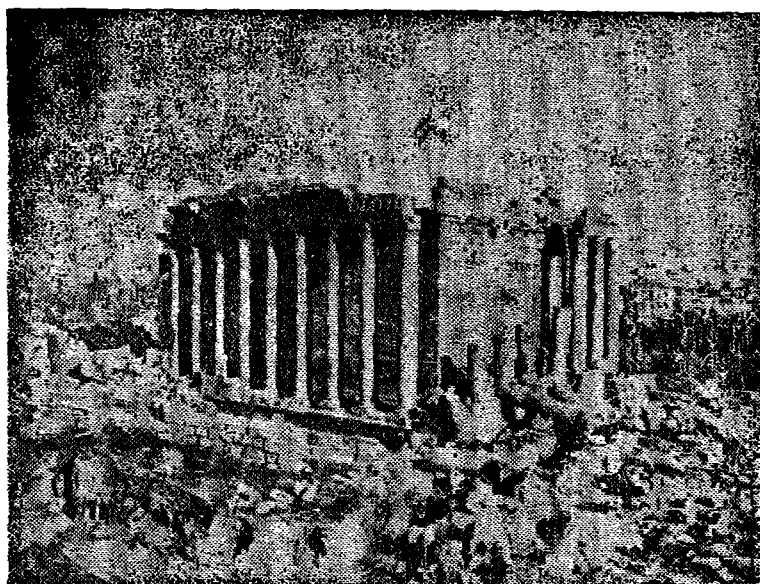
تفوق خرائب معبد هليوبولس^٢ اية خرائب اخرى وصلتنا من عهد الرومان بما فيها خرائب رومة نفسها. وقد نسب المسلمون، الذين حولوا منطقة المعبد الى

(٦) انظر: Macrobius, Bk. I, ch. 23, §§ 11-13.

(٢) درست هذا الموقع وثبتت فيه بئنة المانية بين ١٩٠٢ - ١٩٠٤. انظر: O. Puchstein, *Erster und zweiter Jahresbericht über die Ausgrabungen in Baalbek* (Berlin, 1902-1903); do., *Führer durch die Ruinen von Ba'albek* (Berlin, 1905);

راجع ايضاً: Theodore Wiegand, *Baalbek*, 3 vols. of text, 1 of illustrations (Berlin, 1921-5).

قلعة ، بناءه الى سليمان لانه من يستطيع غير سليمان الذي كان يسيطر على الجن ان يقيم بناءً كهذا؟. وبالرغم مما سببته الهزات الارضية وهجمات المغول فان ما بقي من المعبد كافٍ لاحداث اثر في كل من يشاهده . ففي داخل منطقة القلعة توجد بقايا معبدين مع ملحقاتهما وهما : معبد جوبيتر - حدد ومعبد رفيقته اتارغاتس (عشتاروت) الذي ينسب بصورة عامة الى باخوس^١. ومن بين هذين المعبدين فان

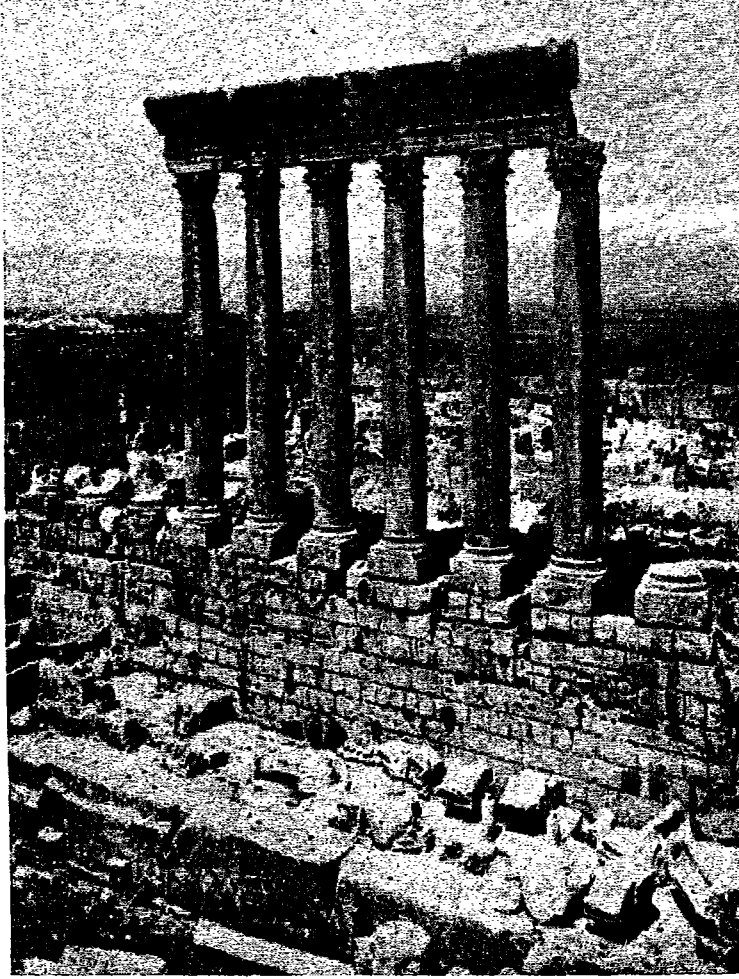


هيكل (باخوس) عشتاروت من الشمال الغربي

معبد اتارغاتس هو احدها واصغرها ولا يزال سالمًا اكثر من الآخر . وفي الحقيقة فانه احسن الابنية القديمة حفظاً واكثرها غنى في الزخارف في سورية كلها . وتحيط بهيكل جوبيتر - حدد بمجموعة من اعمدة كبيرة من الحجر الاصفر ذات

(١) انظر : Hermann Thiersch, «Zu den Tempeln und Zur Basilika von Baalbek», *Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, Philologisch-historische Klasse* (Berlin, 1926), pp. 1 seq.; do., «Le Temple de la déesse Syrienne à Ba'albek», *Revue biblique*, vol. xxxv (1926), p. 461.

تيجان كورنثية تملوها الافاريز . ولا تزال ستة من هذه الاعمدة تقف شامخة حتى هذا اليوم تواجه جبال لبنان بعظمة مهيبه . والواقع ان هذه هي البقايا



الاعمدة الستة القائمة في معبد جوبيتر في بعلبك

الرئيسية من معبد جوبيتر - حدد كله . ويتألف كل عمود من ثلاث قطع من الصخر ويرتفع الى علو ٦٢ قدماً ويبلغ قطره سبعة اقدام ونصف . وقد اخذ

يوسنتيان من بعلبك الاعمدة من البورفير التي جلبت بالاصل من مصر واستعملها في بناء كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا) . وظهر في احد هذه الاعمدة بعد ان كسر على الطريق المعدن الذي كان يصل بين اقسامه .

ويبلغ طول كل جانب من الباحة التي اقيم فيها المذبح نحو ٣٤٠ قدماً . وكان يحيط بها رواق يضم ثمانية واربعين عموداً . وبنيت في طرفها الغربي كنيسة من نوع الباسيليكا ذات ثلاث حنيات في القرن السادس ولكنها تنسب عموماً الى قسطنطين او تيودوسيوس وكلاهما من القرن الرابع^١ . وينتصب المعبد بكامله على مصطبة اصطناعية تقوم على مجموعة هائلة من الاقبية . ولا يزال يشاهد المعبد حتى اليوم من مسافة بعيدة . ويتألف الطرف الشمالي الغربي من السور من حجارة ضخمة قد يكون الغرض منها تأمين متانة البناء في حال حدوث الزلازل . ويبلغ قياس الجوانب في ثلاث من هذه الحجارة التي تعلو ٢٠ قدماً عن الارض ما يقارب ٦٢ × ١٤ × ١١ قدماً لكل حجر منها . وقد قدر ان كل واحدة من هذه تكفي لبناء بيت مربع يبلغ سمك جدرانه قدماً واحداً وطول واجهته ٦٠ قدماً وعلاوه ٤٠ قدماً . ولا تزال صخرة تشبه هذه الصخور موجودة في المقلع الكائن في ضواحي المدينة .

وبلاضافة الى ضخامة الحجارة في الجدران والحجم الهائل للاعمدة فان ما تتصف به بشكل خاص مجموعة الابنية الباقية هو الغنى في تفاصيل الزخارف والاشكال المنحوتة في الافاريز . وتتألف الزخارف من القمع والحشخاش (التي ترمز الى الحياة والموت) وصور الجن المجنحين وهم يرفعون الحجاب وصور كيوبيد يحمل الاقواس والسهام او يركب على التنين والدلفين . وتزين درجات المدخل اشجار الكرمة وضفائر الزهور . وتغطي السقف اشكال هندسية تنتثر فيها اوراق النباتات بالاضافة الى تماثيل نصفية للاباطرة او الآلهة . وتمتاز بوابات معبد اتارغانس بغناها باوراق الاشجار والاشكال المنحوتة .

ويقع على بعد حوالي ٣٠٠ ياردة من القلعة معبد مستدير يعود الى العصر الامبراطوري المتأخر وينسب الى فينوس او فورتونا (الاهة الحظ) . وتحول هذا

المعبد في العصور الوسطى الى كنيسة مكرسة للقديسة بربارة ضمن بذلك بقاءه .
ويقوم في وسط المدينة الحاضرة .

سورية الجنوبية

قامت مدن ذات نماذج مختلفة جنباً الى جنب في سورية الجنوبية . فهناك المدن الفلسطينية القديمة على الساحل - غزة وضاحتها انتيدن Anthedon^١ وعسقلان وبافا وعكا وكانت كلها قد اصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية في هذا الزمن . ويقول سترابو^٢ بان يافا كانت مركزاً سيء السمعة لزعماء اللصوص . ثم تأتي المدن اليهودية التي بنتها الاسرة الهيرودية وهي : قيصرية على البحر وسبسطية وطبرية وقيصرية فيلبي . وتلت هذه بعض المستعمرات الرومانية القليلة وكانت احداها نيابولس (المدينة الجديدة) وتذكر في العهد القديم باسم شكيم . وحدث اثناء الحرب اليهودية ان يهود هذه المدينة التي كانت تدعى سكيثوبولس انقلبوا على شعبهم وناصروا الرومان الذين قضت فرقان من جيوشهم فصل الشتاء فيها^٣ . وقد هدمت المدينة فيما بعد من قبل اليهود الثائرين^٤ . وبعد الحرب اعاد فسباسيان الذي كان اسمه الاول فلافيوس بناء المدينة التي دعيت آنثذ تكريماً له باسم فلافيا نيابولس Flavia Neapolis . ولا يزال الاسم ظاهراً في مدينة نابلس اليوم . وكانت نيابولس مكان ولادة يوستين الشهيد^٥ . وهو من آباء الكنيسة الاوائل ويعود اليه الفضل بافتتاح اول مدرسة مسيحية في رومة حيث يقال انه جلد حتى مات حوالي العام ١٦٥ م .

بنى فسباسيان مدينة اخرى هي عمواس Emmaus وقد وضع فيها ثمانئة من

(١) جعل هيرودس اسمها غريبياس . انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 13, § 3
ويخطئ بلني : Pliny, Bk. V, ch. 14. حين يجعل موقعها في الداخل ولا يزال الاسم القديم ظاهراً في
خرية تيدا Kbirbat-Tida . انظر : Abel, vol. ii, p. 200.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 28.

(٣) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, §§ 3-4.

(٤) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, § 1.

(٥) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٥ .

المحاربين القدماء^١. وهذه المدينة هي عمواس المذكورة في انجيل لوقا (١٣:٢٤) وتقع على بعد سبعة اميال الى الشمال الغربي من اورشليم على الطريق الرومانية^٢ ويجب تمييزها عن مدينة اخرى باسم عمواس تقع على بعد عشرين ميلاً الى الشمال الغربي من اورشليم^٣. وتعطينا فيلبوبولس Philippopolis في منطقة حورات مثلاً عن بلوغ احدى القرى رتبة مدينة. فقد كانت بالاصل قرية قليلة الاهمية يجوار بصرى ثم رفعها فيليب العربي الذي ولد فيها الى رتبة مدينة في ٢٤٤ م. وكانت تلك السنة تاريخ ارتقائه الى عرش القيصرية. وقد ازداد سكان المدينة بدخول عنصر جديد اليها وهو المستعمرون الايطاليون واصبحت نفسها مستعمرة رومانية. وهي مدينة شهبا كما يذكرها الجغرافيون العرب^٤.

اما في الداخل فقد بقي حلف «المدن العشر» او الديكابولس موجوداً. ويعدد بليني^٥ المدن ويشير الى «منطقة الديكابولس» التي بدأت كما يبدو حيث يتصل مرج ابن عامر (Esdraelon) بوادي الاردن وتمتد الى الشرق. وكانت تسيطر هذه المدن على المنطقة وقد اختلف عددها بين حين وآخر. ويذكر بطليموس بيت - شان وبيللا وديون^٦ Dion وجرش^٧ Gerasa وفيلادلفيا^٨ وجدره ورافانا^٩ Raphana وكناتا^{١٠} Kanatha (Canatha) وهيبوس^{١٠} ودمشق. واضيفت لها مدن اخرى فيما بعد

(١) انظر: Josephus, War, Bk. VII, ch. 66.

(٢) وهي اما ان تكون كيبه Kubaybah الحاضرة او جارتها قلونه (colonia) Qalūniyah.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ٣ : ٤٠ : ٩ : ٥٠ : ٤. Josephus, War, Bk. II, ch. 20, § 4.

(٤) راجع ياقوت ج ٣ ص ٣٣٩ ; Abel, vol. ii, p. 368; Dussaud, Topographie, p. 184.

(٥) انظر: Pliny, Bk. V, ch. 16.

(٦) بالنسبة لمدينة مكدونية وهي تل الاشعري اليوم بين هيبوس وكناتا (الفتوات) شرقي بحيرة طبرية. انظر: Abel, vol. ii, p. 306.

(٧) ربة عمون وهي عمان اليوم.

(٨) هي الرافة في حوران.

(٩) هي الفتوات جنوب شرقي رافانا.

(١٠) هي قلعة الحصن في الجانب الشرقي من بحيرة طبرية.

فأصبح العدد ثمانية عشر . وفي عهد الرومان تفوقت بيت شان وتقع على الطرف الغربي من نهر الاردن على شقيقاتها التي تقع كلها شرقي النهر^١ . وولد باسيلوس الاصغر Basilides the Younger وهو فيلسوف ومعلم ماركوس اوريليوس في بيت شان . وهناك مدينة مشهورة اخرى في الديكابولس وهي جرازه - جرش اليوم - وتقع على بعد سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرقي بحيرة طبرية واثنين وثلاثين ميلاً جنوب شرقي جدرّة . وقد كشفت حفرياتها الحديثة عن المخطط اليوناني للمدينة التي كان فيها مسارح ومعابد وملعب وساحة عامة (فوروم) وشوارع معمّرة وأكثرها يعود الى آواخر القرن الاول او الى القرن الثاني الميلادي . وتعتبر هذه الآثار الرائعة ، كالبتراء وتدمر وهليوبولس ، من اعظم الآثار شهرة في سورية الرومانية . وقد تبعت المسيح في عهد رسالته الاولى مجموع من مدن الديكابولس^٢ .

١ انظر : Rowe, *Topography and History of Beth-Shan*. p. 46.

٢ انظر انجيل متى ٤ : ٢٥ .

الفصل الرابع والعشرون النشاط الفكري

إن سورية الرومانية التي برزت في مجال اللهو وانتجت ابطال السرك والمسرح ظلت من حيث النشاط الفكري وراء جارتها مصر - التي كان فيها مكتبة الاسكندرية ومدرستها . وكما كان ينتظر فان عدداً من المؤلفات الادبية القديمة كانت عبارة عن قصص العشاق واللصوص والمشعوذين والرحالة التي اتضح انه ليس لها قيمة دائمة . واذا استثنينا كتابات بروبوس Probus ، اللغوي اللاتيني والنقادة البيروتي الاصل ، فان مساهمة السوريين في الادب اللاتيني لا يكاد يكون لها اي اهمية خاصة . ولم تنجب انطاكية وهي اغنى واكبر مدينة في آسية الرومانية وثالث مدينة في الامبراطورية اي مؤلف بارز .

عاش ماركوس فاليريوس بروبوس في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي . وبدأ حياته كجندي الا أنه كرس اهتمامه بعد ذلك لدراسة ادب رومة الكلاسيكي . فاستقر في رومة ونشر كتابات فرجيل وهوراس|وغيرهما من الشعراء الكبار نشرأ علمياً وبذلك وضع اساس الحركة الكلاسيكية في العصر الامبراطوري المتأخر واعتبر من اعظم اللغويين اللاتين^١ .

التاريخ

كانت مساهمة السوريين في الادب اليوناني اكثر اهمية بكثير . ومرجعنا الرئيسي عن تاريخ سورية في العهد الامبراطوري الاول هو مؤلف يوناني لاحد المؤرخين اليهود . وكان هذا المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في اورشليم حوالي ٣٧ م . وكتب « آثار اليهود Antiquities of the Jews » وكتاب « الحروب اليهودية The Jewish

(١) قارن مع : « Probus », *Harper's Dictionary of Classical Literature and Antiquities*, ed. Harry T. Peck (New York, 1897).

War^١. وادعى يوسيفوس بأنه ينحدر بطريق امه من المكابيين . وعندما كان شاباً ذهب الى رومة ليدافع امام نيرون عن قضية بعض الكهنة من ابناء دينه ولدى عودته اصبح قائداً في الجيش اليهودي في ثورته ضد السيادة الرومانية . وقد اسر الا ان فسباسيان انقذه . ومنذ ذلك الحين التحق يوسيفوس بعائلة فسباسيان وعاد مع تيطس الى رومة . واتخذ هناك اسم فلافيوس كتابع للأسرة الفلافية والى كتيبه المعروفة . ويعتمد كتابه «آثار اليهود» على كتاب العهد القديم كثيراً في اختصار تاريخ اليهود كله ويكتب بالتفصيل عن الحكم المكابي المتأخر والحكم الميرودي . اما كتاب «حروب اليهود» الذي كتب بالاصل في اللغة الآرامية فيعطينا اخباراً مفصلة عن الصراع العنيف مع رومة الذي شهده بنفسه . وتصطبغ هذه الاخبار برغبة المؤلف في ارضاء سماته الاباطرة .

وقلنا يوجد اسم آخر غير يوسيفوس يستحق الذكر في علم تدوين التاريخ في سورية . ولا نعرف سوى القليل عن فيلو Philo الجليلي (حوالي ٦١ - ١٤١ م) النحوي وواضع كتاب عن الديانة الفينيقية حفظت بعض نطف منه في كتاب يوسيبوس . وكذلك نجهل اخبار ميناندر Menander اللاذقي . وهو بليغ عاش في وقت متأخر (القرن الثالث) ودون بعض الاخبار الفينيقية . وعاش في النصف الثاني من القرن الثاني كاتب آخر محاط ببعض الغموض وهو يميلخوس Jamblichus (Iamblichus) الذي كتب تاريخ بابل . وعندما كانت شاباً اخذه ملك ارميني الى بلاطه فتعرف الى اللغة البابلية والسحر الفارسي^٢ . ويقول يميلخوس عن نفسه بأنه كان سورياً من ناحية الاب والام . ولم يلمّ باللغة اليونانية حتى وقت متأخر في حياته . والى بالاضافة الى تاريخه قصة غرامية باليونانية اذا لم تكن الاولى من هذا النوع في الادب اليوناني فانها على الاقل من المؤلفات الاولى فيه .

الجغرافيا

ان اعظم مساهمة تستحق الذكر في ميدان الجغرافيا قام بها مارينوس Marinus

١) ترجمت مؤلفات يوسيفوس من قبل : William Whiston, new ed., 2 vols. (London, 1890-1900);
٢) انظر : Mommsen, vol. ii, p. 124.

من صور الذي زهبا في منتصف القرن الثاني . وكان مارينوس اول من وضع المصورات المرسومة على أسس رياضية حسب خطوط العرض والطول بدلاً من تلك التي كانت مبنية على رحلات المسافرين فقط . وفي تعيين خطوط العرض والطول بالنسبة لكل موقع جغرافي ساعد مارينوس في ازالة الشك الذي ساد حتى ذلك الحين فيما يتعلق بمواقعها النسبية . وبذلك اصبح مؤسس الجغرافيا العلمية . ويستشهد بطليموس^١ بأقواله حتى انه يعترف بأنه بنى كل مؤلفه على كتابات مارينوس .

ولا يستوقف انتباهنا في ميدان العلوم سوى مؤلف آخر هو ارخيجينس Archigenes الطبيب الافامي . وقد مارس عمله في رومة في عهد تراجان في اوائل القرن الثاني . ويذكره جوفنال^٢ عدة مرات ويتضح بما كتبه انه كان طبيباً محبوباً بين الطبقة الراقية في العاصمة وخاصة للامراض العقلية . وقد كتب ارخيجينس رسالة عن النبض كانت موضوع تعليق جالينوس Galen وخلف عدداً من التلاميذ الذين تمتعوا بمرتبة محترمة في المهنة لعدة سنين .

البلغاء

وكان لمارينوس مواطن يدعى ادريانس Adrianus الذي اشتهر كبليغ فيلسوف . وكانت البلاغة آتخذ احب الفروع الادبية الى الناس . والبلغ من ناحية نظرية كان الشخص الذي يترافع امام المحاكم ويعلم الناس فن المرافعة . ومن ناحية عملية كان محاضراً يذهب من مكان الى آخر ليظهر مقدرة كخطيب امام الجماهير المتعلمة . وكان البلغاء يحطبون في عدد كبير من المواضيع دون ان يقتنعوا بصحتها . وقد هاجر ادريانس من صور الى اثينة حيث نبأ كرسى البلاغة . وفي الخطاب الافتتاحي الذي وجهه الى الاثينيين «اسهب في الكلام ليس عن حكمتهم بل عن حكمته لانه بدأ كلامه بقوله : «للمرة الثانية تأتي الآداب من فينيقية^٣» . وكان يقوم بواجب الاستاذية بمباهاة عظيمة ويلبس الثياب الثمينة ويزين نفسه

(١) انظر : *Geography*, Bk. I, ch. 6.

(٢) انظر : *Satura*, No. 6, l. 236 ; No. 13, l. 98 ; No. 14, l. 252.

(٣) انظر : Philostratus and Eunapius, *The Lives of the Sophists*, ed. and tr. Wilmer C. Wright (London, 1922), p. 227.

بالجواهر ويركب في طريقه لالقاء محاضراته في عربة كانت لجم خيولها مطلية بالفضة . وكان يسميه التلاميذ « الفينيقي » وحاول البعض تقليد لهجته . وعندما كان ادريناس في اثينة قابل ماركوس اوريليوس الذي دعاه في طريق عودته الى العاصمة لزيارة بلاطه . وكان ادريناس مسروراً بمغادرة اثينة حيث حوكم وبرئ من تهمة قتل سفسطائي اهانه . وشرف الامبراطور هذا الرجل البليغ بصداقته له حتى انه تنازل وعين له موضوع احدي خطبه . وعينه كومودس ، خلف اوريليوس ، سكرتيره الخاص .

وكان من تلامذة ادريناس بليغ يدعى انتيباتر من مدينة هيرابولس وقد حظي مثله بالعطف الامبراطوري . ولم يظهر انتيباتر اي تفوق على معاصريه في خطبه المرجلة والمكتوبة ولكنه امتاز عليهم في فن كتابة الرسائل . وهذا ما دعا سفيروس لاختياره سكرتيراً خاصاً له^١ كما عينه معلماً لولديه : كاراكلا وغيتا Geta . وعندما اغتال كراكلا فيما بعد (٢١٢ م) اخاه كتب اليه انتيباتر رسالة لوم بأسف فيها بانه لم يبق لكراكلا الآن « سوى عين واحدة ويد واحدة » وان الذين علمها مؤدبهما « بان يستخدموا السلاح ليؤيد واحدهما الآخر قد استخدماه الواحد ضد الآخر »^٢ . وكان سفيروس قد رفع انتيباتر الى مقام القنصلية وجعله والياً على بيثنيا Bithynia . وظهر هناك انه متسرع في استعمال القوة فأقبل وانسحب الى مدينته الاصلية حيث يقال انه توفي جوعاً بارادته .

وهناك شخصية ادبية من شمالي سورية تسترعي الاعجاب في العصر الانطونيني وهي شخصية لوكيانس من مدينة سميساط Samosata ، عاصمة كوماجين Commagene . وقد ولد حوالي ١٢٥ م . وبعد ان مارس الحقوق في انطاكية وعمل في كتابة الخطب المأجورة للخطباء اتخذ مهنة محاضر متجول ، فساح في آسية الصغرى ومكدونيا واليونان وايطاليا وبلاد الغال . وتبوأ في بلاد الغال لفترة موقته كرسي الفلسفة في مدينة يونانية الثقافة وذلك قبل عودته الى بلاده الاصلية .

كان لوكيانس سورياً وقد افهم الناس ذلك بصعوبة بالنظر لجهل المعاصرين

(١) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 269.

(٢) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 271.

الفروق العرقية . وكانت الآرامية لغته الاصلية الا انه ككل المتقنين السوريين في عصره كانت ثقافته يونانية . وفي عصر كانت فيه تسهيلات السفر اعظم منها في اي وقت آخر حتى حدود المئة سنة الاخيرة فانه تعرف الى اكثر مناطق الامبراطورية رقباً . وازاف الى ما عرف عن السوريين من حب التجول المقدره على طرق مختلف المواضيع وخصب الخيال الذي اشتهر به السوريون . ومن المؤلفات الاثنتين والثمانين التي وصلتنا منسوبة اليه ، وبعضها مزيف دون شك ، كتاب « المحاورات Dialogues وهو اهمها » . واما كتابه « قصة صحيحة A True Story »^١ فقد تسلسلت منه قصص السندباد البحري ورحلات كوليفر وغيرها من القصص . ويعتبر مؤلفه « الالهة السورية The Syrian Goddess » اكثر مصادرها اهمية حول ديانة سورية الرومانية في عصره .

تقوم شهرة لوكيانس في تاريخ الادب على انه اول من استخدم المحاورة بين الاموات كوسيلة للروايات الهزلية والهجاء . وقلده في ذلك دي فونتونيل de Fontenelle^٢ واللورد ليتلتون Lyttelton^٣ وغيرها من المحدثين . ولا يستعمل لوكيانس السخرية بشكل مركز محدود فحسب بل بشكل عام واسع ايضاً . وكانت الالهة الاولمبية والفلاسفة اليونان والارستقراطيون الرومان والمتعصبون في الدين والرحالة المتحمسون الذين فقدوا توازنهم - جميع هؤلاء كانوا من ضحايا سخريته . ولم يلق حتى ولا هوميروس او هسيود او هيرودوتس اي احترام في كتاباته . ومهما يكن فان تهديمه لا يتلوه عمل بناء . ويقرر بطل مؤلفه ايكارو منيبوس Icaro-Menippus بعد استيائه من منازعات الفلاسفة ومزاعمهم ان يقوم بزيارة الى النجوم ليقرر مقدار الصواب في النظريات الفلسفية . وبمساعدة زوج من الاجنحة يحط منيبوس اولاً في القمر حيث يستعرض مخاصمات الناس ومشاعرهم . ومن هناك يتابع سيره الى جبل الاولمب ويمثل امام زفس نفسه . ويشهد هنا كيف تتلقى السماء صلوات الناس فهي تصعد بواسطة ثقب كبير ويتسكن زفس من سماعها

(١) ترجم هذا الكتاب ونشره : A. M. Harmon in *Lucian*, vol. i (London, 1913), pp. 248-357.

(٢) هو Bernard le Bovier de Fontenelle ؛ انظر كتابه : *Nouveaux Dialogues des Morts* (Paris, 1638).

(٣) هو George Lyttelton ؛ انظر كتابه : *Dialogues of the Dead* (London, 1760).

بازالة الاغطية الضخمة . ويتضح ان زفس قاض متحيز يتأثر بمجهم المكافأة التي يوعدها . ومع ذلك فانه يصدر الاحكام ضد الفلاسفة ويهدد بتدميرهم ككلمهم خلال اربعة ايام .

وقد عين لوكيانس بعد ان تقدم في السن حاكماً على مصر . وربما كان كومودس هو الذي عينه ويظن انه توفي فيها حوالي نهاية القرن الثاني .

الفلسفة

لم تكن مساهمة المفكرين السوريين ضئيلة في مجال الفلسفة وخاصة في ما يتعلق بالافلاطونية الحديثة . وكان هذا يتفق مع التقاليد السورية السلوقية . وقد اعجب سترابو^١ بالفلسفة المشهورين في عصره الذين كانوا من اهل صيدا ويذكر اثنين منهم كزملاء له . ويقال ان النظرية الجوهرية قد وضعت في تلك المدينة في وقت سابق . وحافظت صور ايضاً على شهرتها في الفلسفة . ويذكر سترابو^٢ فيلسوفاً رواقياً من اهلها يسمى انتيباتر . ويبدو انه نفس انتيباتر الذي وصفه بليني^٣ بانه كان شاعراً وقيل عنه ان الحمى كانت تهاجمه كل سنة في عيد ميلاده . وهناك فيلسوف من صور اكثر شهرة يدعى مكسيموس وقد سافر كثيراً وزار رومة غير مرة واستقر فيها في زمن كومودس . ولم يثبت انه كان استاذاً لماركوس اوريليوس . وكان مكسيموس فسفطانياً؛ وبلغياً اكثر منه مفكراً اصيلاً . وكبقية الافلاطونيين ميّز بين الله والمادة وجعل الشياطين تلعب دور الوسيط بين الله والانسان . وفي رسائله الاحدى والاربعين التي وصلتنا^٤ يستخدم التشبيه والمقتطفات الشعرية بكثرة .

فاقت افامية مدينة صور بصورة اوسع كمرکز للفلسفة . وفي العصر الانطونيني ويرجع انه في عهد ماركوس اوريليوس اصبح احد ابنائها المسمى نومينيوس Numenius المؤسس الحقيقي للافلاطونية الحديثة . وقد اتهم بحق فيلسوف مصر

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 24.

(٢) انظر : Strabo, Loc. cit.

(٣) انظر : Pliny, Bk. VII, ch. 52.

(٤) انظر : Ed. (Gr. and L.) Fred. Dübner, *Theophrasti Characteres* (Paris, 1877), pp. 1-176; Karl Meiser, *Studien zu Maximus Tyrios* (Munich, 1909).

اليوناني ، بلوتينوس Plotinus — الذي نسب إليه هذا الشرف — بانه بنى تعاليمه على تعاليم نوميونيوس الافامي وبأنه « كان يزهو في ريشه »^١. وقد يكون نوميونيوس حصل على ثقافته اليونانية في الاسكندرية. وقد اقام في اثينة ويرجع انه عاد الى افامية لقضاء بقية حياته. وقد استشهد باقواله بورفيروس وبمبليخوس وغيرهما من الفلاسفة الوثنيين من جهة كما استشهد به كليمنت Clement الاسكندري واوريجين Origen وغيرهما من الآباء المسيحيين من جهة اخرى. وكان يعلم الاسرار اليونانية والمصرية ولكن معرفته بالعهد القديم هي التي تميز كتاباته عن كتابات غيره من الفلاسفة. وكان موسى بالنسبة اليه « النبي » كما كان هوميروس « الشاعر ». وكان افلاطون « موسى اليوناني ». واعتبر بان الله هو ثالث كوني يضم الهة ثلاثة : الآب والحالق والحلق (العالم)^٢.

اصبحت افامية في القرن الثالث مركز مدرسة للافلاطونية الحديثة تتمتع ببعض الاهمية وقد اسسها اميلوس Aemilius تحت رعاية زنوبيا ، ملكة تدمر^٣. وكان اميلوس من المعجبين بنوميونيوس ويقاربه في تفكيره. وكان من تلامذة بلوتينوس الذي يعتبر اول من نظم المذهب الافلاطوني الحديث كما كان معلم بورفيروس ، احد كبار شخصيات الافلاطونية الحديثة في سورية.

ولد بورفيروس عام ٢٣٣ في صور او بتنية Batanaea^٤ ودرس في صور وبعد ذلك في اثينة حيث بدّل معلمه لونجينوس^٥ اسمه السامي « ملك » الى اسم يوناني هو بورفيروس Porphyrios (المكسو بالارجوان الملكي^٦). وقد جذبت شهرته

(١) انظر : Kenneth S. Guthrie, *Numenius of Apamea: The Father of Neo-Platonism* (London, 1917), p. 96.

(٢) انظر : Guthrie p. 38.

(٣) انظر ما سيرد في الفصل ٢٩ .

(٤) هي المنطقة الجنوبية من حوران والاسم هو الصيغة اليونانية لكلمة باشان Bashan القديمة ، انظر : Smith, *Historical Geography*, p. 542. ولا تزال اثار الاسم موجودة في كلمة البتنية al-Bathanuyah. لتوسع حول بتنية راجع : Dussaud, *Topographie*, pp. 323 seq.

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

(٦) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

بلوتينوس الى رومة حيث تخصص بالافلاطونية الحديثة لمدة ست سنوات . وقد سكن وعلم في رومة الى ان توفي حوالي ٣٠٥ . وحين كان فيها نشر كتاب استاذة واسمه التاسوعات *Enneads* . ولولا بورفيروس لما كان بلوتينوس سوى مجرد اسم . وكان بورفيروس مؤلفاً خصب الانتاج في الفلسفة والتحرر والبلاغة والرياضيات ، وعلم النفس والموسيقى ومبادئ النباتيين . وكان يعتبر الرجل العالم بين الافلاطونيين الحديثين . وكان في تعاليمه يقول بوجود العقل لدى الحيوانات ولكنه لم يعتقد بانتقال الارواح البشرية الى اجسامهم . وكان يذهب في تنقية الروح الى ابعد من بلوتينوس فيطالب ببعض اعمال التقشف مثل العزوبة والامتناع عن اكل اللحم وعدم حضور الحفلات واماكن التسلية^١ . وفي عام ٤٤٨ في عهد تيودوسيوس الثاني احرقت اكثر مؤلفاته بصورة علنية ومنها رسالة ضد المسيحيين .

وكان من تلاميذ بورفيروس واتباع بلوتينوس شخص يسمى ميمليخوس^٢ من مدينة كالسيس *Chalcis* (عنجر) في سورية المحفوفة . وقد حاد ميمليخوس عن عادة العلماء من ابناء وطنه فاقام في سورية طيلة حياته وكانت يقوم كل سنة برحلة الى منابع جدرّة الحارة^٣ . وكانت وفاته حوالي العام ٣٢٥ م . ولا يشاطر العلماء المحدثون معاصري ميمليخوس^٤ في اعجابهم به اذ انهم يعتقدون بانه اقام شهرته على اعمال السحر والمعجزات . وقد الله تلاميذه ومن بعدهم الافلاطونيون الحديثون واصبحت كلمة *Theios* (الاله) لقبه المعتاد . وازداد الى نظرياته في اللاهوت نظريات في الارقام التي نسب اليها كما كان يفعل الفيثاغوريون الجدد قيمة اعظم مما للرياضيات العلمية^٥ . ويشارك في فلسفة الكونية مدرسته في الاعتقاد بخلود العالم . ويحاول في ابجائه في علم النفس ان يحتفظ للروح بوضعها المتوسط بين الكائنات

(١) راجع : Ednard Zeller, *Die philosophie der Griechen*, 3 rd. ed. (Leipzig, 1881), vol. iii, pt. 2, pp. 636-77.

(٢) ربما كان من نسل المؤرخ المذكور سابقاً في هذا الفصل .

(٣) لقد ذكرت هذه المنابع المدنية (الحمّة) في الكتابات الكلاسيكية وفي التلود وهي اليوم مستمرة تماماً انظر : Abel, vol. i, pp. 154, 458 ; vol. ii, p. 19.

(٤) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 363.

(٥) انظر : Zeller, p. 700.

البشرية المنحطة والمتفوقة وذلك اكثر مما حاوله بورفيروس ويختلف عنه في انه لا يجعل للحيوانات عقلاً .

مدرسة الحقوق في بيروت

اذا كانت افامية قد برزت في ميدان الفلسفة فان بيروت برزت في القانون بفضل مدرسة الحقوق الرومانية المدنية التي ازدهرت فيها منذ اوائل القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس . وربما اسس هذه المدرسة سبتيموس سفيروس (١٩٣ - ٢١١) ^١ وولد ذكره في بيروت بعبد وتمثال وشجعها خلفه من السلالة السورية . ولم تكن اقدم اكاديمية مشهورة من نوعها فحسب بل كانت اطولها عمراً . انها من صنع رومة وقد اصبحت مركزاً فكرياً مبدعاً في الامبراطورية الرومانية وبقيت كذلك . وقد قامت مدارس اخرى في الولايات فيما بعد كمدروستي الاسكندرية واثينة وغيرها ، ولكن مدرسة بيروت تمتعت بالمكانة الاولى طيلة عهدها . وكانت الاسكندرية واثينة يونانيتين اكثر منها رومانيتين . اما بيروت فكانت رومانية اكثر منها يونانية . وبلاضافة الى ذلك فان بيروت كانت اكثر حظاً في اجتذاب مجموعة من الطلاب والاساتذة اللامعين الذين جعلوا من الاكاديمية جامعة ونشروا شهرتها في كل مكان . وكانت دراسة القانون آنذاك من متطلبات اشغال الوظائف الحكومية .

باينيان

ان الشخصيتين اللتين منحتا الاكاديمية شهرة واسعة وخلصتا في مجموعة قوانين يوستينيان هما : باينيان واوليان . وقد سمي يوستينيان مدينة بيروت « ام القوانين ومرضعتها » . ويبدو ان باينيان (اميلوس باينيانس) كان من مواطني حمص . وهناك ما يدعو الى الظن بأنه بدأ يعمل في ميدان القانون كمعلم في بيروت قبل ان يدعوه سبتيموس سفيروس ، زوج جوليا دومنة التي كان من اقربائها ، ليكون مستشاره في رومة . وبعد ان طرد كرا كلا باينيان من وظيفته اغتال اخاه غيتا (٢١٢م) . وامر بقطع رأس باينيان . ولم يفعل اكثر من انتهار الجلاد لاستعماله

(١) فان مع : Paul Collinet, *Histoire de l'École de Droit de Beyrouth* (Paris, 1929), pp. 16-25 ; Henri Lammens, *La Vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas Empire* (Cairo, 1921), p. 4.

فأسأ بدلاً من السيف^١. أما سبب الاعدام فليس واضحاً لكن ليس من الصعب ان نرى ان طاغية كهذا لا يمكنه قبول مرشد شديد ورجل شريف مثل باينيان. ومع انه كان في السابعة والثلاثين من عمره حين اعدم فان التراث العظيم الذي تركه لم يتركه اي روماني فقيه آخر. وقد ادخل لا اقل من ٥٩٥ فقرة من كتاباته في موجز *Digest* يوستينيان. وكان احد جامعيه ويسمى اناطوليوس *Anatolius* ايضاً من اساتذة القانون في بيروت. وشكل كتاب باينيان « الاجوبة *Responsa* » جزءاً من برنامج السنة الثالثة في مدارس الحقوق. وان احد كبار شارحي القانون^٢ في القرن السادس عشر يعتبر ان باينيان هو ايل الحامين الذين وجدوا والذين سيوجدون ويقول بانه لم يتجاوزه احد قط في المعرفة القانونية ولن يوازيه احد. وعلم باينيان الذي تسيطر عليه الحصافة الفكرية والنزاهة الاخلاقية قد جعل منه نموذج المحامي الحقيقي.

اوليان

كان من منافسي باينيان مواطنه وخلفه اوليان. وكان اوليان (دوميتيوس اوليانس *Domitius Ulpianus*) من ابناء صور وقد علم في جارتها الشمالية بيروت. واستدعي من كرسيه في بيروت الى عاصمة العالم المتمدن ليسانس باينيان في ادارة الامبراطورية باسم القياصرة السوريين. ولما ظهر خليفة كراكلا - وهو الاكبالس الذي اصبح امبراطوراً في ٢١٨ - جرّد اوليان من مهامه ولكن اسكندر سفروس اعاده مستشاراً امبراطورياً حين اعتلى العرش في ٢٢٢. وادخل اثناء وجوده في هذا المنصب اصلاحات قضائية وغيرها لم تكن مرغوبة لدى بعض الفئات. وقد قتل عام ٢٢٨ بأيدي الجنود بعد ان شقوا طريقهم ليلاً الى القصر الامبراطوري الذي كان قد التجأ اليه وقتلوه بحضور الامبراطور ووالدته^٣.

عاش اوليان مدة اطول من باينيان وساهم اكثر منه في مختلف الشؤون. وقد اقتبس جامعو « الموجز » من مؤلفاته حوالي ٢٥٠٠ فقرة شكلت مجموعها

(١) انظر : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 1, § 1 ; ch. 4, § 1.

(٢) انظر : Cujacius, *Opera*, vol. iv (Naples, 1722), cols. 3 B, 4 A-B.

(٣) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 1, §§ 1-3.

ثلث الكتاب كله. وفي مجموعة قوانين ثيودوسيوس التي وضعت في ٤٣٨ للامبراطورية الرومانية الشرقية اعتبرت كل كتابات اوليان وبايينيان مرجعاً موثقاً لدى القضاة. واسلوب اوليان في الكتابة اسهل من اسلوب بايينيان واكثر وضوحاً منه. وقد كان لهذين الفقيهين تأثير مستمر على انظمة اوربا بواسطة الاقتباسات الكثيرة من مؤلفاتها.

بقيت اللاتينية لغة التعليم في بيروت^١ حتى اوائل القرن الخامس ثم حلت محلها اليونانية. وفي تلك الاثناء كانت بيروت قد تحولت سياسياً وفكرياً من محور رومة الى محور القسطنطينية. ومهما يكن فان بعض قطع الادب السوري التي كتبت باللغة اليونانية الركيكة في اوائل العصر الامبراطوري الروماني كان تأثيرها اكثر دواماً وفائدة من جميع القطع الكلاسيكية اليونانية واللاتينية مجتمعة. وكانت هذه القطع هي الانجيل وبعض الكتابات المسيحية القديمة الاخرى.

(١) راجع بشأن حياة الطلاب في بيروت ما سيأتي في الفصل ٢٧.

الفصل الخامس والعشرون

ظهور المسيحية

في عام ٦ ق.م. او حوالي هذا التاريخ ولد ذاك الذي قسم التاريخ الى عشرين. وكانت الاضواء مسلطة آنثذ على رومة سيدة العالم وعلى العرش المتألق الذي كان قد اقامه اوغسطس قيصر قبل حين . ولم يكن المؤرخ ليحفل بوجود ابن نجار في ولاية نائية من الامبراطورية جمع بعض الاتباع حوله وعلم وبشر وشفى ثم صلب بسبب معتقداته . وقد ظهر مؤرخ شاب معاصر كان في الوقت ذاته من ابناء دينه ومن مواطنيه - فخصص له اي لهذا «الرجل الحكيم» و«صانع الاعمال الخارقة» كما قال عنه ، قطعة صغيرة تنتهي بهذه الملاحظة : «وعشيرة المسيحيين التي سميت بالنسبة اليه ليست منقرضة اليوم^١ . والمؤرخ اللاتيني الوحيد الذي يذكر «المسيح Christos»^٢ يشير بصورة عرضية بأنه «تعرض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطي»^٣ . وحصل هذا على الغالب في عام ٢٧. ومع ذلك فان الذين كانوا اقرب الى المسيح في الجليل واليهودية وعرفوه جيداً اصبحوا مقتنعين بأنه لم يكن شخصاً عادياً بل ابن الله . وقد بدلوا طريقة حياتهم حالاً وكما فعل المسيح لم يترددوا في بنائها في سبيل معتقداتهم . واهتم بعضهم

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 3, § 3. ويعتبر بعض النقاد هذه الفقرة مسوسنة .

(٢) هي ترجمة للكلمة العبرانية مشيا māshiah (المسيح) التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود وبالتالي للملك الموعود. اما «يسوع Jesus» فهو الصيغة الهلينية ليشوع Joshua التي انت من Jehoshua وهي بالعبرانية (يهوه هو الخلاص) .

(٣) انظر : Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

(٤) قارن مع : Lactantius, *De Mortibus persecutorum*, Bk. II, الذي يضع تاريخاً يعاين ٢٣ آذار عام ٢٩ .

في تسجيل تعاليم سيدهم واعماله . وهكذا وصلتنا الاناجيل وهي مصدرنا الرئيسي عن حياة المسيح . وقد ولد ذلك الدين الجديد القليل الالهية في الظاهر – والذي اعتنقه عدد قليل من الفلاحين اليهود في منطقة صغيرة تابعة للامبراطورية الرومانية العظيمة الراقية – ان يبقى طويلاً بعد ان سقطت الامبراطورية التي كانت تبدو راسخة ومستقرة وبعد ان اصبحت في بطون التاريخ . وقد دام اكثر من اية فلسفة وعقيدة اخرى في بلاد اليونان والرومان .

واذا كانت لبعض حوادث حياة المسيح او تعاليمه ما يشبهها في التراث الديني لبلاد الشرق القديم فان الانسان لا يستطيع ان يجد في اي مكان آخر مثل هذه الخلاصة المحكمة من الافكار النبيلة وهذا التأكيد على المثل السامية ، كما انه ليس باستطاعة احد ان يكتشف في اي زمن شخصاً طبق ما علمه بمثل هذه الصورة التامة .

كان اساس هذه الرسالة الجديدة المحبة ، محبة الله ومحبة الانسان . والمحبة الواحدة تفترض الاخرى . والله نفسه محبة . وبالمحبة جعل المسيحيون الانسانية عائلة واحدة تحت ابوة واحدة . وهكذا وضعت المسيحية الاولى مثلاً عالمياً اعلى بخلاف المثل الاعلى الاقليمي الذي كان يسود في كل مكان . وكان اليونان والرومان يفكرون بالانسانية على اساس القومية ؛ بينما المسيحيون السوريون كانوا اول من اعطى العالم نظرة عالمية فعالة . ولم تكن نظرتهم الى العالم بانه كسب يجب الحرص عليه وانما نظروا اليه كعب . ومجتمعهم لم يكن له طموح دنيوي . وكانت الديانة في جميع تعاليمها تؤكد على واجب تكريس الانسان نفسه لله بصورة لا تعرف الاثنية وعلى خدمة الانسان وعلى الروحانية الداخلية عوضاً عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية .

لم تتخذ اي من العقائد الملنستية المحبة كفلسفتها الاساسية . والرواقية ونحدها حاولت السير في ذلك الاتجاه . ولم تعلم اية عقيدة سابقة بان هناك المأ فادياً يتم حتى باحث افراد الجنس البشري . كما انه لم تكن لاية منها رسالة حيوية تتوجه للفقير والمنبوذ ، وللعشار والحاطي . وقبلما اثرت اية ديانة وثنية على الدوافع الداخلية للسلوك والحياة . فقد كانت كلها تهتم بصورة رئيسية بالطقوس . ولم توجد اية منها

مثل ذلك الارتباط الفعال بين الدين والاخلاق او تخصص مثل ذلك الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحية .

قرنت المسيحية الحياة الاخلاقية بالدين بصورة وثيقة . فاصبح الاحسان عندئذ من اعمال الايمان بدلاً من ان يكون من اعمال العدل . واعطى الدين الجديد للمضطهدين وعديمي الحظ الامل في حياة ثانية تقدم للابرار المسرات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا . وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمن كان محسناً لشعبه فقط او لمن ادخل في احدى ديانات الاسرار .

وكان الدين الجديد في مجموعة افكاره وتعاليمه الاخلاقية وفلسفته في الخلود وعقيدته الراسخة قادراً كما يبدو على تلبية المطالب الروحية والفكرية والاجتماعية التي كان المتنورون غالباً يتطلبونها من دياناتهم التقليدية في كل مكان بدون ان ينجحوا في الحصول عليها . ثم ان الكنيسة في تنظيمها كمؤسسة وضعت اساليب فاقت كثيراً كل ما وضعته الديانات الاخرى . وشق هذا الدين السوري طريقه ببطء ولكن بصورة اكيدة الى مرتبة التفوق الروحي . وبهذا الدين انت الحضارة السورية بآثرها الثالثة وهي اعظم مآثرها في سبيل تقدم العالم . والعالم المتسدين لا يقدر دائماً بان التعبير الاساسي عن اعلى مثله كان في الادب المسيحي .

تقدم المسيحية

كان مقدار تقدم المسيحية بطيئاً اول الامر . ولا بد ان المسيحية قد بدت للمواطن الروماني المتوسط حتى اواخر القرن الاول كمنذهب يهودي غامض وانها من الفلسفات الكثيرة الاخرى التي كانت تنتشر من الشرق الادنى . وكانت نواة المجتمعات المسيحية الاولى مؤلفة من اليهود . وقد حكم الامبراطور دوميتيان على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية ويقصد بدون شك المسيحية . ولم تستلقت امكانيات الدين الجديد انظار الناس بوجه عام حتى زمن تراجان . وعندما اعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة قام الكتاب اليونان واللاتين بحاربون الدين الجديد . وكانت الاديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتاب تقفون بالاجماد الماضية للتاريخ القومي . وكانت بالنسبة للرومان بصورة عامة رمزاً للسلطة الامبراطورية .

وبالإضافة الى ذلك فقد بدت بعض مظاهر الدين الجديد غريبة على الفكر الروماني اليوناني . ولكن الهوة ازيلت نهائياً بجهود بولس والآباء المسيحيين الاوائل ، ذلك بان هؤلاء الكتاب باعطاء المسيحية شكلها الهليني جعلوها ملائمة للانتشار في العالم . وكان بولس يعرف اللغة والفلسفة اليونانية واستعمل التعابير والمصطلحات الفلسفية وتبنى بعض آراء من ديانات الاسرار . وبفضل الطريقة التي انتهجها تم التوفيق بين الديانة المسيحية والحضارة اليونانية . وقد اتخذت المسيحية طابعاً هلينياً قبل ان تصبح مقبولة لدى الرومان واليونان . ويجب الاعتراف بان عباداتهم الوطنية كانت تتجه نحو التوحيد . وساعد ازدياد حركة السفر والتبادل على تقويض الولاء لعدد من الآلهة المحلية واحلال عدد محدود من الآلهة تتمتع بمفعول اوسع . وقد ساعد استبدال الجمهورية بالنظام الملكي على ذلك الاتجاه . فحين يدين الانسان بالولاء الى حاكم رئيسي واحد على الارض يسهل عليه الولاء لحاكم رئيسي واحد في السماء . وقد عملت كل هذه الظروف لصالح المسيحية ولكن قبل ان يتأكد لها النصر كان على اتباعها المتسكين بها ان يتعرضوا لنار الاضطهاد .

الاضطهاد

ولما كان اليونان والرومان يعتقدون بألهة متعددة فانهم كانوا بوجه العموم متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الاخرى . والواقع انهم ذهبوا الى حد اضافة آلهة جديدة الى مجموع الهتهم . وقد سمحوا حتى في عاصمة امبراطوريتهم بالعبادة المصرية الغريبة والشعائر اليهودية وابعوا تمثيل المسرحيات ليس باللغات اللاتينية واليونانية فحسب بل باللغات العبرية والفينيقية والآرامية . وكانت سياستهم في شؤون الدين «عش ودع الآخرين يعيشون» . وبما ان المسيحيين كانوا موحدين فانهم لم يتمكنوا من التساهل وكانوا نشيطين متحمسين في بحثهم عن اتباع جدد لديانتهم . وامتمعت جماعاتهم الاولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينية والرسمية في مدنهم . ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العادات الوثنية بالاضافة الى جدهم المستمر في كسب الاتباع كان لا بد ان يؤدي الى الاصطدام .

حصل اول اضطهاد عنيف في عهد نيرون بمناسبة حدوث حريق عارض دمر قلب مدينة رومة في ٦٤ م . وفسر الجمهور الناقم هذا الحريق بأنه حادث آخر من

حوادث لهو امبراطورهم الجنوبي. وعندما ارتاع نيرون من ذلك حاول ان يلقي التهمة على المسيحيين في العاصمة وامر ببادتهم جميعاً^١. ومع ان هذا الاضطهاد كان محلياً فقد تلتته حوادث متفرقة ضد المسيحيين في الولايات^٢. وفي عام ٦٧ م يعتقد انه حكم على بولس بالموت في رومة لكونه مسيحياً وذلك وفق القانون الذي اصدره نيرون^٣. ويبدو ان بطرس استشهد بالصلب في رومة^٤ حوالي نفس الوقت الذي استشهد فيه بولس بالسيف^٥. وقتل كثيرون بنفس الوقت. وقد اثارت عزلة المسيحيين عن بقية الجماعات الشكوك والاقاويل حولهم. وكانوا بمثابة كبش مناسبت للقداء بالنسبة للرعاع كلما حل بالمدينة او بالسكان حادث شؤم. وكثيراً ما كانت الحكام المحليون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيين لعضويتهم فيما اعتبروه جمعيات سرية.

وحدث الاضطهاد العنيف التالي سنة ٩٥ م. في عهد دوميتيان. وكان ايضاً محلياً وموجهاً بصورة خاصة ضد اليهود الذين كان الرومان لا يزالون يخلطون بينهم وبين المسيحيين في كثير من الاحيان. وكان بين الذين حوكموا في هذه الاضطهادات احفاد يهودا، اخي المسيح، الذين اطلق سراهم باعتبارهم «جماعة بسطاء»^٦. وفي عام ١١٢ اصدر تراجان مرسوماً ينص على ان المسيحيين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللإمبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة فانهم سيعاقبون كخونة. وكانت عبادة الامبراطور اكثر عبادات الدولة قوة وانتشاراً وقد اثنأها اوغسطس واصبحت تعبيراً مادياً للولاء نحو العرش. وجعل مرسوم تراجان المسيحيين خارجين حقيقيين عن القانون في مئتي السنة التالية. وكانوا يلاحقون ويعاقبون بشكل منتظم في مناسبات متعددة. وعندما بدأت الامبراطورية تسير نحو الانحطاط في القرن الثالث واخذت الكنيسة المسيحية تصبح

(١) انظر: Tacitus, *Annales*, Bk. XV, ch. 44.

(٢) قارن مع رسالة بطرس الرسول الاولى ٤: ١٣ - ١٩.

(٣) قارن مع رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس ٤: ٦-٨.

(٤) انظر انجيل يوحنا ٢١: ١٨ - ١٩.

(٥) انظر: Lactantius, Bk. II.

(٦) انظر: Eusebius, *Historia ecclesiastica*, Bk. III, ch. 20, §§ 1-4.

آمنة في طريق تقدمها حاول اصحاب الشأن القضاء على المسيحية كوسيلة لاعادة نفوذ الدولة . وفي عام ٢٥٠-٢٥١ اوجب ديقوس Decius من جديد معاينة كل من رفض القيام بالعبادة الرسمية لآلهة الدولة . وفي عام ٢٥٧-٢٥٨ لم يوجب فالريان على المسيحيين ان يقدموا الذبائح علناً فحسب بل منعهم من عقد اجتماعاتهم معاً . وهكذا فقد ترك بعضهم بصورة علنية ، على الاقل ، دينهم .

كان ديوكليتيان هو الذي امر بالاضطهاد الكبير الذي وقع على المسيحيين في القرن الرابع . وقد نص مرسومه الذي صدر في شباط ٣٠٣ على نحو كنائسهم وحرقت كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه . وامر بفرض جميع انواع العقوبات باستثناء الاعدام ولكن حتى الاعدام نفسه طبق وعلى مقياس واسع . وكان هذا المرسوم مثار دهشة لانه صدر عن شخص كان يميل الى المسيحيين علناً . ويظن ان زوجة ديوكليتيان وابنته كانتا مسيحيين^١ . ويبدو ان الامن والازدهار اللذين كان يتمتع بهما المسيحيون في البلاد كلها قد اثارا حسد كبار الموظفين والكهنة الوثنيين الذين ملأوا رأس الامبراطور بتقارير عن موآمرات واعمال شغب مزعومة . وكانت هنالك اسباب اخرى لهذا الاضطهاد . واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات بشدة لا يعلمها شيء . واستخدمت عبقریات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب . ويتحدث يوسيبوس^٢ عن مسيحيين في الجزيرة العربية ذبحوا بالفاأس وعن آخرين في انطاكية شويت اجسامهم على المشواة . ويذكر ايضا اخبار نساء كن يرمين انفسهن في نهر العاصي للخلاص من الاعتصاب وبلغ من كثرة الذين افنوا في الامبراطورية بهذه الطريقة ان اقام الجلادون الامبراطوريون اخيراً عمود نصر يحمل كتابة اثرية تفتخر بانهم ابادوا اسم المسيحيين وخرافتهم واعادوا عبادة الالهة الى سابق صفائها وزهوها . وبعد سنوات قليلة اصبحت المسيحية في عهد قسطنطين الديانة الرسمية للدولة . وكان اضطهاد ديوكليتيان آخر اضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية .

ديانات الاسرار

حين كانت المسيحية تتجه الى السيطرة على العالم كانت تنافسها ديانات اخرى

(١) انظر : Lactantius, Bk. XV.

(٢) انظر : Eusebius, Bk. VIII, ch. 12, §§ 1, 2.

من اصل شرقي ومن أبرزها ديانات الاسرار . وكانت آلهة الاسرار بالاصل آلهة نبات ثم اصطبغت في هذا العصر بالهلينية تماماً وتبناها اليونان والرومان . وكان ديونيسوس^١ من اقدم هذه الآلهة وهو اله الخمر وروح حياة النبات بوجه عام . وكانت ايزيس المصرية ارفع الآلهة الموثنة شأنًا . وقد اعترف كاليغولا (حوالي ٤٠ م.) بها بين العبادات الرومانية الرسمية . وبلغ من شيوع عبادة ايزيس انها انتشرت في جميع الامبراطورية في القرنين الاول والثاني الميلاديين .

كانت ديانة ميثرا Mithras وهو بالاصل اله الشمس عند الفرس احدث ديانات الاسرار الجديدة واكثرها شعبية . وقد بدأت كعبادة زردشتية ثم لقيت في القرن الثالث الميلادي ترحيباً عظيماً وخاصة بين الجنود الرومان . وقد استهوتهم بصورة خاصة قوة هذا الدين الذي صور الحياة كصراع مستمر بين اله خير وبين قوة شريرة . وبدا الامر لمدة من الزمن بان المصير هو اما فوز المسيحية او ديانة ميثرا .

ومن صفات ديانات الاسرار كونها سرية . وكان الانتساب اليها مقتصرًا على اولئك الذين اتبع لهم الاطلاع على اسرارها . وكانت آخر مرحلة في الاطلاع هي ابلاغ الشخص بان الذي يتمتع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص . وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة الاتحاد الشخصي مع مخلص الهى اخترت الحياة والموت بنفسه .

ومن المظاهر الاخرى لديانات الاسرار التعبير عن المشاعر الشخصية بجملة اكثر مما تسمح به طقوس الدولة والعائلة^٢ . وبما ان ديانات الاسرار كانت تقتصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسمية فانها التجأت الى وسائل جديدة لكي تكسب اتباعاً جديداً - وكثيراً ما كانت تحوي احتفالاتها عنصراً «تجددياً» قد يبلغ حد الخلاعة . وبالإضافة الى ذلك فقد وعدت هذه الديانات اولئك الذين اجتازوا مراحل الاختبار الضرورية بحياة سعيدة . وبعد الموت يرتفع المطلع على الاسرار الى العالم الالهى ويسكن مع الآلهة . وفي هذه الامور وكذلك في نظرية الخلاص تشابه هذه الديانات مع المسيحية وتلاقي ترحيباً لم يكن في وسع العبادات الرومانية اليونانية ان تقدم ما يكفي لمقاومته .

(١) انظر في ص ١١٨ .

(٢) انظر : Franz Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain*, 4th ed. (Paris, 1929), pp. 24 seq.

تنتسب المذاهب الغنوسية (التي تعتقد بالمعرفة دون الايمان) وديانات الاسرار الى نفس النموذج الديني . فالفكرة الرئيسية في كليهما هي الغنوسيس Gnosis اي المعرفة السامية والاستنارة الروحية التي تتاح للمختارين بحيث يمكن انقاذ الروح من حال عبوديتها. والمرويات المسيحية تجعل سيمون الساحر (اعمال الرسل ٨ : ٩ وما بعدها) مؤسس الحركة الغنوسية .

كان للمسيح في سورية ذاتها عدة منافسين في القرنين الاولين . وكان اقوى هؤلاء حدد-رمانو الذي تحول في العصر الملنسي الى زفس (او جوبيتر) الذي كان من دمشق او من هليوبولس (بعلبك) او من هيرابولس (منبج) . وانتشرت عبادته في جميع الامبراطورية . وكانت رفيقته اتارغاتس منافسة لايزيس وللعذراء . وهناك زفس او جوبيتر آخر في بلدة دوليكة Doliche^١ وقد عاش « حيث يوجد الحديد» . ونجح جوبيتر دوليكنوس وهو بالاصل تيشوب Teshub^٢ اله الحثيين في نشر عبادته في الامبراطورية كلها بصحبة الجيوش الرومانية . وكما كانت الحال بالنسبة لسائر الديانات الشرقية فقد نقل الجنود والعييد والتجار طقوس عبادته الى اكثر البلاد الاوربية . وكان اخلص اتباعه في بادىء الامر الحدادون وهم احسن من يتقن الحرفة في آسيا، غربي الصين . فحيثما تجدد جماعة هذا الاله المتفرقة الحديد فهناك تقيم اكرارها وتمارس الفنون التي ورثتها . وكان المها يسافر معها . «وقد يمكن للرومان ان يغلبوا السوريين ولكن آلهة الرومان قد تخلت عن مكانها لآلهة سورية»^٣ .

مراكز المسيحية في سورية

كان اول مركز للمسيحية السورية المنظمة في مدينة انطاكية . واصبحت كنيسة انطاكية بصورة خاصة ام الكنائس التي انشئت في البلاد الوثنية . وكان بولس وغيره من الدعاة الاوائل للدين المسيحي ينطلقون من انطاكية للبدء في اعمالهم التبشيرية ثم يعزودون اليها لرفع التقارير عن اعمالهم . واصبحت انطاكية

(١) هي عيتاب، انظر: Franz Cumont, *Études* (Dussaud, *Topographie*, p. 472; *sgriennes* (Paris, 1917), pp. 173 seq.

(٢) انظر في ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) انظر : Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 123.

بعد ان دمر الرومان في ٧٠ م. منافستها اورشليم العاصمة الوحيدة للعالم المسيحي وتمتعت لبعض الوقت بمقدار معين من السلطة على الابريشيات المجاورة على الاقل . وكان يدعى اسقفها في القرن الرابع رئيس اساقفة (متروبوليت Metropolitite) . وعقد في المدينة اكثر من ثلاثين مجعماً للاساقفة (سينودس) وكان انعقاد اولها في عام ٢٦٥ . واطلق اسم انطاكية على احدى مدارس اللاهوت التي كان المع افرادها يوحنا فم الذهب Chrysostome (توفي ٤٠٧)^٣ . وعلى عكس الاتجاه العاطفي والصوفي في الدين اكدت المدرسة على العنصر الانساني وركزت الاهتمام على المسيح التاريخي . وكانت لغة المدرسة ، كما تأكد ، اللغة اليونانية .

كانت اليونانية والآرامية تستعملان في العبادة منذ عهد الرسل . وبعد ان ارتقت انطاكية الى مكانة الزعامة في الجزء الذي يتكلم اليونانية في سورية بدأت اديسا بالارتقاء الى مكانة مشابهة في البلاد التي تتكلم الآرامية (السريانية) . وكانت اديسا اقدم مركز للمسيحية في ما بين النهرين^٤ ، كما كانت مهد الادب السرياني . ويرجح ان التوجهات الرئيسية للتوراة السريانية قد وضعت هناك في اواخر القرن الثاني . وادت المجادلات حول طبيعة المسيح في القرنين الرابع والخامس الى تجزئة المسيحية السورية الى عدد من الفرق^٥ .

آباء الكنيسة

تدين المسيحية بقسم كبير من نجاح انتشارها الى سلسلة من المؤلفين المعروفين بآباء الكنيسة الذين فسروا عقائد الكنيسة ووسعوها . ويسمى اول ستة منهم الآباء الرسولين لانهم عاصروا الرسل في بعض ادوار حياتهم . وكان احد هؤلاء سورياً يدعى اغناطيوس Ignatius « الذي خلف بطرس في اسقفية انطاكية » .

(١) انظر ما سيأتي في الفصل التالي .

(٢) انظر : Eusebius, Bk. VII, ch. 29.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٧ .

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

(٦) انظر : Eusebius, Bk. III, ch. 36.

وتذكر المرويات انه حين زار تراجان انطاكية في عام ١٠٧ تصرف هذا الاسقف في حضرة الامبراطور بجرأة كانت نتيجتها انه أرسل الى رومة حيث اعلم في المدرج وذلك باقتراس الحيوانات الكاسرة له . وقد وصلتنا من بين مؤلفاته المختلفة سبع رسائل اصيلة .

وبين الآباء الذين عاشوا قبل مجمع نيقية (١٥-٣٢٥ م.) شخصان بارزان كانت لهما صلة بسورية وهما يوستين الشهيد Justin (the) Martyr اوريجين Origen . وقد ولد يوستين في نابلس حوالي العام ١٠٠ م. ولكنه لم يكن من ابوين سامريين. وكان طالباً متحمساً للفلسفة الافلاطونية ثم اعتنق المسيحية نتيجة محاوره جرت له مع شيخ متواضع وقور لقيه على الشاطئ، واوراه الشيخ بدراسة الانبياء العبرانيين والمسيح . وكثيراً ما كان يشار الى يوستين باسم الفيلسوف . وقد ادخل عناصر من الفلسفات الافلاطونية والرواقية في اللاهوت المسيحي وحارب تعاليم الغنوسطين. وكان هناك معاصر له من المسيحيين الغنوسطين اسمه ماركيون Marcion قد فرق بين اله العهد القديم واله العهد الجديد وقال ان المسيح قاسى الآلام بالظاهر فقط . وانتقلت الهرطقة الماركيونية من رومة الى انطاكية وبقيت سورية .

وتجراً يوستين حين خاطب الامبراطور انطونينوس بيوس قائلاً : « اما نحن فاننا مقتنعون باننا لن نسمح لاي كان ان يلحق بنا الاذى ما لم يثبت علينا فعل الاذى او يقوم البرهان على اننا رجال سافلون ، اما بالنسبة لك فاقتلنا لانك تستطيع ذلك ولكن لا تستطيع ان تؤذينا » وينسب الى يوستين انه افتتح اول مدرسة مسيحية في رومة . وقد جلد فيها وقطع رأسه لانه رفض ان يقدم الذبائح للالهة ويظن ان ذلك كان في عهد ماركوس اوريلوس . وقد جعلته الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية قديساً . وكان اوريجين يرأس مدرسة لتعليم الدين المسيحي في الاسكندرية كما اسس مدرسة اخرى في قيصرية . وتوفي نحو عام ٢٥٣ في صور حيث يشيرون حتى اليوم الى قبره المزعوم بانه قبر الساحر الكبير اوريانوس .

الفصل السادس والعشرون

التأثير السورتي والتأثير الروماني

لم يكن توغل المسيحية حتى اقصى اطراف الامبراطورية الرومانية وانتصارها النهائي على جميع الديانات اليونانية والرومانية وعلى منافساتها في الشرق - الا ناحية من نواحي انتشار تأثير الحضارة السورية وهي الناحية الدينية . اما النواحي الاخرى فكانت الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وفي هذه الاثناء كانت عمليات نشر الحضارة الرومانية تعمل في اتجاه معاكس .

التأثير الروماني عن طريق الرعوية

كان انتشار الحضارة الرومانية يتضاءل كلما بعدت المسافة عن رومة . ولم يكن في سورية سوى عدد قليل من المقيمين الايطاليين ليكونوا بمثابة مركز لنشر الثقافة اللاتينية . وكان اغلب هؤلاء من الموظفين الحكوميين الذين يجبون الضرائب ويفصلون في القضايا الهامة ويحضرون الالعب والاحتفالات ولكنهم بقوا يعاملون كأجانب . ولكن الاباطرة منذ البدء كانوا يمنحون السكان الوطنيين في مستعمرات مثل بيروت وهليوبولس حق الرعوية الرومانية فيحوزون مكانة ممتازة بين سكان الولايات . كما ان بعض المدن الاخرى التي لم تكن من المستعمرات اعطيت حق الرعوية او بعض الامتيازات الخاصة اما عن طريق المنحة او المعاهدة . وقد تمتعت صور مثلاً حتى بحق الاعفاء من الضرائب العادية . وكانت سياسة «فرق تسد» اسلوباً سياسياً رومانياً قديماً طبق ليمنع المدن او الجماعات المختلفة من التكتل معاً ضد رومة .

ان سياسة منح الامتيازات الرومانية لغير الايطاليين قد ازدادت بشكل ملحوظ عندما اعتلى تراجان الاسباني الاصل عرش القياصرة . وبلغت هذه السياسة ذروتها في ٢١٢ م حين اصدر كرا كلا مرسومه المشهور بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات تقريباً . واصبح منذ ذلك الحين فصاعداً اي سوري

مواطناً رومانياً بحكم الواقع ويحق له استلام اعظم وظيفة في الدولة اذا كان اهلاً لذلك. غير ان الفوائد كانت مقتصرة في الواقع على النفوذ الاجتماعي وبعض الفوائد الاقتصادية. ولا بد ان صحة بولس « انني مواطن روماني »^١ « وانني ارفع امرى الى قيصر »^٢ قد ردها كثير من السوريين في تلك الايام. ومع هذا فان ذلك لا يعني ان السوريين لم يعودوا يشعرون بانهم سوريون. وكانت الحضارة الهلينية في ظل الحماية الرومانية تسلك الطريق الصحيحة نحو حل المشكلة المعقدة وهي مشكلة صهر مجموعة من القوميات المختلفة في شبه وحدة في مجال الفكر والسياسة. وصار يبدو ان حكم الاسكندر المنسي وهو مشاركة المنتصرين والمغلوبين قد تحقق جزئياً.

التأثير الروماني عن طريق الخدمة العسكرية

كان الرومان منذ البداية يستخدمون غير الايطاليين كفرق احتياطية. وبالتدريج اصبحت الفرق الرومانية نفسها تتألف من عدد كبير من السكان الاصليين. وكان افراد الجيش يصبحون بصورة آلية مواطنين رومان. وكان الجنود السوربون في الوحدات الرومانية يرابطون في مختلف اقسام الامبراطورية. وعندما ذهبت الفرقة الثالثة الى ايطاليا لتساعد في توطيد مركز فسباسيان حيا جنودها الشمس المشرقة «حسب العادة السورية»^٣. وكانت تضم الفرقة المرابطة في نوميديا نسبة كبيرة من المحاربين السوريين القدماء من افامية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا وصور. وكانت اللاتينية لغة الجيش. ونستنتج من الكتابات الاثرية التي خلفها الجنود السوربون الذين خدموا في الولايات الغربية عند عودتهم انه يمكنهم استعمال اللاتينية. واتخذ بعضهم اسما رومانية او على الاقل كانت اسماءهم الاولى رومانية.

كانت اللاتينية ايضاً اللغة الرسمية للحكام. فالمراسم الامبراطورية كانت تصدر باللاتينية ومعها ترجمة يونانية^٤. وحلّ التقويم الروماني محل كثير من التقاويم المحلية كما اقتبس نظام الاوزان والمقاييس الروماني بشكل عام.

(١) قارن مع اعمال الرسل ٢٢: ٢٧.

(٢) انظر اعمال الرسل ٢٥: ١١.

(٣) انظر: Tacitus, *Historiae*, Bk. III, ch. 24.

(٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 12, § 5.

المقاومة اليهودية

كانت الجماعة اليهودية اقل الجماعات السورية المتعددة استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية . وكانت الارستقراطية قد اصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية . وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الحزب الارستقراطي ويحتكرون الوظائف على تأييد رومة . اما الفريسيون الذين مثلوا عامة الشعب فقد تمسكوا بتقاليد ديانتهم وهدفوا الى التحرر . ويتصل الفريسيون من حيث مثالياتهم بالهاسيديم Hasidim من العصر المكابي^١ .

عومل اليهود منذ عهد يومي كجماعة متميزة بسبب الوحدانية الشديدة لدينهم . فكانوا في عهد الاباطرة معفيين من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الامبراطور . فلم يطلب منهم المساهمة في عبادة الحاكم الروماني المقرونة بتقديم القرابين له . وكانوا يمارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغذون شعورهم القومي . وادى هذا الى اصطدامات اتسعت فاصبحت ثورة قومية بين ٦٦ - ٧٠ م . في عهد نيرون وبين ١٣٢-١٣٤ تحت حكم هادريان . ونتج عن هاتين الثورتين الانفصام النهائي بين اليهود والمسيحيين وحلت بالجمتمع اليهودي كارثة دائمة .

تدمير تيطس لاورشليم

عهد نيرون بجمعة قمع الثورة الاولى الى قائده فسباسيان^٢ الذي اخضع بين ٦٧-٦٨ منطقة الريف والحصون المنعزلة^٣ . وكانت يافا بين المدن التي دمرت . وقد بلغ عدد الجيش الروماني ٥٠,٠٠٠ ولم يلاق سوى مقاومة ضئيلة . وحين كان فسباسيان على وشك محاصرة اورشليم توفي نيرون ورفع هو الى العرش . وعهد بأمر انهاء المهمة الحربية الى ابنه تيطس الذي شدد الحصار على اورشليم مدة خمسة اشهر انتهت في ايلول سنة ٧٠ . ويمكننا الحصول على فكرة عن مصير المحاصرين المنفجع من وصف ميثاق متبادل بين اليهود تعهدوا فيه بباداة انفسهم حين كان

(١) انظر في ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) انظر : Dio, Bk. LXIII, ch. 22, § 1.

(٣) انظر : Josephus, War, Bk. II, ch. 18, §§ 1, 3-4.

الجنود الرومان يفتحون المدينة . فبعد ان ابادوا نساءهم واولادهم توقف كل منهم عن القتال ورمى سلاحه حول افراد عائلته المذبوحين وقدم رقبتة لضربة من الذي جعلته القرعة يقوم بهذه المهمة الكثيرة . وقد كتب الوصف التالي مؤرخ ساهم بنفسه في هذه الحرب^١ :

كان الازواج يضمنون زوجاتهم بيمان ويمولون اطفالهم بين اخرعهم ويتعاقبون عناق الوداع والدموع تترقق في مآقهم . ولكنهم نغفوا في الوقت ذاته ما اعترموا عمله كأنهم يعملون ذلك بايدي غريبة . وقد جلوا عزاهم لقرورة ما قاموا به تفكيرهم بلصائب التي سيقاسونها فيما لو سقطوا بايدي اعدائهم . وكانوا رجالاً تساء بالحقيقة بسبب الضرورة التي وجدوا فيها وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم واطفالهم بايديهم اهون الشرور التي تنتظرهم^٢ .

لقد هدمت المدينة واحرق المعبد وهو المعبد المزخرف الذي بناه هيرودس فوق ابنية متعاقبة في نفس الموقع . وكان التهديم الذي قام به تيطس تاماً حتى ان الناس نسوا اذا كان المعبد قد بني على التلة الشرقية او الغربية في اورشليم . وقد فشلت جميع محاولات اعادة بنائه بالاستناد الى وصف التوراة وحدها . وقد بان مليون يهودي قد هلكوا في هذه الحرب . واجبر كثير من الاسرى بان يقاتل الواحد الآخر او يقاتلوا ضد الحيوانات المفترسة في المدرجات . ومنعت البقية الباقية من اليهود من الاقتراب من عاصمتهم . والواقع انها لم تعد عاصمتهم . وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود . واصبح اليهود منذ ذلك الحين شعباً بدون وطن . وهكذا اضيف فصل روماني في تاريخ تفرق اليهود (الدياسبورا) الى الفصول الاشورية والكلدانية .

وقد اختطف احد الجنود الرومان الشعبان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق وحمله في موكب النصر الذي كرموا به عودة تيطس الى العاصمة الامبراطورية . وحتى هذا اليوم لا يزال يحمله احد الجنود عالياً على القوس المشيد قرب الفوروم يرومة لذكرى الانتصار العظيم . اما بخصوص الديانة اليهودية فقد انحطت بانحطاط اتباعها . ولم يكن اساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها

(١) انظر في ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٢) انظر : Josephus, War, Bk. VII, ch. 9, § 1. هذه الفقرة هي من الترجمة المنعمة التي قلم بها : A. R. Shilleto (London, 1890). Cf. Dio, Bk. LXV, ch. 6, § 3.

وفشلت جميع محاولات العلبة اليهود ابتداءً من فيلون الاسكندري (زها عام ٤٠ م) لتقريبها الى العقلية اليونانية الرومانية .

تعرض اليهود لقصه موت أخرى حين رفع راية الثورة اليهودية من ١٣٢-١٣٥ م. قائد غامض يسمى سيمون باركوخبا ^١ Simon Bar Kokba (Kochba). وقد سحق هادريان الثورة وحوّل اورشليم الى مستعمرة رومانية باسم ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina ^٢. وكان اسمه الاول ايليوس Aelius. وابدل المعبد القديم بمعبد كرس لجوبيتر كابيتولينس Jupiter Capitolinus. ويقدر ديو ^٣ عدد القرى التي دمرت بتسعمئة وخمس وثمانين قرية وعدد القتلى من السكان بمجمئة وثمانين ألفاً .

السلالة السورية في رومة

فتحت ابواب النفوذ السوري في رومة على مصاريعها عند ما نجح زوج سيدة من حمص باحتلال عرش القيصرية حوالي اواخر القرن الثاني . وكانت تلك السيدة جوليا دومنة ابنة كاهن الاكبال في حمص . اما الزوج فكان سبتيموس سفيروس قائد احدى الفرق في سورية . وتم الزواج حوالي ١٨٧ م .

ولد سبتيموس في لبتيس Leptis (هي لبدّة اليوم في طرابلس الغرب) وكانت مستعمرة فينيقية في افريقيا . وكان الامبراطور الروماني الوحيد في التاريخ الذي قدم من تلك القارة . وكانت اللاتينية بالنسبة اليه لغة اجنبية وظل يتكلمها برطانة طيلة حياته . اما لغته فكانت البونية التي لا تختلف كثيراً عن الآرامية ، لغة زوجته . وقد اعتلى سبتيموس العرش في سنة ١٩٣ م. ^٤ وادعى الانتساب الى

(١) هو تمير آرامي يعني « ابن الكوكب » وقد تكون فيه اشارة الى سفر العدد ٢٤ : ١٧ . ودعاه اليهود بمد هزيمته باركوزيبا Bar Koziba اي « ابن الكذب » .

(٢) انظر : Eusebius, Bk. IV, ch. 5. ; فان مع : Dio, Bk. LXIX, ch. 12. حيث يجعل تأسيس المستعمرة الرومانية سبب الحرب وليس نتيجتها .

(٣) انظر : Dio, Bk. LXIX, ch. 14, § 1.

(٤) راجع بشأن نزاعه مع ليجر وغيره من المنافين : Herodian, *Historiarum*, Bk. III, chs. 1 seq.

ماركوس اوريليوس على اساس انه تبناه ولكن هذا التبني حصل بعد وفاة ماركوس وكان مزوراً ، وبذلك اتصل بالاسرة الانطونية .

وقد وصفت جوليا دومنة بانها كانت على جانب عظيم من الجمال والقوة الفكرية والمقدرة السياسية والادبية . وقد منحت لقب اوغسطا وساعدت زوجها في تصريف شؤون الدولة . وكان كبير المستشارين احد اقربائها وهو الفقيه بايينان^١ . وعندما توفي زوجها في ساحة المعركة في بريطانيا (٢١١ م) بقيت مسيطرة على ولديها كراكلا وغيتا وقد خلفا والدهما كأمبراطورين .



تمثال نصفي لجوليا دومنة يظهر شعرها المتجمد

كان اسم كراكلا الحقيقي باسيانس Bassianus بالنسبة لاسم جده لأمه . اما لقبه هذا فقد حصل عليه بسبب نوع من الجبة العالية التي ادخل استعمالها^٢ . وقد ولده هو نفسه في ليون Lyons في بلاد الغال . وكان الاخوان يكتان واحدهما للآخر منذ الطفولة اشد انواع البغض . ولذلك حاول كراكلا الآن وهو اكبر الاثنين ان يجعل نفسه الحاكم الوحيد وفي سبيل ذلك دبر اغتيال اخيه غيتا وهو في ذراعي والدته في جناحها الخاص . وكان غيتا قد دعي الى ذلك الجناح بجمعة المحاولة للتوفيق والصلح . واصيبت جوليا نفسها بجراح في يدها اثناء محاولتها حماية ابنها^٣ . وقد حدث ذلك في سنة ١١٢ وهي السنة التي منح فيها كراكلا حق الرعوية الرومانية لجميع سكان الولايات الاحرار . وكان آنثذ في الثالثة والعشرين ويكبر اخاه بسنة واحدة .

(١) انظر في ص ٣٦٠ .

(٢) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 3, § 3.

(٣) انظر : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 2, §§ 3-4.

ومنذ ذلك الحين حكم على الامبراطورة انوالدة التعيسة « ان تبكي على موت الولد الواحد وعلى حياة ابنها الآخر ».

بعد ان بدأ كراكلا سياسة سفك الدماء لم يعرف ابن يتوقف. وقد قتل جميع الذين اعتبرهم موالين لاختيه بالاضافة الى غيرهم وبلغ مجموع ضحاياه ما يقرب عشرين الفاً. وكان بين الضحايا بابينيان الذي ازدان به بلاط ابيه، وقد حكم كراكلا بقوة السيف واعجب بهانيبال فاقام له التماثيل في امكنة متعددة^٢. وطلب من مجلس الشيوخ ان يدرج اسمه بين الآلهة. وقد كتب احد المؤرخين المعاصرين له هذا المقطع في وصف كراكلا:

انتسب انطونينوس الى ثلاثة عروق لم يتحلّ بأية فضيلة من فضائلها، ولكنه جمع في نفسه كل عيوبها. فاخذ من بلاد الغال القلب والجن والطيش ومن افريقيا الحثونة والقسوة ومن سورية التي منها اصله عن طريق امه اخذ الدماء^٣.

وقفت والدة كراكلا مكتوفة الايدي تجاه هذا الفجور. ولم تجرؤ على ذرف دمعة واحدة على ابنها الذي اغتيل. وقد عهد اليها كراكلا بمراسلاته وبالأوراق الرسمية. وكان صالونها يضم بالاضافة الى بابينيان وخلفه اوليان كلاً من ديوجينس لاثرتيوس Diogenes Laertius^٤ كاتب تراجم المؤرخين اليونان، وديو كاشيوس Dio Cassius المؤرخ والموظف في الدولة، وفيلوستراتس Philostratus السفسطائي، وقد اشرنا الى مؤلفاتهم في هذا الكتاب. وكان جالينوس الطبيب اليوناني المشهور عضواً في هذه الحلقة التي جمعتها فتنة هذه السيدة السورية ذات الاصل الوضع نسبياً وتنوع معارفها. وكان اسم ابيها باسيانس Bassianus يعني الوضع بينما اسمها دومنة يعني سيدة. ومثل هذه الصفات النسائية التي اظهرتها دومنة كانت نادرة

(١) انظر: Edward Gibbon, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, vol. i (London, 1898), p. 141.

(٢) راجع بشأن مساهمته في المبد العظيم في هليوبولس ص ٣٤٤ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: Ernest Cary : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 6, § 1. هذا المقطع مأخوذ من ترجمة Ernest Cary (London, 1927), vol. ix, p. 291. ويقول الملاء البعثون اليوم ان المؤرخ ديو اعطى صورة بشعة لكراكلا خاصة لعدم مجاراته لمجلس الشيوخ الذي كان آنذاك عاجزاً تماماً.

(٤) دعي كذلك بالنسبة الى لاثرتس Laertes في كيليكية التي يذكرها Strabo, Bk. XIV, ch. 5, § 3. ولم يعين موقعها بالضبط حتى الآن.

الوجود عند السيدات الرومانيات الحقيقيات. وذكر عدد من المؤرخين بان اخلاقها كان يرتاب بها ولكن المؤرخ ديولا يذكروها اية فضائح .

كانت جوليا صدقة في انطاكية حين وصلتها انباء اغتيال ابنها بتعريض من مكرينوس Macrinus في مدينة اديسا (٢١٧ م). وكان مكرينوس قائد الحرس الامبراطوري وخلف ابنها في منصبه . وقد حاولت الانتحار جوعاً ليس بسبب حزنها على ابنها المكروه بل لانها لم تستطع التفكير بالعودة الى الحياة العادية بعد ان كانت تأمل ان تصبح الحاكم الوحيد وان تجعل نفسها معادلة لسيرايميس ونيتوكريس خاصة وانها كانت نوعاً ما من نفس البلاد التي تحدرت منها^١. ونجحت اخيراً محاولاتها المتكررة في الانتحار ونقل جثمانها الى رومة ليدفن فيها .

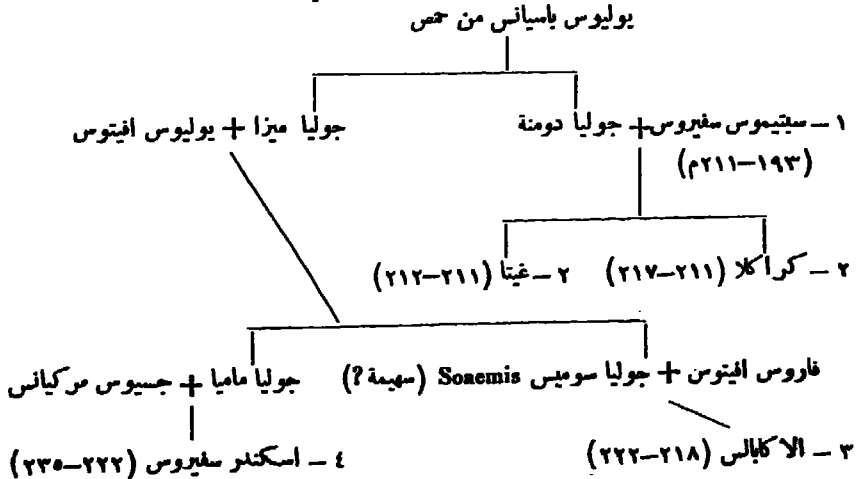
تابعت عمل جوليا دومنة شقيقتها الصغرى المقندرة جوليا ميزا Julia Musea^٣. وقد ولدت ميزا في حصص ثم انتقلت الى رومة بعد زواج شقيقتها . وبقيت تعيش هناك في البلاط حتى مقتل ابن اختها كراكلا . وتمكنت بالنظر لما تمتعت به من قوة عظيمة وحكمة سياسية وثروة ضخمة من التآمر بنجاح على قلب مكرينوس وترويج حفيدها الاكبالس^٤. وكان زوجها رومانياً غنياً شغل منصب القيادة العليا

(١) راجع بشأن الاسمال التي يمزوها الاقدمون الى هاتين السيدتين : Herodotus, Bk. I chs. 184-6.

(٢) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 23, § 3.

(٣) هي مؤنث كلمة ميزيوس Maesius وهو اسم روماني قديم .

(٤) كان اسم الاصل باسيانس بالنسبة لجداه الاكبر . وفيما يلي شجرة النسب للسلالة السورية :



في عدة ولايات ووصل الى رتبة القنصلية في سنة ٢٠٩ م. وكان والد إلاكابالس رجلاً سورياً من أفامية ولكن الصبي فيما ذكر قد ولد في حمص حيث ورث الكهانة. وقد دعم الجيش السوري هذا الشاب قريب جوليا دومنة البالغ من العمر الرابعة عشرة فهُزم مكرينوس وقتل في انطاكية سنة ٢١٨ م.

اله الشمس السوري يعبد في رومة

دخل الامبراطور الكاهن مدينة رومة منتصراً وهو يحمل الحجر الاسود المقدس في عربته. وكان هذا شعار اله بعل الحمصي وهو اله الشمس الذي تسمى باسمه. وكان يحتفظ به في الاصل في معبد حمص الفخم الذي كان يزدان بالذهب والفضة والجواهر^١ والذي كان يتمتع بحق التجاء الناس اليه. واصبحت عبادة الاله السوري متفوقة في العالم الروماني. وكانت الطقوس التي ادخلت معها فخمة جداً ترافقها ذبائح ثمينة كانت تقدم على مذابح تنوء بالعبور وتصب عليها خور معتقة لتختلط مع دم الضحايا. وازاد الامبراطور الى القابه العديدة لقباً جديداً وهو «الكاهن الاعلى للاله الشمس إلاكابالس الذي لا يقهر». اما بالنسبة لحكمه فكان تسمية حكم نسيبه وهو عبارة عن سلسلة من اعمال الفجور والرعوننة المتطرفنة. وكانت جدته تدير امور الحكم وعندما شعرت بقرب سقوطه اقنعت بان يتبنى حفيدها الآخر اسكندر سفيروس^٢ ويعينه خلفاه. وفي سنة ٢٢٢ اغتال الحرس إلاكابالس وخلفه الاسكندر المذكور.

كان اسكندر آنذاك فتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره وكان والده سورياً رفيع المرتبة من مواطني عرقة^٣. اما والدته وهي أرملة كشيقتها فقد نودي بها اوغسطا ومارست الوصاية. وكان اسكندر آخر افراد هذه السلالة السورية واحسنهم. وقد اعاد التحف الدينية والحجارة المقدسة الى اماكنها الاصلية وكان سلفه قد وضعها في رومة كما انه منع عبادة شخصه وهو على قيد الحياة واقام في محرابه

(١) انظر : Herodian, Bk. V ch. 5.

(٢) الاسم الاصلي هو الكسيانس باسيانس؛ انظر : Herodian, Bk. V, ch. 5.

(٣) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 30, § 3.

الخاص ثائيل نصفية لزردهشت و ابراهيم والمسيح . واستمعت والدته لمحاضرات الفقيه اوريجين . وقد انقص الترف في البلاط وخفف الضرائب ورفع مستوى النقد وشجع الادب والعلم ولكنه لم تكن لديه ثقة في نفسه كافية لان يتحرر من وصاية امه . ولم يستطع الحد من تعسف الطبقة العسكرية . وقد قتل مستشاره ورئيس حرسه اوليان في فتنه عسكرية . وفقد ديوكاشيوس قيادته في فتنه اخرى .

احتفل اسكندر في عام ٢٢٣ في رومة بانتصاره على الفرس بعد ان استرد منهم بلاد ما بين النهرين . وكان تجدد الروح القومية بحرك الآن هذا الشعب في ظل قائد جديد هو ارتخشستا مؤسس السلالة الساسانية (٢٢٧ م) على انقراض السلالة الفرثية^١ . وكان على الاسكندر ان يواجه هجوماً في بلاد الغال من القبائل الجرمانية حين قتل في ٢٣٥ في فتنه ذهبت ضحيتها والدته ايضاً .

فيليب العربي

بعد عشر سنوات من ذلك شاهدت رومة تتويج سوري آخر هو فيليب



قلعة تعود من عهد فيليب العربي

جانبا نقد بروتزي من بملك ضرب باسم فيليب العربي ٢٤٤ - ٢٤٩
ويظهر احد الجانبين منظراً جانبياً وامامياً لمعد جويتري في بملك

العربي . وقد ولد في قرية صغيرة في حوران^٢ وكان قائداً للحرس حين اغتيل سلفه وهو يقابل الفرس فنادى به الجنود خلفاً له . وقد صادق مجلس الشيوخ على هذا

(١) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 3, §§ 1-4; Herodian, Bk. VI, ch. 2.

(٢) انظر في ص ٣٥٠ .

الاختيار في سنة ٢٤٤. ولم يجعل هذا الامبراطور السوري اسمه مكروهاً باي استغلال استبدادي للسلطة، الا ان ذكرى الاساليب الدينية التي استخدمها لانعام القضاء على سلفه المحبوب لم تنس ابدأ. وقد اكسبته حملاته ضد القبائل على الدانوب الاسفل لقب جرمانيكس مكسيموس Germanicus Maximus. وكانت من نصيب هذا السوري العربي ان يرأس في سنة ٢٤٨ احتفالات ذكرى مرور الف سنة على تأسيس رومة. وقد جرت الالعب وغيرها من امور التسلية بروعة عظيمة. وكان الامبراطور يعتبر مؤيداً للمسيحية اذا لم نقل مسيحياً تماماً ويقال ان بعض الرسائل قد وجهها اوريجين اليه والى الامبراطورة^١. ومع ذلك فلم يترك اي تأثير على الكنيسة. ويجمع المؤرخون على اعتبار قسطنطين اول امبراطور مسيحي. وفي عام ٢٤٩ لقي نفس المصير الذي حل باباطرة كثيرين آخرين في هذه الفترة وهو الموت العنيف على يد الفرق المتمردة. ويقال ان خلفه قد استورد اسوداً من افريقيا واطلقها في الصحراء السورية بما ازعج سكانها الشديدي المراس.

التوسع الاقتصادي

لقد تجلّى التوسع الاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بعدد الجاليات التي يمكن تتبع تاريخها منذ بداية الامبراطورية حتى نهايتها. وحصل استعمار حقيقي لبلاد البحر المتوسط وخاصة في القرنين الثاني والثالث من قبل «السيري Syri» وهو لفظ اطلق على السكان الذين اصلهم من شرقي المتوسط. وملأت السفن السورية البحر كما في الايام السالفة. وقد انتعشت الحصاص الغنيقية القديمة وهي النشاط والتكيف وحب التجارة المربحة والمقدرة على عقد الصفقات واتمام العمليات التجارية الكبيرة والصغيرة «وكان السوريون من بين جميع شعوب الامبراطورية اكثرها نشاطاً في هذه المغامرات التجارية^٢».

انتشرت الحواضر السورية بمظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والدينية على طول شاطئ المتوسط واتبعت في الداخل الطرق التجارية الرئيسية ومجاري الأنهار

(١) انظر: Eusebius, Bk. VI, chs. 34, 36, 39.

(٢) انظر: Arthur E. R. Boak, *A History of Rome to 565 A. D.*, rev. ed. (New York, 1930), p. 319.

الكبرى . ومن جملة الجزر كانت ديلوس^١ وصقلية مراكز جاليات سورية قوية . ومن الموانئ الايطالية كانت نابولي واوستيا مرغوبتين بصورة خاصة . وقد وصل التجار السوريون عن طريق الدانوب الى باتونيا Pannonia كما وصلوا عن طريق الرون الى ليون . وكان لرجال الاعمال السوريين مراكز في اسبانيا ولكنهم في بلاد الغال كانوا ناشطين بصورة خاصة . وقد اكتشفت في لبنان رسالة تعود الى اواخر القرن الثاني موجهة الى البحارة في مدينة آرل Arles المكلفين بشحن الحبوب^٢ . وتذكر كتابة كتبت بلغتين وجدت على قبر من القرن الثالث في بلاد الغال تاجراً سورياً من القنوات Kanatha كان يملك معملين في حوض الرون حيث كان يستورد البضائع من اكيثانيا^٣ . وكان اسمه ثيمم Thyymim (او بوليان) ابن سعد .

احتكر التجار السوريون بصفتهم مستوردين مقداراً كبيراً من تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، وكصيافة لم يكن لهم منافس . وكانت سلهم الرئيسية تتألف من الخمر والتوابل والحبوب والاواني الزجاجية والمنسوجات والمجوهرات . وكانت بعض هذه السلع تستخدم كمنادج تعلم اصحاب المصانع الوطنيين والصناع تقليدها بالتدريج . وحيثما كان التجار السوريون يقيمون فهناك كانوا يشيدون معابدهم . وكان بعل غزة يعبد في اوستيا وبعل بيروت يعبد في اماكن بعيدة حتى اسبانيا . وعرف اله بيروت باسم بعل مرقود Marqod^٤ (بالمرقودس Balmarcodes اي اله الرقصات) ووجد معبده في دير القلعة (على رأس تلة تشرف على المدينة) . وقد استعملت بعض اعمدته حديثاً في بناء الكاتدرائية المارونية في بيروت . ووجدت في بتيولي Puteoli بايطاليا مذابح قدم عليها احد المصلين كجملين من

(١) انظر في ص ٣٠١ .

(٢) انظر : J. P. Waltzing, *Étude historique sur les corporations professionnelles chez les Romains*, vol. iii, (Louvain, 1899), pp. 526-27.

(٣) انظر : Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain* 4 th. ed., p. 100.

(٤) من كلمة رقد اي رقص . راجع : Georgius Kaibel, *Epigrammata Graeca* (Berlin, 1878), No. 835 ; Louis Jalabert, « Inscriptions grecques et Latines », *Mélanges de la faculté orientale* (Beirut, 1906), vol. i, pp. 181-188.

الذهب الى الالاهة النبطية دوسارس Dusares (ذو الشرى Dushara) ^١. وترك متعبدون آخرون في هذه المدينة كتابات مكرسة لجوبيتر اله هليوبولس . وبينما كانت هذه النصب التذكارية في الغرب تكتب باللاتينية بصورة رئيسية فإن احداها من المقيمين التدمريين في رومة كانت مكتوبة بالآرامية وموجهة الى آلهة تدمر ^٢.

لم يكن التجار والمستعمرون والجنود والعبيد السوريون اقل حماسة في نشر الديانة المسيحية مما كانوا في نشر العبادات الوثنية . وظهر اثرهم في تطور المسيحية في الغرب في ناحية التقشف والرهبة والعبادة المتصفة بشدة العاطفة . وكان تقديس الصليب واتخاذ رمزاً دينياً من العناصر المسيحية الاخرى التي ادخلها السورويون الى اوربا . وكانت جاليتهم في رومة قوية حتى انها قدمت للكنيسة عدداً من البابوات ^٣.

(١) راجع بشأن خرائب معبد في سبع St مجوران : Howard C. Butler, *Syria*, Div. II, Sec. A. (Leyden, 1919), pp. 385-90.

(٢) انظر : *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. vi (Berlin, 1876), No. 710.

(٣) انظر : Louis Bréhier, *Les Origines du crucifix dans l'art religieux* (Paris, 1908), pp. 39-43, 54-55, 59.

الفصل السابع والعشرون

سورة في العهد البيزنطي

الامبراطورية الرومانية في عهدها الاخير

ان القرن الثالث الذي حصل فيه التغلغل الديسي والاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بصورة سريعة قد شهد نهاية مرحلة من الحضارة اليونانية اللاتينية وبدء مرحلة اخرى. وكان نموذج الحضارة الموحدة تقريباً الذي كان يميز الامبراطورية حتى ذلك الحين قد اخذ بالتفكك. وبدأت اسسه المادية تنهار بفعل الحروب الاهلية الطويلة والهجمات الخارجية المتكررة. وتعرضت دعائه الفكرية والروحية المتداعية لغزو موجات جديدة من الافكار المسيحية. فكان التغير منذ ذلك الحين سريعاً وتاماً. واخذت مرحلة حضارية جديدة وهي البيزنطية التي نتجت عن اتحاد المسيحية مع الهلينية الوثنية تحمل مكان المرحلة الحضارية القديمة. وكان لها لون مسيحي يوناني شرقي ومركزها القسطنطينية.

القسطنطينية العاصمة الجديدة

وقد سميت هذه المدينة باسم قسطنطين الذي كان يحكم مع امبراطور آخر سنة ٣٠٦ ثم اصبح امبراطوراً وحيداً بين ٣٢٤ و ٣٣٧. وكان تأسيسها في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي اوربا بآسيا. ودشنت في ١١ آيار ٣٣٠ كعاصمة جديدة. وقد منحها موقعها الستراتيجي الجغرافي فوائدها عسكرية واقتصادية واتحدت كل هذه العوامل لتجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعي الذي يستطيع العالم الشرقي ان يتجمع حوله بسهولة. وسرعان ما فاقت «رومة الجديدة» على البوسفور رومة القديمة على نهر التيبر.

ويدل هذا التحول ذاته على الاعتراف بالاهمية الفائقة للقسم الشرقي من الامبراطورية. وكانت هذه الولايات الآن اغناها في الثروة والموارد الطبيعية.

وانتهجت كل الامبراطورية في ذلك الاتجاه. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضرة الرئيسية وهي فارس التي كانت رومة في نزاع مستمر معها. وكان مركز الثقل في شؤون العالم يتحول الى الشرق من جديد.

المسيحية: الديانة الجديدة

قبل ان يؤسس قسطنطين عاصمة جديدة للدولة اعترف بديانة رسمية جديدة. ففي رسائله الرسمية من عام ٢١٢ و ٢١٣ لم يظهر التسامح للمسيحيين في مملكته فحسب بل منحهم عطفه ايضاً^١. وفي سنة ٣٢٥ عقد مجعاً كنسياً من كل اساقفة الامبراطورية في مدينة نيقية في بيثينيا Bithynia في آسية الصغرى وكان هذا اول مجمع من نوعه. وقد حكم فيه على الآريوسية^٢. ونظمت مجموعة تعاليم الدين المسيحي بصورة نهائية في ما عرف بالعقيدة النيقية Nicene Creed.

ويروجح ان تكون قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية من باب الاساطير. وتروي هذه القصة انه شاهد في السماء اثناء زحفه على رومة عام ٣١٢ صليباً متألقاً عليه كتابة يونانية تقول: «بهذا ستغلب»^٣. والذي نعلمه بالتأكيد هو ان قسطنطين استخدم اللواء الكبير وعليه اشارة الصليب (labarum) كعلم امبراطوري وبواسطته تقدم نحو النصر على منافسه ماكسنتيوس Maxentius^٤. وسواء كان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد تم بدافع المصلحة او بدافع الايمان فليس لذلك اهمية تاريخية. والامر الثابت هو ان المسيحية بعد ان كانت فيما مضى عبادة غريبة غامضة اصبحت في عهده الآن الديانة الرسمية للامبراطورية. واذا كانت بلاد اليونان قد سيطرت على فكر الرومان من قبل فان سورية الآن قد سيطرت على نفوسهم.

(١) انظر: Eusebius, Bk. X, ch. 5.

(٢) الآريوسية هي محاولة لتحديد علاقة اقانيم الثالوث على اساس تمييزها وتبويبها الواحدة للآخرى. وتقول بان الابن هو من طبيعة مشبهة وليست مساوية للاب. وكان اتجاهها يميل الى انكار ألوهية المسيح. اما مؤسسها فكان آريوس الذي عاش في الاسكندرية في هذه الفترة. وقد حمل البشرون الآريوسيون القهوط والومباردين وغيرهم من القبائل الجرمانية على اعتناق مذهبهم؛ راجع: Sozomenus, *Historia ecclesiastica*, Bk. 1, chs. 20, 21.

(٣) قارن مع: Sozomenus, Bk. I, ch. 4.

(٤) قارن مع: Lactantius, ch. 44; Eusebius, Bk. IX, ch. 9. § 2.

وفي هذه الفترة كان أكثر الرجال نفوذاً في الامبراطورية قد اصبحوا من اتباع المسيح مع ان غالبية السكان بما فيهم اعداء قسطنطين كانوا لا يزالون وثنيين. وكان النظام والتنظيم والثروة والقوة الموجهة في جانب الاقلية . وكانت هيلانة والدة قسطنطين مسيحية تقية . وقد قامت بزيارة الى اورشليم حيث يروى انها وجدت الصليب الحقيقي في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة . وفي ذلك المكان شيّد قسطنطين كنيسة القيامة الاولى . وعملت الطقوس المتصلة بالاماكن المقدسة التي ادخلها الامبراطور ووالدته على الاسراع في جعل سورية مسيحية .

وقد عمل هذان الحادنان في عهد قسطنطين وهما نقل العاصمة من رومة الى القسطنطينية والاعتراف الرسمي بالمسيحية على جعل عهده من ابرز المراحل في تاريخ اوربا . كما انها يبرران تلقيه بالعظيم . وقد قدر لهذه الامبراطورية الجديدة التي دشنها قسطنطين والتي كانت مسيحية في عقيدتها ويونانية في لغتها وشرقية في اتجاهها ان تدوم مع ما تخللها من احداث خطيرة حوالي احد عشر قرناً وربع القرن . وقد اصبحت اعتباراً من القرن السابع بمثابة حصن ضد الاسلام وسقطت اخيراً في عام ١٤٥٣ تحت وطأة هجوم المدافعين الجدد عن الاسلام نعني الاتراك العثمانيين .

بقي استمرار الامبراطورية من ناحية خارجية ونظرية قائماً لعدة سنوات بعد تأسيس القسطنطينية . ومع ذلك فان شطري الامبراطورية قد انفصلا في الواقع اكثر من مرة وحكهما اباطرة مختلفون . وحصل الانقسام النهائي في سنة ٣٩٥ حين توفي تيودوسيوس الكبير وخلفه ابنه هونوريوس واركاديوس . الواحد على الغرب والآخر على الشرق . وكان تيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥) آخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة . ومنذ ذلك الحين وجدت امبراطورية رومانية شرقية كان النجاح حليفها بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب . واخيراً سقطت رومة في ٤٧٦ بنتيجة هجمات القبائل الجرمانية . وقد كسب تيودوسيوس لقب الكبير بصوده الباسل امام القوط ولدعمه المسيحية الحالية من البدع . واعتنق جميع خلفاء قسطنطين باستثناء يوليان وحده (٤٦١-٣٦٣) الدين المسيحي .

التقسيمات الادارية

كانت سورية تقسم في نهاية القرن الرابع الى عدة مقاطعات . احتفظ قسمها

الشمالي باسم سورية وقسم الى جزئين: سورية الاولى Syria Prima ومركزها انطاكية ومن مدنها الرئيسية سالوقية ولاوديسة وجبلة وبيرويا (حلب) وخالكيس اديلوم Chalcis ad Belum؛ ثم سورية الثانية Syria Secunda ومركزها مدينة افامية ومن المدن التابعة لها ايفانية (حماة) واريتوزة (الرسن) ولاريسة (شيزر). وقسمت فينيقية ايضاً الى قسمين: فينيقية الاولى Phoenicia Prima ومركزها صور ومدنها الرئيسية هي بتولمايس (عكا) وصيدا وبيروت وجبيل والبترون Botrys وطرابلس وعرقه وارواد؛ ثم فينيقية الثانية او فينيقية التي تقابل لبنان Phoenicia ad Libanum ومركزها حمص وتضم مدن دمشق وهليوبولس وتدمر. وكانت فينيقية الاولى هي فينيقية البحرية المعروفة في التاريخ. اما الثانية فكانت مقاطعة داخلية تضم مدناً لم يسبق ان كانت تابعة لفينيقية او لبنان. وقد قسمت فلسطين الى ثلاثة اجزاء: فلسطين الاولى Palaestina Prima وكانت قيصرية ومدنتها الرئيسية وضمت اورشليم ونيابولس (نابلس) وجوبا Joppa (يافا) وغزة وعسقلان وغيرها من المدن؛ وفلسطين الثانية Palaestina Secunda ومركزها سكيثوبولس (بيسان) ومدنها الرئيسية جدره وطبرية؛ ثم فلسطين الثالثة Palaestina Tertia وكانت البتراء ومدنتها الرئيسية وقد تشكلت من الولاية العربية السابقة.

التجارة

ويبدو ان تقسيم الامبراطورية وتجزؤ ولايتها السورية لم يلحق الضرر بعلاقات سورية التجارية الداخلية والخارجية. ففي العصر البيزنطي كما في العصر الذي سبقه كانت جميع تجارة المتوسط تقريباً بأيدي السوريين واليونان^١. ويصف القديس جيروم التجار السوريين بانهم كانوا يجتازون العالم الروماني كله في القرن الرابع يدفعهم جهم للتجارة المربحة ويتحدون جميع المخاطر^٢. ولم يتوقف ازدهار مراكزهم في بلدان البحر المتوسط كلها. وكان يمكن العثور عليهم في رومة وناپولي وقرطاجة ومرسيليا وبوردو وغيرها من المراكز التجارية. وكانوا يستوردون الخمر من

(١) انظر: J. B. Bury, *History of the Later Roman Empire* (London, 1923) vol. ii, p. 316.

(٢) انظر: Cumont, *Religions orientales*, p. 100.

عقلان وغزة والارجوان من قيصرية والاقمشة المنسوجة من صور وبسروت والفسق ونصال السيوف من دمشق والاقمشة المطرزة من مدن متعددة . وكان القماش المطرز مطلوباً بصورة خاصة لاستعماله لحاجات الكهنوت .

كان الحرير من السلع القديمة التي اتخذت الآن اهمية جديدة وسيطر السوريون على تجارته باجمعها . وتؤكد المرويات ان بيوض دود الحرير من الصين قد ادخلت لأول مرة بانابيب من الحيزران الى القسطنطينية في منتصف القرن السادس (في عهد يوستينيان) على يد رهبان يظهر انهم كانوا من النساطرة^١ . ولكن هناك ما يدعونا الى الاعتقاد بانه كان للسوريين بعض المعرفة بتربية دود الحرير منذ زمن بعيد وذلك بواسطة دود الحرير البري^٢ . وكانت المواد الحريرية الصينية تنقل بطريق البتراء الى احد الموانئ الفينيقية حيث وجب صبغها ونسجها اورباً اعادة نسجها قبل ان تصبح مقبولة في الاسواق الرومانية . وهكذا ارتبطت صناعة الحرير في سورية بصناعة الارجوان . وسرعان ما احتكرت الدولة البيزنطية هاتين الصناعتين .

وظلت سورية تستورد التوابل وغيرها من منتجات البلاد الحارة من الجزيرة العربية والمهند . وكانت سورية تصدر بالمقابل الى هذه البلاد والى الصين ايضاً الزجاج والادوات المطلية بالمينا والاقمشة الناعمة . ونسمع بوجود تاجر سوري في الصين منذ القرن الثالث الميلادي^٣ .

وكما هي الحال اليوم بالنسبة للمهاجرين السوريين فان المهاجرين في العصر البيزنطي كانوا يستوطنون عموماً في بلاد هجرتهم الى امد غير محدود . وكان بعضهم يعود الى وطنه بصحبة زوجات اجنبيات . وتوجد فوق باب احد الجوامع في قرية تدعى امتان^٤ اليوم على حدود الصحراء السورية كتابة اثرية يونانية وهي بالاصل

(١) انظر : Procopius, Bk. VIII, ch. 17, §§ 1-8; Bouchier, p. 162.

(٢) انظر : F. Hirth, *China and the Roman Empire* (Leipzig, 1885. reprinted in China, 1939), pp. 255-6; Consult Robert S. Lopez, « Silk Industry in the Byzantine Empire », *Speculum*, vol. xx (1945), pp. 1-42.

(٣) انظر : Hirth, p. 306.

(٤) جنوب شرقي صلخد في حوران . انظر : Dussaud, *Topographie*, p. 355.

كتابة تذكارية على احد القبور من منتصف القرن الرابع لزوجة من روان في بلاد الغال ماتت «بعيدة عن وطنها»^١. وشعرت الجالية السورية في اورليان كأنها في وطنها حتى انه حين دخل الملك غونتراند Gontrand المدينة في سنة ٥٨٥ كان افرادها بين الذين استقبلوه وكانوا يتغنون بفضائله «بلغة السوريين واللاتين واليهود»^٢. وبلغ من نفوذ جالية باريس في عهد الميروفنجيين حوالي ٥٩١ ان انتخبت احد اعضائها وهو تاجر سوري يدعى يوسيبوس Eusebius اسقفاً للمدينة وسيطرت على الوظائف الكنسية^٣.

الصناع المهاجرون

كانت اكثرية المهاجرين السوريين من رجال الاعمال ولكن بعضهم كانوا عبيداً وجنوداً ورهباناً وصناعاً. وعمل المعمارين والنحاتون السوريون في بلادهم على تطور الاساليب المهنسية المتأخرة التي تدعى عادة بالبيزنطية. ومنذ اوائل القرن الثاني استخدم المعمارون من الولايات الشرقية في رومة^٤. وكان المهندس الذي بنى لتراجان جسراً فوق الدانوب اثناء الحملة الداسية الثانية دمشقياً يدعى ابولودورس Apollodorus. وهو نفسه الذي وضع بعد ذلك مخطط فوروم تراجان مع المعبد والمكتبة والاعمدة التي لا تزال قائمة وذلك تخليداً للذكرى انتصارات سيده. وكان اسلوب وضع التماثيل على الاعمدة الضخمة من مميزات فنون سورية الشمالية بالاصل.

ومن المرجح ان يكون الصناع الفنانون من سورية قد استدعوا لتجميل العاصمة الجديدة رافنا Ravenna التي نقل اليها هونوريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) بلاطه لتجنب مخاطر الهجمات الجرمانية. وبقوا هناك ليعلموا حرفتهم للصناع المحليين. وقد ادخلوا صناعة الفسيفساء وغيرها من اساليب التزيين. وفي القرن الخامس اصبحت رافنا العاصمة الفنية لشمالي ايطاليا. وقد وصفت مدرستها في الفن والمهندسة

(١) انظر : *Revue archéologique*, vol. xxxix (1901), pp. 375-6.

(٢) انظر : *Gregory of Tours, Historiae Francorum*, Bk. VIII, ch. 1.

(٣) انظر : *Gregory*, Bk. X, ch. 26.

(٤) انظر : *Pliny, Epistulae ad Traianum*, No. 40

المهارة بانها « نصف سورية »^١. واصبحت البندقية بعد رافنا ممثلة الحضارة الشرقية في البلاد الايطالية . ووصفت مدينة رافنا نفسها ايضاً بانها نصف سورية وقد نصب فيها اساقفة سوريون. وهناك زاثر من بلاد الغال كان مرأى السوريين امرأ مألوفاً لديه في جنوبي فرنسا وقد لاحظ وجود سوري كان « يرتل المزامير »^٢. ولا بد انه كان يوجد عدد من هؤلاء الشامسة والرهبان .

الادب والتعليم

انصفت الحياة الفكرية في سورية في اول العهد البيزنطي بالاخطراب. وقد استمرت المجادلات بين الكتاب اليونان واللاتين من المسيحيين وغير المسيحيين لعدة سنوات بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية . ولم تكن قد اندثرت بعد الافلاطونية الحديثة التي بلغت ازهى عصورها في القرن الثالث والقسم الاول من القرن الرابع والتي كان من ابرز دعايتها بورفيروس ومبليخوس السوربان^٣. وكان آباء الكنيسة يشقون طريقهم الى الامام كقيادة للفكر . وكان السفسطانيون والبلغاء يتراجعون ولكنهم لم يزولوا تماماً .

ليبانيوس

كان ليبانيوس (٣١٤ - حوالي ٣٩٣) اعظم البلغاء السوريين في القرن الرابع وهو من مواطني انطاكية ويظهر اسمه بعض العلاقة مع لبنان . وبعد ان درّس في انطاكية واثينة انشأ مدرسة للبلاغة في العاصمة الامبراطورية الجديدة . وعلم ايضاً في نيقية ونيكوميديا وعاد في سن الاربعين الى مدينته الاصلية حيث بقي يعمل لمدة اربعين سنة كخطيب ومعلم وسياسي وقد حظي بشرف صداقة كبار الموظفين والاباطرة .

لم يتم ليبانيوس ابدأ بتعلم اللاتينية؛ واحتقر المسيحية وعلّمها عدوة للحضارة

(١) انظر : O. M. Dalton, *Byzantine Art and Architecture* (Oxford, 1911), pp. 8, 77.

(٢) انظر : Sidonius Apollinaris, *Epistulae*, Bk. I, No. 8.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٩ .

(٤) انظر : *Epistulae*, No. 923; cf. No. 956.

الصحيحة ولم يرَ خيراً الا في الملمية. وقد خاب ظنه وتآلم عندما تخلى انجب تلاميذه في انطاكية وهو المعروف فيما بعد باسم يوحنا فم الذهب عن آلهة اليونان وفضل اتباع المسيح^١. ومن تلاميذه ايضاً باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) الذي درس على ليانيوس إما في القسطنطينية او في انطاكية. واصبح بعد ذلك اسقف قيصرية في كبدوكية واحد المدافعين عن الارثوذكسية ضد الاريوسية. ولا تزال الطقوس التي وضعها القديس باسيليوس ونقحها يوحنا فم الذهب تستعمل في كنائس الروم الارثوذكس. وقد تعكرت شيخوخة ليانيوس بالآلام جسدية سببها صاعقة اصابته وانحطاط العلوم الوثنية بعد موت الامبراطور يوليان في ٣٦٣ وقد اسف لموته ليانيوس لانه كان يعجب به ويرعاه.

تعطينا كتابات ليانيوس التي وصلتنا واغلبها من الرسائل والحطب صورة حية للآزمنة والامكنة التي عاش فيها^٢ كما انها تفتح امامنا نافذة صغيرة يمكن ان تعطينا لمحة عن الاساليب التربوية في ذلك العهد. وكانت الدروس في انطاكية تستمر في اشهر الشتاء والربيع اما الصيف فيخصص للنشاط المتصل بالاحتفالات والاعياد. وكانت الحصص الدراسية تبدأ في الصباح الباكر وتدوم حتى الظهر. وكان بعض التلاميذ صغار السن في السادسة عشرة فقط. اما التعليم العالي فكان في ايدي البلغاء. وكان هؤلاء ينتخبون كساتذة من قبل مجلس الشيوخ المحلي في المدن ومن قبل الجماعات عموماً في المدن الصغيرة. وكان البلغاء يعلمون ويخطبون لكي يكونوا مثلاً للطلاب وكانوا مسؤولين عن النظام. وانتظموا في انطاكية في ثلاث نقابات لكل منها رئيسها الخاص. وكان البلغاء يتقاضون اجور خدماتهم من المدن والطلاب. وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهاج المدرسي. ولم يدرس اللاتينية سوى الذين يفكرون بالحصول على وظيفة حكومية. وكانوا يؤكدون على اهمية المنطق. ودرس ارسطو من جديد بعد ان انتبه بورفيريوس الى اهميته.

(١) تارن مع : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

(٢) ذكرت فقرات منها في ص ٣٣٥ من هذا الكتاب.

اميانس مرسلينوس

كان اميانس مرسلينوس (حوالي ٣٣٠ - ٤٠١) احد الذين يراسلون لبيانيوس وهو انطاكي مثله . وقد ولد من اسرة يونانية نبيلة ثم التحق بالجيش في سن مبكرة وحصل على مراتب عليا اثناء خدمة طويلة مشرفة قضاها في بلاد ما بين النهرين وبلاد الغال . وفي سن متأخرة كتب باللاتينية تنمة لكتاب تاسيتوس لم يصلنا منها سوى جزء فقط . ويهتم فيها اكثر من المعتاد بالاخلاق العرقية والشخصية والمؤسسات الاجتماعية . ويمكن اعتبار اميانس آخر كاتب قديم باللاتينية يستحق عن جدارة لقب المؤرخ . وكان في موقفه من المسيحية اكثر تسامحاً من لبيانيوس . وكان يشبهه في اعتزازه الامتناهي بدينته وبلاده الاصلية . فقد كانت انطاكية غنية في البضائع المستوردة والمحلية حتى انه ليس لها منافس^١ . وكانت فينيقية « التي تقع في سفح جبل لبنان منطقة مملوءة بالسحر والجمال »^٢ . وكانت فلسطين بلاداً « تكثر فيها الاراضي المزروعة والمعنى بها كثيراً »^٣ . وكانت بلاد العرب الرومانية « بلاداً تنتج انواعاً كثيرة من البضائع وتنتشر فيها الحصون والقلاع القوية » وتضم بين مدنها الكبرى « بصرى وجرش وفيلادلفيا (عمان) وجميعها منيعة جداً بسبب اسوارها القوية »^٤ .

يوحنا فم الذهب

اصبحت انطاكية بفضل كثرة ما انتجه المؤلفون مثل لبيانيوس واميانس العاصمة الفكرية لسورية الشمالية . وقد تعلم فيها آريوس ونسطوربوس كلاهما^٥ . وازدادت

(١) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 8.

(٢) انظر : Ammianus, Bk, XIV, ch, 8, § 9.

(٣) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 11.

(٤) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 13. وقد نشر مؤلفات اميانس وترجمها : John C. Rolfe, *Ammianus Marcellinus*, 3 vols. (London and Cambridge, Mass. 1935-8).

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

تألقاً بالمآثر القيمة للخطباء والمؤلفين المسيحيين وكان ابرزهم يوحنا فم الذهب
(٣٤٧ - ٤٠٧) .

تعلم يوحنا ليعمل في القضاء ولكنه سرعان ما تخلى عن ذلك ليتبع حياة الزهد
في جبل قرب انطاكية . ويبدو ان هذا الجبل هو جبل سيليوس Silpius الوعر
الذي يقع جنوبي انطاكية حيث خلد ذكره باسم مار يوحنا الى جانب وليّ مسلم^١ .
واحتفظ الناس هناك خلال العصور بنور ضئيل يشع في احدى المغاور . وقد اتصف
وعظه الفصح في مدينته بالدعوة الى نبد الميوعة في الاخلاق والتّرف في الحياة .
وكان الاغنياء يهاجمون لحصولهم على ثروتهم بالعنف والحدّاع والاحتكار والربا
الفاحش ولوقف اللامبالاة الذي وقفه ازاء قضية المحرومين من الامتيازات
والمساكين^٢ . وكانت رسالته رسالة اجتماعية في عصر كهنوتي لاهوتي . وبلغ من
شهرته كواعظ ان انتخب في عام ٣٩٨ بطريركاً للقسطنطينية^٣ . وهناك باع الكتوز
التي جمعها سلفه وانفقها على المحتاجين واتبع نفس الطريقة في الوعظ . وكان يؤكّد
بأن خيانة الزوج لا تقل شراً عن خيانة الزوجة . واخذ يطهر الادارة الكنسية
مبتدئاً من الاعلى .

ان مثل هذا الاصرار الشديد على الاصلاح الاخلاقي والاجتماعي كانت نتيجته
المؤكدة وقوع يوحنا فم الذهب في نزاع مع البلاط . وكان بين اقوى اعدائه الذين
نقموا عليه يودوكسيا Eudoxia المتكبرة زوجة الامبراطور اركادبوس التي قادتها
يوحنا في احدى مواعظه بهيرودية كما احتج على اقامة تمثال لها قرب الكنيسة
العظيمة^٤ . وقد نفى مرتين من العاصمة وتحمل متاعبه كلها بثبات وصبر الى ان توفي
وهو في طريقه الى المنفى في اقصى حدود الامبراطورية قرب القفقاس . وقد اجبر
على السير مسافات طويلة متعرضاً لاشعة الشمس والامطار فانهارت قواه وتوفي

(١) هو حبيب التجار .

(٢) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

(٣) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, chs. 3, 5.

(٤) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, chs. 16,20; Palladius, *Dialogus de vita S. Joannis Chrysostomi*, Bk. VIII.

في الطريق^١. ونقل جثائه فيما بعد الى القسطنطينية ودفن في احتفال مهيب. وقد اكسبته شهرته كأعظم واعظ في الكنيسة الاولى لقباً عرف به بعد وفاته وهو «الذهبي الفم». وكانت مواعظه الممتلئة بالفصاحة اكثر منها بالعلم تلقي بعض الضوء على الحياة الاجتماعية في عصره^٢. ويدوم اعتبار يوحنا على مدى العصور كعلم من اشهر معلمي الاخلاق المسيحية الاولى الذين انجبتهم الكنيسة^٣.

يوسيبوس

وكان من آباء الكنيسة البارزين في ذلك العصر يوسيبوس (٢٦٤ - حوالي ٣٤٩) اسقف قيصرية في فلسطين واول مؤرخ كنسي عظيم. وقد ولد في فلسطين وربما في قيصرية ذاتها وتثقف في انطاكية. وقد اشترك مع عدد من الاساقفة المعاصرين فدافع في اول الامر عن قضية آريوس. ولكنه في مجمع نيقية حيث عهد قسطنطين اليه بمهمة رفيعة وهي افتتاح جلسات المجمع اذ ان زعيم المرافقة. وقد التى خطبة مدح فيها الامبراطور كما جلس على يمينه. وبقي يوسيبوس طيلة حياته صديقاً حميماً لقسطنطين ومعجباً به ومتحمساً له. وكان من اعظم الرجال المثقفين في عصره. وقد وضع عدة مؤلفات تاريخية وسبقت الاشارة الى احدها وهو التاريخ الكنسي *Ecclesiastical History*. ويصف فيه بالتفصيل ظهور المسيحية وعلاقتها بالامبراطورية.

وهناك مؤرخ آخر ولد في قيصرية وهو بروكوبيوس^٤ (توفي حوالي ٥٦٣) المؤرخ الكنسي لعصر بوسطنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) المليء بالاحداث. وقد عين في

(١) انظر: Sozomenus, Bk. VIII, ch. 28; Palladius, Bk. XI.

(٢) راجع بشأن المجموعة الكاملة لمؤلفاته: *Patrologia Graeca*, ed. J.-P. Migne, vols. xlvii-lxiv (Paris, 1862-3).

وبشأن ترجمة مواعظه ورسائله راجع: *The Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, ed. Philip Schaff, ser. 1, vols. ix-xiv (New York, 1889-90).

(٣) وجدت على جدار كنيسة آيا صوفيا عام ١٩٤٦ صورة له من الليفاء نجاة تحت الملائكة التي خطاها به الاتراك مع غيرها من الصور من عدة قرون.

(٤) نشرت مؤلفاته وترجمت من قبل: H. B. Dewing, *Procopius*, 7 vols. (London and Cambridge, Mass., 1914-40).

٥٢٧ حين كان شاباً سكرتيراً خاصاً ومستشاراً قانونياً للقائد الروماني بليساريوس Belisarius^١ ولذلك صحبه في جميع حملاته في آسيا وافريقيا وايطاليا . ثم جعله يوستينيان عضواً في مجلس الشيوخ . وكان بروكوبيوس يكتب احياناً كمسيحي و احياناً اخرى كمتحمس لآلهة اليونان . وبما يجعل مادته التاريخية موثوقة هو ان بعضها مستقى من المرويات الشفهية واغلبها نتيجة معلوماته الشخصية .

ويتصل عدد كبير من مشاهير المسيحيين بسورية الجنوبية مع ان اصلهم ليس سورياً . ومن ابرز هؤلاء القديس جيروم (٣٤٥ - ٤٢٠) . وقد اوصله مزاجه في التقشف الى دير في بيت لحم سنة ٣٨٦ ومنه انتقل الى الصحراء السورية حيث امضى خمس سنوات في حياة العزلة بين النساك . وساعد فيما بعد في ادخال حياة الرهبنة الى القرب . ولعل من اعظم مآثره ترجمته التوراة الى اللغة اللاتينية وسميت الترجمة بالفلكاته Vulgate واستخدمت منذ ذلك الحين كترجمة اساسية لاجل الصلوات الدينية في الكنيسة الكاثوليكية .

غزة

كانت غزة بالاضافة الى قيصرية المدينة الوحيدة في الجنوب التي احتفظت بشعلتها الفكرية في هذا العصر . وكانت اورشليم لا تزال تقاسي من الحراب الذي الحقه بها الرومان . وكان اصل سوزومين (سوزومينوس) المؤرخ الكنسي اليوناني في القرن الخامس من قرية تسمى بتيليا Bethelia او بيت ايل Bethel بجوار غزة وكان الداء مسيحيين . وتظهر كتاباته معرفة وثيقة بتلك المدينة وضواحيها . وقد اهدى تاريخه الى تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) . ولكن شهرة المدينة تعود بصورة رئيسية الى مدرسة البلاغة ازدهرت فيها حوالي عام ٥٠٠ م . وقد تأثرت المدرسة بجو الاسكندرية العلمي وكانت بين حين وآخر تتبادل المعلمين والطلاب مع قيصرية وغيرها من مراكز العلم . وكان بعض اساتذتها من الافلاطونيين الحداثيين ولكن الاكثوية دعوا انفسهم بالسفسطائيين المسيحيين . وكانت مؤلفاتهم تشمل على شروح للتوراة ورسائل ضد الهلنيين او غير المسيحيين . وعلى وجه

العموم كانت مدن الساحل الجنوبي اقل انهماكاً في المشاحنات الكنسية من انطاكية وغيرها من مدن الشمال .

بيروت كمركز علمي

كانت بيروت المدينة الوحيدة من بين مدن سورية البيزنطية كلها التي نافست انطاكية في الزعامة الفكرية. ومرد هذا الى انها كانت تضم مدرسة الحقوق^١. وهو علم اعتني به بصورة خاصة في العصر البيزنطي .

وصلت هذه المؤسسة الحقوقية غاية تطورها في القرن الخامس عندما اجتذبت جماعة من خيرة المفكرين الشبان في الامبراطورية البيزنطية . ولم تكن مدرسة القسطنطينية التي اسست في ٤٢٥ تعتبر منافسة لها . وكان منهاجها يشتمل على العلوم والهندسة والبلاغة واللغة اليونانية واللاتينية . ومدة الدراسة فيها كانت اربع سنوات ولكن يوستينيان اضاف اليها سنة خامسة حين رقي العرش في عام ٥٢٧ . وكان الطلاب معفيين من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين . وبدأ كثير من الاساقفة والقديسين والشهداء المسيحيين حياتهم العلمية في مدينة بيروت .

وردت اول اشارة في الكتابات الكنسية الى مدرسة الحقوق في بيروت في خطبة لغريغوريوس توماترجس Thaumaturgus^٢ (صانع العجائب) القاها حوالي ٢٤٠ م . وكان غريغوريوس قد اتى من كبدوكية ليدرس في بيروت اولاً ثم في قيصرية بفلسطين حيث اعتنق الديانة المسيحية بتأثير معلمه اوريجين . وهناك تلميذ مشهور آخر هو بمفيلوس Pamphilus البيروتي الاصل والذي اصبح بعد ذلك كاهن مدينة قيصرية نفسها حيث استشهد في ٣٠٩ في عهد غاليريوس Galerius . ويذكر بمفيلوس بين تلاميذه المؤرخ المشهور يوسيبوس . وبلغ من شدة احترام هذا التلميذ لمعلمه ان اضاف الى اسمه الخاص اسم بمفيلوس . وهناك غريغوريوس النازينزي Nazianzus (في كبدوكية) الذي اصبح اسقف القسطنطينية وقديساً فيما

(١) انظر ما سبق في ص ٣٦٠ .

(٢) انظر: *The Works of Gregory Thaumaturgus, Dionysius of Alexandria, and Archelaus*, tr. S. D. F. Salmond (Edinburgh, 1871), pp. 49-50.

بعد. فقد غادر اثينة حوالي ٣٥٦ مفضلاً الإقامة في بيروت لمتابعة دراسته القانونية. وهناك من كان أكثر شهرة من هؤلاء وهو سفيروس، بطريك انطاكية اليعقوبي (٥١٢ - ٥١٨) الذي كتب ترجمته زميله زكريا الغزي^١.

حياة الطلاب

حفظت لنا ترجمة سفيروس تفاصيل ممتعة عن حياة الجامعة في مدينة عالمية كبيروت تقع على حدود الشرق والغرب. ويبدو ان التلاميذ القداماء كانوا يستقبلون التلاميذ الجدد بالسخرية ولكن دون ان يسيثوا معاملتهم في الواقع^٢ وذلك لاختبار مقدرتهم في ضبط النفس - وهو يشبه التحامل المعتاد على طلاب السنة الاولى (الفرشمن) في الجامعات الاميركية. وقد وصل زكريا الى بيروت في خريف عام ٤٨٧ او ٤٨٨ بعد سنة من وصول سفيروس. وكان قللاً مثل سائر الطلاب الجدد عندما حضر لأول مرة درس الاستاذ المشهور ليونتيوس ولكن سفيروس والطلاب القدامى احسنوا استقباله. وعند انتهاء المناظرات ذهب زكريا وكان شديد التدين ليصلي في كنيسة القيامة. والتقى بعد ذلك بسفيروس عند المرفأ ورجاه ان يحضر الى الكنيسة يوماً بعد المحاضرات وان يتجنب سباق الخيل والمسارح وان يمتنع عن الشرب والمقامرة التي كان ينفس فيها سائر التلاميذ. فاجاب البطريك المقبل اي سفيروس وكانت العبيد ترافقه عندما يأتي الى المعهد لانه من عائلة غنية مؤكداً لصديقه الشاب زكريا بانه طالب حقوق وليس براهب ولكنه وعده بان يعمل ما في استطاعته.

كانت تعطل جميع الدروس بعد ظهر كل سبت وطيلة نهار الاحد^٣. وكانت ساعات المساء خالية من الدروس ليتمكن التلاميذ من المذاكرة في الاعمال التي قاموا بها اثناء النهار. وقد شكل زكريا جمعية مسيحية كانت تجتمع كل مساء في كنيسة القيامة لدراسة مؤلفات باسيليوس ويوحنا فم الذهب وغيرهما من الآباء.

(١) نشرت بالبريانية (وقد فقد الاصل اليوناني) وترجمها: M. A. Kugener تحت عنوان: *Vie de Sévère, in Patrologia Orientalis, vol. ii (Paris, 1907), pp. 1-115.*

(٢) انظر: Zacharias, p. 47.

(٣) انظر: Zacharias, P. 52.

وتشير الصفة العالمية لعضوية الجمعية الى كثرة عدد الطلاب الاجانب . وكانت رئيسها شخصاً يسمى افاغوريوس Evagrius من مدينة سيمساط وكان سابقاً تلميذاً في انطاكية حيث جرح في اضطراب جرى فيها . وكان افاغوريوس يصوم يوماً ولا يغتسل الا مرة واحدة في السنة ليلة عيد الفصح^١ . وقد تأثر سفيروس بهذه الامثلة من الزهد فأخذ يمتنع عن اكل اللحم .

وتظهر في هذه الاثناء جمعية اخرى بين الطلاب للاهتمام بعلم القيب . وكانت الاعضاء البارزون يتألفون من ارميني وتسالونيكسي وسوري من هليوبولس ومصري من طيبة . وقد استهوت المصري امرأة لم تبادل عواطفه ولذلك اتفقوا على انه اذا نُصِحِي العبد الاسود الذي يملكه هذا المصري تتأثر الشياطين وتحصل الغايات المرجوة^٢ . وعندما كانت هذه الطقوس تتم في الشرك في منتصف الليل قوطعت فجأة من المارة . وقد هرب العبد الخائف واخبر عن سيده . فبدأ البحث عن كتب السحر واخيراً وجدت مخبأة في القسم السفلي من كرسي الطالب واحرقت . ووجد انها مملوءة باسما الشياطين وصورهم الغريبة وكان بعضها ينسب الى زردشت . وكشفت التحريات الاخرى ان الاستاذ ليونيتوس نفسه كان يشترك في مثل هذه الاعمال . وتشكلت محكمة للتحقيق من موظفين يمثلون الكهنة وحكومة المدينة فوجدت ليونيتوس وجماعة آخرين مذنبين . فاحرقت كتبهم وهرب بعض المتهمين من المدينة . لم تنتهِ مشاكل بيروت المتصلة بالسحر عند هذا الحد اذ وصلت جماعة من السحرة المتجولين الى المدينة وقامت بمساعدة طالب من آسية الصغرى وبمعاونة كاهنين بالتنقيب في قبور احدى الكنائس حيث وعدوا بالكشف عن كنوز كان داريوس قد خبأها . وللاستعانة بالشياطين كانت المبغرة وغيرها من ادوات الكنيسة الفضية ضرورية لهم . ولكن العملية لم تتم بسبب حصول زلزال وعوقب الكاهنان وحكم على احدهما بالعزلة في احد الاديرة^٣ .

وقد حصلت بين عامي ٥٥١ - ٥٥٥ سلسلة من الهزات الارضية كادت ان

(١) انظر : Zacharias, p. 56.

(٢) انظر : Zacharias, p. 58.

(٣) انظر : Zacharias, pp. 70-73.

تقضي على مدن الساحل الفينيقي. وكانت بيروت قد تعرضت الى هزة في عام ٣٤٩ هدمت بعض اجزائها ولكن يبدو انها لم توقف تقدم جامعتها. ولكن الامر يختلف هذه المرة، اذ ان المدينة « التي كانت اجمل المدن وزينة فينيقية حتى ذلك الحين قد سلبت جمالها. فهدمت اهم ابنتها ولم يبق منها بناء واحد تقريباً. ولم تسلم غير الاساسات. وهلك عدد كبير من سكانها من وطنيين واجانب تحت الانقاض»^١. فانتقل اساتذة الجامعة الى صيدا حيث قاموا بتدريس موادهم وبنما يتم بناء المدينة والجامعة من جديد. ولكن قبل تدشين ابنية الجامعة الجديدة في عام ٥٦٠ بقليل حصلت كارثة اخرى حيث نشبت النيران والتهمتها كلها. وبعدها لم نعد نسمع شيئاً عن الجامعة.

(١) انظر: Agathias, *Historiarum*, Bk. II, § 15.

الفصل الثامن والعشرون

المظاهر الدينيّة في العهد البيزنطي

تبدو سورية في العصر البيزنطي بمظهرٍ مختلفٍ عن مظهرها في العصر الروماني . وقد أصبحت الآن بلاداً مسيحية بوجه عام . والواقع ان هذه الفترة هي الفترة الوحيدة التي كانت فيها سورية بلاداً مسيحية تماماً . ونظراً لوقوع العصر البيزنطي بين العصر الروماني الوثني والعصر الاسلامي العربي فانه كان فريداً في تاريخ سورية .

ولم تكن البلاد مسيحية فحسب بل كانت العصر تسيطر عليه الصفة الدينية . فقد كانت الكنيسة اعظم مؤسسته وكان القديسون ينازلون اكبر جانب من الاحترام . وقد وجد بين القرنين الرابع والسادس عدد من الرهبان والكهنة والاساقفة والراهبات والنساك بشكل لم يعرف من قبل ولا من بعد . وكانت ابنية الكنائس واماكن الصلاة والباسليكات والاديرة تنتشر في البلاد وجميعها تتبع اسلوباً جديداً في الهندسة المعمارية يظهر فيه الباب وارجاج الاجراس والصلبان البارزة . وقد وسعت كهوف النساك او صنعت من جديد . واقامت الاعمدة التي كان - ويا للغرابة - يعيش العموديون عليها ويموتون . وقد نشطت حركة زيارة الاماكن المقدسة . واعتبرت النذور والصلوات عند قبور القديسين اكثر تأثيراً من زيارة الاطباء . وتعتبر البقايا المعمارية والآثار الدينية البيزنطية الموجودة اليوم اكثر عدداً من آثار جميع العصور مجتمعة .

(١) يذكر مخطوط سرياني بانه حضر بمجمع ليقية تسعة عشر اسقفاً من فلسطين وعشرة من فينيقية واثنتان وعشرون من سورية المجوفة وستة من الولاية العربية (بصرى وفيلادلفيا . . الخ) . انظر : B. H. Cowper, *Syriac Miscellanies* (Edinburgh, 1861), pp. 9-10. ويبدو ان الاساقفة كانوا لم يحصلوا بعد على الميزة التي فصلتهم نهائياً عن القسس .

الرهينة

كانت الرهينة طريقة محببة في الحياة وكان لمبادئها الاساسية وهي العزوية والفقر والطاعة جاذبية كبرى . وبتناقص السكان وتضاؤل الازدهار وحدوث الاضطرابات الالهية التي تميز بها العصر الروماني في القرنين الثالث والرابع فقد الناس ثقتهم وایمانهم بالمؤسسات العلمانية . فقد اتت المسيحية بشيء خارق للطبيعة وسموي يضم اعتقاداً بالقيم الروحية التي تستحق ان يعتزل الانسان العالم لاجلها وان يموت في سبيلها .

انبثقت الرهينة كنظام من عادة الزهد المسيحية . وكان مؤسسها مصرياً يدعى القديس انطون الذي اعتزل في الصحراء ومات بين ٣٥٦ و ٣٦٢ م . وسرعان ما انتقل هذا الاسلوب الجديد في الحياة المسيحية من مصر الى سورية الجنوبية حيث بدأ حركة الرهينة هيلاريون Hilarion من غزة وهو احد تلاميذ انطون . وفي اواخر القرن الرابع ظهرت جماعات من النساء حول انطاكية . وكان افرام (توفي حوالي ٣٧٣) احد مؤسسي الرهينة السورية . وفي القرن التالي ظهر اول العموديين وهو القديس سمعان (توفي ٤٥٩) في شمالي البلاد . ولا يزال السواح يشاهدون العمود الذي اقام عليه سمعان وسط آثار كنيسة فخمة (قلعة سمعان) . وقد دام هذا الشكل الغريب من حياة الرهينة حتى القرن الخامس عشر . واصبحت حياة الرهبان الاوائل في مصر وجنوبي سورية النموذج المحبب لدى العالم المسيحي . وتأتي كلمة « Hermit » الافرنجية (اي ناسك) من كلمة يونانية تعني الصحراء .

المباني الكنسية

نشأت الكنيسة المسيحية عن حلقات صغيرة من التلاميذ الذين اعلنوا ان قائدهم كان مخلصاً ومسيحاً . وكانت اول حلقة سميت مسيحية هي حلقة انطاكية . وبدأ الرسل وعظهم في المعابد اليهودية وكان الذين يعتنقون المسيحية على ايديهم اما من اليهود او من غير اليهود الذين يرتادون هذه المعابد . ولهذا كانت نواة

الجماعات المسيحية الاولى من اليهود على الاكثر. ولا بد انه كان يصعب آنذاك التفريق بين الطائفة المسيحية الناشئة والطائفة اليهودية القائمة.

ويظن ان اقدم اماكن العبادة المسيحية كانت إما البيوت الخاصة حيث تعقد اجتماعات غير رسمية او معابد اليهود. وعندما تحولت اماكن العبادة هذه الى كنائس بصورة رسمية لم تجد نموذجاً تتبعه سوى الكنيس. وكان الكنيس اليهودي بديلاً محلياً للمعبد القديم بعد خرابه. وكان يمثل طريقة جديدة وثورية في العبادة اذ انه اطرح عادة تعليم الدين بواسطة الاسرار وعادة التكفير بتقديم الضحايا. وهو بهذا قد اصبح النموذج الاصلي لكل من الكنيسة والجامع.

تعود اقدم بقايا كنيس وجد في فلسطين الى القرن الاول الميلادي^١. اما اقدم كنيس في دورا اوروبس فكان بيتاً خاصاً تحول الى كنيس حوالي عام ٢٠٠ م. وقد زود كنيس في دورا اوروبس يعود الى منتصف القرن الثالث بباب للنساء ومقاعد خاصة لمن. وتعتبر زخارف جدرانها فريدة في الفنون الكنسية اذ تصور مناظر عن حياة الاسلاف والملوك اليهود^٢. وتوجد في نفس المدينة بقايا كنيسة تعود الى حوالي ٢٣٢ م. وهي اقدم من اية كنيسة عرفت في فلسطين^٣. وفي الحقيقة فانها تعتبر اقدم كنيسة مسيحية عثر عليها. وقد بقيت بعض آثار من عهد قسطنطين في كنيسة القيامة وكنيسة المهد حتى اليوم. وكنيسة المهد كما نراها اليوم يعود بناؤها الى بوستيان. واكثر كنائس جرش ترجع الى القرن السادس مع انه توجد في بعضها اقسام تعود الى القرنين الرابع والخامس. وكانت احداها بالاصل كنيسة تحولت الى كنيسة بعد اعادة بنائه. وفي القرون التالية تحولت ابنية الكنائس الى مساجد.

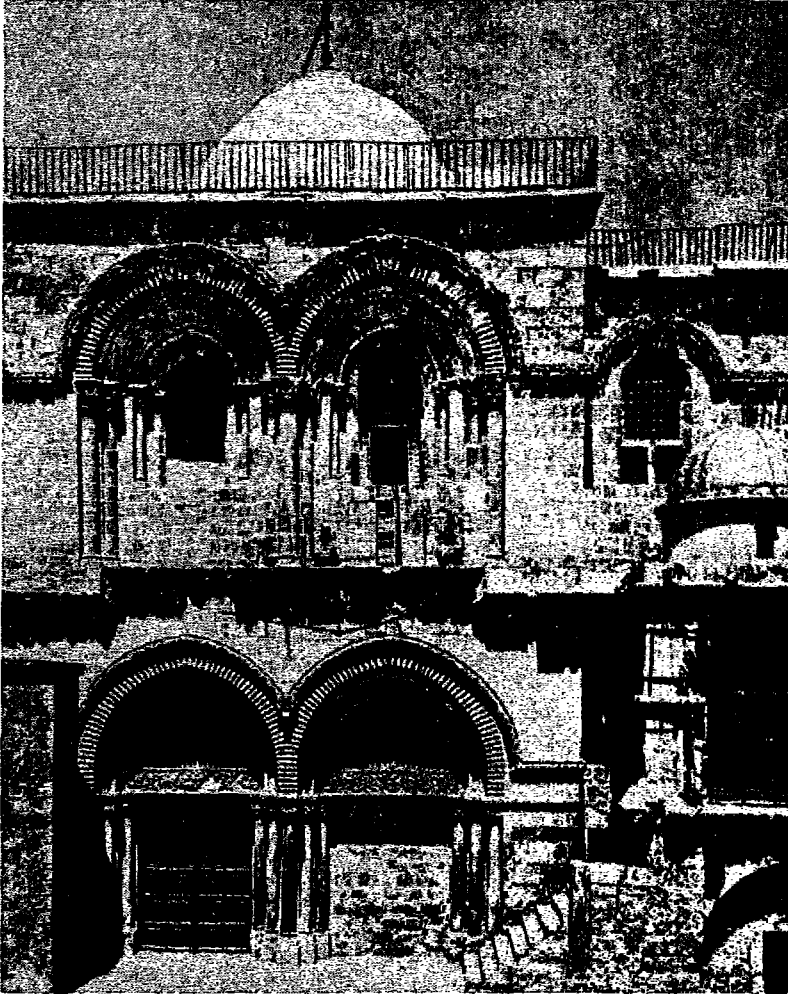
يمكننا الاستنتاج من هذه البقايا وغيرها بأن الكنيسة والكنيس يتصلان واحدهما بالآخر من ناحية العمارة. وكان كلاهما يمثل في العصر البيزنطي نموذج

(١) انظر: E. L. Sukenik, *Ancient Synagogues in Palestine and Greece* (London, 1934), pp. 8, 69.

(٢) انظر: Rostovtzeff et al., *Excavations at Dura-Europus*, vol. vi, pp. 309-96; Sukenik, pp. 82-5.

(٣) انظر: Rostovtzeff et al, *Ibid* pp. 238-88; J. W. Crowfoot, *Early Churches in Palestine* (London, 1941), pp. 1 seq.

الكنيسة المستطيلة (الباسيليكا). وكان الكنيس يتجه نحو اورشليم بينما تتجه الكنيسة نحو الشرق. وقد كان الفن فيها متصلًا اتصالًا وثيقًا.



كنيسة القبر المقدس (القيامة) في القدس

كان النموذج القديم للكنيسة المسيحية عبارة عن غرفة مستطيلة وكان هذا الشكل مستعجاباً لبساطته. وصلته بنموذج البناء السائد. وتعطينا كنيسة ام الجمال

ذات الصحن الواحد (٣٤٤ م) الموجودة جنوبي بصرى في حوران مثلاً عن هذا النوع^١. وكانت الباسيليكا السورية في القرنين الرابع والخامس تتألف من صحن معترض متصل به من جهة الشرق ثلاث حنيات او حنية مركزية بالاحرى تحيط بها غرفتان جانبيتان. وتعود جذور هذا المخطط الى نموذج البناء الذي كان سائداً قبل الميلاد. وفي بقايا الكنيسة القائمة في دير يعود الى القرن السادس عشر عليه في حفريات سكيثوبولس (بيسان) لا نرى اروقة جانبية. وكانت هناك حنية على شكل حذوة الفرس في الطرف الشرقي. ولا شك ان المذبح كان يقوم في مدخل الحنية^٢. وقد وجد في قاعة الدير تقويم بالفسيفساء والوانها السائدة هي الازرق الداكن الذي يتصف به البازلت المصقول وانواع متعددة من اللون الاحمر والبني الفاتح على ارضية بيضاء.

الفن المسيحي

تظهر بقايا الفن المسيحي الاول تأثره بالفن اليهودي. وقد اقتبست الكنيسة من الكنائس في النواحي الرمزية. فكان شكل المسيح في اقدم صورة يمثل معه عصاً وربما كانت العصا التي ضرب بها موسى الصخرة. وشكل المسيح في المدافن تحت الارض اقتبسه المسيحيون عن صور موسى. وكانت سورية في رأي بعض العلماء من مراكز الفن المسيحي^٣. واقتبس فن الايقونات المسيحي في تطوره التدريجي من التعابير الهلنستية المتصلة بالآلهة والشعراء والخطباء. وبقي هذا الفن يختلف حسب الزمان والمكان حتى بلغ فردية معينة ونموذجاً من مستوى معين في القرنين الرابع والخامس.

ومن المواضيع الشائعة جداً لدى الفنانين المسيحيين الاوائل موضوع الراعي الصالح. ويظهر بجانب اشكال اخرى من التوراة على جدار كنيسة دورا اوروبس.

(١) انظر : Howard C. Butler, *Early Churches in Syria*, pt. 1 (Princeton, 1929), p. 19.

(٢) انظر : G. M. Fitzgerald, *A Sixth Century Monastery at Beth-Shan* (Philadelphia, 1939), p. 3.

(٣) قارن مع : Joseph Strzygowski, *Orient oder Rom* (Leipzig, 1901); do., *Origin of Christian Church Art* (Oxford, 1923), pp. 1-16; do., *L'Ancien Art chrétien de Syrie* (Paris, 1936), pp. xlvi-lit.

ويصور الراعي غالباً حاملاً على كتفه حملاً . وفكرة الراعي قديمة جداً في الفكر السامي . وحمورابي يسمي نفسه في مقدمة مجموعة قوانينه «راعي» شعبه^١ . وكانت اقدم اشكال الراعي تمثله فتى حليق اللحية يلبس قميصاً قصيراً بدون اكمام وهو النموذج المألوف في الفن اليوناني الروماني . ومع ذلك فان النموذج اليوناني نفسه يعود في اصوله الى الشرق الادنى . وفي نماذج من النحت البارز من القرن التاسع ق. م. وجدت في شمال في سورية الشمالية وأخرى من القرن الثامن ق. م. وجدت في دور شاروكين قرب نينوى ، تظهر اشكالاً بشرية على اكتافها غزلان وكان رأس الحيوان في كل منها يتجه في نفس اتجاه رأس الرجل . ويرجع ان المقصود هو تقديم الغزال كضحية .

وكان السوري في العصر البيزنطي يبحث في الهندسة المعمارية والرسم والنحت وغيرها من ميادين فن الزخرفة عن طرق جديدة في التعبير مستقلة عن النماذج اليونانية الرومانية التي كانت منذ فتوح الاسكندر تؤثر في الانتاج الفني . وكان الفن الوطني يهدف بصورة مؤكدة الى الواقعية . وقد حررت نفسه بالتدرج من استعمال النماذج العارية والاشكال التقليدية ومهد الطريق للفن المسيحي في العصور الوسطى والفن الاسلامي .

احياء الآرامية

تطورت الكنيسة المسيحية في سورية من ناحية لغوية في اتجاهين: الاتجاه اليوناني على الساحل وفي المدن التي تأثرت بالهلينية والاتجاه السرياني في الداخل^٢ . وقد ظهرت الكنيسة التي تستعمل اللغة السريانية منذ القرن الثاني . وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية . وقد اشار التحول عن اليونانية والعودة الى الآرامية في العصر البيزنطي الى اليقظة الجديدة بين السوريين . وكان تجدد الاهتمام باللغة السامية القديمة دليلاً على احياء للوعي القومي كما كان رد فعل ضد الوثنية .

(١) انظر: Robert W. Rogers, *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York 1912), p. 399.

(٢) لتمييز بين الآرامية والسريانية راجع ما سبق في ص ١٨٣ و ١٨٤

ولما كان السوريون يعرفون عدة لغات دائماً فإن الذين اهتموا منهم بالمهامة درسوا اللغة اللاتينية اما الذين عكفوا على دراسة الفلسفة فتعلموا اليونانية ولكن بقيتهم وخاصة اولئك الذين وجدوا خارج المراكز ذات الصلة العالمية فانهم تمسكوا باللغة الوطنية . وكان على الموظفين البيزنطيين في الداخل ان يستخدموا الترجمة . ويشكو يوحنا فم الذهب^١ في انطاكية ذاتها بان الذين كانوا يستمعون اليه لا يستطيعون فهم مواعظه اليونانية وان الكهنة كانوا لا يسمعون سوى السريانية الدارجة .

اديسا

والادب السرياني الذي وصلنا ادب مسيحي بكامله تقريباً الا انه يشتمل ايضا على كتب في العلوم والفلسفة مترجمة عن اليونانية . وكان اول مركز كبير له بعيد عن المدن التي تتكلم اليونانية هو اديسا التي اعتبرت ائنة العالم الآرامي حيث استخدمت السريانية في اول الامر لاغراض ادبية . وقد ازدهرت مدرسة اديسا حتى عام ٤٨٨ - ٤٨٩ عندما هدمت تماماً بأمر الامبراطور زينون . فانتقل الاساتذة الى نصيبين التي اصبحت وريثة اديسا كمركز علمي سرياني يوناني . ووجدت كنيسة اديسا التي انشئت حوالي اواخر القرن الثاني نفسها في القرون التالية غير منسجمة مع التقاليد اليونانية في انطاكية والغرب . وكانت تستعمل ترجمات التوراة الخاصة بها اولاً بشكل الدياتسرون Diatessaron وبعد ذلك بشكل البشيتا Peshitta (وهي الترجمة البسيطة)^٢ . وبقيت البشيتا منذ ذلك الحين الترجمة السريانية المعروفة .

كان افرام سيروس (السوري ، من حوالي ٣٠٦ - حوالي ٣٧٣) اول اللاهوتيين العظام في الكنيسة المسيحية كما كان ايضاً شاعراً دينياً وساعد في ادخال الرهبنة^٣ . وقد ولد افرام في نصيبين واتى الى اديسا حيث اسس او اعاد تنظيم مدرسة للاهوت اصبحت جامعة عظيمة للسوريين . وقد عاش قبله بارديسانس

(١) انظر : Joannes Chrysostomus, *Opera Omnia*, vol. ii (Paris, 1837), p. 222.

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٧١ .

(٣) انظر ما سبق في ص ٤٠٣ . راجع بشأن منتخبات من ترانيمه ومواعظه : *Nicene and Post-Nicene Fathers*, ser. 2, vol. xiii (New York, 1898), pp. 119-341.

Bardesanes^١ (ابن ديسان ١٥٥ - ٢٢٣ م.) وكان من اديسا ايضاً. وقد وضع اساس علم الترانيم وادخل الموسيقى الى تلك الكنيسة ولكن البعض يعتبره غنوسياً.

الانشقاقات الدينية

نتج عن المعارضة للفكر المسيحي بالشكل الذي مثلته بيزنطية وانطاكية انشقاقات او «هرتقات» من وجهة نظر الكنيسة الرسمية. وكانت هذه الانشقاقات الى حد ما كما هو الامر في ناحية اللغة تعبيراً عن اليقظة القومية. وبعد ان غمرت الروح السورية لعدة قرون موجة من الحضارة اليونانية عادت اخيراً الى تأكيد ذاتها من جديد. ولم يكن السوريون كشعب قد اصطبغوا بالصبغة اليونانية الآن بأكثر مما اصطبغوا به قبلاً بالصبغة الرومانية. وكان انصرافهم عن حكاهم البيزنطيين يعود ليس لاسباب تتعلق بالمبادئ فحسب بل لاسباب سياسية واقتصادية ايضاً. وكان البيزنطيون اكثر استبداداً في حكمهم واكثر جوراً في نظام ضرائبهم. فقد جردوا السكان الاصليين من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلاً. واطهروا حتى في المسائل الدينية تسامحاً اقل من تسامح اسلافهم الوثنيين.

كانت المناقشات اللاهوتية عصب الحياة بين المتقنين في القرنين الرابع والخامس. وقد تركزت على طبيعة المسيح والمواضيع المتعلقة بها التي لم تعد تثير اهتمام المسيحيين منذ ذلك الحين. فنتج عن ذلك هرتقات ومدارس فكرية لا تحصى وكان بعضها يعكس استخدام منطق ارسطو وتطبيق مبادئ الافلاطونية الحديثة. وفي هذه الاثناء اخذت تظهر عبادات قريبة من الزردشتية والبوذية بين الجماعات المسيحية. ويشير يوحنا فم الذهب^٢ الى فئة في انطاكية اعتقدت بتناسخ الارواح وكانت تلبس اردية صفراء. وكانت المانوية Manichaeism من اخطر العبادات الجديدة التي كانت تنتشر من الشرق وقد اسسها ماني Mani حوالي عام ٢٤٦ م. وقد مات ماني

(١) تعني « بار Bar » بالسرانية (ابن) و « ديسان Daisān » (اسم جدول في اديسا) ؛ وقد ذكره Eusebius, Bk. IV, ch. 30. والكتاب العرب ابتداءً من ابن النديم في كتاب الفهرست ؛ نشره : Gustave Flugel (Leipzig, 1872) pp. 338-9.

(٢) انظر : Opera Omnia, vol. iv, p. 53

في السجن بسبب معتقداته^١. اما دياناته التي جمعت عناصر مسيحية وبوذية وزردشتية في مجموعة واحدة فقد انتشرت في العصر البيزنطي من فارس الى اسبانيا. وقد اثارت «اخطاؤها» الآباء السوريين بشكل لم تفعله اية اخطاء اخرى من قبل.

ابولينارس

كان اصحاب ما يسمى بالهرتقات من اصل سوري او يمجاون ثقافة سورية. وقد بدأت السلسلة بأريوس في القرن الرابع الذي أدان مجمع نيقية^٢ آراءه ومع ذلك بقيت لها اهمية عظيمة من الناحية اللاهوتية والسياسية. وكرده فعل ضد الأريوسية وتأكيدها على الطبيعة البشرية للمسيح اكد ابولينارس Appollinaris اسقف لاوديسة (توفي حوالي ٣٩٠) انه بينما كان للمسيح جسد بشري حقيقي وروح بشرية حقيقية فان الكلمة (Logos) تحل في شخصه المقدس مكان النفس التي هي اسمى جزء في الانسان. واتضح ان ابولينارس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الافلاطوني الحديث بان الطبيعة البشرية مركبة من ثلاث عناصر وهي جسد وروح (تبعث النشاط) ونفس (تجعل الانسان عاقلاً ومختلفاً عن الحيوانات). وتربط تعاليم ابولينارس بين الأريوسية والنسطورية بانها تعارض الواحدة وتمهد الطريق للأخرى.

الكنيسة النسطورية

ولد نسطوريوس في كيليكية الشرقية وعاش في دير قرب انطاكية. وفي عام ٤٢٧ رقي الى اسقفية القسطنطينية بناء على اقتراح الامبراطور تيودوسيوس الثاني الذي امل بذلك ان يأتي من انطاكية باسقف شبيه بيوحنا فم الذهب. ولكنه حكم عليه في عام ٤٣١ من قبل مجمع افسس. وكانت وجهة نظره التي أعترض عليها انه يوجد في المسيح شخص الهي (الكلمة Logos) وشخص بشري يتصلان واحدهما بالآخر بانسجام تام في العمل ولكن ليس بتلك الوحدة التي تظهر في شخص واحد. وكان لنسطوريوس اتباع عديدون شكلوا النسطورة الحقيقيين.

(١) حفظ لنا الهرست ص ٣٢٧ - ٣٣٨ اخباراً تعتبر من اكثر الاخبار القديمة تفصيلاً عن ماني ونظامه .

(٢) انظر في ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

وظهر التساطرة المعروفون بنساطرة بلاد فارس فيما بعد. وبتعبير اصح شكّلوا الكنيسة الشرقية او كما تسمى نفسها مفاخرة «كنيسة الشرق». وكانت قد وجدت هذه الكنيسة منذ عصر الرسل ولا يزال يوجد لها اتباع حتى اليوم. وعندما انقطعت صلتها بالامبراطورية الرومانية نشر اتباعها معتقداتهم وطقوسهم المحلية. وهم يعتبرون نسطوريوس بين الآباء اليونان وليس السوريين. ومع ان بعض كتاب هذه الكنيسة قد استخدموا اللغة النسطورية بصورة اكيدة فان المفردات التي كانت تستخدم في الطقوس والجامع المختصة بها كانت بوجه عام خالية تماماً من تلك اللغة. وهذه هي الكنيسة التي كانت لها فيما بعد حيوية كافية جعلتها ترسل المبشرين حتى الى الهند والصين.

الكنيسة يعقوبية

كان المنهب المونوفيزي Monophysitism (القائل بالطبيعة الواحدة) اعظم انشقاق تعرضت له الكنيسة الشرقية بعد النسطورية. وبتعبير دقيق كان اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا بمبدأ الطبيعتين (الالهية والبشرية) في الشخص الواحد للمسيح الذي وصفه مجمع خلقدونية في عام ٤٥١ م. واتخذوا شعارهم «الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة». وبتعبير آخر اعتقد اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بان المظهر البشري والاهلي في المسيح لا يشكل سوى طبيعة مركبة واحدة ومن هذا اتى اسمهم^١.

وفي اواخر القرن الخامس واول القرن السادس كسبت المونوفيزية القسم الاكبر من سورية الشمالية كما ورثت اتباع ابولينارس في الجنوب. ويعود نجاحها بدوجة كبيرة الى امرين اولهما الدعاية النشيطة التي قام بها راهب سوري يدعى برصوما Barsauma (ويجب التفريق بينه وبين برصوما النسطوري اسقف نصيبين حوالي ٤٨٤ - ٤٩٦) وثانيهما شخصية سفيروس بطريرك انطاكية (١٢٢ - ٥١٨)^٢. ويزعم اصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة ان سمعان العمودي كان يؤمن بفكرتهم

(١) من الكلمة اليونانية مونوس monos وتعني واحد مضافة الى كلمة فيزيس Physis وتعني طبيعة.

(٢) انظر في ص ٤٠٠ - ٤٠١.

اللاهوتية . كذلك ايد الفساسة^١ . وغيرم من العرب السوريين هذا المذهب . وقد نظمت الكنيسة المونوفيزية في سورية من قبل يعقوب البرادعي (Bardeana) الذي رسم اسقفاً لاديسا حوالي عام ٥٤٣ وتوفي في عام ٥٧٨ . وبتبعية ذلك سمي اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة السوريون باليعاقبة . وهكذا اصبح القسم الغربي من الكنيسة السورية منفصلاً تماماً عن القسم الشرقي .

انتشر مذهب الطبيعة الواحدة من سورية الى ارمينية في الشمال ومصر في الجنوب . ولا يزال الارمن والاقباط حتى هذا اليوم يتمسكون بلاهوت الطبيعة الواحدة . وقد اخذ عدد اتباع هذا المذهب في سورية وبلاد ما بين النهرين بالتناقص منذ ان اصبح الاسلام القوة المسيطرة في هذه البلاد .

الخطر الفارسي

لم تنتبه سورية وحدها في العصر البيزنطي الى تقاليدھا القديمة من جديد بل ان مصر وبلاد الرافدين تنبھتا ايضاً الى ذلك . وفي عهد السلالة الساسانية الطامعة اخذت الدولة الفارسية المجاورة تنازع بيزنطة السيادة على الشرق . وقد صدق قائد بوسطنيان القدير بليساريوس الهجوم الاول (٥٢٧ - ٥٣٢) . وكان بروكوبيوس من مدينة قيصرية ومؤرخ هذه الحرب يرافق بليساريوس كمشاور له^٢ . غير ان هذا الهجوم لم يكن سوى مقدمة للخطر المحدق .

وعاد الفرس في عام ٥٤٠ الى الظهور من جديد في عهد كسرى الاول انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) . وقد زحف هذا الملك النشيط على رأس ٣٠٠٠٠٠ رجل على سورية بطريق هيرابولس (منبج) واشعل النار في مدينة حلب التي لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضت عليها^٣ . وكان مقدارها ٤٠٠٠ ليبرة (رطل انكليزي) من الفضة وهو ضعف المقدار الذي اشترت به هيرابولس سلامتها . ثم تابع كسرى سيره من حلب الى انطاكية التي كانت فيها حامية ضعيفة . ولم تستطع نجدة مؤلفة

(١) انظر ما سنذكره عن الفساسة في الفصل ٢٩ .

(٢) انظر : Procopius, Bk. I, ch. 12, § 24.

(٣) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 7, §§ 1-13.

من ٦٠٠٠ جندي انت من فينيقية اللبنانية^١ من منطقة حصص ان تقف في وجه المهاجم الفارسي . وكانت قوة الجيش الروماني في هذا الزمن مركزة في الغرب حيث كان بوسنيان يحاول إعادة جمع اطراف الامبراطورية الرومانية القديمة . فنهب مدينة انطاكية وجردت كاتدرائيتها من كنوزها الذهبية والفضية ومن رخامها الفاخر، وهدمت المدينة بكاملها واخذ سكانها اسرى^٢ . وبني لهم القاتح قرب عاصمته طسيقون (المدائن) مدينة جديدة افتخر بتسميتها انطاكية كسرى .

وهكذا انتهى كيان المدينة كمرکز فكري بعد ان دام ثمانية قرون . وكانت انطاكية في آخر ايامها مدينة مسيحية مشهورة تأتي في مرتبة القسطنطينية والاسكندرية كتمقر بطريركي . وقد عقدت فيها عشر مجامع كنسية بين ٢٥٢ - ٣٨٠ م . ويبدو ان تقدير يوحنا في الذهب^٣ لعدد افراد الطائفة المسيحية فيها بمائة الف قد تجاهل عدد العبيد والاطفال . ويروي ملاس^٤ المؤرخ الانطاكي المعاصر بان زلزال عام ٥٢٦ الذي نكبت به المدينة ادى الى هلاك ٢٥٠,٠٠٠ انطاكي^٥ . وكانت النتائج الاقتصادية لنهب الفرس لها ولهذا الزلزال وزلزال عام ٥٢٨ نتائج وخيمة .

تابع كسرى مسيره من انطاكية الى افامية وهي مركز مسيحي آخر مزدهر . وقد ادعت كنيستها بانها تملك قطعة من الصليب الحقيقي طولها ذراع واحد وهي محفوظة بكل وقار في تابوت مرصع بالجواهر^٦ . وكان هذا الاثر الثمين يحرسه كهنة خاصون ويعرض مرة في كل سنة حيث يقوم جميع السكان براسم العبادة امامه . وقد اخذ التابوت وجمع كل الذهب والفضة في المدينة . وقدمت جميع هذه للمهاجم لارواء نهمه الا ان الاثر نفسه قد سلم اذ كان لا قيمة له بالنسبة لكسرى . وعندما

(١) انظر في ص ٣٨٩ .

(٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 9, §§ 14-18.

(٣) انظر : Opera omnia, vol. vii, p. 914.

(٤) معنى الكلمة السريانية « مالالا Malala » خطيب او واعظ .

(٥) راجع لاجل التوسع في عدد السكان : Bury, History of the Later Roman Empire, vol. i, p. 88.

(٦) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11.

اتهم احد المواطنين جندياً فارسياً بأنه دخل بيته وهتك عرض ابنته امر كسرى باعدام الزاني في المعسكر^١. وقد نسب المواطنون سلامة المدينة من الدمار الى فعالية الاثر المقدس.

كانت خالكيس قرب حلب الضحية الثانية وقد اشترت سلامتها بكمية من الذهب. ثم استمرت حملة كسرى في السلب وتناولت المقاطعات الواقعة شرقي الفرات.

وفي عام ٥٤٢ عقدت هدنة تجددت بعد ذلك عدة مرات حتى عام ٥٦٢ حيث وقعت معاهدة مدتها خمسون سنة تلزم يوستينيان بدفع جزية الى «الملك العظيم» وبالامتناع عن القيام بأية دعاية دينية في المقاطعات الفارسية. وقد تجددت المنازعات في اوائل القرن السابع الا ان الحديث عنها يتصل بفصل يأتي فيما بعد ويتعلق بقيام الدولة العربية الاسلامية^٢.

(١) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11, §§ 36-8.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٠.

الفصل الخامس والعشرون

الدول السورية العربية قبل الاسلام

شهدت سورية قبل ظهور الاسلام وانتشاره في الشمال قيام ثلاث دول عربية وسقوطها على حدودها وهي : دولة الانباط في الجنوب ودولة تدمر في الشمال ودولة القساسة بينهما . وقد اشتركت هذه الدول الثلاث ببعض اوصاف عامة في تاريخها المتعاقب . ويرجع اصلها الى تحضير القبائل البدوية او المتنقلة كما يرجع ازدهارها الى تجارة المرور . وتحالفت كل منها لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة مع احدى الدولتين العالميتين . وهما رومة وفارس وتلقت المساعدات منهما . وقد قضت رومة اخيراً على الدولتين النبطية والتدمرية وقضت بيزنطة وفارس على دولة القساسة .

١ - الانباط

يظهر الانباط لأول مرة في القرن السادس ق . م . كقبائل بدوية في الصحراء الواقعة في شرقي ما يسمى اليوم بشرق الاردن . وكانت هذه البلاد منذ بداية القرن الثالث عشر مقر ممالك صغيرة هي مملكتنا آدوم وموآب في الجنوب ومملكتنا عمون وجليعاد في الشمال وجميعها كنعانية وآرامية . ويظهر من البقايا الاثرية ان مملكتي آدوم وموآب لم تحتل قبل القرن الثالث عشر ق . م . وكان تاريخها خالياً من الحوادث بين ذلك والقرن التاسع عشر . وكانت بين القرن الثالث والعشرين والقرن التاسع عشر حين خضعنا كما يبدو للهجمات الآيسية من الصحراء مزدحمين بالسكان . وقد تمكنت قوة العبرانيين العسكرية وديانتهم ان تتوغل في هذه البلاد احياناً كما حدث في عهد القضاة دداود ولعسكن ديانة للتوحيد العبرانية لم تتمكن ابداً من عبور نهر الاردن بقوة تامة او من اقامة محط قدم جنوبية . وقد

اندمج هؤلاء السكان فيما بعد بالاتحاد النبطي. ومعهم قبائل ثمود^١ ولحيان^٢ في شمالي الحجاز.

من حياة الرعي الى الحياة الزراعية

كان الانباط لا يزالون رحلاً في القرن الرابع ق. م. يعيشون في خيام ويتكلمون العربية ويكروهن الحجر ولا يهتمون بالزراعة. وفي القرن التالي تركوا حياة الرعي واتبعوا حياة الاستقرار وعملوا في الزراعة والتجارة. وفي اواخر القرن الثاني كانوا قد تحولوا الى مجتمع منظم جداً متقدم في الحضارة ومتصف بالتطور والترف^٣. وكان مثالم هذا مثالا آخر يوضح الحادث الذي كان يتكرر في تاريخ الشرق الادنى القديم وهو تحول الرعاة الى مزارعين ثم الى تجار في بلاد قليلة الموارد ولكنها حسنة الموقع بالنسبة لتجارة القوافل التي عوضت قلة عن مواردها الطبيعية.

ان اول تاريخ ثابت في عهد الانباط هو عام ٣١٢ ق. م. حين نجحوا في صد هجمات حملتين من سورية بقيادة انتيفونس^٤، احد خلفاء الاسكندر، ضد «صخرتهم» (ام اليبارة). وكانت عاصمتهم التي بدأت كحصن جبلي ثم اصبحت محطة للقوافل عند ملتقى طرق التجارة التي كانت تنقل اللبان وتجارة التوابل قد اصبحت محصنة بقوة في ذلك الحين. وكان هذا الملجأ الصخري، البتراء، قبل عهد الانباط مدينة يلتجئ اليها الادوميون الذين انتزعوها من ايدي الحوريين Horites (Hurrians ابناء سيمير Seir). وكانت عاصمة الانباط محفورة في قلب صخر رملي يظهر جميع الوان قوس القزح ولذلك كانت تشكل زليماً فريداً من الفن والطبيعة.

من الزراعة الى الحياة التجارية

ان كلمة بتراء Petra وهي اللفظ اليوناني لكلمة «صخرة» وفي العربية النصحى

(١) ذكرت في القرآن ٧ : ٧١ ؛ ١١ : ٦٤ ، ٧١ .

(٢) نرية الصفة بتمود . انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 32, § 156 ; ch. 33, 165 .

(٣) راجع : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, §§ 22, 26 ; Diodorus, Bk. III, ch. 43, § 4 .

(٤) انظر : Diodorus, Bk. II, ch. 43, § 6-7 ; Bk. XIX (ch. 6), § 94 .

الرقيم^١ هي ترجمة كلمة سلع 'Sela' العبرية. ووادي موسى هو الاسم الحديث للموقع بكامله. وقد وسع الانباط سلطتهم ومراكزهم من عاصمتهم الى المنطقة الشمالية المجاورة حيث اعدوا بناء المدن الادومية والموآبية القديمة واقاموا مراكز جديدة لحماية القوافل ومحطات مستحدثة لاستثمار الموارد المعدنية. وكانت مدينتهم المدينة الوحيدة بين الاردن والحجاز التي توجد فيها مياه غزيرة ونقية. وزيادة على ذلك كانت المدينة حصينة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب. واصبحت البتراء منذ آواخر القرن الرابع المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبي الجزيرة العربية الذي ينتج التوابل وبين مراكز الاستهلاك والبيع في الشمال. وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفأ غزة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى ايلة Aila على البحر الاحمر والى الخليج الفارسي عبر الصحراء^٣. وكانت تستبدل فيها جمال القوافل بجمال أخرى نشيطة.

لم يكتف مهندسو المياه الانباط بمياه ينابيعهم ولذلك اصبحوا بارعين في استخراج المياه الباطنية وفي استخدام مياه الامطار القليلة وحفظها. ويبدو انهم قد ورثوا تلك العسا السحرية التي مكنت متجولاً سامياً قديماً في تلك المنطقة وهو موسى من استخراج المياه من الصخرة الجافة^٤. وهكذا تمكنوا من انتزاع اجزاء من الصحراء وتحويلها الى اراض مزروعة اكثر مما فعله اي شعب عربي من قبل او من بعد.

ولا نسمع سوى القليل عن بلاد الانباط في القرن الثالث حين كانت سكانها يُتمون امكانياتهم. وفي اوائل القرن الثاني اصبحت قوةً يحسب لها حساب في

(١) انظر القرآن ١٨ : ٨ ؛ ياقوت، جزء ١٠، ص ٩١ و ٧٢٨ ؛ جزء ٢، ص ١٢٥ و ٨٠٤
قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IV, ch. 4, § 7; ch. 7. § 1.

(٢) ذكرت في سفر اشعيا ١٦ : ١ : ٤٢ : ١١ ؛ الملوك الثاني ١٤ . ٧ ؛ قارن مع اخبار الالام الثاني ٢٥ : ١٢ ؛ ارميا ٤٩ : ١٦ ؛ عوبديا ٣ : ٤ . انظر : G. and A. Horsfield, *Quarterly Department of Antiquities of Palestine*, vol. vii (1938), pp. 1 seq.

(٣) قارن مع : Pliny, *Natural History*, Bk. VI, ch. 32, § 145.

(٤) انظر سفر الخروج ١٧ : ٦ .

سياسة الشرق الادنى . وقد وقعت في فترة ظهورها تحت تأثير البطالمة . وتعتبر سنة ١٦٩ ق.م . فاتحة عهد سلسلة من الملوك الانباط الذين عرفنا اخبارهم بالتاكيد .

الملكية النبطية

كان الحارث (حوالي ١٦٩ ق.م .) على رأس قائمة هؤلاء الملوك ويدعى « اريتاس Aretas ملك العرب »^١ . وقد تسمى بهذا الاسم كثير من ملوك الانباط كما تسمى به ملوك النعسانة فيما بعد . وكان الحارث معاصراً لمؤسس الاسرة المكابية . وبدأت الاسرتان عهدهما كحليقتين طبيعيتين ضد ملوك سورية السلوقيين^٢ . ولكنها اصبحتا فيما بعد متنافستين . وقد سارع الحارث الثاني (« ابروتيموس Erotimus »^٣ (حوالي ١١٠ - ٩٦ ق.م .) مؤسس السلالة لمساعدة غزة في عام ٩٦ ق.م . وكان اسكندر جنايوس Jannaeus المكابي يحاصرها . وحوالي عام ٩٠ ق.م . حاز خلف الحارث الثاني وهو عبيدة (ابوداس الاول Obodas I) نصراً هاماً على جنايوس^٤ . وقد نشبت المعركة على الشاطئ الشرقي لبحر الجليل وسهت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقي من سورية اي منطقة حوران وجبل الدروز اليوم . واستغل عبيدة وخلفه الحارث الثالث (حوالي ٨٧ - ٦٢) انخراط جيرانها السلوقيين والبطالمة فوسعوا الحدود العربية الى الشمال . ولم تكن رومة قد ظهرت بعد على مسرح الشرق .

كان الحارث هذا المؤسس الحقيقي لسلطة الانباط . فقد هزم مراراً جيش اليهودية وحاصر اورشليم . كما انه استجاب لدعوة تلقاها من دمشق واقام نفسه عليها سنة ٨٥ ق.م . كحاكم لتلك المدينة السلوقية والسهل الغني الملحق بها وهو سورية المحوفة . وكان الدافع لهذه الدعوة كره سكان دمشق لحاكم خالكيس (عنجر) الايتوري الذي طمع بعرش سورية^٥ . وبعد اثني عشر عاماً صد الحارث هجوماً

(١) انظر سفر المكابيين الثاني : ٥ : ٨ .

(٢) انظر سفر المكابيين الاول : ٥ : ٢٤ - ٢٧ : ٩ : ٣٥ .

(٣) انظر : Dussaud and Macler, *Mission*, p. 70.

(٤) انظر ما سبق في ص ٢٩٦ .

(٥) انظر ايضاً ما سبق في ص ٢٧٠ .

قام به بومي^١ الذي كان يحلم بتوسيع الحدود الرومانية حتى البحر الاحمر. وبدأ كأنه اقوى سيد في سورية. وكان هذا اول احتكاك مباشر مع رومة.

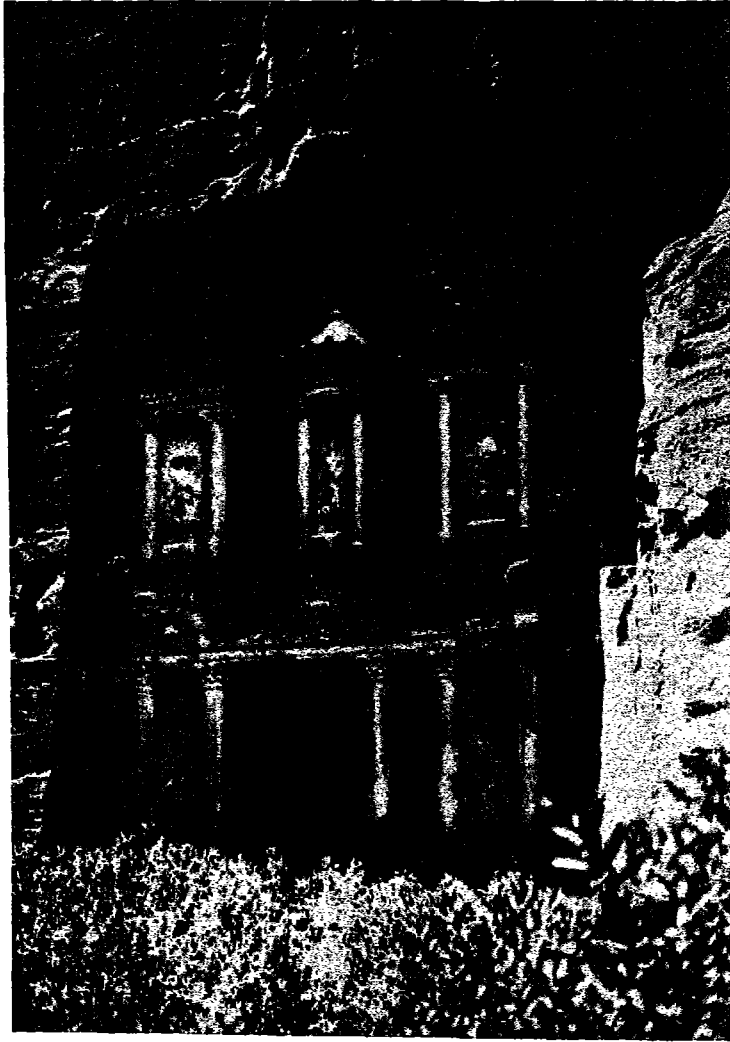
بينما كان الحارث يصد الرومان باليد الواحدة كان يفتح بالاخري الباب على مصراعيه للتأثيرات اليونانية الرومانية. وادخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهلنستية وكسب لقب محب الهلينية Philhellene. وكان اول من سك نقوداً نبطية اقتبس لها النموذج المعروف عند البطالمة. كما انه اتى بالصناع السوريين الى عاصمته وادخلوا معهم نماذج هلنستية وربما نحتوا الواجهة الجميلة التي تسمى اليوم الحزنة وكانت بالاصل قد وضعت لتكون له. ويرجح ان المسرح قد بني ايضاً في زمن الرومان^٢. وبدأت البراء منذ ذلك الحين تتخذ مظاهر مدينة هلنستية نموذجية فكان فيها شارع رئيسي جميل وعدة ابنية دينية وعامة. ومنذ هذا العهد اخذت دولة الانباط تقوم بدور «موال» حليف لرومة. وطلب يوليوس قيصر في عام ٤٧ من مالكو (مالكوس الاول Malchus I حوالي ٥٠ - ٢٨ ق.م.) ان يقدم الفرسان لتسليم في حربه في الاسكندرية. وشجع عبيدة الثالث^٣ (حوالي ٢٨ - ٩ ق.م.) وهو خلف مالكو المذكور ايليوس غالوس Aelius Gallus حاكم مصر في عهد اوغسطس قيصر على القيام عام ٢٤ بالحملة السيئة المصير ضد بلاد العرب السعيدة Arabia Felix ووعده بالمساعدة التامة. ويعزو سترابو صديق غالوس مسؤولية فشل الحملة لحيانة الدليل «سيلايوس Syllaues وزير الانباط»^٤. وعندما اعتلى الحارث الرابع الذي خلف عبيدة العرش دون ان يستأذن اوغسطس بالأمر كاد ان يفقد عرشه بنتيجة ذلك.

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5. § 1; *War*, Bk. I, ch. 8 § 1.

(٢) قارن مع Rudolf E. Brännow and Alfred v. Domaszewski, *Die Provincia Arabia*, vol. i (Strasbourg, 1904), pp. 190 250-61; Gustaf Dalman, *Petra und seine Felsheiligtümer* (Leipzig, 1908), pp. 183-8.

(٣) يرجع اسم عبيدة (ابوده Oboda) المدينة المهذبة التي تقع شمالي غربي البراء الى عبيدة هذا او شخص آخر بهذا الاسم. انظر. Abel, vol. ii, p. 400.

(٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 23; Hitti, *History of the Arabs*, p. 46; cf. A. Kammerer, *Petra et la Nabatène* (Paris, 1929), p. 199.



الحزنة وهي اجل واجهة معمارية في البتراء
وقد اقم هذا البناء في الاصل ليكون ممبداً او قبراً لاحد
ملوك الانباط الاخيرين

المملكة في ذروتها

بلغت المملكة ذروتها في عهد الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م.) الذي كان حكمه طويلاً ومزدهراً. وقد تابع عملية نشر الحضارة الرومانية. وكان من ولاته ذلك الذي حاول القبض علي بولس في دمشق^١. وقد تزوج الحاكم هيرودس ابن هيرودس الكبير ابنة الحارث هذا وتجرأ على طلاقها ليتزوج راقصة كانت السبب الرئيسي في مقتل يوحنا المعمدان^٢. فشن الأب الناقم حرباً مظفرة على هذا الملك اليهودي^٣. ويمكن ان يرجع تاريخ «الاماكن المرتفعة» التي لا تزال قائمة في البتراء^٤ والقبور الجميلة التي تمثلها قبور الحِجْر (مدائن صالح) في الحجاز الى زمن حكمه. وكانت الحِجْر مركزاً لقبيلة ثمود^٥.

كانت المملكة تضم في اقصى اتساعها جنوبي فلسطين وشرقي الاردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمالى الجزيرة العربية. ومهما يكن فان القسم السوري كانت تفصله عن قسم شرقي الاردن منطقة اتحاد الديكابولس^٦. وكان يربط ما بين القسمين وادي السرحان. وكانت تستخدم هذه المنطقة الصحراوية الواقعة على الحدود الشرقية لشرقي الاردن كطريق رئيسية كبرى تبدأ من قلب الجزيرة العربية الى سورية وتتجنب المرور بالديكابولس^٧. ويمكن الافتراض انهم كانوا في هذه المدن يستفيدون من مياه الينابيع الباطنية وينشئون الخانات وابراج المراقبة والحصون ومراكز الشرطة على طول هذه الطريق وكذلك على طول وادي العربية وهو وادي

(١) رسالة بولس الرسول الثانية الى اهل كورنتوس ١١ : ٣٢ .

(٢) انجيل متى ١٤ : ٦ - ١١ .

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 5, §§ 1-2.

(٤) انظر: Alexander B. W. Kennedy, *Petra: Its History and Monuments* (London, 1925), figs. 42, 53, 57, 156.

(٥) انظر القرآن ١٥ : ٨٠ .

(٦) انظر ما سبق عن الديكابولس في ص ٣٥٠ .

(٧) انظر: Nelson Glueck, *Explorations in Eastern Palestine, III* (New Haven, 1939), pp. 144-5.

التصدع والزحول الذي يمر بالبترء ويربط وادي الاردن بمخليج العقبة . ومثل هذه التداوير كانت تعتبر ضرورية للوقاية من غارات البدو . وكان طريق وادي العربية يتفرع عند البحر الميت باتجاه الغرب الى فلسطين وباتجاه الشرق الى شرقي الاردن حيث يتصل بالطريق الملكي^١ الذي يجتاز القسم الحصب من الهضبة . وكانت تمر في هذين الواديين البضائع النبطية في زمن السلم والاسلحة في زمن الحرب .

الملوك الآخرون

لا نعرف عن حكام الانباط الاخيرين غير بعض الحقائق المستخرجة من الكتابات الاثرية المحلية والنقود والكتابات الكلاسيكية . ومنذ حكم عبيدة الثالث^٢ (حوالي ٢٨ - ٩ ق.م.) اخذت تظهر في النقود صورة الملكة مع الملك . واستمرت التماثيل التصفية المزدوجة للزوجين الملكيين تظهر منذ ذلك الحين حتى نهاية الملكية . وهناك كتابة اثرية على تمثال لعبيدة الثالث هذا تدعوه «الاهلي»^٣ مما يدل على ان الانباط كانوا يؤهلون مالوكهم بعد الموت . وقد وصفت الملكة على نقود مالكو الثاني (٤٠ - ٧٠ م.) ابن الحارث الرابع «بشقيقة الملك»^٤ مما يشير الى ان بعض الملكات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين متبعين في ذلك عادة القراعنة والبطالمة . وتشير الكتابة الاثرية على تمثال عبيدة بان احدى زوجات الحارث الرابع كانت اخته ايضاً . وقد ارسل مالكو الثاني في عام ٦٧ الف فارس و ٥٠٠٠ من المشاة لمساعدة تيطس في هجومه على اورشليم^٥ . وفي اثناء حكمه اصبحت دمشق في ايدي الرومان . ويرجح ان ذلك كان في عهد نيرون . وبموت مالكو ينتهي عصر الانباط الذهبي الذي بدأ في عام ٥٠ ق.م .

(١) انظر ما سبق في ص ٣١٩ .

(٢) يذكر باسم ابوداس الثاني في Obodas II في Cooke, p. 216 . قارن بشأن القوائم الكاملة للملوك والاختلافات في ترقيم الملوك والتاريخ : René Kammerer, pp. 176-7 ; Cooke, p. 216 ; Dussaud and Frédéric Macler, *Voyage archéologique au Safâ et dans le Djebel ed-Drûz* (Paris, 1901), p. 172 ; Dussaud and Macler, *Mission*, pp. 69-90 .

(٣) انظر : Cooke, p. 244 .

(٤) انظر : Kammerer, p. 254 .

(٥) انظر : Josephus, *War*, Bk. III, ch. 4, § 2 .

وتذكر الكتابات الاثرية التي وجدت في حوران رابيل الثاني Rabbil II (رابل Rabel حوالي ٧١ - ١٠٥) آخر ملوك الانباط وهو ابن مالكو ووريثه - وتشير اليه بصورة تهكمية كما يبدو بانه الشخص « الذي جلب الحياة والخلاص لشعبه » . وتدلنا بعض نقوده بأنه حكم لمدة من الزمن مع امه . ولم يعرف بالضبط ما حدث في تلك السنة الحاسمة التي ادت الى انهيار هذه الدولة السورية العربية الواقعة على الحدود وضهما الى امبراطورية رومة . وكانت رومة قد ابتلعت كل الممالك الصغيرة في سورية وفلسطين واخذت تتأهب للقتال مع تلك الدولة الاسيوية الكبيرة وهي دولة الفرتيين . ولم يمكن اذ ذاك التفاوض عن وجود اية دولة نصف مستقلة تقع بينهما . فكان يجب على جميع الدول المتوسطة بينهما ان تصبح في قبضة الامبراطورية التامة . ولعل الرومان في نهاية حكم رابيل رفضوا الاعتراف بخلف له . ثم كان تحرك كورنيليوس بالما Cornelius Palma نائب تراجان في سورية ضد البتراء كافيّاً لسحق اية مقاومة^٢ . واصبحت بلاد الانباط في السنة التالية جزءاً من الولاية العربية الرومانية وكانت بصرى فيها المدينة الرئيسية التي اصبحت عاصمة فيما بعد^٣ . وزالت البتراء العربية Arabia Petraea من الوجود .

اما عاصمتها الجميلة والغنية (مدينة البتراء) التي كانت « حمراء ووردية اللون وقديمة يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ » - فقد اصبحت في ذمة التاريخ الذي منه أنت . وتحول طريق التجارة الذي كان يتجه من الشرق الى الغرب شمالاً الى تدمر كما تحول الطريق الجنوبي - الشمالي باتجاه الشرق حيث يقع طريق الحج والحط الحديدية الحجازي الحديث . ثم تحولت البتراء التي اعتنقت المسيحية في القرن الثالث فصارت اسلامية في القرن السابع والقرون التالية . وقد انتزع بلدوين الاول Baldwin I المدينة المحصنة من المسلمين مباشرة بعد تنصيبه ملكاً في ١١٠٠ واحتفظ بها

(١) انظر : Cooke, p. 255 ; Dussaud and Macler. *Voyage*, pp. 166-7 ; Kammerer, pp. 255-56.

(٢) Dio, Bk. LXVIII, ch. 14, § 5. انظر :

(٣) راجع ماورد عن بصرى في ص ٣٢٣ .

الصليبيون حتى انتصار صلاح الدين الحاسم في عام ١١٨٩. وبقيت مهمة حتى كشفت آثارها للعالم في ١٨١٢ من قبل المكتشف السويسري بوركهارت^١.

العلاقات التجارية والصناعية

وصلت علاقات البتراء التجارية الى مناطق تعتبر من ابعد المناطق في العالم المتمدن آنذاك . وقد تركت آثاراً كتابية معتبرة بين بتيولي Puteoli التي كانت مرفأ لرومة لمدة من الزمن وجرها (العقير)^٢ على الخليج الفارسي . كما وجدت وثائق نبطية اخرى في ملبتوس ورووس ودلتا النيل الشرقية ومصر العليا وعند مصب الفرات . ويعود تاريخ الكتابة الاثرية المشوهة التي وجدت في بتيولي ثم اصبحت اليوم في متحف نابولي الى عام ٥ م . ويُكرس هذا النقش شيئاً من اجل حياة الملك الحارث الرابع في هيكل يرمم وكان قد بني قبل ذلك العهد بنجسين سنة^٣ . وتشهد كذلك الوثائق الصينية بمشاريع الانباط التجارية .

وكانت السلع الرئيسية تتألف من المر والتوابل والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والمنسوجات الحريرية الفاخرة من دمشق وغزة والحناء من عسقلان والاواني الزجاجية والارجوان من صيدا وصور واللؤلؤ من الخليج الفارسي . وكان الانتاج المحلي لبلاد الانباط يضم الذهب والفضة وزيت السمسم الذي كانوا يستخدمونه مكان زيت الزيتون^٤ . ويرجع ان الاسفلت وغيره من المعادن المرصحة كان يستخرج من الساحل الشرقي للبحر الميت . وكان الحرير الخام يستورد من الصين مقابل ما يصدر اليها . وقد عرف الحرير الصيني كأداة في سورية منذ ايام السلوقيين . وكان الحرير الخام ينسج في صيدا في القرن الاول الميلادي . وكانت الاشياء المستوردة من اليونان ورومة تجلب في جرار اتيكية ولا تزال توجد بعض قطع منها حول

(١) انظر : John L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London, 1822), pp. 418-34.

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٩٩ و ٣٠٠ .

(٣) انظر : *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, Pars II, tom. i (Paris, 1899), No. 158.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

البتراء وإيلة^١. وكانت إيلة ولويكي كومه (Leuke Kome) المدينة البيضاء المفقودة على البحر الأحمر قرب الوجه) حلقتين في سلسلة محطات القوافل وكانت بصري وصلخد حلقتين داخليتين. واستخدمت هذه المدن مع غيرها كمستودعات للأسلحة والبضائع. وقد عززت الجيوش المحلية بجاليات من الانباط. وبما يستوعي زيادة الاهتمام ان احد المواقع المكتشفة حديثاً وهو جبل رام Ramm الذي يبعد خمسة وعشرين ميلاً شرقي إيلة قد قيل عنه انه إرم Iram الواردة في القرآن^٢. وكان الانباط يمحون طرق القوافل ويفرضون الضرائب على البضائع ويمارسون نوعاً من الاحتكار لمدة من الزمن. ووجد سترابو « انه بلغ من شدة ميلهم للحصول على الممتلكات انهم كانوا يفرضون الغرامات علناً على كل من ينقص ممتلكاته كما كانوا يمنحون مراتب الشرف لكل من يزيد فيها»^٣.

المظاهر الحضارية

كانت حضارة الانباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الملبني ولكنها عربية في اساسها وبقيت كذلك.

وقد اصاب سترابو ويوسيفوس وديودورس باطلاق اسم العرب على الانباط، اذ ان اسماءهم الشخصية واسماء الهتهم واثر التحريف العربي في كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالاً للشك بان لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية. وفي الكتابة الآثرية في بتيولي التي سبق ذكرها يرد اسم علي، الذي شاع لدى المسلمين فيما بعد، لأول مرة في المدونات. وفي كتابات اخرى تظهر اسماء حبيب وسعيد وهي اسماء عربية شائعة ايضاً^٤. وترد بعض الكلمات العربية مثل «قبر» و«غير» في عدة كتابات

(١) هي ايلات Elath القديمة وتدعى اليوم العقبة لان احمد بن طولون بنى حصناً في ذلك الموقع.

(٢) انظر: M.-R. Savignac and G. Horsfield, « Le Temple de Ramm » *Revue biblique*, vol. xlv (1935), pp. 245-78; Harold W. Glidden, « Koranic Iram, Legendary and Historical », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*; No. 73 (1939) pp. 13-15.

(٣) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

(٤) انظر: *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, pp. 260, 242.

اثرية . وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة في احدى الكتابات الاثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربياً^١ .

كانت اللغة الآرامية وهي اللغة الشائعة في ذلك العصر يستعملها الانباط كما كان يستعملها جيرانهم في الشمال^٢ . ويجب ان نذكر انه لم تكن هناك حروف عربية بعد . والرسالة التي كتبها الانباط في ٣١٢ ق.م . الى انتيفونس كانت « بالحروف السريانية^٣ » . وكانت الآرامية اللغة الوحيدة التي باستطاعتهم استعمالها على ابنتهم الاثرية ونقودهم . وبالتدريج انفصلت الكتابة النبطية عن الآرامية . وحوالي منتصف القرن الاول ق.م . اتخذت طابعها المميز واصبحت ذات صفة ثابتة .

ويمكن الافتراض ان التجار الانباط كانوا الى حد ما يتكلمون لغتين ان لم يكن اكثر ، كتجار القاهرة وبيروت اليوم . ولا بد ان بعضهم كانوا يعرفون ليس اللغتين العربية والآرامية فحسب بل اليونانية وبمقدار اقل اللاتينية ايضاً .

وبما يزيد في اهمية الحروف النبطية ان الايجدية العربية قد انحدرت منها مباشرة كما يستدل من دراسة الكتابات الاثرية العربية القديمة . واقدم نص عربي وصلنا هو نص التماره al-Namarah في شرقي حوران من عام ٣٢٨ م . وهو مكتوب بحروف نبطية^٤ . ويعتبر خط النسخ الذي كتبت به اللغة العربية في قدمه كالخط الكوفي الذي ينسب الى الكوفة في بلاد ما بين النهرين . وتخالف المرويات الاسلامية الادلة التي مصدرها الكتابات الاثرية فتشير خطأ الى بلاد ما بين النهرين بانها اول مكان ظهرت فيه الكتابة العربية الصحيحة .

الديانة

كانت ديانة الانباط من النوع السامي الشائع واساسها طقوس الحصب المتصلة

(١) انظر : Jausen and Savignac, *Mission archéologique en Arabie* (Paris, 1909) pp. 172-6.

(٢) راجع لاجل التوسع في لغة الانباط : J. Cantineau, *Le Nabatéen*, 2 vols. (Paris, 1930-32).

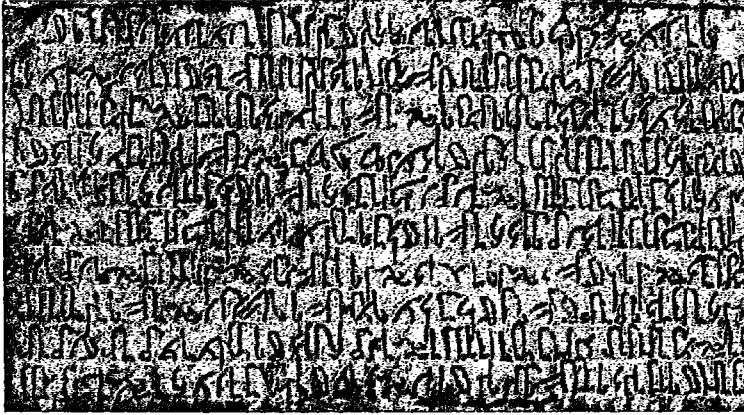
(٣) انظر : Diodorus, Bk. XIX (ch. 6), § 96.

(٤) انظر : Cantineau, vol. i, p. 22.

بالزراعة . وقد احتفظت بعناصر من العبادة القديمة المقترنة « بالاماكن المرتفعة » والحجارة القائمة .

وكانت على رأس مجموعة آلهة الانباط الاله دوشارا (ذو الشرى او دوسارس Dusares)^١ . وهو اله الشمس الذي كان يعبد بشكل مسلة او حجر اسود غير منحوت له اربع زوايا . وقد بقي في انقاض معبد نبطي في خربة التنور جنوب شرقي البحر الميت مزار على شكل صندوق شبيه بالكعبة وربما بني في القرن الاول ق. م.^٢ .

كانت اللات الالهة الرئيسية في الجزيرة العربية وتتصل بالاله ذو الشرى ،



كتابة اثرية نبطية على احد الاضرحه من علم ٢٦ م .
وجدت في الحِجْر (مدائن صالح)

١) والشرا هو اسم مكان . راجع : W. H. Waddington, *Inscriptions grecques et latines de la Syrie* (Paris, 1870), pp. 478-9.

ولا يزال الجبل الحواري الذي يشرف على شمال شرقي البتراء يدعى حتى اليوم شرى shara

ترد شرى في *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. vii (1938), pl. i.).

ويرجح ان الكلمة تعني حى او منطقة مقدسة . انظر : Dalman p. 49.

٢) انظر : M. E. Kirk, « An outline of the Ancient Cultural History of Trans-jordan », *Palestine Exploration Fund Quarterly* (1944), p. 196.

وكانت الالهة القمر . ومن الالهة التي ذكرت في الكتابات الاثرية مناة والعزّة المذكورتان في القرآن . كما يظهر في الكتابات هبل ايضاً . وكانت الالهة الآرامية اثارغانس تمثل في خربة التنور كالهة الجبوب واوراق النباتات والبار والسك^١ . وهنالك آلهة عديدة من هذا المكان تقابل آلهة تدمر ودورا – اوروبس وهيرابولس وهليوبولس . وكانت عبادة الاعمى تشكل جزءاً من الديانة .

لا نعرف سوى القليل عن الاحتفالات المتصلة بعبادة الانباط . ويبدو وصف سترابو لاحدى الولاثم الملكية التي « لا يشرب الانسان فيها اكثر من احد عشر كأساً مستعملاً في كل مرة كأساً ذهبياً مختلفاً »^٢ بأنه اشبه بحفلة تتصل بالطقوس الدينية . ويبدو ان تقشف الازمنة القديمة قد زال بتأثير « الحضارة الحديثة » . وتتضح الطقوس الدينية من رواية لسترابو نفسه يذكر فيها « انهم كانوا يأكلون على موائد مشتركة بشكل جماعات تتألف من ثلاثة عشر شخصاً ويقوم على خدمة كل جماعة مغنيتان » . وباقتباس مظاهر الترف والاساليب الهلنستية في الحياة فان الالهة بدلت اسماءها السامية القديمة واتخذت مظهرأ رومانياً فاصبح ذو الثرى يدعى ديونيسوس .

وبما لا شك فيه ان تصوير الصفات القومية للانباط في كتابات سترابو^٣ وديودورس^٤ وهما من احسن مصادرنا امر مبالغ فيه ولكن لا بد ان يكون فيه عنصر من الحقيقة . والصورة العامة هي صورة شعب متفهم للامور محب للكسب منظم وديمقراطي ، منهمك في التجارة والزراعة . ولم يكن يوجد في المجتمع سوى عدد قليل من العبيد مع عدم وجود فقراء معدمين . وحافظ الافراد على علاقات سلمية بعضهم مع بعض حتى انهم لم يحتاجوا الى رفع الدعاوى . وبلغ من ديمقراطية الملك انه غالباً ما كان يقدم تقريراً عن اعمال ملكه الى الجمعية العامة . واشغل

(١) انظر : Nelson Glueck, *The Other Side of the Jordan* (New Haven, 1940), pp. 180-86; Kirk, p. 196.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

(٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 21, 26-27.

(٤) انظر : Diodorus, Bk. XIX, (ch. 6), §§ 94-7.

الناس بالامور المتعلقة بهذه الحياة حتى انهم نظروا الى الاموات كما ينظر الى البقايا البالية .

بلغ تأثير الانباط في الشمال الى بلاد العبرانيين من جهة وفي الجنوب الى الجزيرة العربية من جهة اخرى . ويظن ان عمري Omri ملك اسرائيل ومؤسس السامرة حيث دفن حوالي ٨٧٤ ق : م . كان من الانباط^١ . وبعد حوالي قرن اعتبر اماصيا Amaziah ملك يهوذا بأن آلهة الايدوميين في البتراء قوية جداً بما يستدعي وضعها في معبد اورشليم لتعبد جنباً الى جنب مع يهوه^٢ ونستنتج من اسم جشمو Gashmu الذي عارض في مشروع بناء سور لاورشليم بأنه كلف من انباط عمود^٣ . ويمكن ان يكون « المجوس الذين اتوا من المشرق »^٤ عرباً من الصحراء النبطية وليسوا مجوساً من بلاد فارس^٥ . وقد توصل يوستين الشهيد^٦ وغيره من آباء الكنيسة الى هذا الاستنتاج من طبيعة الهدايا التي قدمت . ويرجح ان العرب الذين يذكرون بمناسبة عيد العنصرة^٧ كانوا من الانباط . والبلاد العربية التي وجد فيها بولس مكاناً يعتزل فيه^٨ كانت بدون شك احدى البقاع الصحراوية في تلك المنطقة .

وقد تكشف الابحاث العلمية فيما بعد مقداراً كبيراً من تأثير الانباط على الديانتين المسيحية والاسلامية الناشئتين اكبر مما عرف حتى الآن . وكلمة حنيف^٩ الواردة في القرآن والتي اطلقت على معاصري النبي محمد الذين كانت لهم بعض الافكار التوحيدية الفاضلة من اصل نبطي آرامي .

(١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ .

(٢) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٧ ؛ اخبار الايام الثاني ٢٥ : ١٤ .

(٣) انظر ما سبق في ص ٢٤٤ .

(٤) انجيل متى ٢ : ١ .

(٥) فارن مع : Ernest E. Herzfeld, *Archeological History of Iran* (London, 1935) pp. 64-6.

(٦) انظر : « Dialogue with Trypho », *Ante-Nicene Christian Library*, vol. ii (Edinburgh, 1867), pp. 195-6.

(٧) اعمال الرسل ٢ : ١١ .

(٨) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ١ : ١٧ .

(٩) القرآن سورة ٢ : ١٢٩ ؛ ٣ : ٦ ؛ ٤ : ١٢٤ ؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 108

الفن والبناء

لقد اوجد الانباط نموذجاً جديداً في العمارة يشتمل على معابد وقبور وغيرها من الابنية محفورة في الصخر. ومن صفات بنايتهم العرفة ذات العقود. ولعلمهم في اساليب الزخرفة اوجدوا اصناف الالواح النافرة التي انتقلت منهم الى بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس^١.

وأظهر سكان البتراء في نحتهم كما في ديانتهم علاقة وثيقة بنحت المدن الواقعة على اطراف الصحراء مثل تدمر ودورا - اوروبس وديانها.

وتأثر الصناع الانباط بالنماذج اليونانية فادخلوا نوعاً جديداً من الحزف يأتي في المرتبة بين احسن الانواع التي انتجتها تلك المنطقة^٢. وبغايا الكؤوس والفجاجين والصحون والاباريق والطاسات تظهر رقة فائقة كرقعة قشر البيض تدعو الى الاعجاب وتشهد بصناعة متفوقة. وترينا مختلف الانواع من البسيط الخالي من الزخارف الى المدهون الى المزخرف بواسطة الدولاب. ولون الطين المستعمل هو لون الطين الطبيعي المائل الى الحمرة. اما الرسوم فغالباً ما تكون نماذج ازهار او اوراق بشكل هندسي. ويُعتبر انتشار اشكال العنب واوراق الكرمة على الفخار والزخارف العمارة دليلاً آخر على ان الامتناع عن شرب الخمر المعروف قديماً لم يعد قائماً. وقد استطاع علماء الآثار التابعون للمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية في القدس التعرف عن طريق قطع الفخار الى ما يقرب من خمسمائة موقع نبطي بين العقبة والطرف الشمالي من البحر الميت^٣. وقد ذكروا ان الانباط في الفن والبناء والمهندسة وربما في الادب وفي الفخار بالتأكيد - كانوا موهوبين ومن اكثر الشعوب براعة في التاريخ^٤. والانباط الذين قاموا بقيادة القوافل التي كانت تشبه الشرايين في تجارة الشرق القديم وبناء مدينة تعتبر فريدة في تاريخ عمل الانسان وبناء

١ انظر: Neilson C. Debevoise, « Origin of Decorative Stucco », *American Journal of Archeology*, vol. xlv (1941), p. 60.

٢ انظر: Kirk, P. 195; Glueck, pp. 173-4.

٣ انظر: Glueck, p. 173.

٤ انظر: Glueck, pp. 159-60.

السدود والصحاري حيث لا توجد مياه الآن - هؤلاء الانباط يمثلهم اليوم بدو الحويطات الوضيعون الذين لا يزالون يهيمنون في الاماكن التي ازدهر فيها اسلافهم في الماضي وينصبون خيامهم خارج « المدينة الوردية اللون والتي يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ » .

٢ - التدمريون

وبينا كانت شمس البترا آخذة بالغروب كانت تشرق شمس تدمر وهي مدينة اخرى للقوافل . وبفضل وجود نبع غزير يقوم في قلب الصحراء وتصلح مياهه للشرب رغم انها كبريتية نشأت واحة تقوم في وسطها قرية صغيرة . وكان الذين استقروا فيها بضع قبائل عربية . وادى الاتجاه الجديد في الامبراطوريات العالمية والتحول في طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من العنى والسلطة بين مدن العالم القديم .

تدمر

دعا السكان المحليون بلتهم هذه تدمر . وتظهر بهذا الاسم لأول مرة حوالي عام ١٨٥٥ ق. م. وتعود الى الظهور في وثيقة آشورية لاحقة تقول ان تغلات فيلاسر الاول Tiglath-Pileser I (حوالي ١١٥٥ ق. م.) طارد اعداءه البدو حتى هذا الملبأ الصحراوي^١. ويقول يوسفوس ان السوريين يلفظون الاسم تادامورا Thadamora^٢. ولا يزال الاسم السامي القديم يظهر في كلمة تدمر العربية. والمؤرخ العبراني (اخبار الايام الثاني ٤: ٨) الذي يروي ان سليمان بنى « تدمر » قد هدف إما الى تعظيم سليمان وبملكته او مزج بين تدمر وتامار Tamar في ايدومية التي اسماها هذا الملك العبراني^٣. فالاسم اليوناني Palmyra يعني مدينة النخيل ويطابق

(١) انظر : Julius Lewy, « Les Textes paléo-assyriens ». *Revue de l'histoire des religions*, vol. cx (1934), pp. 40-41 ; P. Dhorme, « Palmyre dans les textes assyriens », *Revue biblique*, vol. xxxiii(1924), pp. 106-8; cf. Luckenbill, vol. i, §§ 287, 308.

(٢) انظر : *Antiquities*, Bk. VIII, ch, 6, § 1.

(٣) سفر حزقيال ٤٧ : ١٩ ، ٤٨ ، ٢٨ ؛ قارن مع الملوك الاول ٩ : ١٨ .

الاسم العبراني تامار Tamar . واشتقاق كلمة تدمر Tadmor غير مؤكد^١. وقد انتقلت الرواية اليهودية الى المسلمين وهالهم ضخامة الآثار الباقية في المدينة وعظمتها فنسبوا بناءها الى الجن بأمر من سليمان .

مركز للتجارة عبر الصحراء

اوجد توسع الامبراطورية الفرثية في منطقة القرات في منتصف القرن الثاني ق. م. وضعاً جديداً في الشرق الادنى كالوضع الذي حدث بعد ثلاثة ارباع القرن حين ضمت رومة اليها سورية. وكانت تدمر تقوم بين هاتين الامبراطوريتين العالميتين. وساعد موقعها المنعزل في قلب الصحراء على عدم تمكن الفرق الرومانية والفرسان الفرثيين من سهولة الاستيلاء عليها . واستفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . واستغل رجال السياسة فيها بذلك موقعها الستراتيجي بين دولتين كبيرتين متنافستين وكانوا يقفون مرة الى جانب رومة ومرة الى جانب فرثيا بما جعلهم يحافظون على ميزان القوى ويستفيدون من الحياد . وقد ابقوا على استقلال مدينتهم كدولة حاضرة وذلك بالايقاع بين الدولتين المتخاصمتين .

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على اذن مرور قوافلهم بسلام . وكان الادلاء يقودون هذه القوافل عبر المنطقة الجرداء كما كان يجيها ركب الرماة من غارات البدو . وقد وضعت المدينة ضرائب ثقيلة على مختلف انواع التجارة لدى مرورها فيها . وكانت البضائع تتألف من بعض الحاجيات الضرورية وكثير من كاليات العالم المعاصر . ولم تختلف كثيراً عن البضائع التي كانت تمر بالبتراء وهي : الصوف والاريجوان والحري والاواني الزجاجية والعطور والروائح وزيت الزيتون والتين المجفف والجوز والجن والحمور^٢ . وقد وجدت قطع من الحري

(١) لهما متصلة بكلمة تدمورتا tedmortâ السريانية ومعناها «يجب من» انظر : W. F. Allbright, «The North-Canaanite Poems of Al'ēyān Ba'al and the Gracious Gods. Journal, Palestine Oriental Society, vol. xiv» (1934), p. 130, n. 149.

(٢) قارن مع : J.-B. Chabot, *Choix d'inscriptions de Palmyre* (Paris, 1922), pp. 26-30.

الصيني في قبر يعود الى عام ٨٣ م. وكان التدمريون آنذاك يقومون بالقسط الاكبر من تجارة البحر المتوسط مع بلاد فارس والهند والصين^٢. وبما يدل على القيمة الكبرى التي كان ينظر بها الى التجار المواطنين ما اعلن في الكتابات الاثرية التي تعود الى منتصف القرن الثالث الميلادي عن اقامة «مجلس الشعب» ثنائي «لرئيس القافلة» و«رئيس السوق»^٣. وقد ازدهرت الصناعة الوطنية الى جانب التجارة. وتبرهن كتابة اثرية من عام ٢٥٨ م. عن وجود «نقابة للصاغة الذين يصنعون الذهب والفضة» وكانت تتمتع بنفوذ كبير^٤. وبما يدلنا على ان الزراعة لم تكن مهمة كلياً اكتشاف سدّ في العصور الحديثة طوله ربع ميل وقد بني بين تلّين لاجل جمع المياه واستخدامها في الري. وكانت النتيجة ان اصبحت تدمر من اكثر المدن ثروة في الشرق القديم.

واستعاض بالتدريج عن اكوأخها الطينية بيوت من الحجر الكلسي وانثنت شوارع عريضة. وكان الشارع الرئيسي يؤدي الى معبد بعل Bel. وقد اقيمت الاعمدة على طول الشوارع واتخذت المدينة مظهر مدينة رومانية يونانية مزدهرة. وكان فيها ساحة عامة (آغورا) ومسرح. وكان غناها كافياً لاستشارة جشع انطونيوس الذي امر الفرسان عام ٤١ ق.م. بغزوها. وكل ما فعله التدمريون حينذاك انهم اخلوا مدينتهم وهربوا حاملين معهم امعتهم الثمينة عبر الفرات^٥. وكان هذا اول احتكاك دونت حوادثه بين رومة وتدمر.

تدمر كتابعة لرومة

لم يكن سهلاً لمدينة الصحراء ان تحافظ على سيادتها التامة في وجه النفوذ المتزايد للامبراطورية الواقعة في غربها. ولا بد انها في اوائل العصور المسيحية

(١) انظر: R. Pfister, *Textiles de Palmyre* (Paris, 1934), pp. 39 seq., 62.

(٢) انظر: Harold Ingholt, «Tomb in the Syrian Desert», *Asia*, vol. xli (1941), p. 506; Grant, *Syrian Desert*, pp. 55, 61, 64.

(٣) انظر: Cooke, pp. 274, 279.

(٤) انظر: Cooke, p. 286.

(٥) انظر: Appian, *De bellis civilibus*, Bk. V, § 9.

كانت قد اعترفت بسيادة رومة ودليلنا على ذلك المراسيم الامبراطورية بين عامي ١٧ - ١٩ م. في عهد طيبريوس التي كانت تتصل بالرسوم الجمركية الخاصة بها ولكن المدينة لم تتخل عن استقلالها ابدأ. ويبدو انه وصلها في نفس هذه الفترة مقيم روماني يمثل رومة وقد سمحت لاحد رعاياها واسمه الكسندروس بان يقوم بمهمة من طرف رومة لدى سامبسيجرامس امير حمص^١. وقد لحق تراجان مدينة تدمر بالولاية التي اوجدها عام ١٠٦ و منحها هادريان لدى زيارته في عام ١٣٠ اسم هادريانا بالميرا Hadriana Palmyra^٢ وجعلها تابعة لرومة. وقد اصبحت المدن التابعة لتدمر تابعة لرومة. وتلفت تدمر في اوائل القرن الثالث حقوق المستعمرة من سبتيموس سفيروس او من امبراطور آخر من السلالة السورية الحاكمة في رومة. وكانت المدينة تدعى على نقود كرا كلا باسم مستعمرة Colonia. وبهذه الصفة اعفيت من الرسوم الجمركية. وكان امراً طبيعياً ان تعطف اسرة سفيروس على مدينة تدمر. وقد وجدت دعائم زخرفية كانت مزدانة فيما سبق بصور جوليا ميذا وساثر افراد الاسرة في الساحة العامة (الآغورا) التي حصلت فيها الحفريات في عام ١٩٣٩^٣. وبدأت تدمر والدول التي تدور في فلكها عهداً جديداً من الازدهار الذي دام أكثر من قرن ونصف بعد ان اصبحت تابعة لرومة. وكانت الطرق الرومانية تربط رومة بدمشق عاصمة سورية الداخلية وبعدن الفرات^٤ وبالحصون الامامية التي تحمي خطوط الدفاع. وقد كشفت اعمال المسح الجوي الحديثة بقايا مثل هذه الحصون التي تبدأ في منطقة الدجلة وتستمر في كل سورية وشرقي الاردن حتى البحر الاحمر^٥. واخذ المواطنون البارزون في تدمر يضيفون اسما رومانية الى اسمائهم. واتخذت المدينة نفسها تسمية جديدة. وازافت احدي الاسر اسم «سبتيموس»

(١) ذكر في ص ٣٦٠.

(٢) انظر : Cooke, p. 322.

(٣) انظر : Jean Starcky, *Palmyre, guide archéologique* (Beirut, 1941), p. 48.(٤) انظر : Alois Musil, *Arabia Deserta* (New York, 1927), pp. 514-16; do., *Palmyrena*, (New York, 1928), pp. 237-46.(٥) انظر : Antoine Poidebard, *La Trace de Rome dans le désert de Syrie* (Paris, 1934); Aurel Stein, «Surveys on the Roman Frontier in 'Iraq and Trans-Jordan», *Geographical Journal*, vol. xcv (1940), pp. 428-38.

امام اسمها السامي مما يدل على نوالها حق الرعوية في عهد سفيروس ويرجح ان ذلك كان اعترافاً بالخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الدولة الفرثية .

تأتي دور لاوروبس في طبيعة المدن التي كانت تابعة لتدمر . وقد استخدمت هذه المدينة كمعقل لحماية تجارة تدمر الناشئة . ووجدت فيها بقايا ابنية ذات زخارف نافرة تمثل جنوداً تدمريين . وكانت الرصافة من المدن الهامة الاخرى الملحقة بتدمر وقد دعت باسم سرجيوبولس Sergiopolis فيما بعد بالنسبة لقديمها المحلي سرجيوس . وكان سرجيوس جندياً استشهد حوالي ٣٠٥ في عهد ديوكليتيان وبقي لمدة طويلة القديس المفضل لدى الكنيسة السورية واصبحت مدينته مركزاً هاماً يقصده الزوار واوجدت فيها اسقفية^١ . وتذكر هذه المدينة باسم رصابا Rnsappa في كتابة اثرية اشورية تعود الى اواخر القرن التاسع ق . م^٢ . وهي نفس مدينة رزف Reseph (بمعنى الجمر المتوهج) التي هدمها سنحاريب^٣ . وقد قدر لهذه المدينة التي اصبح اسمها بالعربية الرصافة ان تلعب دوراً اكثر اهمية كمصيف محبب لدى الخلفاء الامويين .

اسرة اذينة

ارتقت الاسرة التي كان يتصدر اسمها كلمة سبتيموس الى مركز الزعامة في تدمر في منتصف القرن الثالث . والتمثال الذي شيد في عام ٢٥١ على شرف عميد الاسرة سبتيموس حيران ابن اذينة يدعوه زعيم «راس» تدمر وعضو مجلس شيوخها الممتاز^٤ . ويبدو انه كان اول تدمري اضاف لقب «راس» الى رتبته الرومانية كعضو في مجلس الشيوخ . ويظهر والده في الكتابات الاثرية بلقب عضو في مجلس الشيوخ فقط وهي رتبة يظن انها منحت له حين زار اسكندر سفيروس مدينة

(١) انظر : Musil, Bk. II, ch. 5, § 29. Ptolemy, Bk. V, ch. 15, § 24; *Palmyrena*, pp. 260-68, 299-326.

(٢) انظر : Dussaud, *Topographie*, p. 253 seq. Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch*, p. 77; cf.

(٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ١٢ ; اشعيا ٣٧ : ١٢ .

(٤) انظر : de Vogüé, *Inscriptions sémitiques* (Paris, 1868-77), Chabot, p. 55; Cooke, p. 285; cf. Daniel Schlumberger in *Bulletin d'études Orientales, l'Institut français de Damas*, vol. ix (1934), pp. 41-2, 53 seq.

تدمر في عام ٢٣٠ او ٢٣١ بمناسبة الحروب الفارسية . ويرجح ان حيران هذا كان والد اذينة المشهور (باليونانية اوديناثوس Odenathus ؛ قارن مع العربية اذينة تصغير اذن)^١ . ويستدل من اسماء الاعلام بان الاسرة كانت من اصل عربي . ويدعو أحد المؤرخين اليونان اذينة هذا « حاكم العرب » Saracens^٢ . وكان افراد الاسرة يشكلون الجهاز التنفيذي للحكومة التي كانت بيد مجلس الشعب . وكان الاشخاص الذين يستحقون التقدير يكرمون من قبل هذا المجلس .

لم تبدأ تدمر القيام بدور هام في القضايا الدولية حتى زمن حيران . اذ انه في تلك الاثناء كانت قد حلت سلالة جديدة نشيطة في ايران مكان السلالة الفرتية القديمة . وكانت هذه السلالة هي الساسانية التي دامت سلطتها من عام ٢٢٧ م . حتى ظهور الاسلام . وفي عام ٢٦٠ اوقع الجيش الساساني في عهد سابور الاول هزيمة منجحة بالجيش الروماني قرب اديسا حتى ان امبراطورها فالريان سقط اسيراً بأيدي اعدائه وكسب الساسانيون من وراء ذلك شهرة كبيرة . وكان فالريان قد انعم قبل سنتين برتبة القنصلية على اذينة^٣ . وامتدت غارات الفرس التالية الى شمالي سورية وتنتج عنها نهب انطاكية وغيرها من المدن^٤ . وقد هرع اذينة في هذه المعركة على رأس جيش كبير من السوريين وقبائل البدو لانتقاذ فالريان . فهزم الفرس على ضفاف الفرات وتبعهم حتى اسوار عاصمتهم برسبوليس واسر بعض افراد الحرم الملكي الا انه لم يتمكن من استعادة الامبراطور السجين^٥ . وقد توفي فالريان في الاسر وحشي جلده وعلق في احد المعابد .

كوفي اذينة في عام ٢٦٢ على ولائه للامبراطور الجديد غالينوس Gallienus فمنح لقب زعيم الشرق Dux Orientis الذي جعل منه ما يشبه نائب الامبراطور على القسم الشرقي من الامبراطورية . وكانت الامبراطورية انذاك في حالة ضعف

(١) انظر : Zosimus, *Historia nova*, Bk. I. § 39; cf. G. Ryckmans, *Les Noms propres sud-sémitiques*, vol. i (Louvain, 1934), p. 41.

(٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 5, § 6.

(٣) انظر : Cooke, p. 286.

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٠ و ٤١ .

(٥) انظر : Pollio in *Scriptores historia Augustae*, Bk. XXIV, ch. 15.

واضطراب لاتقراض العالم البربري بأسره عليها في اوربا وآسيا. وفي ذروة نجاح اذينة اغتيل مع وريثه في احوال غامضة في (٢٦٦ او ٢٦٧) بينما كان يحتفل باحدى المناسبات في حمص. وكان لابن اخيه صلة بالموأمرة التي يمكن ان تكون رومة قد دبرتها. وكان اذينة يتمتع ببنية رياضية قوية مكنته من تحمل الصعوبات كما امتاز بالهوايات والفضائل التي يقدرها العرب كثيراً. وظهر كرمه في المآدب الضخمة الرائعة وفي رعاية الاحتفالات الدينية وفي هدايا العطور التي كان يقدمها للحمامات العامة.

زنوبيا

ومهما يكن فانه يتضاءل كشخصية تاريخية امام ارملة الطموحة الجميلة التي حكمت بعده باسم ولداها القاصر وهب اللات (وتترجم باليونانية اثينودوروس Athenodorus)^١. وكانت زنوبيا التي تذكرها الكتابات الاثرية التدمرية باسم بَت زاباي Bath-Zabbay (ابنة العطية) - وهي الزباء شبه الخرافية الواردة في المصادر العربية - مثل زوجها قوية البنية ولكنها نشيطة مولعة بالصيد وركوب الخيل. وكانت حنطية اللون ذات اسنان اشبه باللؤلؤ وعينين واسعتين براقتين وتعيش حياة الابهة والوقار في بلاط فضخ يتبع نظام بلاط الاكسرة. وكانت حاشيتها تحييها بالسجود حسب الاسلوب الفارسي. وفي المناسبات الرسمية كانت تلبس ثوباً من الارجوان موشى بالجواهر ومشدوداً عند الحصر وتترك احد ذراعيها عارياً حتى الكتف. وكانت تركب والحوذة على رأسها في عربة تشع بالاحجار الثمينة. وقد ادعت القريني بزميلتها السابقة كليوباترا في مصر ورعت الثقافة اليونانية وكانت هي نفسها تتكلم الآرامية واليونانية وبعض اللاتينية^٢. وبلغ منها انها جمعت تاريخاً للشرق. وكان زينة المفكرين بين رجال بلاطها الفيلسوف لونجينوس.

ولكن زنوبيا كانت اكثر طموحاً وتأثيراً كما كمة من كليوباترا. فقد اتسعت الدولة التدمرية في عهدها حتى صارت اشبه بامبراطورية حقيقية اذ شملت سورية وجزءاً من آسية الصغرى وشمالى الجزيرة العربية. وفي عام ٢٧٠ سار قائدها زبدة

(١) انظر: Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXIII, ch. 13; Bk. XXVI, ch. 38.

(٢) انظر: Bouchier, pp. 144-5.

Zabda الى مصر على رأس جيش قيل ان عدده بلغ ٧٠,٠٠٠ رجل . فخلع حاكماً مغتصباً فيها واقام حامية في الاسكندرية. وسكت النقود لأول مرة في هذه المدينة وعليها رأس وهب اللات بجانب رأس اورليان. وفي العام التالي (٢٧١) صدرت نقود في الاسكندرية وقد حذف منها رأس اورليان. وكانت زونياً قد استنتجت حينذاك بان قوتها كافية لاعلان استقلال ابنها التام . فاتخذ لقب «ملك الملوك» . وكان يلقب ايضاً على النقود الاسكندرية والانطاكية باوغسطس وتلقب والدته باوغسطا. وقد كتب على احجار المسافات في سورية اسماء الامبراطور وزونياً اوغسطا. واقم على عمود عال في شارع الاعمدة الكبير في تدمر تمثال للملكة في آب من عام ٢٧١ نقشت عليه كتابات اثرية باللغتين اليونانية والتدمرية ولا تزال واضحة حتى اليوم وهذا نصها :

الى سيدتهم سبتيميا زونياً اكثر الملكات شهرة وتقوى والى القائد المميزين بلقب سبتيموس وهما زبدة^١، القائد العام ، وزبأي^٢، قائد الموقع ، في شهر آب من عام ٣٥٨٢ .

وكان ينتصب بالقرب منه تمثال آخر يحمل كتابة اثرية باللغة التدمرية فقط جاء فيها :

تمثال سبتيموس اذينة ملك الملوك ومجدد الشرق كله وقد شيده القائدان الممتازان ، زبدة القائد العام وزبأي قائد جيش تدمر ، لسيدهما في شهر آب من عام ٤٥٨٢ .

توقع القائدان التدمريان زبدة وزبأي قيام رومة باعمال عسكرية . فتوغلا في

(١) قارن مع زَبَد في سفر اخبار الايام الاول ٧ : ٢١ ؛ وهي كلمة من اللغة العربية الجنوبية تعني «هو (الله) اعطى» . انظر : Ryckmans, vol. I, p. 83 . وكلمة وَهَب في اللغة العربية الشبالية لها نفس المعنى .

(٢) لعلها صيغة من كلمة زبداي Zabday وهي شعبة بكلمة زَبَد . انظر عزرا ١٠ : ٢٨ ، نحيا ٣ : ٢٠ .

(٣) هذا التاريخ هو بالنسبة للمصر السلوقي الذي يبدأ في ١ تشرين الاول عام ٣١٢ ق . م ؛ انظر : J. Cantineau, *Inventaire des inscriptions de Palmyre*, fasc. i (1930), p. 27.

(٤) انظر : Starcky, p. 49 ; cf. Chabot, p. 56 ; de Vogüé, pp. 28-9 ; Cooke, pp. 290-93 ; Cantineau, fasc. i, p. 25.

داخل آسية الصغرى واقاما الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى انكيرا *Ankyra* (انقرة)؛ وقد شعرت حتى خلقدونية التي تقابل بيزنطة بوجود جيوشهم^١. وهكذا استطاعت ملكة البادية ان تشكل لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من الرومان. وكانت امبراطورية قصيرة الاجل الا انها سبقت امبراطورية الامويين باربعة قرون.

تدمير في ايامها الاخيرة

واخيراً تحرك الامبراطور الروماني اورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) الذي اعاد بقوة باسه النظام الى الامبراطورية بعد فترة من الاضطراب تميزت بهجمات الفرنجة والالمان والقوط وكذلك الفرس. وفي اوائل عام ٢٧٢ اخضع اورليان الحاميات التدمرية في آسية الصغرى ثم تابع مسيره لاحتلال سورية. ولم تظهر انطاكية التي كانت مع سلوكية موالية للرومان سوى مقاومة ضئيلة؛ اما حمص التي كان يضر سكانها الحسد لتدمر بسبب الاسبقية التي تدعيها فقد احتلت بعد بعض المقاومة. وانسحبت زنوبيا وزبده الى تدمر^٢ بعد ان تفوقت فرق الفرسان والمشاة الخفيفة التابعة لاورليان بتحركاتها على فرق فرسانها الثقيلة. واصبحت طريق البادية المؤدية الى العاصمة مفتوحة الآن امام العدو المهاجم. وتمهل اورليان في حمص لاقامة مذابح جديدة لاله الشمس الاكبالس^٣ وبني في طريق عودته الى رومة معبداً خاصاً له كانت تمارس فيه الطقوس السورية.

حاصر اورليان مدينة تدمر وعززت قواته بجيوش مصرية الا ان زنوبيا لم تتلق اية مساعدة حتى ولا من بلاد فارس. وكان التدمريون يقذفون المحاصرين بالحجارة والنبال وكرات النار. وقد رفضت الملكة في البدء الشروط المعتدلة للاستسلام التي قدمها اورليان ولكنها ادركت انها تحارب معركة خاسرة وحاولت انقاذ نفسها بالهرب ليلاً على هجين سريع. وقد ادركها الحيلة الذين كانوا يلاحقونها بينما كانت تحاول عبور الفرات^٤. وكان ابنها قد سقط قتيلاً في الدفاع عن مدينته.

(١) انظر: *Mommsen, Provinces of the Roman Empire, vol. ii, p. 107.*

(٢) انظر: *Zosimus, Bk. I, § 52.*

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٨١.

(٤) انظر: *Vopiscus in Scriptorum, Bk. XXVI, ch. 28.*

ولم يكن امام تدمر سوى الاستسلام. فجردها الفاتح من مصنوعات الفينة وزخارفها الثمينة التي اخذ بعضها لتزيين معبد الشمس الجديد في رومة. واقتصر عقاب السكان على فرض غرامة عليهم وتعيين حاكم روماني مع عدد من الرماة.

واعدم لوجينوس مع غيره من مستشاري زنوبيا في حمص لتشجيعه الملكة على التخلص من الوصاية الرومانية. وما كاد اورليان يصل الملبسوت في طريق عودته (اواخر ٢٧٢) حتى سمع بثورة جديدة في تدمر اذت الى اغتيال حاكمه والتغلب على حامية المدينة^١. فهرع راجعاً وفاجأ المدينة فهدها واعمل السيف في سكانها. وقد سلم معبد بعل. اما زنوبيا فاخذت الى رومة مع احد ابنائها^٢. وسارت محملة بالجوهر ومقيدة بسلال ذهبية فازدان بها موكب اورليان عند دخوله المظفر الى عاصمته في ٢٧٤. وقدمت لها دار خاصة قرب تيبور (تيفولي) حيث امضت بقية سني حياتها. وتزوجت هناك من روماني على ما يرجح وانجبت اولاداً^٣.

زالت اهمية تدمر باستثناء فترات قصيرة في عهد ديوكليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) ويوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ثم دخلت بالتدريج في عالم النسيان. وبالرغم من الاشارة اليها بصورة عرضية كمرکز اسقي فان الصحراء تغلبت على سكانها حين فقدوا سيطرتهم على تلك الصحراء. وكان هذا من الامور المعتادة. وسكن جميع اهلها في العصور الحديثة داخل بقايا المعبد القديم الذي كان طيناً لجدها القديم ويشرف هذا المعبد على الآثار الرائعة لمدينة اجدادهم. وفي عام ١٩٢٩ اجلى الفرنسيون السكان من المعبد وابتنوا لهم قرية عصرية بجانبه. وقد بني ايضاً مطار حربي وثكنات لفرقة المهجاة في ذلك الموقع.

البقايا الاثرية

تعتبر اليوم آثار تدمر من اكثر المناظر جلالاً في الصحراء. وهي تجذب هواة الآثار من جميع انحاء العالم وتفتنهم. وقد تحول معبد بعل الذي يقوم على سطح مرتفع الى ما يشبه المتحف. ووجدت فيه اشكال نساء محجبات وهن يساهمن في

(١) انظر: Zosimus, Bk. I, § 6.

(٢) انظر: Zosimus, Bk. I, § 59.

(٣) انظر: Pollio in *Scriptores*, Bk. XXIV, ch. 27.

احتفال ديني . وامام المعبد ينتصب قوس اثري يبدأ عنده شارع الاعمدة الكبير . وكان هذا الشارع المعبد الذي يبلغ طوله ١٢٤٠ يردة يشكل المحور الرئيسي للمدينة وتتفرع منه شوارع ثانوية . ولم يسلم من اعمدته البالغة ٣٧٥ عموداً او اكثر، ارتفاع كل منها ٥٥ قدماً ، سوى حوالي ١٥٠ عموداً بعضها سليم وبعضها مهشم . وغالبية هذه الاعمدة من الحجر الكلسي الابيض الوردي اللون ولها تيجان كورنثية . وبعضها من الغرانيت المنقط بالازرق بما يدل على اصل مصري (من اسوان) . وقد تضمنت الاعمدة دعائم زخرفية مزدانة بتماثيل شيدت على شرف المواطنين الجديرين بالتقدير ويعتبر ذلك من خصائص البناء التدمري . والتماثيل النصفية التدمرية هي عادة تماثيل امامية وليست جانبية وتظهر عيوناً مفتوحة واسعة وتحمل كتابات اثرية فوق الكنف . ويظهر افراد الاسرة المالكة والطبقة الارستقراطية مرتدين الرداء اليوناني بينما يظهر عامة الشعب بلباس الفرتيين^١ . وقد وجد تماثيل ساق يرتدي لباساً فرتياً كما وجد شكل آخر يضع شملة رومانية .

ومن خصائص الآثار التدمرية ايضاً القبور او «بيوت الابدية» على حد تعبير التدمريين^٢ . وتنتصب خارج المدينة كأبراج عالية وتتألف من غرف موزعة على عدة طوابق ومزخرفة من الداخل بالالوان والصور المنحوتة للموتى . وفي دورا اوروبس عدد قليل من القبور على شكل ابراج .

تعتبر الزخارف المنحوتة في تدمر^٣ ودورا اوروبس ذات اهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الفن . اذ انها تفيد في سد الثغرة بين الفن السامي القديم في بابل واشور وفينيقية وبين الفن المسيحي . ويمكن ان نتبع من خلالها بدايات التأثيرات الشرقية على الرسوم الرومانية اليونانية بما مهد الطريق لظهور الفن البيزنطي .

اللغة

كانت الحضارة التدمرية حضارة غريبة فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية

(١) راجع لأجل الامثلة على ذلك : Pa- Henri Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 2 (Paris, 1938), pp. 51 seq.

(٢) انظر : Harold Ingholt, « Five Dated Tombs from Palmyra », *Berytus*, vol. ii (1935), pp. 60, 109.

(٣) راجع : Harold Ingholt, « Quelques Fresques récemment découvertes à Palmyre », *Acta Archaeologica*, vol. iii (1932), pp. 1-20.

وفارسية . ولا شك ان السكان الاصليين كانوا قبائل عربية وقد تبنوا في كلامهم وكتابتهم اللغة الآرامية السائدة . وبقيت اكثرية السكان عربية رغم امتزاجها بالآراميين . ولا تعود الكتابات الاثرية الى اقدم من ٩ ق. م. حين كانت المدينة في



والد تدمري واولاده الثلاثة حوالي ١٧٠ م.

يبدو الوالد بدون لحية وراس مكشوف يمسك آنية في يده اليسرى وبعض البلع او الموز في يده اليمنى. ويمسك ابنه الواقف بين الابنتين عصفاً بيده اليسرى وعنقود عنب باليد اليمنى وتضع الابنتان نقاباً لا يغطي الوجه . والكتابة قرب يد الرجل اليسرى تذكر اسمه : زبديبول بن مقيمو بن نوربيل بن زبده بن عبداي (بن زبدي) يول . واسماء الاولاد من اليمين الى اليسار هي : تدمر ابنته ، مقيمو ابنه ، علي ابنته .

طريقها لان تصبح مركزاً تجارياً مشهوراً . والكتابة التدمرية الدارجة التي كانت بالاصل كتابة سكان سورية السلوقية الذين يكتبون بالآرامية في القرن الاول ق. م. لم تنشأ عنها اية اختلافات جذرية. وكانت القرارات العامة توضع باللغتين اليونانية والآرامية . وقد سهل وجود الكتابة اليونانية قراءة الكتابة الآرامية .

ووجدت احدى الكتابات الاثرية التدمرية في هنفاريا وكتابة اخرى في بريطانيا العظمى . والكتابة الاثرية الانكليزية تركها احد التدمريين وكان قد تزوج امرأة انكليزية و صنع لها تمثالاً . وكان الرومان يستخدمون الرماة التدمريين في اماكن بعيدة مثل مراكش وبريطانيا .

كانت اللهجة التي يتكلم بها التدمريون تتصل باللغة الآرامية الغربية وليس باللغة الآرامية الشرقية (لغة اديسا) . وكانت في الحقيقة نفس اللهجة المستعملة في سورية وبلاد الانباط وتدمر ولا تختلف عن اللهجة التي تكلم بها المسيح . ولا شك ان الطبقة المثقفة كانت تتكلم اليونانية زيادة على الآرامية ويظن ان رجال الاعمال كانوا يفهمون اللغة العربية كما كان يستعملها بعض التدمريين كلغة دارجة .

لونجينوس

لم ينبغ في تدمر احد من رجال الفكر المميزين سوى ديونيسيوس كاشيوس لونجينوس . ويرجح انه من مواطني حمص وقد درس أولاً في الاسكندرية ومن ثم في اثينة حيث كان من تلاميذه بوفيريوس المشهور^١ . وكانت امه سورية وعرفت اللغة السريانية^٢ . وكان من معاصريه اميلوس الأفامي^٣ . ويعتبر هذا الفيلسوف التدمري فريداً في عصر كثير فيه منمنقو الكلام والمراغون الثرثارون الجباليون . وبلغ من سعة معلوماته ان وصفه احد معاصريه بأنه « مكتبة حية ومتحف متنقل »^٤ . ولونجينوس هو الذي علم زنوبيا الأدب اليوناني واصبح مستشارها بعد ذلك . ولسوء الحظ لم يبقَ من مؤلفاته سوى بعض الفقرات والمقتطفات^٥ . وترينا هذه بأنه قد بقي وثلياً رغم انه لم يكن مناوئاً لليهودية او المسيحية . وتحمل القتل على يدي الرومان برباطة جأش وبشاشة حريتين برجل من مستوى سقراط^٦ .

(١) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

(٢) انظر : *Vopiscus in Scriptores*, Bk. XXVI, ch. 30.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

(٤) انظر : *Philostratus and Eunapius*, p. 355.

(٥) لم يتأكد بعد فيما اذا كان لونجينوس هذا هو لونجينوس كلاب قطعة « حول السم » *On the Sublime* التي لا تزال في المناهج الجامعية الانكليزية .

(٦) انظر : *Zosimus*, Bk. I, § 56.

الآلهة التدمرية

تألفت مجموعة الآلهة التدمرية من عدد متنوع من الآلهة من سورية وبلاد العرب وفارس وبابل . وكان بعضها يحمل اسماء لاتينية اضافية . ولم تختلف الديانة في جوهرها عن ديانة سورية الشمالية وصحرائها . وكان بعل صاحب السيطرة العظمى . ولم يكن الهاً شمسياً تماماً بل الهاً كونياً من اصل بابلي يعادل مردوخ . وكان يمين على مصير الانسان كما كان مسؤولاً عن الآلهة السماوية . وقد كرس المعبد الكبير له . واعتبر معادلاً لزنس فيما بعد . وقد كرس معبد آخر في تدمر للاله بعل شمين (سيد السموات)^١ . وتخلد ذكرى هذا الاله قرية في لبنان تدعى بعلشميه . وكانت له كما كان لبعل معبد في دورا حيث يذكر اسمه في كتابة اثرية من عام ٣٣ م تتعلق بنذر^٢ . وقد وجدت في تدمر عدة مذابح مكرسة لشمس (سمس ، الشمس) . وتظهر هذه الالهة الشمسية احياناً الى جانب بعل مع الاله القمرى في الجانب الآخر . وكان اسم إله القمر عجلي بول Agli-bol ، (عجل بعل)^٣ . ويظهر في بعض الاشكال بهلال على كتفيه^٤ . ولا بد ان يرخي بول Yarkhi-Bol كالتهاً تقريباً ايضاً بدلالة القسم الاول من اسمه ولكنه كان الاله الذي يقدم النبوات مما يجعله مساوياً لابولون . وكان ملاك بعل Malak-bel الاله الرسول ويعادل هرمس . وقد وجد مذبح يستحق الاهتمام مكرس « للاله المجهول الصالح والرحيم »^٥ .

وبين الكتابات الاثرية عدة تكريسات دينية الى ارضو^٦ Arsو وعزيزو^٧ Azizu.

(١) راجع : Chabot, p. 43 ; Henri Seyrig, « Antiquités syriennes », Syria, vol. xiv (1933), pp. 246 seq.

(٢) انظر : Du Mesnil du Buisson, *Inventaire des inscriptions palmyréniennes de Doura-Europos* (Paris, 1939), pp. 13-14 ; Chabot, pp. 43, 73-5 ; Rostovtzeff et al., *Excavations at Dura-Europos*, vols. vii-viii, pp. 299 seq., pl. xxxvii.

(٣) انظر : Chabot, pp. 71-3 ; Cooke, pp. 269, 301-2 ; de Vogüé, p. 93.

(٤) انظر : Chabot, p. 65.

(٥) انظر : Harold Ingholt, « Inscriptions and Sculptures from Palmyra » *Berytus*, vol. iii (1936), P. 92 ;

فان مع اعمال الرسل ١٧ : ٢٣ .

(٦) تذكره كتابات الصفا باسم راضو Radu بمعنى رضى ، رحمة . انظر في ص ٣٣١ .

(٧) انظر : *Berytus*, vol. iii (1936), pp. xxiv, 2.

ويدل اسمها على اصل عربي. ويوصف الاثنان «باللهين الصالحين المكافئين»^١. وكان عزيزو يعبد أيضاً في اديسا وفي حوران بلاد العساسنة. وكانت اللات التي يؤلف اسمها القسم الاخير من اسم آخر ملوك تدمر الالهة الرئيسية في الجزيرة العربية^٢. وكانت تعبد أيضاً في بلاد العساسنة. وهناك الالهة اخرى في مجموعة الالهة التدمرية تسمى عثر عثه Athar-atheh، (اتار غاتس) الالهة الآرامية التي كانت مركز عبادتها الرئيسي في هيرابولس^٣. وقد كرس مذبح بناء احد الانباط في تدمر (١٣٢ م) الى الاله النبطي شينع القوم Shay-al-Qaum (الذي يرافق او يحيي الناس). ويبدو انه كان الحامي الخاص للقوافل. ويوصف الاله بأنه «الذي لا يشرب الخمر»^٤.

٣ - العساسنة

تؤكد المرويات انه حوالي نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة التدمرية آخذة بالزوال كانت احدى القبائل العربية الجنوبية تشق طريقها الى حوران. وهؤلاء هم بنو غسان الذين ينسب سبب رحيلهم عن اليمن الى تصدع قديم في سد مأرب^٥. وفي حوران صادفوا سكاناً من العرب اتوا قبلهم وهم الضجاعم من قبيلة سليم وقد حلوا مكانهم كحكام على المنطقة في ظل السيادة الرومانية. وتنصّر العساسنة خلال القرن الرابع^٦. وكان مؤسس سلالتهم شخص يسمى جفنة ابن عمرو مزيقباء الذي لا يعرف تاريخه بوجه التأكيد. وفي الحقيقة ان تاريخ السلالة الجفنية بكامله غامض. وفي التواريخ العربية يختلف عدد الملوك بين احد عشر واثنين وثلاثين^٧. وتهم

(١) انظر: Chabot, p. 69.

(٢) القرآن سورة ٥٣ : ١٩.

(٣) انظر: Cooke, p. 268.

(٤) راجع: Chabot, pp. 67-8; Cooke, pp. 304-5.

(٥) انظر: Hitti, *History of the Arabs*, pp. 64-5.

(٦) وترجع بعض الاسر المسيحية التي تعيش اليوم في سورية ولبنان مثل آل الملوف وآل عطية باصلها الى العساسنة.

(٧) انظر: ابن قتيبة، المعارف، نشره: F. W. Wüstenfeld (Göttingen, 1850), pp. 314-16;

التواريخ البيزنطية بصورة رئيسية بعلاقتهم مع القسطنطينية . ولا يعرف بشكل كافٍ سوى تاريخ الملوك الحمسة الاخيرين الذين شمل حكمهم القرن الذي سبق الاسلام .

الحارث بن جبلة

كان اول هؤلاء الملوك واعظهم الحارث بن جبلة^١ (حوالي ٥٢٩ - ٥٦٩) الذي يظهر لأول مرة عام ٥٢٨ وهو يجارب المنذر الثالث^٢ اللخمي ملك الحيرة . واللخميون واصلمهم ايضاً من جنوبي الجزيرة العربية كانوا يسكنون على طول الحدود الغربية للامبراطورية الفارسية واستخدموا كدولة حاجزة بنفس الطريقة التي استخدم البيزنطيون بها الفساسنة . واعترافاً بخدمات الحارث فقد عينه الامبراطور يوستينيان في العالم التالي سيداً على كل القبائل العربية في سورية ومنحه لقب فيلارك (رئيس قبيلة) Phylarck وبطريق Patricius . وترجم العرب هذه الالقاب بمعنى «ملك» . وربما اعتبر ملوك الفساسنة انفسهم خلفاء ملوك الانباط .

ولما كانت الحارث موالياً للعرش البيزنطي فقد استمر في صراعه ضد اللخميين وساهم في اخماد الفتنة السامرية كما حارب في الجيش البيزنطي تحت امره بليساريوس في بلاد ما بين النهرين^٣ . وفي عام ٥٤٤ أسر المنذر احد ابناء الحارث وقدمه ضحية

C. B. de Meynard and P. de Courteille, مروج الذهب، نشره وترجمه : vol. iii (Paris, 1864) pp. 217-21 ;

حمزة الاصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانبيا، نشره : Gottwaldt (Leipzig, 1844), pp. 115-22 ;

تاريخ ابي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) جزء ١، ص ٧٦ - ٧٧ .

فأرن مع : Th. Noldeke, *Die Ghassánischen Fürsten ans dem Hause Gafna's* (Berlin, 1887), pp. 52-60 ; tr. Pendali José and Costi K. Zurayk, *The Princes of Ghassan from the House of Gafna* (Beirut, 1933), pp. 57-67.

(١) يشار اليه احياناً باسم الحارث الثاني لتمييزه عن جده الحارث ابن ثعلبة وهو من احفاد جبنة ويسميه المؤرخون العرب «الاعرج» .

(٢) يذكره المؤرخون اليونان باسم Alamoundaros ويدعوه Procopius, Bk. I, ch. 17, §, 47, باسم Alamoundaras حيث يجعل اسم الحارث ابن Gabalas .

(٣) انظر : Procopius, Bk. II. 16 §5; Malalas, ed. Dindorf, p. 435 .

للإلهة العزى التي تقابل افروديت^١. وانتقم الحارث لنفسه بعد عشر سنوات في معركة حاسمة جرت قرب قنسرين (خالكيس) حين قتل غريمه اللخمي. ويرجع ان هذه المعركة هي المشهورة في التواريخ العربية باسم معركة حلينة بالنسبة لابنة الحارث التي يقال انها بيدها دنت جنود ايها بالطيب قبل دخولهم المعركة^٢. وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة لبلاط يوستنيان حيث ترك تأثيراً عميقاً على افراد الحاشية كشيخ بدوي مهيب^٣. وكان موظفو البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون ان يهدثوا الامير المعتوه يوستين وهو ابن اخ يوستنيان ووريثه يكتفون بالقول: «اسكت! والا استدعينا الحارث»^٤.

حصل الحارث اثناء وجوده في القسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعي اسقفاً على الكنيسة المونوفيزية السورية. وقد انتشرت العقيدة الجديدة في سورية كلها اثناء حكمه وحكم ابنه. ويقال ان يعقوب رسم مائة الف كاهن ونصب تسعة وثمانين اسقفاً في تلك البلاد. ووصلت الملكة حينذاك ذروة اسعها اذ كانت تمتد من قرب البتراء الى الرصافة شمالي تدمر وتشتمل على البلقاء والصفاء وحران. واصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ العاصمة الدينية في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجاري. وتقول المرويات الاسلامية ان النبي محمداً مر بها هو وقافلته وهناك اطلع على الكثير مما عرفه عن المسيحية. اما بشأن العاصمة السياسية

(١) انظر: Procopius, Bk. II, ch. 28, § 13.

(٢) انظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، نشره: C. J. Tornberg, vol. i (Leyden, 1871), p. 400.

ابن قتيبة، ص ٣١٤ - ٣١٥؛ قارن مع تاريخ ابي الفداء، جزء ١، ص ٨٤.

(٣) انظر: Theophanes, *Chronographia*, ed. C. de Boor (Leipzig, 1883), p. 240.

(٤) انظر: John of Ephesus, *Ecclesiastical History*, ed. William Cureton (Oxford, 1853), p. 151; tr. R. Payne Smith (Oxford, 1860), p. 174.

(٥) احتل هذه المنطقة البركانية قبل هذا العصر جماعة من العرب الذين تركوا حوالي ستة آلاف كتابة اثرية وبنوا اثري عليها اشكال خيالة يحملون الرماح ويصطادون الغزلان. وتذكر الكتابات الاثرية تنح 'Yth (وهو ليس سوى يشوع في العبرانية 'Yeshūa، ويشوع في الآرامية 'Yeshū، وسوع في العربية) واللوات والله. وقتل، حسب وجهة النظر المقبولة، مع الكتابات الهيبانية والثمودية امتداداً الى الشمال، لغة العربية الجنوبية. انظر: F. V. Winnett, *A study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto, 1937), pp. 53-4; René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907), pp. 66-7, 151.

لآل جفنة فيبدو انها كانت في البدء مخيماً متنقلاً ثم استقرت بعد ذلك في الجابية^١ في منطقة الجولان كما كانت ايضاً بعض الزمن في جلق^٢ في جنوب حوران .

المنذر

خلف الحارث ابنه المنذر (حوالي ٥٦٩ - ٥٨١ Alamoundaros) في نحو نفس الوقت الذي ولد فيه النبي محمد . وسار الابن على خطى ابيه فدعم قضية المونوفيزية وحارب اللخمين اتباع فارس . ولكن حماسه للمذهب الذي تعتبره بيزنطة غير متفق مع الديانة الرسمية باعدت بينه وبين يوستين الذي بلغ منه ان ارتاب بولائه السياسي . ولذلك كتب الامبراطور رسالة الى حاكمه في سورية بأمره فيها بالتخلص من المنذر ولكن الكاتب اخطأ فوجهها الى المنذر نفسه عوضاً عن الرسالة التي يجب ان توجه اليه والتي يطلب فيها الامبراطور منه ان يتفضل بزيارة الحاكم للتشاور معه . وبعد فترة من الجفاء تمت تسوية الامور وقام الزعيم الغساني مع ولديه بزيارة القسطنطينية (٥٨٠) واستقبل بمحفاوة من قبل الامبراطور الجديد طيبيريوس الثاني . وبلغ من الامبراطور ان استبدل الرمز الذي يضعه المنذر على رأسه بالتاج . واحرق المنذر في السنة ذاتها الحيرة عاصمة اللخمين^٣ . وبعد سنتين حين كان يحضر حفلة تدشين كنيسة في حوارين استجابة لدعوة تلقاها من حاكم سورية قبض عليه وارسل مع زوجته وثلاثة من اولاده الى القسطنطينية ومنها الى صقلية . وقطعت المساعدة السنوية عن آل جفنة منذ ذلك الحين وانتهت جميع العلاقات الودية .

الفوضى

وجهت عدة غزوات بقيادة النعمان، الابن الاكبر للمنذر، من البادية على سورية الرومانية . و'خدع النعمان نفسه اخيراً (حوالي ٥٨٤) كما 'خدع ابوه من قبله

(١) انظر : 3-332 . Dussaud, *Topographie* . لا يزال الباب الفري لدمشق يعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

(٢) لعلمها الكسوة على بعد ١٠ اميال جنوبي دمشق . انظر : Dussaud, *Topographie* , pp. 317-18 ; Leone Caetani, *Annali dell'Islām*, vol. iii (Milan, 1910), p. 928.

(٣) قارن مع الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، نشره ٠ - 1879- M.J. de Goeje vol. i (Leyden, 1879-) ، جزء ٢ (بولاق ١٢٨٥) ص ٢٧ .

ونقل الى القسطنطينية . وبهذا تمزقت رابطة الفساسنة القومية . وتجزأت المملكة الى اقسام متعددة يرئس كلاً منها امير كبير او صغير من سكلتها . وقد تحالف بعض الامراء مع دولة الفرس وحافظ البعض الآخر على استقلاله بينما بقي البعض الآخر بجانب بيزنطة . وعند هذا الحد يفقد الاخباريون اليونان كل اهتمام في الموضوع وتبقى التواريخ العربية مشوشة . وبقيت الفوضى سائدة حتى فتحت الدولة الفارسية سورية في ٦١١ - ٦١٤ .

ويحتمل ان يكون هرقل قد اعاد السلالة القديمة حين طرد الفرس من البلاد بعد اربع عشرة سنة . وقد جاء انه في حروب الفتح الاسلامي كانت قبائل دولة الفساسنة السابقة تحارب بجانب بيزنطة . وحارب آخر امراء الفساسنة ، جبلة ابن الاعم ، في عام ٦٣٦ ضد الفاتحين المسلمين في معركة اليرموك الحاسمة ولكنه اعتنق الاسلام فيما بعد . ويروى انه اثناء حجه الاول وطأ بدوي عباءته فصغعه على ازاره فحله جبلة ، فشكاه الى الخليفة فحكم الخليفة بان على الامير اما ان يقيد البدوي او يرضيه ، فما كان من جبلة الا ان ترك الدين الجديد وانسحب الى بيزنطة^٢ .

اهية بلاط الفساسنة

لقد خلدت فخامة بلاط آل جفنة في دواوين عدد من شعراء الجاهلية الذين وجدوا في امرائه حماة اسخياء . وكان احد هؤلاء الشعراء النابغة الذبياني المشهور . فبعد ان تحاصم مع اللخمييين نال عطف الفساسنة وثقتهم واعدقوا عليه الكثير من نعمهم . وكان يرد على ذلك بالتغني بمدحهم . ويمجد في احد ابيات الشعر التي يستشهد بها كثيراً اقدمهم في الحرب حيث يقول :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بين فلول من قراع الكتاب^٣

(١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، نشره : M. J. de Goeje, (Leyden, 1866), p. 136; tr. Philip K. Hitti, *Origins of the Islamic State* (New York, 1915), pp. 208-9.

(٢) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة ١٣٠٢) ، جزء ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ ؛ قارن مع ابن تينة ص ٣١٦ .

(٣) انظر ديوان النابغة الذبياني ، نشره : M. Hartwig Derembourg (Paris, 1869), p. 78 ; cf. Charles J. Lyall, *Translations of Ancient Arabian Poetry* (New York, 1930), p. 96.

وقد امضى شاعر المدينة حسان بن ثابت قبل ان يصبح شاعر النبي اياماً سعيدةً في بلاط العساسنة وكان يدعي صلة القرى معهم . وتأخذ لمحة عن حياة الترف التي كان يجيهاها جبلة ابن الاعم من وصف ينسب لحسان بن ثابت في كتاب الاغانى^١ وقد جاء فيه :

لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يفتنن بالرومية بالبرابط وخمس يفتنن غناه اهل الحيرة... وكان يفتد اليه من يفتنه من العرب من مكة وغيرها وكان اذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين واصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب واتى بالسك الصحيح في صحاف الفضة واوقد له العود المندى ان كان شاتياً وان كان صائفاً بطن بالثلج وأتى هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراء الفلك وما أشبهه ولا والله ما جلست معه يوماً قط الا خلج علي ثيابه التي عليه في ذلك اليوم^٢.

ويقال عندما اعتنق جبلة الاسلام ودخل مع حاشيته بموكب حافل الى المدينة كان يضع على رأسه تاج اجداده تزينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قرطين لام الحارث ابن جبلة^٣. وقد اصبح يضرب المثل في الادب العربي بهاتين اللؤلؤتين اللتين يبلغ حجم الواحدة منهما بيضة الحمامة^٤.

ان مثل هذه الاخبار بالرغم مما فيها من مبالغة تدل على حالة اقتصادية مزدهرة. ولا بد ان العساسنة اتقنوا الفنون الضرورية للاستفادة التامة من مياه الامطار واستثمار الينابيع الجوفية وهي فنون اكتسبها السوريون في العصر الروماني واضاعوها بعد ذلك . وتشهد على هذا بقايا ما يقرب من ثلاثمائة مدينة وقرية على المنحدرات الشرقية والجنوبية لحوران^٥. ومهما يكن فان ما يفوق ذلك اهمية هو

(١) انظر الاغانى ، جزء ١٦ ، ص ١٥ . مع ان الوصف مشكوك بصحته الا انه بدون شك مبني على قصائد الشاعر . قارن مع ديوانه الذي نشره : Hartwig Hirschfeld (Leyden, 1910), pp. 16-17, 45, 55 ;

المقد الفريد ، جزء ١ ، ص ١٤٢ .

(٢) قارن مع : Reynold A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, 2nd ed. (Cambridge, 1930), p. 53.

(٣) وتدعى في الاغانى ، جزء ١٤ ، ص ٤ « مارية » التي يمكن ان تكون بتأثير الآرامية لقباً يقابل سيدة اكثر منها اسم علم وربما يكون اسم هذه السيدة ملوية كما في الاغانى جزء ١٦ ، ص ١٠٣

(٤) انظر الميداني ، بجمع الامثال (القاهرة ١٣١٠) جزء ١ ، ص ١٥٦

(٥) انظر ما سبق في اواخر ص ٤٥ .

ان الفساسة قد نقلوا كأسلافهم الانباط بعض عناصر اساسية في الحضارة السورية الى اقربائهم الاصليين في الجزيرة العربية وخاصة الحجاز مهد الاسلام في المستقبل. وقد اعطى الانباط تلك الحروف التي جعلت كتابة لغة القرآن ممكنة^١. وقبل ان يزول الفساسة نقلوا بعض الافكار المسيحية التي كان لها تأثيرها مع بعض افكار اخرى على الاسلام. وهكذا زودت الحضارة السورية الاسلام ببعض العناصر المبدعة كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل. وبلاضافة الى ذلك فان هذه الدول السورية الواقعة على الحدود وذات الاصل العربي وآخرها دولة الفساسة قد مهدت الطريق نوعاً ما لفتح العرب لسورية في المستقبل تحت راية الاسلام. وكانت هذه الدول بمثابة مقدمة للاحداث الضخمة التي حصلت بعد قليل.

(١) راجع ما جاء بشأن الانباط في ص ٤٢٧.

تاريخ سنونفينا
ولبنان وفلسطين

طبعة ١٩٨٣